ساحر الكتب

سقوط الصمت

رواية

عمار علي حسن

الرواية التي تنبأت بسقوط الإخوان

الدار المصرية اللبنانية

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

سقوط الصمت

رواية

عمار علي حسن

الدار المصرية اللبنانية

حسن، عمار علي.
سقوط الصمت: رواية / عمار علي حسن .- ط3.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2013.
664 ص؛ 20 سم.
تدمك: 3 – 830 – 427 – 977 – 978
1– القصص العربية.
أ– العنوان 813
رقم الإيداع: 11326 /2013

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + – ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: جمادى الآخر 1434 هـ – مايو 2013م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

إهــداء

إلى الفتى النحيل، الذي كان الجوع يأكله حين مد رأسه أمام صدري؛ ليأخذ رصاصتي عني، فنجا سابحا في دمه إلى شاطئ الراحة والخلود، وتركني أموت كل لحظة من فرط الدهشة والوحشة واللهفة، وأنا ألملم بعض أحلامه وآلامه المنثورة فوق رؤوس ملايين المحتشدين بالميدان الفسيح، وأرشقها على الورق، محاولًا أن أرسم بعض معالم الطريق الذي سلكه بخطىً ثابتة، وهو يوزع المسرات بيمناه، ويهش الأوجاع بيسراه.

1

قُتل الليلة حسن عبد الرافع...

فرقع رصاص غادر، ومرق دون أن يراه أحد فاستقر في رأسه وصدره، كما أراد مَنْ أطلقوه. هرولت أقدام هاربة ثم شحطت سيارة، وذابت في بطن الليل المثقوب بأنوار شحيحة، وتركت خلفها هلعًا ووجعًا وصمتًا مريبًا.

هرع الناس من الشوارع والحارات والفجاج الجانبية لاهثين فوجدوه صريعًا. انتهى ألقه وصخبه، وسكنت أحلامه التي لم تهدأ أبدًا، وارتاح من عيون أمثال المخبر شعبان النمر التي تابعته في كل مكان بلا هوادة، ومن أصابع البلطجي سباعي الدغل الخشنة، ومن أسئلة حامد عبد الظاهر الذي يدور بكراسته في ميدان التحرير ليلملم مادة وفيرة لأطروحته الجامعية عما جرى. اختفى جسده من الوجود وبقيت ملامحه مرشوقة على الجدران يحميها رسامو الجرافيتي من أيادي بعض أصحاب اللِّحى الذين أرادوا أن يطمسوا صورته وسيرته.

حتى وهو مُسربل بدمه، لم يسترح من ألسنة كارهيه. أولئك الذين سطوا على الثمرة التي ربَّاها هو وزملاؤه سنين حتى نضجت، ثم هجوه بأبشع الألفاظ. ففي ثوانٍ معدودات من معرفة الخبر كتبوا على صفحات التواصل الاجتماعي بقلوب باردة كاذبة:

«مات العلماني الزنديق الكافر، وسيدفن معه عاره، ويحترقان سويًّا في حفرة لا قرار لها من جهنم، وهذه هي نهاية كل مَنْ يتطاول علينا نحن رافعي راية الإسلام وحراس الشريعة، وهي بداية طريق التوبة لكل من أنكر أن هذه الثورة هي آية الله التي قدمها لنا نحن أصحاب الأيدي المتوضئة».

وأشاعوا في ميدان التحرير أنه كان عميلًا لأجهزة الأمن، وأنه طالما جلس إلى الجنرالات عارضًا عليهم خدماته، وكان دائم التسلل إلى السفارات الغربية ليفشي لهم كل ما وصل إليه من أسرار ويستعديهم على الذين يحملون فوق ظهورهم عبء إعادة الشرق إلى مجده القديم.

قلبوا الحقائق تمامًا، معتمدين على أن ذاكرة الناس ليس بوسعها أن تحتفظ بكل ما يجري، مع تلاحق الأحداث والوقائع وتناقضها وغموضها، وكذلك مع تراكم الحقد، وتزايد الأهواء، وتضارب مصالح النازلين حديثا إلى الحلبة التي اتسعت حتى شملت الوطن بأسره.

لم تعنهم أبدًا تفاصيل موته، ولم يفتشوا عن حاله قبيل الرحيل الأبدي، ولم يسألوا أحدًا عما جرى، وانشغلوا فقط بالمساحة التي تعبدت أمام أقدامهم برحيل مَنْ كان يناوشهم بلا تهيب ولا حساب. أما مَنْ عاينوه ولملموا بعض قطرات دمه على أكفهم، فهم من التفوا حوله ورأوه وهو غائب تمامًا عن كل شيء، وكل أحد. مجرد قطعة لحم ينتظرها الدود، ملقاة على قارعة الطريق في وجه عابرين ملفوفين في غبش الفجر.

كانت عيناه مفتوحتين على فراغ لا نهائي. شفتاه مزمومتان، وكأنه أراد ألا يفقد صرامته وعزمه الذي لم يَلِنْ حتى وهو يودع الدنيا. أما رأسه فكان مستريحًا على كتفه، وجبينه يكاد يضيء العتمة الراقدة تحت الجدار. ولم تكن ممرضة الميدان حنان المنشاوي متواجدة هنا لتسعفه؛ فقد ماتت قبله، وإن كانت لا تزال تأكل وتشرب وتتنفس، وتتابع ما يجري بقلب مفطور.

كل شيء كان عاديًّا. كما يموت الناس مات. غير العادي هي بركة الدم التي لمعت في نور ذابل لقناديل خافتة مغروسة على جانب الشارع، ويده القابضة على ورقة صغيرة، شربت من عرقه حتى ارتوت، وهاتفه الذي راح يرن في جيب قميصه بإلحاح شديد، ويفرغ صخبه في آذان الواقفين على الجثة الهامدة، ثم لم يلبث أن خرس، ودق صوت رسالة، تلقاها من الدنيا وهو في الآخرة.

راح المتحلقون حوله يمصمصون شفاههم في أسى، وهم يحملقون في وجهه الساكن، وذقنه النابت، وشعره المتهدل على جبينه في فوضى عارمة. أحدهم، واسمه خالد السبع، مد يده إلى جيوب بنطال وقميص القتيل بحثًا عن أي شيء يدل على هويته. فتَّش فلم يجد ما يريد.

قال رجل وهو يُغمض عينيه من هول المنظر:

- هات الموبايل.

همّ خالد ليضغط على أزرار الهاتف حتى يصل إلى قائمة الأسماء، لكن بصره اصطدم بشاشة مرشوقة بحروف تعلن عن ثلاث مكالمات مفقودة، ورسالة لم تفتح، مصدرهما واحد: صفاء عليوة.

ضغط ليقرأ الرسالة، فوجدها رسالة صوتية، تطالبه بأن يتصل برقم مكتوب حتى يسمعها، واصل طريقه ليقف على مضمونها، فلسع أذنه صوت فتاة تصرخ: «اهرب يا حسن. الأوغاد وصلوا إلينا. حاول أن ترجع إلى الصعيد. أنا سألحق بك.. بسرعة يا حسن من فضلك، بسرعة». ثم صمتت وانقطع الرجاء.

قال أحد الواقفين:

- نتصل بأي رقم هنا، ونسأل صاحبه عن القتيل.

راح خالد يكرر طلب رقم صفاء دون مجيب سوى صوت أنثوي ناعم يقول: «الهاتف الذي تحاول الاتصال به مغلق، أو خارج نطاق الخدمة حاليا. من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق». حاول مع أرقام أخرى، لكن الإجابة لم تختلف عن سابقاتها.

قال شاب وهو يذهب بعينيه بعيدًا عن الجثة:

- في يده ورقة، شوفها، يمكن أن تدلك على شيء.

وشق شاب طريقه إلى الجثة الملقاة على الرصيف، ثم صرخ فجأة فازداد الناس فزعًا:

- حسن.. حسن عبد الرافع.

- أتعرفه؟

- مصر كلها تعرفه...هكذا أتصور.

- مصر كلها!!

- حسن من شباب ثورة يناير.

وحلت كآبة على وجه خالد، لم يلحظها أحد وسط لغط ارتفع وانتهك السكون الذي فرش رداءه الناعم على الشرفات والنوافذ المطلة على ميدان «باب الشعرية». قال أحدهم وهو يغرس إصبعه في جانب رأسه: «الآن تذكرته، رأيته في التلفزيون، لكن الموت يغير الملامح كثيرًا». وتدخل آخر: «رأيته في ميدان التحرير أيام الثورة. كان مرفوعًا فوق الهامات، يهتف بصوت يرج الأرض والقلوب». وقال ثالث: «طالما رأيته في أحلامي وهو يطير فاردًا ذراعيه ويبتسم. كنت أصحو من نومي كل صباح وأبحث عنه في الوجوه التي أقابلها».

سيدة كانت تقف على الطرف الأيمن لكومة الرجال، نظرت في وجوههم وقالت ساخرة: «الآن تجتمعون حوله، ويهمكم أمره. لم ينقذه أحد منكم وهو حائر لا يجد ملاذًا من مطارديه».

فسألها رجل ذو صوت أجش:

- هل رأيتِ مَنْ طاردوه؟

- لمحتُ ستة أشباح، خطفت روحه، وذابت كأنها لم تكن.

فهز أحدهم رأسه وقال:

- لا يمنع حذر من قدر.

فأشاحت المرأة بيدها وتحركت قليلًا إلى الخلف وهي تقول:

- حين تعجزون، تلجأون إلى الحِكَم والأمثال والحواديت.

وهنا صرخ مَنْ تعرَّف عليه:

- كان يهب نفسه للشهادة في كل وقت. رأيته في الصف الأمامي في لحظة انطلاق الغضب الكبير، ويوم انهزم جهاز الأمن المتغطرس بعد صلاة الجمعة وقبيل الغروب. في موقعة الجمل، رأيته يطير من فوق متراس بجانب المتحف المصري، ويُسقط بلطجيًّا من على حصانه. ورأيته وهو يطارد واحدًا خسيسًا من الذين دفعتهم الأجهزة الأمنية ليتحرشوا بالبنات في الميدان حتى يسيئوا إلى سمعته. قاوم ببسالة، ولم يستشهد. وقدره أن يُقتل الآن قبل أن يرى حلمه متجسدًا أمامه، ومحفورًا في وجوه كل الناس الذين عاش من أجلهم.

وانبرى رجل طاعن في السن متسائلًا:

- أيعرف أحدكم بيته؟

فأجاب شاب قصير القامة، وهو يرفع رأسه ليرى الجثة الغارقة في الدم:

- أعرف أنه من عين شمس.

- بل من المنيب.

- هو أصلًا من المنصورة.

- لا لا... من قنا.

فقال الشاب الذي تعرَّف عليه وهو يمصمص شفتيه سابحًا في شرود وألم:

- حسن من كل مكان في مصر.

ثم انخرط في بكاء حار أوجع قلوب الواقفين، فدمعت عيونهم، وتاه بعضهم في الظلمة الرائقة المنسكبة من عمق الفضاء؛ لتملأ فوهات الشوارع والحارات.

***

حين انكشفت هوية القتيل انفتح باب الأسئلة. ضرب الواقفون أخماسًا في أسداس. ثرثروا بما وسعهم أن يلقوه في الآذان المرهفة، ثم عادوا إلى نقطة الصفر. وصلوا إلى السؤال الذي تتناثر إجابته في الجهات الأربع: مَنْ قتل حسن عبد الرافع؟ مَنْ؟ مَنْ؟

بعضهم أشار باطمئنان إلى فلول الحزب الحاكم الذي دهسه الغاضبون تحت أقدامهم. هناك من قال: حسن كان ينتقد بشدة التيار الديني المتطرف، ويرى في أتباعه عقبة على طريق المستقبل، وطالما وصفهم بأنهم لصوص الثورة.

أحدهم قهقه وهو يضرب كفًّا بكف وقال: ما جرى في عنق الجنرالات، وليس غيرهم أبدًا، ولا يحاول أي منكم أن يقنعني بغير ذلك. طوَّح آخر يده في الفراغ، وقال باشمئزاز: ربما هو ضحية الصراعات الصغيرة التي نشبت بين شباب ثاروا ثم تجاذبتهم أهواء، وسقطوا في فخ مطامع شخصية، نفَّرت بعض الناس منهم. لكزه مَنْ يقف إلى يساره وقال: المؤامرة أكبر من كل هذا، وتشارك فيها دول وأجهزة مخابرات وتُرصد لها أموال ورجال فوق ما تتصورون.

وقال رجل في الطرف الأيسر من المحتشدين:

- كُتبت شهادة وفاة حسن عبد الرافع لأنه عرف أكثر مما يلزم، دخل عش الدبابير راضيًا.. في الحقيقة لم يكن عش دبابير إنما جحر تسكنه حيات رُقْطٌ، أنيابها كالمناشير وذيولها كأذرع الأخطبوط.

وسخرت المرأة، التي لمحت أشباح الجناة وهم يهربون، منهم جميعًا مرة أخرى وقالت: «حسن كان يهاجم الفاسدين الراقدين على أكوام من المال الحرام، ولابد أنهم تخلصوا منه ليستريحوا».

جمعوا أوراق جرائد، وألقت إليهم المرأة التي تجلدهم بلسانها ملاءة قديمة، رموها على الجثة، فاستترت. هاتفوا الإسعاف ولم تأتِ. أبلغوا الشرطة لكن تأخر قدومها. همهموا طويلًا، ثم حل صمت ووجل، فراحوا ينسلون تباعًا منسحبين

في هدوء، والحيرة تأكل رؤوسهم.

خالد السبع بقي واقفًا مكانه يطيل النظر في الورقة المبللة، متآكلة الأطراف، المرتوية بعرق القتيل، حين كان جلده يفرز عرقًا، وبقع من دمائه، التي تجلطت وماتت هي الأخرى فوق تراب الشارع، وصارت وحلًا.

لم يجد خالد بالورقة سوى بضع كلمات. الأولى هي «الزنباع» وسأل نفسه: هل هذا اسم غريب لشخص؟ أم اسم كائن غير معروف؟ أم شعار؟ أم كلمة سر؟ لم يدرِ، ولم تفارقه حيرته ويزُل عنه عجزه. ما اتضح أمامه هو عنوان يقول: السمطا/ قنا، ثم رقم هاتف ناقص، يبدو أن القتلة لم يمهلوا «حسن» حتى يكمله، وهو ما يستدل عليه من انحراف السطور، واهتزاز الحروف، والخط الباهت الخافت، الذي ينام على الورقة في خجل وهلع، ولا يشي إلا بالقليل.

لم يكن أمامه من طريق سوى أن يجرب كل الاحتمالات. الرقم الأخير لا يخرج عن عشرة أرقام، من صفر إلى تسعة.

جرب الصفر، فرد صوت خافت كأنه قادم من العالم الآخر:

- ألوو.. ألوو.

- الأخ زنباع؟

- زنباع إيه يا قليل الأدب.

ثم جرب الواحد، فجاء صوت أنثوي ناعم، فداس على زر انتهاء المكالمة، وابتسم. عند الرقم سبعة، رد صوت زاعق:

- ألووووووو.

- ممكن أكلم الأخ زنباع؟

- زنباع سافر.

- سافر؟

- يومان ويرجع.

يومان. لا بأس. هكذا قال خالد لنفسه وهو يضغط على أسنانه، مستعدًا لمغامرة لم يألفها من قبل، تدفعه إليها قوة خفية لا يريد أن يعرفها أبدًا.

2

راح ميدان التحرير ينحسر في عيون الناس، حتى صار بقعة للأسى، بعد أن ظل شهورًا طويلة قبلة للحرية. هكذا جرى له بعد أن اختطفه أصحاب اللحى وهتفوا فيه: «عاش السلطان»، وطالبوا بالبيعة له. وهكذا أراد له جنرالات ساذجون، جلسوا ساعات من نهار حول طاولة فخمة عريضة في مكان بارد، ينزعون عن الميدان رداءه قطعة قطعة، حتى وقف عاريًا بين الأبنية الرائعة، التي يسكنها التاريخ.

رغم كل هذا يبقى هو ساحة الحرية، وتبقى معالمه الأثيرة المستقرة في الأذهان والوجدان تطالعها العيون دومًا وتستعيد كل ما جرى. هنا مسجد «عمر مكرم» المكان الذي تخرج منه جنازات علية القوم، ثم يجلسون ليلًا يتلقون العزاء وعيونهم تتابع السيارات الفارهة التي تصطف على الجانبين. وهنا مبنى وزارة الخارجية، الذي كان قصر الأميرة نعمة الله وأهدته لمدرسة الدبلوماسية المصرية، وها هو مبنى «جامعة الدول العربية» الذي طالما احتضن بين جدرانه الكالحة ضجيجًا بلا طحن. ويوجد مجمع التحرير الذي أهداه ضباط يوليو إلى مصر ليصير رمزًا لبيروقراطيتها الضاربة في أعماق الدنيا.

هذه الأعماق التي يشهد عليها «المتحف المصري» بعلامات من الحضارة العظيمة التي سادت ثم بادت، وتشهد عليها أيضًا تلك الجينات المطمورة التي استيقظت فجأة بين الدم والنار والصراخ ودفعت مجموعات من الشباب لعمل سياج حماية لهذا المتحف العريق وقت أن سقط جهاز الشرطة تمامًا، وحتى يمنعوا عنه ألسنة اللهب التي تصاعدت من مبنى الحزب الوطني الحاكم، بعد أن أضرم المتظاهرون النيران فيه، وجلسوا يشفطون علب المياه الغازية التي كانت مكدسة داخله. بعضهم اختطف زجاجات «الويسكي» و«الشامبانيا» و«الفودكا» دون أن يدري ماذا يفعل بها. آخرون اكتفوا بقطع الشيكولاتة الفاخرة، أو علب «المكسرات» التي لم يذقها بعض المحتشدين حول المبنى المحترق ولو مرة واحدة في حياتهم.

هذا المشهد الذي أعاد إلى حسن عبد الرافع الهتاف الذي طالما سمع عنه وقرأه وخرج من رحم انتفاضة الخبز التي هزت عرش الفرعون في 18 و19 يناير 1977:

«يشربوا ويسكي وياكلوا فراخ... واحنا الفول دوَّخنا وداخ».

هاهي الأبنية العريقة تتجاور على يمين الميدان، مطاعم ومقاهٍ ومكاتب سياحة، وبائع الجرائد الأشهر في العاصمة كلها. وتنزلق الشوارع الجانبية كأوردة نابتة لتنتهي في ميادين باب اللوق ولاظوغلي وطلعت حرب وعبد المنعم رياض. ومن الميدان أيضًا ينبت كوبري قصر النيل، الذي ينتهي عند دار الأوبرا وما حولها من مبانٍ لم تكن سوى الحظيرة التي جمع الحكم الآيل

للسقوط فيها كثيرًا من أهل الرأي والفكر؛ ليجعلوا مما يكتبون مجرد قلائد للزينة وضعها العجوز على عنقه كي تواري بعض قبحه الطافح، وتبعد العيون عن التجاعيد التي غزت وجهه، والترهل الذي يسكن عنقه العريض، وتنطلي عليها الصبغات الزاعقة التي يريد بها واهمًا أن يوقف عجلة الزمن عن الدوران السريع.

في هذه المساحة كانت مصر تأتي بين حينٍ وآخر لتعبر عن غضبها. انتفاضات متتالية في 1935 و1946 و1977، واعتصامات حول «الكعكة الحجرية» طالبت بالحرب من أجل استعادة سيناء السليبة.

يأتي الناس ثم يمضون سريعًا مخلفين وراءهم بعض حكايات تروى، وأشياء كثيرة يطويها النسيان، أو تأكلها التفاصيل الصغيرة والتافهة لحياتهم المترعة بالشقاء.

قد تراهم بعد شهور قليلة فتعتقد وكأن الأرض لم تهتز من تحت أقدامهم، وكأن الدنيا لم تقف لهم وتحييهم. لماذا يظل زامر الحي عاجزًا عن الإطراب؟ لماذا يبخس بعض الناس حق أنفسهم وينسون أو يتناسون أنهم قد صنعوا المعجزات؟ ولماذا يتركون الشوارع تضيق مرة ثانية بعد أن كانت قد فتحت لهم أذرعها وزحزحت مبانيها التي اصطفت على الجانبين كي تمنح أقدامهم طريقًا إلى الخلاص؟

هكذا راحت الأسئلة تنطلق كالسهام في رأس حسن عبد الرافع وهو جالس على مقهى «وادي النيل»، يجيل بصره في الميدان، ويقول في نفسه: كنا ذات يوم هنا. كانت شمس أول يوم في فصل الشتاء بنت أيام الصيف. حتى المناخ تغير ولم يعد على حاله، وتغيرت معه النفوس. شعاعها المبهر كان مُسلطًا على أسطح السيارات التي تدور ثم تمرق نحو الشمال غير عابئة بشيء. هنا على يسارها كانت لوحة رسمها الثوار في أيامهم الأولى على جدار قصير كتبوا عليها «ميدان الشهداء». جاء مَنْ طمسها ومحاها شهورًا، لكنهم أعادوها حين خرجوا مرة أخرى، ثم طُمست من جديد، وظهرت على حوائط البيوت المطلة على الميدان شعارات تقول: «يسقط حكم العسكر» بجانبها رسوم فاقعة السواد لامرأة ترسف في أغلالها، إنها مصر التي فكت قيودها، وما إن رفرفت براحتيها في الهواء حتى أخذوا معصميها إلى قيد جديد؛ ليظهر بعد رحيل حسن بشهور شعار آخر يقول: «يسقط حكم المرشد». عسكر ومرشد، فتوة يسلمنا لفتوة، والعدل غائب أو مُغيَّب.

هاهو واحد من الذين جعلوا هذا المكان يموج بناس يرفعون قبضاتهم ويدقون الهواء فيسمعهم العالم بأسره؛ يجلس محملقًا في الفراغ، ينفث دخانًا يصنع موجات تافهة تجري نحو منتصف الميدان، ثم تموت عند «الكعكة الحجرية». هاهو قد استبدل الجلوس بالوقوف، وبالمنصة العريضة كرسيًّا خشبيًّا ضيقًا كسولًا، ربما بقي مكانه هنا عشرات السنين يئنُّ تحت مؤخرات وراء مؤخرات، دون أن يضجر.

***

كان كلما خطفت عقله اللحظات الاستثنائية جاء هنا إلى الميدان ليستعيدها، يدور في جنباته ثم يمشي نحو منتصفه حيث الخيام التي وقفت ذات يوم في وجه العاصفة وحمت أجسادًا غاضبة من الصقيع، ثم تهاوت تحت ضربات السهام المسمومة التي أطلقتها آلة الدعاية الجهنمية، والتي حوَّلت مَنْ كان يُقال لهم ثوار، وشباب طاهر، ويُنعت قتلاهم بالشهداء، إلى خونة وبلطجية.

كم يثير الضحك والغثيان أن يسمَّى الخارجون على القانون الذين يؤجرونهم للتصدي للثوار بالمواطنين الشرفاء بينما يسمى مَنْ أطلقوا النهار في قلب الليل بالطائشين الحمقى والمرتزقة؟ انقلب الحق باطلًا والباطل حقًّا، وتبعثرت أوراق كثيرة، وجاء من الخلف مَنْ يستولي على كل ما لأصحاب المقدمة القابضين على جراحهم وجمرهم، والذين خرجوا ذات ضحى وأعناقهم على أكفهم، ينشدون الخلاص.

يستعيد حسن كل هذا وهو جالس يراقب الوقت الذي يمر على مهل والناس الذين يقطعون الميدان ذهابًا وإيابًا دون أن يتوقف أحدهم ليتأمل شيئًا، ثم يتذكر ما قاله لرفاقه حين احتدم الجدل بينهم:

- نحن نرمي النخلة العالية القديمة بالأحجار فتتساقط على رؤوسنا، فننشغل بجراحنا عن الثمار التي تناثرت تحت أقدامنا فيأتي من يجلسون في الخلف ويجمعونها ويتركوننا جوعى نتعثر في دمنا المسفوح.

وأعاد على مسامعهم هذا الكلام غير مرةٍ وهم يتابعون نتائج الانتخابات، فقالوا له:

- خاننا الشعب.

فصرخ فيهم:

- الشعب لا يخون، شوهونا فانطلى عليه الأمر، ولا نعفي أنفسنا من المسؤولية.

فقالوا له غاضبين:

- لم يكن لدينا مال، وعودنا لا يزال غضًّا.

فابتسم وقال:

- ليس هذا فحسب، بل نحن متشرذمون، تبعثرنا كالطلع في وجه الريح. الناس صوتت بالتساوي، لكن كل واحد منا نافس رفيقه، بينما كانوا هم قد رتَّبوا كل شيء.

فضحك أحدهم وقال:

- ألم أقل لكم إنهم يستيقظون فجرًا ويجهزون كل شيء، وحين يهجرنا نحن النوم عند العصر نجد الأمر بأيديهم فلا نملك إلا الصراخ.

هزَّ حسن رأسه وقال:

- هذه جولة أو حلقة في سلسلة طويلة وليست نهاية المطاف. ما جرى أشبه بمرض الحصبة، إن لم يُصبك في الصغر سيأتيك في الكبر، لا بد أن تعاني منه يومًا، ثم يذهب إلى غير رجعة. إنه شَربة الخروع التي لا بد أن نتجرَّعها حتى تتطهر بطوننا مما علق بها من أدران.

وهنا قهقه آخر وقال:

- أخشى أن تكون حصبة ألماني، أو يكون ماء الورد وليس شربة الخروع.

مدَّ حسن يده إلى جيبه ليطمئن إلى وجود «الفلاشة» التي تحوي كل شيء، وأسماها «خيوط المؤامرة»، ثم زفر في أسى محدثًا نفسه:

- كل هذا يا أولاد الأفاعي. ملايين الكلمات وعشرات الآلاف من الصور، تفضح كل شيء، وترفع الأقنعة عن الوجوه القبيحة.

وسمعه رجل طاعن في السن يجلس خلفه، يحتسي الشاي الأسود وينظر إلى المجهول، فقال وهو يبتسم:

- الوجوه القبيحة أطلت من كل اتجاه، وغطَّت الجمال والبراءة.

التفت إليه منزعجًا، ونظر إليه مليًّا، وكاد يصرخ:

- كلَّت أيدينا يا جدي ونحن نحاول أن نهدم الجدار القديم. كلما أسقطنا حجرًا قام مقامه اثنان. إنها مَداميك صلدة بعضها فوق بعض، ونحن بلا أزاميل ولا فؤوس.

ابتسم الرجل مرة أخرى وقال:

- قضيت عمري أحارب ولمَّا رأيتكم تملأون هذا المكان صرخت من أعماقي: أخيرًا لاح النصر، واليوم وأنا أسمع كلامك يسكنني الحزن والانتظار من جديد.

ثم وقف فوقف له حسن. مدَّ يده المعروقة فمدَّ إليه يدًا فتيَّة، فقال العجوز:

- لم يعد لي ما أنتظره من الدنيا، لكني أوصيكم خيرًا بالبلد، حافظوا على الثورة، فهي أفضل وسيلة متاحة أمامنا لبناء الوطن الذي حلمنا به طويلًا.

لم يجد حسن ما يرد به عليه، لكن الرجل أعفاه من الكلام، وواصل:

- أخشى أن تبحثوا غدًا عن وطن يضيع وليس عن ثورة تُسرق في وضح النهار.

نظر في عينيّ حسن كثيرًا، ومضى يتوكأ على عصاه، وترك في نفسه حيرة، وفي حلقه غصة، لكنه عزز داخله عزمًا وأملًا في أن الناس سيكملون مشوارهم مهما كلفهم هذا من عناء.

وكان عليه هو أن يبدأ بنفسه، ويفعل ما يثبت له أنه ماضٍ في طريقه، فاستعاد كلمات العجوز، ثم وضع كفه على جيبه، وحدَّث نفسه:

- لا بد للناس أن يعرفوا كل شيء الآن وليس غدًا.

لكنه لم يعرف إلى أين يذهب بما معه، وشعر أن خيوطًا ناعمة متينة تلتف حول عنقه فامتلأت رئتاه باختناق أكثر من ذلك الذي واجهه أيام قنابل الدخان، فسعل بشدة، ثم أخذ شهيقًا وأعطى زفيرًا متلاحقًا، وخرج نحو الميدان الذي ظللته غمامة حجبت الشمس، وتركت للشتاء بصمة خفيفة على رؤوس العابرين.

3

حين كانت الدعوة للغضب قد أخذت مداها على مواقع التواصل الاجتماعي كان حنفي سليم يجلس بين صفوف متتابعة في مسجد وسيع ينصت إلى شيخه حارس البنهاوي، الذي ينطق الحروف بصوت فخيم، ويعنعن كل ما يقوله، ويحيل كل ما ينطق به إلى كتب قديمة مؤلفوها تقع أسماؤهم في أسماع الجالسين وقع السحر، ثم يأتي بأمثلة وحكايات، تأخذ ألبابهم التي سلموها له، وباتوا كالموتى بين أيدي مغسليهم. وبعد أن يُبحر بهم في دهاليز التاريخ، ينتهي من رحلته الطويلة قائلًا:

- طاعة ولي الأمر واجبة.

وحين سأله رجل كان يجلس في الركن البعيد، ولم يكن من تابعيه:

- حتى لو ظلم؟

ابتسم، ومد يده ليمسد لحيته الشهباء، وقال:

- حاكم غشوم خير من فتنة تدوم.

عاد الرجل يسأل:

- وهل الاحتجاج على الطغيان والفساد من قبيل الفتنة؟

وهنا التفت إليه حنفي سليم وقال غاضبًا:

- لا تجادل.

فمسح الرجل كل من بالمسجد بعينيه، وهزَّ رأسه، وابتسم، ثم قام إلى الجَزَّامة التي تتمدد مستكينة على يساره، التقط حذاءه، ومضى صامتًا.

بعد الدرس أشار الشيخ البنهاوي إلى حنفي قائلًا:

- تعالَ يا بني.

فنهض إليه، ووقف أمامه صامتًا. مدَّ الشيخ يده وأخذ يد حنفي، ونظر في عينيه، وقال:

- إياك وافتعال المشكلات مع الناس.

- أنا دافعت عن الدين.

- نعم، لكن الرجل كان يكلمني أنا، ولست عاجزًا عن الرد عليه.

-عفوًا يا شيخنا، لم أرد عنكم، لكن جدله غاظني.

ربت يده وقال:

- علينا أن نصبر على هؤلاء البسطاء. العلمانيون أفسدوا عقول الناس، وأمامنا شوط طويل حتى نعيدهم إلى صحيح الإسلام.

- هذا أملنا يا شيخنا.

- ولا نملك وسيلة لتحقيقه سوى التحايل والصبر والطاعة.

- طاعة الله واجبة.

- هذه مفروغ منها، لكنني أقصد طاعة مَنْ بوسعهم أن يحرموني من لقائكم كل ليلة هنا عقب صلاة العشاء.

أطرق حنفي صامتًا، وامتلأت عيناه بسؤال حائر. لكن الشيخ لم يدعه للحيرة، وقال له:

- في هذا البلد هناك مَنْ يعدُّون علينا أنفاسنا، ولولا أننا نريحهم ونطاوعهم، وننصت إليهم، وننفذ ما يقولون لنا، لحجبونا في منازلنا عنكم، أو أخذونا مكبلين إلى غياهب السجن.

- مَنْ هم يا شيخنا؟

- أمن الدولة.

سادت لحظة صمت، كان المسجد فيها قد فرغ من المصلين تمامًا إلا من مجموعة شباب تنتظر الشيخ، حتى تصحبه إلى سيارته الفارهة التي تقف أمام باحة الجامع، كما يفعلون كل ليلة.

قام الشيخ، ومشى حنفي على يساره صامتًا، فمد يده ووضعها على كتفه، وقال له:

- رأيتك مخلصًا، فبحت لك بهذا السر؛ لأنني أشعر أنك في الأيام المقبلة، سيكون لك دور كبير في سبيل الدعوة.

- أتمنى أن أكون دومًا عند حسن ظن فضيلتكم يا شيخنا الجليل.

***

خرج الملايين إلى الشوارع عقب صلاة الجمعة، وانسلَّ الشيخ منسحبًا إلى داره. صلَّى، وجلس يقرأ التسابيح، فجاءه صوت زاعق من خارج المسجد:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

قام سريعًا والتقط حذاءه، وخرج من الباب الجانبي وخلفه حنفي وبقية تابعيه. طلب الشيخ من سائقه أن يأتي بالسيارة بعيدًا عن مدخل المسجد، فلما جاءه بها، ركب على الفور، وقال للشباب، قبل أن ينطلق:

- ارجعوا إلى بيوتكم ولا تشاركوا في هذه الفتنة.

عاد حنفي صامتًا، ركب الأتوبيس إلى منطقة فيصل حيث يسكن. قبيل ميدان الجيزة توقفت السيارات تمامًا، وجاء صوت هادر، ثم بان حشد يدق الهواء، وفجأة هرعت عربات الأمن المركزي، ونزل الجنود، وراحوا يطلقون القنابل الخانقة، ويصوبون خراطيم المياه إلى أجساد الغاضبين.

نزل حنفي من الأتوبيس، وهرول إلى موقف «ميكروباصات» ليستقل واحدًا إلى البيت. كان السائقون يقفون خارج مركباتهم الصغيرة، وعيونهم ذاهبة إلى

أسفل الكوبري حيث الدخان والصياح. قال لأحدهم:

- فيصل يا أسطى.

فنظر إليه سريعًا، وقال:

- صعب التحرك الآن مع هذه المظاهرة.

وقف دقائق، لكن بدا له أن السائقين مندمجون في متابعة هذا المشهد الاستثنائي في حياتهم. هو أيضًا لم يَرَ مثله من قبل، لكنه يكاد يغمض عينيه حتى لا يخالف أمر شيخه. ألم يقل له إنها فتنة؟ لا معقب على كلام الشيخ. هو يعرف أكثر. لا بد أن لديه معلومات. نعم لديه ما يجعله مطمئنًا إلى وصف ما يجري بالفتنة. ربما هي مصلحة الإخوة، وهو يقدرها حق قدرها. ربما هو الدليل الشرعي الذي يعرفه هو ويطمئن إليه، ويفهم معانيه ومراميه.

هكذا مضى بجانب السور الأيسر، قطع سريعًا الطريق حتى دخل الجيزة من الخلف، وسار في حواري وشوارع طالما رمى قدميه إليها من سنين وقت أن كان يذهب للمذاكرة مع صديقه شاهر نور الدين. راوده خاطر أن يمر عليه، ثم طرده سريعًا؛ فشاهر الآن ذهب في طريق آخر، ومن الصعب أن يعود منه، وإن قابله فقد يدخل معه في جدل حاد حول أي مسلك سليم؟ وما هي الفرقة الناجية؟ ومَنْ هم أهل الضلال؟

توغَّل في شارع سعد زغلول حتى وصل إلى شارع المحطة، واستقل المترو إلى حي فيصل.

حين وصل إلى شقتهم وجد القلق يأكل أباه وأمه. ما إن فتح الباب حتى انفجر فيه أبوه:

- حضرتك قافل موبايلك.

- نعم.

- لماذا؟

- قفلته قبل الصلاة، ونسيت أن أفتحه.

- افتحه، ستجدني قد طلبتك مائة مرة، وأرسلت لك أربع رسائل بصوتي وصوت أمك.

- معذرة.

كان التلفزيون مفتوحًا على قناة الجزيرة، وأخبار المظاهرات تجري على شريط الأنباء قادمة من أماكن عدة في مصر. وكان صوت حسن عبد الرافع يعلق من دون صورة، ومكتوب تحت اسمه في الجانب الأسفل من الشاشة: «أحد شباب الثورة».

اقترب حنفي، وراح يتابع باهتمام شديد، ثم زفر في ألم وقال:

- الفتنة تكبر.

نظر إليه أبوه مستغربًا، وسأله:

- أي فتنة؟

- ما تراه أمامك.

- هذا فتنة؟

- هكذا قال الشيخ.

- ربنا يشفيك أنت والشيخ.

- أتهزأ من شيخي؟

- بل أهزأ من عقلك الذي عطَّلته عن العمل فلم يعد يميز الخبيث من الطيب.

- أتسمي طاعة شيخي تعطيلًا للعقل، وأنت تعلم أن مَنْ لا شيخ له الشيطان شيخه؟

- مَنْ قال هذا الكلام الفارغ؟

- سمعته من شيخي، وهو ليس كلامًا فارغًا.

- هل ذكره الله في القرآن؟

- لا، لكنه من كلام السلف، وهم أحق مَنْ نتبعه.

- في الحقيقة هو قول مَنْ يدلِّسون على الناس كي يعطوا أنفسهم مكانة، ويفتحوا جيوبهم للمال، ونفوسهم للجاه.

ثم ضرب الأب كفًّا بكف، وقال:

- يا بني، والله أنا لا أهزأ أبدًا، لكنني أريدك أن تعرف وتفهم أن رد الظلم فريضة وليس فتنة.

وكظم حنفي غيظه، بينما تناهى إلى سمعهما هدير الهتاف في شارع فيصل. أنصت الأب قليلًا ثم واصل كلامه:

- سميتك حنفي على اسم شيخ الجامع القديم في قريتنا، الله يرحمه، كان عالمًا عظيمًا، طالما كان يقول لنا: «وزر المظلوم الساكت على الظلم كوزر الظالم».

ثم دخل الأب إلى حجرته سريعًا، ورجع وهو يرتدي ملابس الخروج. تقدَّم خطوات حتى وقف عند الباب، والتفت إلى الأم وقال لها:

- أنا نازل أشارك في المظاهرة، نازل أرفض الظلم؛ لأنه ظلمات يوم القيامة.

صفق الباب وراءه، وترك حنفي دافنًا رأسه في الألوان والخطوط والذبذبات والهمهمات والفرقعات وهزيم الهتافات القادمة من التلفزيون.

وحين جاء صوت حسن عبد الرافع في المساء يؤكد أنها ثورة شعبية، ولن تتوقف مسيرتها حتى إقامة دولة مدنية، قام حنفي من مكانه غاضبًا، بصق على الشاشة، وأغلق التلفزيون، وهو يقول في نفسه:

- أظهر العلمانيون وجههم القبيح.

***

يوم خلْع الطاغية، نزل حنفي إلى الشارع مع والده. لم يَرُقْ له تمايل الأولاد والبنات في أفراح وأهازيج، وود لو كان الأمر بيده وفصل بينهما في كل الدروب. الذكور على اليمين والإناث على اليسار، ولا سبيل للحديث بينهم أبدًا.

وفور عودته إلى البيت رنَّ هاتفه المحمول، وكان طالبه هو شريف ذهني، زميله في درس الشيخ. قال له في سرعة:

- احضر لقاء الشيخ الليلة بعد العشاء.

وذهب يتخبط من الهواجس، حتى وصل إلى المسجد منهكًا. كانت الصلاة قد انتهت، فأخذ مكانه بين الجالسين، بينما كان الشيخ يضحك ويقول:

- يهلك الله الظالمين بالظالمين، ويخرجنا نحن سالمين.

ولما وجد الأسئلة تسكن العيون الناظرة إليه، مسح وجوههم بعينيه، وصمت برهة فأرهفوا آذانهم، وسمعوه جيدًا وهو يقول:

- كان الباغي الطاغي يحول بيننا وبين تطبيق شرع الله، وها قد جاءت فرصتنا. كل الذين يرقصون ويغنون الآن في الشوارع والحارات سيعودون إلى بيوتهم متعبين في آخر الليل، سيرجعون فرادى متشرذمين، ليس بوسع أحدهم أن يتذكر من كان إلى جانبه وهو يحتفل ويتمايل في فجور كالبغي... هنا جاء دورنا نحن لننزل إلى الشوارع، ونطلب ما نريد.

ورفع شريف يده، فأذن له الشيخ بالكلام، فسأله:

- ما المطلوب منا تحديدًا يا شيخنا؟

ابتسم ابتسامة عريضة بلغت بها شفتاه أذنيه، وقال:

- غدًا بعد صلاة الظهر سنتجمع هنا ونخرج إلى الشارع بالآلاف هاتفين: «الشعب يريد تطبيق شرع الله». فهلَّلوا وكبَّروا حتى كاد صوتهم يهز مئذنة المسجد التي تعانق جوف الفضاء.

وبعد أيام انتشروا في الشوارع يروعون الناس، ويستلُّون من أغماد التاريخ البعيد سيوفًا صدئة ويهددون كل مَنْ وما حولهم، ثم يقولون في ثقة متناهية:

- هذا منكر لا بد أن ننهى عنه، والحق معنا بشرع حنيف، ودستور مكين.

وفي نظرهم كان أمثال حسن عبد الرافع ممن يفعلون المنكر ولا بد أن يأمروهم بالمعروف، وليس أمامهم من سبيل سوى الامتثال.

4

أكوام اللحم التي انتقلت فجأة من تحت الكباري وجنب الجدران الصلدة الكالحة إلى ميدان التحرير تحولت مع الأيام إلى عبء يثقل كاهل حسن عبد الرافع ورفاقه. صبية ضائعون لفظتهم قلوب قاسية إلى الشوارع الباردة المملوءة بالحفر والأوجاع. حفاة أو يرتدون أحذية بالية، شعورهم متهدلة وعليها أكوام من التراب والقش وبقايا الطعام الرخيص. جلودهم مقددة تَمُور وراء أوساخ يثبتها الصقيع، ثم يصهرها حر الصيف القائظ، فتنزل من رؤوسهم على وجوههم فيزدادون قتامة.

هؤلاء وجدوا في كل ما يجري ملاذًا، فتمنوا أن تكون كل الأيام ثورة. هنا يجدون أمامهم مَنْ كانوا لا يحلمون أبدًا بأن يسيروا إلى جوارهم في يوم من الأيام. أصحاب الملابس النظيفة والجلود المغسولة اللامعة التي تبرق في الشمس. كُتَّاب وفنانون وسياسيون وأطباء ومهندسون ومدرسون يرونهم هكذا، ويمكنهم أن يصافحوهم أو يلتصقوا بهم في الزحام دون أن يتأففوا أو يضجروا.

يسيرون في الميدان كأنهم كائنات برية جاءت للتو من معارك قنص ضارية، يرفعون وجوههم الممروضة في وجه الناس، ولا يعبأون بشيء ولا بأحد. أولاد وبنات شبُّوا عن الطوق قبل أيام أو أسابيع، يفعلون كل شيء بلا خجل ولا خوف. وكيف يخافون من كل هؤلاء وهم يصرخون أمامهم «عيش»؟ حتى الشرطة لم تعد تهز في رؤوسهم شعرة واحدة. رأوا جبروتها تدوسه الأقدام يوم الزحف الكبير، بل إنهم قبل ذلك طالما عانوا من ضرب ضباط الشرطة وركلاتهم وسحلهم مرات ومرات حتى امتلكوا حصانة حيال كل صنوف التعذيب والإهانة. كانوا يقابلون كل شيء باستهانة.

كان الضباط يسحبونهم من الشوارع، ويجرُّونهم على الأرصفة شبه عرايا، قلوبهم واجفة وسيقانهم ينزُّ منها الدم، ثم يلقونهم في غرف مخنوقة لا تراها الشمس. يتركونهم أيامًا دون أن يشعروا حيالهم بأي شيء، كأنهم أحجار ملقاة على جانب الجدران. وقد يتذكرونهم حين ينتهون من التنكيل بمن هم أرفع منهم مقامًا. يطلبونهم فيأتون إليهم مقيدين، في عيونهم استغراب ولامبالاة يختلطان سويًّا، فيعتقد الجالسون وعلى أكتافهم نجوم ونسور أن هؤلاء يحتقرونهم أو لا يعيرونهم اهتمامًا، فتتدفق إلى رؤوسهم موجات عارمة من الغضب، فيضربونهم حتى تتعب أيديهم وأرجلهم ويلقونهم في الأماكن التي جمعوهم منها، على قارعات الشوارع، وفوق حشائش الحدائق الضيقة المهجورة القذرة، وتحت الكباري، وبجوار جدران الأبنية المهجورة.

الشارع هو المأوى وهو الطاحونة التي لا تكف عن دهس آدميتهم الجريحة، لكنه أيضًا الحفلة التي يشارك فيها كل العابرين. مسرح وسيرك وعوالم من البهجة العابرة. يجلسون هم في الحدائق ذات الخضرة الباهتة والأشجار

المنكسرة التي ترفع أكفها الضامرة في وجه هالات الدخان مختلفة الأسباب؛ ليرقبوا المارة بعيون يسكنها الثلج، ولا تصل الشمس إليها أبدًا.

يوم الزحف الكبير وجدوا أنفسهم يندفعون نحو صناديق العذاب والغربة ليحطموها. إنها أقسام الشرطة التي شهدت انسحاقهم فكانت هدفهم. شارك بعضهم في الهجوم عليها بأجسادهم الضامرة، ورموها بكرات اللَّهب حتى اشتعلت في كل مكان، وراحت النار تأكل العار الذي سكنها سنين، وتحوله إلى رماد ودخان تصاعد في هواء المدينة المتوحشة حتى شهده كل سكانها. شاركوا ولم يعنهم في هذه اللحظة من سيحصد ثمار انتقامهم.

هنا يذوبون في الزحام الخانق حين يمتلئ ميدان التحرير بالثوار، فلا تعثر لهم على أثر واضح، لكن حين يرحل الناس تباعًا يبرزون ويملأون هم المكان بحكاياتهم المريرة. يبدون كالطحالب التي تطفو بكل ما علق بها حين ينحسر عنها الماء الجاري.

هنا وجدوا أنفسهم بعد ضياع. سكن وصحبة ودفء وقضية لا يعلمون تفاصيلها لكنهم يشعرون بها ويهتزون لها. أليسوا هم ضحايا غياب العدل واستباحة الكرامة؟ أليست هذه هي الشعارات التي انطلقت من الحناجر كالرصاص الهادر فهزت العرش الكبير وسمعها العالم بأسره فوقف ليحييها؟ أليس هذا ما رددوه في دواخلهم بلهجة مختلفة، عادية غير منمقة، ليس لها جرس موسيقي، لكنها كانت تحمل كل المعاني التي تقال في الميدان الوسيع.

لكل هذا راحوا يتشبثون بالمكان ولا يريدون أن يبرحوه أبدًا، وراحوا يدافعون عنه بضراوة، غير معنيين بمن كانوا يصرخون على الشاشات الزرقاء:

- الميدان دنسه البلطجية والمشردون.

***

يأتي الناس ويذهبون ويسمون قدومهم «جمعة» ثم يلحقونها بكلمات أخرى مثل «تصحيح المسار»، و«تسليم السلطة»، و«حق الشهيد»، إلى آخر ما تسعفهم به الذاكرة والمواقف المتتابعة. هم لا يعبأون بكل هذا، المهم لديهم أن يحتشد الميدان بالآدميين ليصرخوا ويعرقوا سويًّا. المهم أن يجدوا إلى جوارهم أجسادًا من لحم ودم بعد قطع الحديد والخشب والحجر الصوان الذي يستر بعض عوراتهم وهم يهيمون على وجوههم كالكلاب الضالة، أو يلقون أجسادهم كأوراق الخريف، وتدوسهم الأقدام العابرة دون أن تسمع أنينهم.

بعضهم انتهز فرصة هذه السوق الكبرى، وجرى ليجلب «المناديل»، أو «الذرة المشوية»، و«عربات البطاطا» التي يتصاعد منها دخان يغطي رؤوس المعتصمين، مَنْ يتجولون في الميدان، ومَنْ يسندون ظهورهم على أعمدة الخيام الهشة، ومن يجلسون على حافة الكعكة الحجرية محدقين في الفراغ. أما أغلبهم فلا يحترفون شيئًا سوى ترويض الوقت، والتمتع بهذه اللحظة النادرة،

التي تمنوا أن تبقى إلى الأبد.

تسمع الولد ينادي البنت التي تزوجها على حافة البلوغ:

- تعالي يا بت، عاوزك.

يريد أن يعاشرها تحت أيٍّ من قطع الليل الراقدة أسفل جدران المجمع، أو سور مبنى وزارة الخارجية القديم، أو حتى أمام مبنى جامعة الدول العربية؛ ليقول لطغاة العرب: سنقهركم حتمًا. أحيانًا يريد أن يزحف بها إلى أيٍّ من خيام المعتصمين، لكنهم يكونون له بالمرصاد:

- هذا لا يصح.

- لكن أنا تزوجتها.

- أين وثيقة الزواج؟

- وثيقة!!!

ثم يشير إلى ما بين فخذيه:

- الوثيقة هنا، واسألوها.

يطردونه، لكن يعود ويرمي جسده في عناد، ويبدي إصرارًا شديدًا على إطفاء شهوته، فيقولون له:

- هذا لا يتم أمام الناس. أتريد أن يتفرج عليها الخلق؟ أتريد أن تفعل ما تفعله الكلاب الضالة؟

- لا.

- إذًا تصرف كالآدميين.

ويتصرف كما نصحوه. ويشعر مع الأيام أن شيئًا جديدًا بدأ يتسرب إلى عقله رويدًا رويدًا، وبعض دفقات دافئة راحت تغزو قلبه، فيقف في منتصف الكعكة الحجرية، أو يتسلق أحد أعمدة الإنارة المرشوقة في الميدان، ويصرخ:

- يسقط يسقط حكم العسكر.

ولا يعرف مَنْ هم العسكر، ولا مَنْ يدفع الناس إلى هذا الترديد، فالمهم بالنسبة له أنه يشارك في الهتاف، من أجل ماذا؟ لا يدري.

ويتابعه حسن عبد الرافع ويبتسم، ويتذكر ذلك الموقف الغريب الذي جمعه، عن بعد، بسيدة القصر. كانت تتصرف كملكة في القاعة الوسيعة الوثيرة بمكتبة الإسكندرية بعد أن جمعت حولها عددًا كبيرًا من حائزي جائزة نوبل، الذين راودتها أحلام اليقظة كثيرًا أن تنضم إليهم. في وقت الاستراحة اقترب حسن من الوزير الذي كان يجلس بجوارها في القاعة، رآه يتحرك وسط الناس موزعًا ابتساماته عليهم، فاقترب منه، وقال له:

- الهانم تريد جائزة نوبل، لكنها لن تُعطى لها في هذه القاعة الفخمة.

رفع الرجل هامته مستنكرًا، لكن حسن لم يترك له فرصة التعليق وواصل كلامه:

- قل لها لا توجد أمامها سوى وسيلة واحدة لتنال ما تلهث وراءه.

واصل الرجل نظرته الصامتة التي اختلط فيها الخوف بالاشمئزاز، لكن حسن لم ينظر إلى عينيه، ولم يعنه أن ينظر إليهما، واحتد عليه:

- يوجد في مصر عشرات الآلاف من أطفال الشوارع الهائمين على وجوههم والذين تكاد أجسادهم أن تتعفن ويرعى فيها الدود من كثرة الوسخ والجوع. لتقم هي بجمع هؤلاء وتنظيفهم ومحو أميتهم وتعليمهم مهنة يتكسبون منها، عندها يمكن للجائزة أن تصل إليها، أما الصرف من قوت الشعب على طموحها، والجلوس في هذا المكان المكيف الوثير، لن يجلبا لها سوى غيظ الناس وكراهيتهم وتهكمهم.

لكن أحدًا لم يجمع هؤلاء من الشوارع، أو يزيل الأوساخ المقيمة فوق جلودهم، والغشاوة الراقدة تحت مقلهم الحائرة، وذلك الركام الذي تركته الأيام المريرة على قلوبهم التي لا تكف عن الجري وراء آمال بددها اليأس. ظلوا قابعين في أماكنهم، تتعثر بأجسادهم أقدام العابرين، حتى كان يوم الزحف الكبير، فانجرفوا أمام الزاحفين حتى استقر بهم المقام في ميدان التحرير؛ ليجدوا ما كانوا يبحثون عنه دون أن يعرفوه.

بعضهم هزته الدهشة فراح ما علق به طيلة السنوات السابقة يتساقط تدريجيًّا عن جسده وروحه، ويندمج بكل كيانه مع ما يجري. بعضهم ظلوا متخذين المسافة نفسها التي سبق لهم أن وقفوها من المحتشدين في الأسواق التي مروا بها، ووفرت لهم فرصًا سانحة لجلب ما يتقوتون به من جيوب الغافلين والمنشغلين بشق طريق لأنفسهم في وسط الزحام.

اقترب حسن منهم ولم ييأس من أنهم يمكن أن يظلوا جزءًا أصيلًا من وقود الثورة. وكان يقول لمن يحذره من تضييع وقته:

- ألم يهتف الثوار هنا في الشوارع: عيش؟

لكن الراغبين منهم في أن يفعلوا ما يريدون دون رقيب ولا حسيب كرهوا حسن، وكانوا كلما رأوه يتجول في الميدان ودوا لو يضربونه على رأسه بحجر ضخم. بعضهم همس في أذن أصحابه ليلًا:

- هاغزه برقبة قزازة في رقبته.

لكن أحدهم قال:

- سرقت محفظة الرجل المنفوخ الواقف هناك، وهاشتري فرد خرطوش وأضرب الواد حسن عبد الرافع طلقتين في قلبه.

وترامى حديثهم إلى أذن الرجل النحيف ذي اللحية الخفيفة، الذي يرابط في

الميدان، وعيونه لا تنام، فهز رأسه وابتسم، ثم انتحى جانبًا، وضغط على زر هاتفه، وهمس بكلام لم يسمعه أحد، وعاد إلى مكانه المعتاد يرسم كل الوجوه في رأسه، ويلملم كل الكلمات التي تطلقها الحناجر، من دون أن تفارقه الابتسامة الصامتة، أو يكف عن الدوران صانعًا لنفسه مسربًا دائمًا بين الزحام ينتهي إلى محطة يجهلها كل من يرونه هنا.

5

لم تصدق أبدًا ما يقال لها. ارتعد جسدها وزحفت جيوش من النمل في شرايينها، وغامت الرؤية في عينيها، فتمايلت يمنة ويسرة وأسندت يديها على الفراغ. استعادت كل ما جرى لها، شحنات الكهرباء التي سكنت لحمها، والألفاظ الجارحة التي شقت روحها، ودائرة الدم المحتقن المرسومة في معصميها بعد أن قيدوها ورموها كأنها نفاية، وتمنت لو كان هذا اليوم قد جاء فوجدها نسيًا منسيا.

أليس الموت راحة كل حي؟ أيكون هذا الهوان والذل بعد أيام قليلة من رحيل الطاغية؟ هل ما جرى في الميدان هي حفلة صاخبة ممتدة ثم انفضت وكأن شيئًا لم يكن؟

وبدا كل ما حلمت به كريمة إسماعيل وهي متنعمة بدفء الصحبة وهمًا كبيرًا. خيال جامح لم يلبث أن هبط على الأرض رمادًا كئيبًا تلاعبت به الريح؛ ليعود الصمت والخوف والغربة، وتمد الأسئلة التي تبعث على الحيرة والتقزز أذرعها من جديد، وتخنقها، ثم تلسع رأسها، كما لسعتها أسلاك الكهرباء التي غرسوها في بطنها بعد أن اعتقلوها في الميدان، وحشروها مع رفاقها في المتحف المصري، قبل أن ينقلوهم إلى السجن الحربي.

لم يخطر هذا أبدًا ببالها وهي تقف شريدة في شارع عبد الخالق ثروت أمام مبنى نقابة الصحفيين بعد أن جاءت من الصعيد الجواني ملبية دعوة أصدقائها على «فيس بوك» للتظاهر. تلفتت يومها فلم تجد هنا أحدًا ممن طلبوها للمجيء.اقترب منها ضابط أمن مركزي، وسألها بخشونة:

- لماذا تقفين هنا؟

فردت في ثبات:

- جئت لأتقدم إلى وظيفة في شركة بشارع عدلي، ولا أعرف الطريق إلى محطة القطار.

رد عليها في برود وغلظة، وهو يشير بتأفف إلى ناحية الغرب:

- محطة القطار هناك في شارع رمسيس.

سارت في تثاقل لعلها تلمح أحد المتظاهرين قادمًا فتعود معه إلى سلم النقابة، لكنها استمرت وحيدة في المكان. تقدمت حتى وقفت على ناصية الشارع عند نقابة المحامين، بينما عاد الضابط ليجلس مع زملائه إلى جانب الكشك الذي يقع على ناصية شارع شامبليون. فجأة انشقت الأرض عنهم. من أين جاءوا؟ لا تعرف. المهم أنهم لم يخلفوا الوعد، وها هم يتقدمون نحو السلم الرخامي الأسود؛ ليحتلوه، وتتعالى الهتافات:

«قولوا للعادلي الكلب وسيده... قتل ولادنا مش هيفيده»

كادت هي أن ترفرف من الفرح، صرخت بقدر رغبتها في أن تخمش ملامح الوجه القبيح الذي يطاردها كابوسًا قاهرًا، منذ أن استدعوها إلى التحقيق في أمن الدولة، وهي تلميذة بريئة، اعتقدت للحظة أن من حقها أن تقول رأيها، حين أجابت بما تعتقد عن سؤال حول «الانتفاضة الفلسطينية»، وراحت تكيل الاتهامات للحكام العرب بالتواطؤ والتخاذل والضعف. يومها أطلقوا سراحها، حين اكتشفوا أنها مجرد تلميذة تفضفض عما بداخلها، وهم مَنْ ظنوا أنها تأثرت بخالها المنتمي إلى «الجماعة الإسلامية»، والذي أفرجوا عنه بعد أن قبع في السجن سنين طويلة.

تخرَّجت في الجامعة ولم تغير رأيها فيمن يحكم، بل ازداد اقتناعها بأنه أكثر قبحًا وفسادًا مما تصوره عقلها البرئ أيام البوح وصدق الطوايا والسجايا. وطالما تخيلته قطعة صخر ألقوها سنوات في مياه آسنة، ثم أخرجوها وحفروا عليها ملامحه، بينما راح الدود يرعى فيها، وتنبت عليها أحراش، وتحط طحالب، تحت رداء العتمة الدائمة.

كانت تكرهه، ما إن تراه في التلفزيون أو تسمع صوته يخطب، حتى تنتابها حالة من الغيظ والغضب، وتحلم بيوم لا تراه فيه. ولدت فوجدته جالسًا على أعناق الملايين، وأنهت دراستها بالحصول على ليسانس الآداب وهو لا يزال في مكانه. يشيخ لكن وطأته تزداد ثقلًا، بينما الأعناق تتعب وتنحف وتكاد عروقها أن تنفجر.

بلغت سعادتها مداها، وهي تهتف بسقوطه، وشعرت أنها تمسك قادومًا وتضرب صخرة وجهه بقوة، فتتفلق وتتشظى إلى فتات، تدهسها الأقدام الغاضبة، وتأخذ منها في نعال الأحذية لتلقيه في الشوارع الخلفية والحارات المنسية.

لكنها لم تدرِ أن أحلامها يمكن أن تذوي في لحظة، وتشعر أن شيئًا لم يتغير، حتى بعد سقوط من كرهته، فهو ذهب إلى المنتجع المخملي الذي ابتعد فيه عن أوجاع الناس، وهي ذهبت إلى السجن الحربي.

***

كانت من بين قلة لم تثق في تنازل الطاغية لتلاميذه من العسكر، فبقيت في ميدان التحرير، تدعو الناس أن يعودوا مرة أخرى للاحتشاد حتى يتسلم الثوار السلطة. لكن الجميع فرحوا بالقليل الذي حصدوه، واكتفوا بحضور أكبر حفلة في التاريخ، وانهمكوا فيما كانوا منغمسين فيه قبل أن ينطلق الغضب الكبير.

وبمرور الأيام صاروا مجموعة معزولة في باحة الكعكة الحجرية، تلفحهم شمس الظهيرة، ويرمي الليل عليهم سدوله. ظنوا أن صوتهم سيصل تباعًا إلى الذين يمرون بهم، راكبين سياراتهم أو مترجلين. هتفوا بكل ما وسعهم من صوت:

«العصابة هيَّ هيَّ.. شالوا حرامية وجابوا حرامية»

هتفوا ذات ليلة حتى تعبوا، فجلسوا يستريحون. يأكلون ويثرثرون. فجأة انشق الليل عن دوائر حمراء تقترب منهم، ثم سمعوا صرخة لوثت المكان:

- قوموا يا ولاد الكلب يا عملاء.

كانوا جنودًا من الشرطة العسكرية، يقودهم مجموعة من الضباط المختلفي الرتب. حاصروهم، حتى أمسكوا بكثيرين منهم. بعضهم تمكن من الفرار في كل الاتجاهات، ومن بينهم صفاء عليوة. وهناك من قاوم ونازع في غضب حتى تكاثروا عليه فأخمدوه، أو ضربوه على رأسه بعِصيٍّ كهربائية فغاب عن الوعي. ساقوهم إلى المتحف المصري، الذي ينفتح بابه على فوهة الميدان، فيمده بعبقٍ المجد الغابر، ويُذكِّر مَنْ وقفوا هنا مطالبين بالحرية والبناء أن وراءهم تاريخًا عريقًا.

لكن المتحف لم يستخدم هذه المرة لاستلهام حكمة الماضي البعيد، إنما استعملوه كمحبس مؤقت لثائرين لم يبرحوا الميدان، وآمنوا بأن تخلي الرأس عن السلطة لا يعني رحيل نظامه، وأن تلامذته الذين جلسوا مكانه ليس في نيتهم أن يذهبوا في الطريق الذي سلكه الشباب الغاضب، وأنهم يسعون إلى إعادة كل شيء إلى ما كان عليه.

نظر أحدهم إلى كريمة، وقال لها:

- أعرفك جيدًا.

لاذت بالصمت، فواصل هو:

- رأيتك كثيرًا إلى جانب الطائش: حسن عبد الرافع، والبنت الملاصقة له دومًا: صفاء عليوه، لن ينفعانك اليوم، وستعرفين بعد قليل أن من يتبعهما سيجني الندامة.

وقبل أن تفتح فمها لترد عليه، غرس شيئًا بيده في بطنها، فارتعد جسدها، وصرخت، فكمموا فمها، وربطوا يديها من خلاف. فعلوا الأمر نفسه مع كل المعتقلين. جاءت ناقلة جند، فحملوهم إليها. ألقوهم فتكوموا كأنهم بقايا أمتعة متهالكة، وتململوا وحركوا أجسادهم حتى استقروا على الدكتين الخشبيتين الخشنتين المتوازيتين.

تحركت العربة دون أن يشعر بهم أحد من السائرين في الشوارع ليلًا، حتى وصلت إلى مكان لا يعرفونه. أنزلوهم، ووضعوا الفتيات في عنبر، والفتية في آخر.

كانت كريمة مجهدة من صعق الكهرباء، والصفعات التي تلقتها على وجهها، فجلست إلى جانب الحائط، ولم تشارك بقية البنات حديثهن عما يجري لهن. فجأة انفتح باب العنبر، ودخلت نسوة، يلوك بعضهن اللبان، وأخريات يتمايلن في غنج، ووجوههن ملطخة بألوان فاقعة، وألسنتهن تطلق ألفاظا نابية وضحكات

رقيعة. اقتربن من المعتقلات، وأخذن في التحرش بهن بقسوة وفجور.

كان الوضع مريبًا، فانكمشت كريمة في مكمنها، لكن المتحرشات سحبنها من ساقيها، وأخذن يدفسن أصابعهن في كل أجزاء جسدها بلا ورع. وأثناء استغراقهن في هذا التعذيب الغريب دخلت ضابطة برتبة مقدم، ومعها مجموعة من الضابطات الصغيرات، وطلبت من المعتقلات أن يتبعنها، حتى وصلت بهن إلى حجرة فسيحة، وصرخت فيهن:

- اخلعن ملابسكن.

ظنت كريمة أنها تريد تفتيشهن، فخلعت «الجاكيت» ووقفت أمامها، لكنها فوجئت بها تصرخ من جديد:

- اخلعي كما ولدتكِ أمك.

- نعم؟!

- نفذي الأمر، وإلا...

تلفتت كريمة حولها، فوجدت النسوة الدخيلات عليها ورفيقاتها قد أخذن في خلع ملابسهن. نظرت عن يمينها وامتلأ وجهها بالرعب. النافذة كانت مفتوحة على مصراعيها، والباب الخارجي كذلك. طلبت إغلاقهما، فقوبل طلبها بصفعة على وجهها، وغمزة حادة من الصاعق الكهربائي في صدرها. صرخت وراحت تخلع، حتى صارت عارية تمامًا، وتعرَّى كل مَنْ في الحجرة الوسيعة. كريمة ورفيقاتها وضعن أياديهن بين أفخاذهن، ورمين شعورهن على أثدائهن. بينما النسوة الأخريات وقفن عاريات يلوكن اللبان ويضحكن. وتجمَّع جنود وضباط عند النافذة والباب وأخذوا يمدون نظرات شهوانية متوحشة إليهن، ويشيرون بأيديهم نحوهن، ويقهقهون، ويصنعون بألسنتهم أصواتًا بذيئة.

شعرت كريمة أن كل شيء متعمَّد لإهانتها هي ورفيقاتها، لاسيما حين قالت لهن الضابطة:

- سيُجري عليكم الطبيب كشف عُذريَّة.

وهنا فهمت لماذا خلطوا بهن النسوة اللاتي يتمايلن في غنج؟ أدركت أنهن داعرات، وأن هناك شيئًا قذرًا، لا يطاق، يعد لهن.

سحبوها، وأدخلوها غرفة أخرى، بها طبيب برتبة عقيد، ما إن رآها حتى طلب منها أن تنام على ظهرها، وتخلع يديها من بين فخذيها. بكت بحرقة، وطلبت أن تقوم بالكشف عليها طبيبة، لكنه رفض، وقال لها في برود:

- لا تحاولي، أنا مَنْ سيكشف عليكن جميعًا؛ لنعرف ما إذا كنتن عذراوات، أم تحوَّلت خيامكم التي نصبتموها في التحرير إلى بيوت للدعارة.

تمنت لو كانت قد ماتت قبل أن يضع رجلًا غريبًا يده في مكانها الحصين، ويطيل ما يفعله، ثم يرسل عينيه تمسحان بقية جسدها في نهم.

أخذت خطوتين إلى الوراء، ونظر عليها نظرة شاملة، ثم نظر إلى الضابطة وقال:

- للأسف عذراء.

بعد هذه المحنة، أخذوهن إلى مكتب ثالث، يجلس فيه ضابط آخر. ما إن دخلت عنده حتى فزعت، حين وجدت صورة الرئيس المخلوع، موضوعة على الجدار الممتد خلف ظهر الضابط. نظرت إليه بعينين مفتوحتين، وأشارت بإصبعها إلى الصورة. وقبل أن تنطق، قال لها في صلف:

- نعم، أعلقه على جدار مكتبي، وكل زملائي يفعلون ذلك. نحن أحرار، أنتم تقولون أنكم خلعتموه، لكننا لا نزال نعتبره قائدنا، وكلامكم لا يلزمنا.

وقف مكانه وقال لها:

- يجب أن تعرفي أنتِ وكلٍ من معكِ، أنني قادر على أن أدفنكم جميعًا أحياءً، ولا يعرف الذباب الأزرق طريقًا إليكم.

أرسلوا البنات والبنين إلى النيابة العسكرية، وظلوا أيامًا بين مكاتب التحقيق وعنابر الحجز في السجن الحربي، ثم أطلقوا سراحهم، وتركوا في رؤوسهم كل هذا الألم، وكل هذه الدهشة. واستغربوا حين ضاهوا ما يجري لهم بما رأوه في الميدان خلال الأيام الأولى، جنود يبتسمون في وجوههم، ودبابات مكتوب عليها. «يسقط مبارك».

خرجوا من ظلام المحبس إلى الشوارع. بعضهم ابتعد وانكمش قابضًا على حزنه الدفين. بعضهم عاد إلى الميدان يهتف من جديد. أما كريمة فقررت أن تقول كل شيء كما جرى، ودون رتوش، هكذا أقنعتها صفاء عليوة ودموعهما تتخالط وهما متساندتان بعد أن رمت رأسها على كتف صديقتها.

قالت لها يومها:

- صمتك سيفيدهم.

ثم تحدثتا طويلًا عن الفتاة المجهدة التي جردوها من ملابسها أمام مبنى مجلس الوزراء، وكيف تتوالى إهانة النساء بلا ورع. وهنا قررت كريمة أن تتكلم فربحت المعركة، وتعاطف الناس معها، وندم مَنْ أساءوا إليها، حين طاردتهم لعنات كل مَنْ عرف طرفًا من هذه المحنة التي بدأت في الظلام، لكن النور امتد إليها حتى فضح كل شيء.

لكن كالعادة نسي الناس بعض حكايتها مع مرور الأيام، إلا أنهم عادوا ليتذكروها كاملة حين سحبها شاب ملتحٍ بقسوة بالقرب من مقر جماعة الإخوان في حي المقطم، فانسحلت، وتجلطَ وجهها، وسالت الدماء غزيرة فروت الأسفلت القاحل، بينما كانت السيدة التي رافقتها إلى مكان الاحتجاج تتساقط تباعًا إثر صفعة قوية من شاب آخر غشوم، لينفتح باب جديد للغضب والكراهية والدم.

6

لم يهتم خالد السبع بالسياسة يومًا في حياته، كان كلما رأى مظاهرة تجوب باحة جامعة القاهرة ابتعد عنها، وكأنها نار تلظَّى، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة من هؤلاء الذين يضيعون أجمل أيام العمر في كتابة المنشورات، وصياغة الشعارات، وإطلاق الهتافات، والتحايل على أجهزة الأمن الباطشة، ومعانقة آمال تومض وتنطفئ في أماكن لا يملون من السير نحوها على شوك وجمر.

أربع سنوات مرَّت عليه في كلية التجارة كأنها نسمة خاطفة. كان يقول دومًا معزيًا نفسه المهيضة: الأيام الحلوة تمر سريعًا.

ما إن أنهى خدمته العسكرية حتى توسط قريب له يتبوأ منصبًا مرموقًا في وزارة المالية فتم تعيينه محاسبًا ببنك «القارة»؛ ليجد نفسه ضائعًا في جحيم الأرقام المجردة، ولم يعد أمامه من سبيل سوى أن ينشئ علاقة حميمة بها. كان يغرق في التأمل أحيانًا ليرى الكون كله حزمة من الأرقام المنتظمة في هندسة بديعة.

أحيانًا يوزع الأرقام على حالات النساء اللاتي يحلم بمضاجعتهن، فيقول لأصدقائه:

واحد: امرأة ممشوقة القوام.

اثنان: امرأة منكسرة في شبق.

ثلاثة: امرأة ترفع ذراعيها قليلًا إلى جانب رأسها وتنتظر حضنًا دافئًا.

أربعة: امرأة تتلوى في مخدعها تستصرخ من يطفئ نارها.

خمسة: العيون والفم وأشياء أخرى.

ستة: انكسار مقلوب.

سبعة: الأخدود الغائر بين النهدين.

ثمانية: النصف الأسفل كاملًا.

تسعة: رأس امرأة جميلة ذات جيد طويل.

هكذا كان يُسرِّي عن نفسه، ويصنع فرحه الصغير، ولا ينشغل بكل مَنْ أبدوا امتعاضهم من فلَسفته الفارغة.

لا يعني هذا أن خالد السبع كان فارغ الرأس تمامًا، وأن مسار حياته توقف عند حد المغامرات النسائية، أو أنه يقصر تخفيف وطأة الأرقام على توزيعها فوق حالات المرأة الشبقة، بل كان يقرأ أحيانًا كتبًا في الأدب والفلسفة. كاتبه المفضل هو يوسف إدريس، الذي أخذه في مطلع الشباب بعيدًا عن روايات خليل حنا تادروس الغارقة في التفاصيل الجنسية، وبعض كتب أنيس منصور التي تأخذه إلى عالم الأساطير والخرافات والخيال. في طفولته قرأ العديد من

الألغاز والمغامرات، تركت في نفسه أثرًا غائرًا، يلح عليه بين حين وآخر، لكنه اختزل كل شيء في اصطياد الحسناوات. مارس هذه اللعبة بتلذذ فاضح، ورأى في ذلك منتهى السعادة، وغاية المراد من دنيا الناس.

الغريب أنه متيم بفلسفة نيتشه. عرف اسمه في السنة الرابعة من الجامعة وهو يسترق السمع إلى جدلٍ يدور بين اثنين من زملائه، وجد فيه طريقًا معبدًا نحو ما يصبو إليه، فبات يفتش في داخله عن «السوبرمان» الذي رسم هذا الفيلسوف الألماني ملامحه وبَشَّر به. وحين قرأ سيرة حياة نيتشه كره فيه ضعف جسده وهزاله الدائم، لكنه تعاطف مع حزنه من فرط عشقه للوسالومي، التي رفضت الارتباط به، فغرق في علاقات جنسية أصابته بالزهري، ثم أفضى به كل هذا إلى الجنون، ومات مبكرًا.

لم يصب السبع بأي مرض، ولم يقف عند حد الجنون حتى وهو يتوه مسطولًا بين تلافيف الدخان الأزرق. كل ما شغله هو أن يكون رجلًا خارقًا، ليس في مواجهة السلطان الجائر، ولا في إنجاز ما ينتشل الناس من بؤسهم وأوجاعهم المريرة، ولا في إطلاق الطاقة الروحية الفياضة التي يطير بها في أرجاء الكون، بل في النشوة العارمة التي تهز كل خلايا جسده وهو يفترع امرأة ويجذبها إليه بعنف فتتوجع، أو الشعور بالامتلاء بعد وجبة دسمة، والسرور البالغ الذي يحل بنفسه حين يقهر منافسه في لعبة «الطاولة» على مقهى يضج بالساهرين.

كان يضحك من داخله حين يصطدم الناس بجسده المتين في زحام السوق فيتساقطون أو يترنحون فيمد يده ويقبض على أي جزء في أجسادهم؛ ليعيد إليهم اتزانهم، ثم يمضي متشامخًا في خيلاء.

***

حين ثار الغضب العارم كان يجلس في شقته متثاقلًا بعد ليلة حافلة بالاسترخاء، قضاها في قرقرة وقهقهة مع شلة شارع الجيش. كانت الشمس تنزف شفقها على زجاج نافذته، فراح يُنقِّل عينيه بين ظلال غاربة مشبعة بالدم، ومنظر مشرق مفعم بالأمل، تحتضنه شاشة قناة «الجزيرة»، ومذيعها يصرخ: هنا ميدان التحرير.

جال ببصره في جنبات الشاشة، ثم أصابه وجوم مطبق، وفجأة انفجر في قهقهة كادت أن تسقط فنجان القهوة الراقد فوق «الكوميدينو». أشاح بيده في وجه الصور المتزاحمة، وقال:

- عيال عبيطة.

لم يكن يؤمن بالخلاص الجماعي أبدًا. في رأيه أن الفرد هو السيد، وأن جموحه وطموحه هو الذي يصنع كل شيء في الحياة. ورغم أنه يردد دومًا مقولات نيتشه: «عش في خطر. شيد أحلامك فوق جبل فيزوف» إلا أن الخطر عنده لا يكون إلا في المغامرات النسائية، ومخالفة إشارات المرور أو السير بسرعة

جنونية، والذهاب بنفسه إلى حي الباطنية لشراء الحشيش، الذي يدخنه مع رفاقه، وقيامه بالانزلاق أحيانًا على ماسورة البيت من الطابق الرابع الذي يقطنه بدلًا من استخدام السلم، وتوغله بين طيات الموج إلى عمق البحر البعيد أثناء الاصطياف، وقيامه مع بعض أصدقائه بسفاري في صحراء سيناء وسط تعاريج الجبال الجرداء الموحشة.

هذه هي حدود المغامرة كما يفهمها ويريدها. أما الاحتجاجات الجماعية، أيًّا كان شكلها، فهي في نظره أعمال طائشة بربرية خرقاء، والقائمون عليها هم حفنة من الحمقى ودعاة الفوضى والاضطراب. هكذا تعلم من نيتشه وآمن بما تعلم.

لهذا نظر السبع إلى مشهد ميدان التحرير باشمئزاز، وتابعه بلا لهفة ولا رغبة ولا حماس أو اهتمام مثلما فعل كل المصريين تقريبًا. لكنه حين شاهد في اليوم الثامن للثورة بغالًا وخيولًا وجمالًا تشق صفوف المتظاهرين، وعليها رجال وصبية يحملون سيوفًا وسنجًا وعصيًّا وجنازير، هبَّ إلى دولابه، والتقط ما وجده أمامه من ملابس، وراح يرتديها على عجل، ثم كاد أن يطير من مكانه فرحًا حين لمح زجاجات المولوتوف تتساقط من على أسطح الأبنية التي تحتضن الميدان، وصرخ:

- اكتملت المغامرة.

استلَّ سنجة كان يخبئها خلف ملابسه، ويصطحبها معه في رحلات السفاري، ويضرب بها أحيانًا الهواء في غرفته متخيلًا نفسه فارسًا أسطوريًّا، وهو يقول بصوتٍ لا يسمعه إلا هو: «أنا عنترة بن شداد.. أنا أخيليوس».

خرج من البيت مسرعًا. رآه أحد الجالسين على المقهى، فصاح عليه:

- إلى أين؟

- ذاهب إلى ميدان التحرير.

- والسنجة؟

- لزوم المعركة المثيرة التي تدور الآن هناك.

- لن تدخل بها إلى الميدان، وقد يقبض عليك الثوار ويسلمونك إلى الجيش.

- يا سلام؟!!

- طبعًا... اترك السنجة، واذهب هكذا، لا سلاح لدى الثوار سوى الطوب والزلط، يصدون به طلقات الرصاص والخرطوش والمولوتوف والأسلحة البيضاء.

ابتسم ساخرًا من إصرار الرجل على وصف الموجودين في التحرير بالثوار، لكنه عاد ليضع السنجة مكانها. حين دخل غرفة نومه اكتشف أنه قد ترك التلفزيون مفتوحًا، يتقيأ المشاهد الدامية الموجعة، والنار التي تلقى على الثوار تضئ جنبات حجرته الغارقة في ظلمة رائقة خلف الستائر السميكة الموصدة بإحكام.

في هذه اللحظة لمح حسن عبد الرافع وهو يلتقط أحجارًا مختلفة أحجامها، ويقذف بها البلطجية، الذين أجَّرتهم السلطة لترويع وقتل المتظاهرين، وإخلاء الميدان. كان يتحرَّك بهمة شديدة، وكأنه كائن أسطوري خُلق ليقاتل، أو آلة مجهزة للدفاع عن الثوار، والزود عن البقعة التي يتمترسون فيها. رآه خالد وهو يطير من فوق متراس بجانب المتحف المصري، ويُسقط بلطجيًّا من على حصانه، ثم يمنع الغاضبين من الفتك به، ويصرخ فيهم بصوت مسموع:

- سلموه للجيش.

كثيرون حول حسن كانوا يفعلون مثله، لكن أحدًا لم يكن على مستوى حماسه، ولم تلمع عيناه في الشاشة قدر لمعان عيني حسن. ذلك الألق الذي خطف بصر خالد السبع، فولدت في نفسه ضغينة حيال هذا الذي ظن أنه قد سرق منه المغامرة التي كان يعتزم الإقبال عليها بشهية عارمة. الميدان يتسع لمئات الألوف من المقاومين. ينتظر آلاف المغامرات. لكنه لم يُرد لأحد أن يهزم البلطجية المأجورين إلا هو. ساح في خيال لا حدود له، ورأى نفسه في قلب الميدان يضرب ويصد، يكر ولا يفر، ويفتح ذراعيه للنار والدم مبتسمًا، فيحكي الثوار، بل تحكي مصر كلها، عن هذا الشاب الغريب الذي يشبه آلهة الإغريق الأقدمين.

وجد نفسه في الأيام اللاحقة على معركة الجمل يتابع حسن عبد الرافع باهتمام عميق، كلما أطل من شاشة زرقاء، أو تهادت صورته على صفحة جريدة، أو ذُكر اسمه في جمع من الناس. كان يعرفه جيدًا، لكنه لم يظهر ذلك وقت أن رآه صريعًا غارقًا في دمه، وضفتا عينيه تسيحان في الفراغ، بل ربما شعر بالارتياح لأن غريمه، الذي لم يقابله يومًا، سقط أخيرًا.

7

لم ينسَ المقدم سيف عبد الجبار المشهد الرهيب الذي رآه على كوبري قصر النيل يوم «جمعة الغضب». تتوالى الصور أمامه وهو جالس في بيته يروض الفراغ، وينزف بقايا نفسه المترعة بالشقاء والضغينة. حين يذهب إلى مخدعه ليودع الأرق الطويل الذي يسكن عينيه طيلة النهار وما ذهب من ساعات الليل، يسمع الأنين، وفرقعة الرصاص الهادر، وزمجرة المصفحات وناقلات الجند، وسحب الدخان الأسود التي تردم الأجساد المندفعة بقوة جبارة نحو ميدان التحرير. لكن أكثر ما يقُضُّ مضجعه هو هذه الصرخة الحادة التي كانت آخر ما أطلقته حنجرة شاب نحيل كان يواجهه مبتسمًا وهو يفتح ذراعيه وفي يده زجاجة خل صغيرة، اصطحبها معه لتقيه من آثار قنابل الغاز.

يتقلَّب عبد الجبار في فراشه، ويعض على شفتيه وينفخ نادمًا لأنه لم ينصت إلى نصيحة زميله في «الأمن المركزي» المقدم يسري عبد النعيم، الذي قال له فور اندلاع الثورة:

- الأمر هذه المرة مختلف، المتظاهرون عازمون والنظام ليس لديه سوى نحن ليضعهم في وجه الشعب.

- هذه مهمتنا.

- نحن في المكان الخاطئ، الشرطة دورها حماية الناس وليس الدفاع عن عرش ينخر فيه السوس، ويطمره العفن، ورجل لا همَّ له إلا أن يضع ابنه فوق كل الرؤوس.

- أنسيت أننا نعمل في سلاح الأمن المركزي وطالما شاركتني في التصدي لمظاهرات واحتجاجات وشغب؟

- ما يجري الآن ليس شغبًا. ألم تسمع هتاف: سلمية... سلمية؟

- هذه خدعة.

- بل حقيقة، الناس تريد التغيير، ولن نستطيع أن نقف في وجه الطوفان.

- المصريون أصبحوا أمة خائفة، كسرنا شوكتهم كل هذه السنين، وظهورهم الراكعة لن تقف في وجوهنا، وعيونهم التي يرعى فيها الذل لن تواجه عيوننا أبدًا.

- أنت مخطئ يا سيف، وتقديراتك نابعة من غرورك.

- ليس غرورًا بل ثقة.

- الأمن الحقيقي يخلقه العدل وليس البطش.

- لو أطلعت قادتنا على موقفك لنلت عقابًا قاسيًا.

- لم يعد يهمني، لقد فعلت طيلة هذه السنين ما لم أكن راضيًا عنه، وهذه

المرة أشعر أن بوسعي أن أتخذ القرار الذي طالما ترددت فيه. يمكنني أن أكفِّر عن كل أخطائي، وأنا أشعر أنني مع الناس ولو لمرة واحدة.

- أنت الذي تقول هذا، وطالما اعتقلت وسحلت وضربت نشطاء على أقفائهم، وقدتهم معصوبي العيون إلى غياهب السجون.

- لا تضحك على نفسك. نحن أيضًا ضحايا الظلم في هذا البلد. زملاء لنا أقل منا كفاءة يعملون في إدارات مريحة ويستطيعون من خلالها أن يحصلوا على عشرات أضعاف مرتباتهم من الفساد والابتزاز. مستقبلهم مفتوح على مجد مزعوم ينتظرونه. أما نحن فليس لنا دخل إضافي، ولا أحد يعوضنا، ولا حتى فرصة للفساد، رغم أنه لولا وجودنا في حرِّ الشوارع وبردها ما استقر الحكم ولا نعم كبار الفاسدين بكل هذه الراحة.

- أنت تبالغ يا يسري في دورنا. أنسيت أمن الدولة والمباحث الجنائية التي أصبحت تشتغل بالسياسة الآن ومئات الآلاف من البوليس السري والمرشدين والمسجلين خطرا الذين يتعاونون مع جهاز الشرطة.

- هذه المرة نحن الذين نقف في وجه المدفع، وكل هؤلاء يختبئون خلفنا، رغم أن أصواتهم المنفرة هي الأعلى.

- نحن حلقة في هذه السلسلة، وإن ابتعدنا سنضيع.

- هؤلاء لصوص يسكنون قصرًا عاليًا وفخمًا ونحن مجرد حراس على بابهم، يضرب الصقيع رؤوسنا وتلفح الشمس أقفاءنا.

- أنت تبالغ في وصفك، وتقلل من شأننا.

- لا تضحك على نفسك هذه هي الحقيقة التي تهرب منها، ولا أريد لك أن تصل إليها بعد فوات الأوان.

ها هو قد وصل إليها، لكن بعد فوات الأوان، كما سبق أن حذره زميله. ولم يكن يعتقد أبدًا أن هذا الأوان لن يزيد على ثلاثة أيام فقط.

ليلة جمعة الغضب كانا يجلسان سويًّا إلى جانب كشك يقف منكمشًا على ناصية شارع «محمود بسيوني»، وفجأة رأى المقدم يسري شابًّا ينحدر من ميدان «عبد المنعم رياض» بخطوات ثابتة ونشطة، فلما حاذى الكشك ناداه:

- يا أستاذ حسن.

توقف وسار نحوه وابتسامته تلمع في النور المرتعش الذي ينسكب من مصباح الشارع، فسار إليه متهللًا، فلما التقيا مد المقدم يسري يده فاردًا كفه عن آخرها فأخذ كف حسن فيها، وشدَّ عليها وقال له وهو ينظر في عينيه:

- ربنا معكم.

فهز حسن رأسه وقال له:

- موعدنا الغد.

ثم رمى حسن عينيه نحو المقدم سيف فوجد قلبه يرتعش قليلًا، لماذا؟ لا يدري.

وحين عاد يسري إليه سأله سيف:

- مَنْ هذا؟

- ألا تعرفه؟

- لم أتشرف به من قبل.

- هذا لأنك لا تعتني بالتدقيق في وجوه المحتجين، وتتعامل معهم كأنهم قطع من الأحجار.

- عدم معرفة هذا الولد غير المهذب لا تستحق أن تؤنبني عليها هكذا كأنني ارتكبت خطيئة أو خالفت أمرًا نظاميًّا.

- لا خطيئة ولا خطأ... هذا الناشط السياسي حسن عبد الرافع.

- يعني من المشاغبين.

- تقصد المحتجين.

- لا فرق.

- هناك فرق كبير.

- هذا عندك.

- وعند القانون الذي يحكمنا.

- لا يجدي القانون في التعامل مع هؤلاء المخربين.

- غياب القانون هو الذي يخلق الاحتجاج والغضب، أليس العدل أساس الملك؟

- لو كل ضباط الشرطة مثلك لركب الخلق فوق أكتافنا وساقونا كالنعاج.

- طالما قلت لك إن الهيبة يخلقها الاحترام والمحبة وليس البطش والغطرسة.

***

يطارده هذا الكلام الآن في عزلته واغترابه الطارئ. يَخِزُهُ كالشوك. يلسعه كالجمر. يأخذه ويرده، ويعلو به ويهبط كأنه ملقى فوق موجة عاتية في يوم عاصف. الآن فقط يراجع كل شيء. جردة الحساب التي تغافل عن القيام بها كل هذه السنوات، وظن أن المجد سيفتح له ذراعيه بلا حساب. كان يحلم بأن تلفت قسوته وصرامته وانحيازه التام إلى السلطة انتباه رؤسائه السادرين في جبروتهم فينقلونه إلى جهاز مباحث أمن الدولة؛ لينعم وسط حراس السلطان، بعد أن قضى خمس سنوات في «المباحث الجنائية» لكنهم فعلوا عكس ما يريد تمامًا، ورموه في سلاح «الأمن المركزي».

عيون الولد تشع في رأسه، كان فيهما ألقٌ وتحدٍّ وامتنان ورضاء. نفس ما رآه في عيني الناشط السياسي حسن عبد الرافع الذي أغاظه حين سلم على

زميله المقدم يسري بندية وثقة، وها هو اليوم يقرأ خبر مصرعه.

حين نظر الولد إليه لم يعرف سيف في تلك اللحظة كيف يمكن أن تحتشد هذه المشاعر في رمقة واحدة؟ وكيف يمكن لولد كان بالأمس إن رآه يكاد أن يدخل في الحائط لا يعبأ به ويواجهه هكذا دون وجل ولا هيبة ولا دموع؟ وكيف تغير كل شيء في ساعات وتبدلت الأدوار في غفلة ممن ظنوا أن الناس انحنت واستمرأت الانحناء ولن تقيم ظهورها إلا حين ينفخ إسرافيل في الصوْر؟ عيني الولد لسعته في رأسه، أحيت كل طاقات الغضب والغيظ المكبوت منها وما يتوالى على مدار السنوات السبع الفائتة.

كانت الدفقة الأولى للغيظ قد ولدت في نفس المقدم سيف حين وجد مجموعة من الناس، لا يعرف أسماءهم ولا تعنيه، يرفعون لافتات يقولون فيها للرئيس: «كفاية»، و«لا للتمديد ولا للتوريث». مَنْ هؤلاء حتى يتجرأوا على مطالبة صاحب الأمر والنهي، والإثبات والنفي، والفرح والحزن، أن يترجَّل ويكف عن الإنعام عليهم بتوجيهاته الحكيمة؟

كان يريد وقتها أن يطلق الرصاص عليهم جميعًا، لكن رئيسه، صاحب السيفين المتقاطعين والنسر الراقد أمامهما، مناط حلمه وأمله، حذره من التهور:

- هؤلاء شخصيات عامة ويجب أن نتعامل معهم بحساب.

استمتع ذات يوم باعتقال بعضهم. حشرهم في عربة الترحيلات وتمنَّى لو وضعهم في زنازين انفرادية، ويمر عليهم مرتين، صباحًا ومساءً؛ ليجلد كل واحد منهم مائة جلدة. لكن الأوامر جاءته لتغتال حلمه:

- خذهم إلى طريق القاهرة السويس الصحراوي ثم اقذف بهم من جوف العربة وارجع.

ألقاهم في غضب، ثم نظر إليهم باحتقار، وقهقه بضحكة هيستيرية، ولكز السائق في جنبه:

- بسرعة بعيد عن هذه الزبالة.

الولد النحيف قتل داخله كل هذا التجبر الذي جمعه على مهلٍ من بعض رؤسائه، وظل يسقيه من قسوته الطافحة كل يوم، حتى يستوي ويكبر ويفتح أمامه باب الذهاب إلى ما يريد. كان الولد فاردًا ذراعيه وهامته مرفوعة وأنفه يسحب الهواء المنساب من صفحة النيل وقدماه تمشيان على مهل وفي ثقة.

مشهد لا يمكن لسيف أن يسكت عليه. لو مرَّره فسينهار داخله كل ما شيده، ويتحول إلى قشة يضربها الهواء الخارج من أنف الولد، أو يدهسها بقدميه أو يحرقها بالشرر المندفع من مقلتيه. لكل هذا وجد نفسه يسحب مسدسه بسرعة خاطفة، ودون أدنى تردد يصوبه إلى رأس الولد. تحديدًا بين عينيه. صوب وصرخ:

- إرجع يا حيوان.

لكن الولد كان يتقدم إليه بشفتين مزمومتين وصدر عريض. عندها ضغط على الزناد وخرجت الرصاصة لتستقر بين عينيه، فانبجث الدم غزيرًا، وسال على ملابسه ثم تساقط على قدميه اللتين كانتا، ويا للغرابة، لا تزالان تتقدمان في ثبات، فلم يجد سيف مفرًّا من الهروب؛ لينجو من الآلاف التي ما إن رأت الميت السائر صوب الميدان حتى اندفعت هادرة:

«مش هنخاف مش هنطاطي... إحنا كرهنا الصوت الواطي»

يتذكر الآن أنه لولا عربة الأمن التي كانت واقفة عند مدخل الكوبري لدهسته الأقدام الغاضبة. جرى بكل ما أمكنه من قدرة على الهرب، وقفز داخلها وقال للسائق:

- ادخل على الكورنيش بسرعة.

لكن السائق دخل به إلى الضياع والخوف والانهيار، حتى بات يتمنى، وهو يدفن رأسه باكيًا في وسادته اللينة، لو كان قد سقط صريعًا بين قبضتي الميت الحي، أو خمشته أظافر رفاقه بقسوة حتى نزف كل دمه وارتاح من كل هذه الهموم التي تردت فوق رأسه، وأشعرته أنه لا شيء.

وحزنت زوجته لاكتئابه، ونفر منه أولاده منسحبين إلى عالمهم الخاص، وشعر كل من حوله أنه تغير، وأنه يحتاج معجزة حتى يخرج من هذا الجب العميق الذي سقط فيه وهو مجرد من كل أسباب القوة. لكنه كان يعلم موطن قوته. إنه الهدف، ليس مهمًّا أن يكون نبيلًا أو وضيعًا، بل يجب أن يتواجد في كل الأحوال، وأي الاتجاهات.

وظل طيلة السنة الماضية يسعى وراء هذا الهدف، لكنه لم يَهتَدِ له، أجهده التفكير، وكادت نفسه أن تنزف كل ما فيها من صبر، لكنه فجأة وجد ما يريد. شيء برق في رأسه وملأه نورًا وأملًا، فراح سواد الحزن ينحسر، وبدا منتعشًا في عيون ذويه، وكاد أن يقول لكل من حوله:

- وجدتها.

بعد أسبوع قدَّم استقالته، وذهب إلى الصحراء يزرع قطعة الأرض البور التي كان قد اشتراها باسم زوجته قبل سنين، وتساقطت الصور المتزاحمة من رأسه إلا صورتين كانتا محفورتين بعمقٍ شديدٍ، صورة الولد الميت الحي، وعينا حسن عبد الرافع وهما تخترقان جبروته في لحظة خاطفة لكنها لم تكن أبدًا عابرة في حياته.

8

ظل يسير دون أن يعرف أنه سيصل إلى دائرة الدم والنار والحماسة المتناهية. دخل بأقدامه العالية باب التاريخ وأوصده خلفه، وترك الطغاة يتخبطون في المساحة الهائلة للظلمة والكآبة. ما خُلق لهذا قَطُّ، لكنها الأقدار، أو هي إرادة صاحبه الجهول الذي لم يكن يحسب أنه يسجل خطواته في الاتجاه الخاطئ، وأن الأقدام ستدوسه في «ميدان التحرير».

كثيرون يبذلون جهدًا خارقًا كي يسمي الناس أشياءً بأسمائهم. أبنية، حارات، شوارع، ميادين، أحداث مشهودة. أما هو فقد رآه العالم كله في لحظة خاطفة ثم استقر اسمه عنوانًا للحظة فارقة بين الصواب والخطأ، بين الحق والباطل، وبه حسم كل المترددين والحائرين مواقفهم.خرجوا ليدقُّوا الهواء بأيديهم فيسوقوا الريح إلى حيث يجلس الطاغية العجوز فيهتز عرشه ويترنَّح ثم يسقط إلى الفراغ، ومنه إلى عتمة التاريخ.

ظل سنين في ذهاب وجيئة عبر الرمل الممتد إلى آلاف الأميال، يحمل صناديق السلاح، ويمشي بطيئًا فوق «درب الأربعين» وسط العشرات من بني جنسه، وأمامها كلهايمتطي الزنباع ظهر ناقة بيضاء ذات أذنين مقطوشتين، يُغنِّي مواويله التي لا تنتهي؛ ليسلي نفسه وإبله الطيبة المطيعة.

«يا ريس البحر خدني معاك من البر أحسن لي

أتعلم الكار بوسع البال أحسن لي

أزود بمدرة، أجر لبان أحسن لي

طلعت أِلم القلوع لقيت العويل أطول من الصاري

رميت المداري وقلت البر أحسن لي»

كان الزنباع يحب هذا الجمل، الذي تحبه ناقته، وتأثر جدًّا إلى درجة البكاء يوم بيعهما معًا بعد أن تقدم بهما العمر وصعبت عليهما رحلات الصحراء الوسيعة، لكنه اشترط على مَنْ اشتراهما ألا يذبحهما، فأطرق الرجل صامتًا لبرهة، ثم قال:

- حاضر.

- وعد؟

- وعد.

- نقرأ الفاتحة.

- نقرأها.

ومد يده وعاهده. وفي اليوم التالي حملهما من السمطا إلى نزلة السمان وباعهما دون عناء، فصارا قاربين للزينة، بعد أن كانا سفينتين طالما مخرتا في

عجيج الرمل السَّافِ، وداست خفافهما الحصى والصخور.

***

في النزلة كل العائلات تعمل بالسياحة، والجمل وناقته يعملان بها، لكنهما لا يعرفان بالطبع عند أي عائلة استقر لهما المقام، ولا يسمعان عن عائلات الجابري وخطّاب وفايد والشاعر والحلو والقماطي والوليلي وأبو باشا وأبو زيد وأبو بريش وأبو عزيزة وغنيم وتركي، ولا يعنيهم كل هؤلاء في شيء.

على بعد مسافة قليلة من المكان الذي يبيتان فيه كان الجمل والناقة يعملان طيلة النهار وأول الليل. ما إن يسمعا صوت الولد الذي يدور حولهما كأنهما مزاران صوفيان قديمان: إخخخخ، حتى يهبطا من عليائهما ويُعدا ظهريهما لاستقبال أجساد متتابعة، جاءت من أماكن عديدة، ثم يقفا على مهل، ويسيرا إلى حيث يريد الولد، وإرادته مرهونة بقدر ما دفع له السائح الغريب، أو ابن البلد القريب، الذي جاء ليقضي نزهة مع أولاده عند سفح الأهرام العتيقة.

الجمل والناقة يعرفان جيدًا موضع خطواتهما. الصحاري الواسعة ودرب الأربعين، وهنا حول الأهرام التي يلمحانها بطرفي العيون الوسيعة في الغدو والرواح. أما هذه المرة فوجدا نفسيهما يسيران وسط جمالٍ وخيولٍ في دروب لم يألفاها من قبل. وكان لا بد للغلامين اللذين يركبانهما أن يطلقا غناءً في أذني الجمل وناقته حتى يسيرا بلا تململ في طريق غريب عليهما، هكذا أوصى الزنباع الرجل الذي اشتراهما فنقل الوصية إلى المشتري الجديد.

نظر الغلام حوله متصفحًا واجهات الشرفات والنوافذ، ثم هبط بعينيه على اللافتات الملونة للمحلات، لكنه نسي كل هذا ورفع عقيرته بالغناء:

«البين جاب لي طبيخ حنضل وقال لي كل

كل واشبع وفرَّق على الغلابة الكل

من بعد ما كنت في لمة وزاين الكل

صبحت غلبان ومسكين ومستحمل كلام الكل»

لكن الموال ضاع وسط شحوط السيارات وهزيمها وصفيرها حين تمرق من جانب قافلة الجمال غير عابئة بشيء، وكذلك صوت الهتافات التي تقذفها أجهزة التلفزيون في الغرف، وتنسكب من النوافذ على رؤوس المارة.

هاهو شارع الهرم يتهادى تحت أقدام لا تعرف إلى أين المسير؟ وهاهو شارع الجامعة، وقبتها النحاسية المستديرة الراسخة تملأ عيون الجِمال فترفع إليها هاماتها الطويلة. وهاهو شارع مراد، وكوبري السادس من أكتوبر، ثم ميدان عبد المنعم رياض، الذي يصب عند المتحف المصري في ميدان التحرير.

ربما لم يتوقف الجمل وناقته وزملاؤه كثيرًا عند هذا المتحف، الذي يحوي آثارًا تنتمي إلى زمن الأهرام التي يدورون هناك حولها طيلة النهار، فهذا القطيع

الذي يخور ويصهل لا يعرف قطعًا أن هذا المبنى ذو اللون الطوبي، المتراوح بين البني والبرتقالي، به ما يأتي بالناس من آخر الدنيا ليركبوا ظهور الجمال والنوق هناك حول تلك المثلثات الحجرية المضلعة العالية العريقة المبهرة.

أخذ يتقدم، والناقة إلى جواره، ثم بدأ يشعر بضربات متلاحقة من الغلام الذي يمتطيه. لماذا يضربه بهذه القسوة؟ لم يدرِ. لكن فجأة امتلأت عيناه بالأجساد الهائلة، أو التي يراها هو هكذا، تهيَّب وتباطأت خطواته، فعاد الضرب المتلاحق في سرعة جنونية يلهب عنقه من جديد، ووصلت إلى أذنيه الفرقعات التي تنزل على رقبة صاحبته، فأخذ يعدو في مساحات تتسع وتضيق. شعر أن هناك أيادٍ تلامسه بقسوة من اليمين واليسار، فتوقف مصدودًا بغابة اللحم المتحمسة، والتحمت به أجساد من الجانبين، ورأى أصحابها يشبون ثم يسحبون في قسوة الغلام الراكب فوقه، فتخفف ظهره، ثم التفت فلم يجد صاحبته. غابت في الزحام. إلى أين؟ لا يعرف.

أما هو فعرف جيدًا أين يكون؟ هنا مكان فسيح يزدحم في بعض جوانبه ببشر مُتعَبين، يتفصَّد العرق من جباههم رغم برودة الجو، وتتساقط من رؤوس بعضهم ووجوههم قطرات دم؛ لتصنع لنفسها دروبًا متعددة الأشكال على خدودهم، وفوق ملابسهم. كانت في أيديهم أحجار، وفي عيونهم جرأة وحماسة، وفي قلوبهم أمل عريض.

كان موقفًا جديدًا عليه، لكنه لم يشغله شيء سوى أن يستريح قليلًا بعد أن هدَّه المشوار الطويل، ولسعات الضربات المتلاحقة بعصا الغلام. أخذوه وربطوه في الحاجز الحديدي الذي يفصل بين ميدان التحرير ومدخل شارع طلعت حرب، وتركوه يخور في بطء وهدوء، لا يتماشى أبدًا مع الصخب، والكرّ والفرِّ اللذين يشهدهما الميدان.

***

حين جنَّ الليل اقترب حسن وصديقه أكمل وصفاء من الحاجز الحديدي وألقوا نظرة شاملة على الجمل، وحسدوه على النعيم الذي يعيش فيه. فمع كل هذا الصخب يقف في سكينة وسلام. ووصل حسن إلى عنقه وراح يمرر راحته عليه في هدوء وحدب، فأخذ الجمل ينيخ حتى استقر على الأرض شارعًا رأسه نحو بقعة الليل الواقفة بين فوهة الأبنية التي تتوازى على أول الشارع.

نظر إليه حسن عبد الرافع مليًّا، ثم اغرورقت عيناه بالدمع، اقترب منه مرة أخرى، وهمس في أذنه:

- ربنا أرسلك لنا أنت وأخوتك في الوقت المناسب.

ثم رفع رأسه وقال لأكمل:

- كاد الناس ينفضوا عنا بعد أن دغدغ الطاغية العجوز عواطفهم بخطابه الكاذب.

فقال أكمل مبتسمًا:

- مَنْ أرسل هذه الجمال والأحصنة يستحق أن نكافئه.

فهزَّ حسن رأسه وقال:

- طبعًا. حين رأى الناس الجمال في ميدان التحرير عادوا إليه، وعرفوا كذب الطاغية، وأدركوا توحش وتخلف النظام الذي يحكمهم. نهاجمهم بالفيس بوك وتويتر ويوتيوب فيردون بالدواب.

لكن ابتسامة غريبة ارتسمت فجأة على شفتي حسن، جعلت أكمل يسأله:

- ماذا بك؟

- ذهني راح بعيدًا.

- إلى أين؟

- أيمكن أن يكون «الإخوان» هم مَنْ أرسلوا هذه الجمال؟

- وما مصلحتهم في هذا؟

- لو انفضَّ الناس من الميدان سينفرد النظام بهم ويحملهم مسؤولية ما جرى ويحاكم قادتهم بقسوة، وقد تصل الأحكام إلى الإعدام.

- وهل سيتركنا نحن؟

-لا بالطبع، كل الفاعلين في هذه الثورة سيرسلون إلى غياهب السجون، لكننا في النهاية أفراد، أما هم فتنظيم حديدي، والغاطس فيه أكبر بكثير من الطافي على السطح، ولا يعرف مداه إلا أجهزة الأمن، وخطاب مبارك بأمس كان فيه تهديد واضح لهم، وهم أدركوا هذا جيدًا.

- يمكن للإخوان أن يستفيدوا من هذه اللحظة، بالقطع سيفعلون ذلك، أما أن تصل أذهانهم إلى مثل هذا التدبير، فلا أظن هذا أبدًا. إنهم خائفون مرتبكون وليسوا بهذا الذكاء.

- أختلف معك.

هزَّ أكمل رأسه وقال:

- عمومًا، كل شيء سيتكشَّف بمرور الأيام.

ونظر عن يمينه وقال:

- المهم الآن، ماذا سنفعل بهذه الجمال؟

وفي اليوم التالي سلموا الجمال وبعض الأحصنة إلى قوات الجيش، فأعادتهما إلى «نزلة السمان» في رحلة معاكسة، لم تدرِ فيها لماذا جاءت؟ ولماذا ذهبت؟ لكن ما استقر في ذاكرتها هو هذا الوهج الأحمر والأصفر، وذلك الدخان الأسود الذي كان ينبعث أمام عينيها وهي ترى العالم أمامها أكبر وأوسع مما ألفته من قبل.

عاد الجمل إلى الحظيرة، ولم يعد الغلام.

وبعد خمسة أيام وجده أمامه، رأسه مربوط بشاش أبيض ضخم، تستقر في قلبه بقعة حمراء، أما وجهه فيتخالط فيه الأحمر والأزرق على ورم ظاهر. كان منكسرًا. تقدم إليه، وسأله:

- أين صاحبتك؟

رفع وجهه إليه ونفر بقوة، فتساقط الرغاء على رأس الغلام، ثم دفن عنقه الطويل بين قدميه الأماميتين، ولاذ بصمت، وأخذ يزفر ويشهق، وصمت فجأة، ورجع إلى الوراء خطوات، ومد بوزه نحو الغلام. وكان يعرف هو ماذا يريد الجمل في هذه اللحظة. مد يده وراح يمسد عنقه، وارتفعت عقيرته:

«شوف الكلام اللي قلتولك ماجراشي

وآدي اللجام انكسر حتى الكحيل ماجراشي

أوعك تماشي جدع يكون طول عمره ماجراشي

ماشي جدع ينزل على العدا جرايه

ما ينهت من قوم لو كانت راكبة خيل جرايه

دانا نزلت دموعي على الخدين جراية

أكثر أسايا من أحبابي وأنا ما أدراشي»

وجاءت الأيام اللاحقة عصيبة. بقي الجمل في الحظيرة، وعرف الغلام طريق المقهى، فجلس عليه ساعات طويلة. كان يحتسي الشاي وهو يتلفت حوله لعله يجد سائحًا واحدًا قادما من أي جهة، فيجري نحوه، ويجري نحو الجمل ليسحبه، ويذهبوا جميعًا إلى سفح الهرم.

لكن الساعات راحت تتراكم دون أن يلوح أي أمل في نهاية قريبة لهذا القعود، أو يكف كل الجالسين عن إبداء كراهيتهم للثورة التي يتهمونها بأنها خطفت أرزاقهم، دون أن يكلفوا أنفسهم برهة واحدة ليستمعوا إلى أحدهم وهو يقول:

- خسرت فلوس وكسبت حريتي.

ولا يجد ردًّا من أحد، إلا نظرات غاضبة، لكنه يواصل:

- أنسيتم أنكم كنتم تقسمون ما تعرقون به مع أمناء الشرطة والضباط الفاسدين.

فيضحك رجل جالس في ركن المقهى ويقول:

- والآن جاءنا من يريد أن يغطي الأهرام لأنها حرام ويحطم أبو الهول لأنه صنم، ويتمنى لو لم يزر بلدنا أجنبي واحد.

يدخلون أكثر في صمتهم وآذانهم تجتر كل ما ينسكب عليها في المساء من الشاشات الزرقاء عن «معركة الجمل» فيبتسم بعضهم أحيانًا وينظرون إلى الغلام ويقولون:

- جملك دخل التاريخ.

فيقهقه الغلام ويقول بكل ثقة:

- كلهم متفقون على أنه لولا جملي لفشلت الثورة.

فيهزون رؤوسهم ويبتسمون، كابتين قهقهات عارمة في صدورهم التي لا تكف عن الغيظ من الثوار.

9

رسالة قصيرة. بضع كلمات تتجاور لتصنع معنى. المعنى يفتح طريقًا لحركة في المكان وتمدد في الزمان. كلمات أخذت خالد السبع نحو خطوة أخرى في سبيل تلبية هذه الرغبة المحمومة التي تستعر داخله وتدفعه بطاقةٍ جهنمية ليهتك سر مقتل حسن عبد الرافع. إنها مغامرة، لم ينتظرها ولم يتوقعها، لكنها تهادت أمامه في لحظة غريبة نادرة، ولن يضيعها أبدًا، مهما كان الثمن. لا يدري إن كان سيكمل الرحلة أم لا؟ المهم بالنسبة له أن يمضي ولو قليلًا في مغامرة من أجل أن يستمتع هو، مهما كانت النتائج.

الرسالة كانت من حسن إلى أكمل. هكذا بدا الاسم وحيدًا على قائمة الهاتف، أما كلماتها فلم تزد على عبارة واحدة تقول: «يجب أن تضع يدك في يدي يا صديقي لنفضح كل الثعالب».

كان الفجر يرمي نورًا شحيحًا في جوف السماء. ارتفع غطيط وشخير من النوافذ المفتوحة على جثة حسن، واختلط كل هذا برنين خافت، كان يتلاحق في مكان لا يعرفه خالد، ثم تحول فجأة إلى صوت متناوم يقول صاحبه: نعم.

- الأستاذ أكمل؟

- خير.

ولم يكن خيرًا بالطبع، لكن السبع راح يمارس هوايته في الضغط على الخصم حتى يعصره تمامًا:

- أتعرف شخصًا اسمه حسن عبد الرافع؟

زال عن الصوت تناومه:

- حسن طبعًا... مَنْ حضرتك؟

- أنا شخص لا تعرفه، يقف الآن عند جثة حسن في ميدان باب الشعرية.

- جثة حسن؟!!

- قتلوه قبل ساعات وهربوا.

- مَنْ هؤلاء؟

- علمي علمك.

نصف ساعة وكان أكمل يرفع الملاءة المهترئة وورق الجرائد عن الجثة، ويطلق نشيجًا مريرًا، ذاب في الغطيط والشخير، ونباح كلب زاعق جاء من شارع جانبي مغسول للتو بنور الصبح الجلي.

ظهر رجال الإسعاف وحملوا الجثة. وقبل أن ينطلقوا جاءت الشرطة. عند التاسعة صباحًا فُتح تحقيق في الحادث. سؤال وجواب فامتلأت صفحات، من دون أن تسطع الحقيقة، أو حتى يبين أي خيط يهدي إليها.

يعرف أكمل الكثير، لكنه آثر الصمت، وفضَّل أن يعرف أكثر قبل أن ينطق بشيء أو يفعل شيئًا. بقي أيامًا بملامح شاردة ساكنة، وذهن معذب بالظنون. وشعر رغم ما لديه أنه لا يمكن أن يقف بسهولة على ما جرى. فكل شيء غائم، والحقيقة ضائعة في ركام من الظنون والاتهامات المتبادلة، والجري وراء السراب. وكل من سبق حسن إلى الشهادة لم يحدد قاتله بالضبط. الكل يعرف أسماء وهيئات يحملها المسؤولية بشكل عام، لكن مَنْ بالتحديد؟ وكيف تم قتل كل حالة على حدة؟ هذه هي المعضلة الصعبة، التي نشأت حين طُمست الأدلة عن عمد وفي تبجُّح ظاهر.

راح يسأل نفسه: مَنْ قتله؟ ويجيب لنفسه صامتًا: ربما تجار الدين، أو تجار السياسة، أو تجار السلاح، أو حتى التجار التجار، الذين يدافعون بضراوة عما نهبوه من مال الشعب، أو الحمقى الذين يزعمون أنهم وحدهم الأطهار.

***

قبل أن يسوق القدر حسن عبد الرافع في طريق أكمل، كان غارقًا حتى أذنيه في سعي دؤوب إلى تحقيق حلمه الصغير بامتلاك شركة سياحة، تبدأ صغيرة، كما يبدأ كل شيء وكل شخص، ثم تكبر مع الأيام. أراد أن يجمع الخبرة والمال معًا، فذهب للعمل في أحد فنادق مدينة شرم الشيخ النائمة بين ذراعي البحر والجبل.

لم يكن أكمل يعاني من ضائقة مالية، فشاب مثله لم يتعدَّ عمره خمسة وعشرين عامًا حين يجد نفسه يتقاضى خمسة آلاف جنيه شهريًّا، فهذا يرضيه، لاسيما إن قارن حاله بغيره من الشباب العاطلين المتسكعين في الشوارع، والتائهين على المقاهي، والراقدين في البيوت، غارقين في وجوم وكآبة.

لكن الإنسان لا يكفيه من الحياة المأكل والمشرب والتناسل، إنما لديه حاجة ماسة إلى التقدير، وشعور متجدِّد إلى التحلي بالكرامة. هذا كان أكثر ما يؤلم أكمل. لم يكن منبع هذا الألم هو ما يقرأه عن قصص مؤسفة لآخرين. عماد الكبير الشاب البولاقي الذي غرس ضابط شرطة عصا في دبره. خالد سعيد الذي مات تحت الضرب وزعموا أنه اختنق وهو يبتلع لفافة بانجو. سيد بلال صاحب اللحية الكثة الذي عذبوه حتى خرَّ بين أيديهم صريعًا. الموظف المنياوي الذي قتل زوجته وأولاده وانتحر لأنه عجز عن تدبير احتياجاتهم الضرورية. ما يجري للناس من قهر واستعباد في الأسواق وأقسام الشرطة، وفي الغيطان والمصانع والمعامل. أمراض السرطان التي ترعى في أكباد ورئات المصريين، الاكتئاب والوسواس القهري الذي سرى في نفوس الملايين، ووضع أعدادا غفيرة منهم على حافة الفصام.

كان منبع الألم يخصه هو مباشرة، ولا يزيد عما يراه ويعاني منه أثناء دخوله هذه المدينة الجديدة على الدنيا. الباص الذي يقله إليها يحمل في بطنه

الوسيع أناسًا من جنسيات شتَّى. جميعهم يلقون معاملة حسنة من الشرطة في كل نقاط التفتيش، وبعضهم يعامل باحترام مبالغ فيه. وحدهم المصريون كانوا يعاملون بقسوة. يقف الباص، ويصعد شرطي متجهم. يمضي بين صفي الركاب، ناظرًا إليهم بعينين جاحظتين من فرط الاستعلاء. يمد أطراف أصابعه ليلتقط بطاقات الهوية وجوازات السفر. تنفرج أساريره للأجانب، وابن البلد له تقطيب الجبين، ثم يقول بطريقة آلية لا تنقطع:

- انزل تحت.

بعض مَنْ ينزلون حاملين أمتعتهم البسيطة، يُجبرون على العودة من حيث أتوا، رغم أن كل أوراقهم الثبوتية سليمة تمامًا. لا تحرك دموعهم أو الأسى الذي يأكل ملامحهم أي ساكن لدى ضابط صغير، ملازم أول أو نقيب، ينظر إليهم باشمئزاز من خلف نظارة سوداء، وهو يتململ على كرسيه واضعًا نعله في وجوههم. بعضهم يتعرَّض لتحقيق قصير، ثم يُفرج عنهم، فيهرولون حامدين الله على النجاة. بعضهم يعبرون الطريق المضاد ليعودوا إلى مسقط رؤوسهم صُفر اليدين.

طالما كان أكمل يشاكس في كل مرة يذهب فيها إلى شرم الشيخ مع رجال الشرطة. يقف أمامهم، ويقول لهم:

- الفقر في الوطن غربة.

هذه الحكمة المنسوبة إلى الإمام علي بن أبي طالب، والتي سمعها من خطيب الجمعة قبل سنين، وانطبعت في رأسه، يستدعيها كل مرة وهو يجد العمال الجالسين على جانب الطريق، والشمس ترعى في أقفائهم. كان النقاش يحتدُّ أحيانًا، لكن أكمل يعرف جيدًا متى يلطف الأجواء، وينسحب في هدوء بلا ثمن. نكتة أو طرفة أو تعبير لاذع خاطف مسكون بالتحايل، فينتهي الموقف بإشارة من إصبع الضابط:

- روح يا بني إلحق أكل عيشك أحسن لك.

كان يعرف سبب كل هذه القيود الأمنية. إنه الرجل العجوز الجاثم على عرش مصر، السابح في أوهامه وخيالاته. كان يتخيله أحيانًا كائنًا له ثلاثة أنياب، يمتد أولها من رفح حتى السلوم، والثاني من دمياط حتى حلايب، والثالث من طابا حتى سيوة. يقبض بها على كل هذه الملايين، ويمص نخاعهم ويتلذذ في استرخاء، وهو مُستلق على ظهره يحدق في الفراغ، بينما يستقر ابنه المدلل على حجره وهو يُخرج لسانه للجميع.

ذات مرة رسمه على هذا النحو. رأسٌ ضخم وجبهة عريضة وأنياب طويلة تخرق خريطة مصر، إلى جانبه طاولة عليها كأس نبيذ، ورزم دولارات، ومسدس، وورقة مكتوب فيها: «الاستقرار والاستمرار». وكان أكمل يصطحب معه هذه اللوحة الصغيرة في حقيبة السفر. يخرجها قبل نقطة تفتيش شرم الشيخ وينظر فيها

طويلًا، ثم يعيدها إلى مكانها مبتسمًا.

وظل محافظًا على هذه الابتسامة الساخرة وهو يمضغ ويبلع الإهانات التي يكيلها الضابط وجنوده إليه هو وزملائه. موقف يعاد بحذافيره كل مرة، وفور أن ينتهي يحاول أن يمحوه من حياته، وكأنه لم يمر به. يحاول ويكتم محاولاته، فيرتفع جدار الكراهية في نفسه، ثم يتحول إلى كلمات غاضبة على «العالم الافتراضي».

تسلل في البداية إلى «المنتديات» وكان يكتب خواطر سياسية بلغة عذبة معذبة، ثم قادته خيوط الشبكة العنكبوتية الناعمة التي لا تكف عن التناسل إلى «المدونات» فوجدها ترحب بخواطره السياسية وتحتضنها. وراقت له مدونة «بهية» وكان يقرأ كل ما فيها بالعربية والإنجليزية، وقادته أصابعه إلى مدونات مثقلة بمئات الآلاف يتابعونها. ولما نشأ حساب «خالد سعيد» على «فيس بوك» كان أكمل أحد فرسانه. قذف كل حمم غيظه في كلمات زاعقة حارقة، أخذت تجذب إليها تعليقات تتصاعد بلا هوادة نحو الانفجار الكبير، ولم يتخيل هو ومن معه يومها أن كلمات في دنيا ناعمة ستأتي بملايين الأقدام تدك الشوارع وملايين الأيادي تدق الهواء.

كان أكمل أحد شرارات هذا الانفجار. أما حسن عبد الرافع فهو جمرات ضخمة ألقيت في قلب الغاضبين، وهو يصرخ هاتفًا فيلهب الحناجر، ويرتجل الشعارات بلا أدنى جهد. والأهم من هذا أنه كان أحد منظمي سير الحياة اليومية في ميدان التحرير.

لجان عدة كونها الثوار. واحدة للإعاشة، وثانية للإذاعة الداخلية، وثالثة لأمن الميدان، ورابعة للإعلام، اللجنة الخامسة كانت للتوعية ورأسها حسن، فتصرف وكأنه ضابط مخابرات مُحنَّك، فصد شائعات، وردَّ كل ما ألقاه عملاء السلطة في أذهان المتظاهرين من أفكار مسمومة لتثبيط الهمم.

وفي زحام الأجساد الملتهبة من شدة الاستياء، نظر أكمل إلى حسن وسأله:

- مَنْ أنت؟

فربت كتفه وقال:

- أنا أنت.

فتحيَّر قليلًا ثم قال:

- لكنني لست مثلك.

فابتسم له وقال وهو يهز رأسه:

- يمكنك أن تكون ما تريد.

كانت عبارة أطلقها حسن، وخلصت إلى أذن أكمل مبثوثة في الهدير الرهيب الذي يرتج له ميدان التحرير. بعدها انخطف أكمل، أخذته الندَّاهة، أو قام ساحر

ماهر بتنويمه. بات أسيرًا، وسار وراء حسن وهو مطمئن تمامًا إلى أنه يمضي في الطريق السليم.

حتى حين أخذه من يده وقال له:

- أنت مسؤول الإغاثة في الميدان.

لم يرد بحرف واحد، بل هزَّ رأسه، وانهمك يؤدي مهمته الجديدة بكل تفانٍ وإخلاص.

10

تزحف الملايين من الشوارع الخلفية إلى الميدان، تفرغ فيه مخزون غضبها القاتم. هتافات محرّضة، ورسوم ساخرة من الطاغية وأسرته، وشعارات لاذعة زاعقة يدونها بشر أتعبهم انتظار هذه اللحظة المفعمة بالأمل. يزحفون ويعودون، يأتون ويرجعون، بعضهم يبيت في مكانه، وبعضهم يقضي وقته بين الكعكة الحجرية التي تتوسط ميدان التحرير وبين سريره، الذي ينتظره ليناما سويًّا.

لم يدرِ أيٌّ من هؤلاء بما يجري في بيوتٍ تأخذ الميدان بين ذراعيها. أسرار كانت تنمو مع مطلع الشمس ومغربها، لا يعرفها إلا أصحابها. خطط وتدابير لتفريغ كل ما يجري من مضمونه. أخرى لتحويله في اتجاهٍ آخر. كل هذه الخيوط التي تتشابك وتتعقد، كما يتخبل الغزل، كانت ماثلة أمام حسن، واضحة جلية. كان يعرف كل شيء، ثم يطلق ابتسامة ساخرة من طرف فمه، حين يختلي إلى نفسه وهو ينصت إلى الشيخ رأفت مغازي حين يقول:

- إنها ثورة ربنا.

كان حسن يردد دومًا الآية الكريمة: «إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفُسهم»، وفي أول إطلالةٍ له على التلفزيون عقب انطلاق الغضب قال: «تغيَّر المصريون فحقَّ على الله أن يساعدهم» لكنه كان يمقت الشيخ مغازي وهو يقطع:

- مشاركتنا في الثورة هي قطعًا وراء نجاحها.. ألسنا نحن عباد الله الصالحين.

وقال له ذات عصر، والشمس تنزف نارًا على رؤوس المتظاهرين:

- على من تعود الـــ«نحن» تلك يا شيخ.

فربت كتفه، وقال بملء فمه، وكأنه قد أخذ على الله ميثاقًا غليظًا:

- الإخوان يا حسن.. إيَّاك أن تعتقد أن الله يمكن أن يساعد العيال «السِّيس» الذين يجلسون على المقاهي يدخنون الشيشة، ويتلصَّصون على مؤخرات البنات.

فابتسم حسن وقال:

- لا تتعجل النجاح، المشوار لا يزال طويلًا.

حين اندلع الغضب العارم كان حسن في الشوارع يقاوم القنابل الخانقة وخراطيم المياه والمصفحات الغاشمة بينما كان الشيخ مغازي يتمدَّد في سريره يتثاءب مستمتعًا بوجبة دسمة أكلها عند رجل ثري يستدعيه بين حين وآخر ليسمع منه ما يرطب ضميره.

وحين كان الناس يواجهون مئات الآلاف من الجنود المدججين بالجبروت في الأزقة والشوارع والميادين يوم «جمعة الغضب» كان الشيخ مغازي يدفن رأسه بين عشرة كتب قديمة، ينقل منها كل ما يتعلق بنواقض الوضوء؛ ليسكبه عند

حلول المساء في آذان الملايين ممن يتابعونه على قناة «الأنام».

احتفظ حسن طيلة أيام الاعتصام بالميدان بصفحة واحدة طبعها له أكمل من المواقع الإلكترونية لبعض الصحف، تحوي تصريحًا أطلقه الشيخ مغازي قبل تسعة أيام من الثورة، يقول فيه: «الخروج على ولي الأمر حرام» ويطالب الناس بأن يطيعوا الحاكم ولو جلد ظهورهم.

في اليوم التالي لجمعة الغضب ظهر الشيخ في ميدان التحرير يبتسم. راح يرفع يده اليمنى، ويمد منها إصبعيه الوسطى والسبَّابة، راسمًا علامة النصر، وتسابق عليه أتباعه، فصنعوا جوقة حوله أخذت تهتف، وتدور بين المتظاهرين. ولإحكام الصورة انخرط الشيخ في بكاءٍ حارٍّ، وتساقطت دموعه الباردة على رؤوس المتزاحمين حوله. منذ هذه الواقعة ثَبَّتَ الشيخ وجوده بين الثوار، وتسلل خلسة مع الأيام حتى وضع نفسه في صدارة المشهد. وبمرور الوقت صدَّق نفسه، ونقل تجارته من الفقه القديم جدًّا إلى السياسة الحديثة جدًّا، لكنه راح يخلط هذا بذاك فأفسد أشياءَ كثيرةً.

لم يشغل حسن عبد الرافع ذهنه بهذا، وكان يقول لمن يسأله من الشباب متخوفًا مما يجري:

- الميدان يتَّسع للجميع.

ولم يكن وقتها يدري أن هناك مَنْ يخطط بإحكام لسرقة الميدان وطرده هو ورفاقه منه، والاستئثار بكل شيء.

***

كان حسن يتنقَّل، بخطى واثقة، بين المتظاهرين ومكتب إحدى شركات السياحة على طرف الميدان، اتخذه الثوار مركزًا للقيادة والسيطرة. داس على كل الصغائر التي اعترضته. خلاف نشب بين اثنين يتصارعان على «سماعة الميكرفون» أو مجموعات تفاضل بين هتاف وآخر.

لم يكن حسن يرى أمامه في هذا الوقت إلا أطفالًا يجب أن يجد كل منهم رغيفًا وبيضة وكوبًا من الحليب. فلاحون يحصدون ما زرعوا والفرحة تشرق في وجوههم التي لفحها الهجير. عمال ينكبون على تروسٍ تدور بلا انقطاع وهم منشرحو الصدور.موظفون منهمكون في قضاء حوائج الناس لا في حل الكلمات المتقاطعة. علماء لا يغادرون معاملهم إلا وقد قدموا للبشر جديدًا ينفعهم. فقهاء يتحدثون عن التقدم وفضائل الأخلاق لا عما نقوله في بيوت الخلاء. كانت هذه مصر المحفورة في رأسه. مصر التي تحتضن الكل، وتنتصر للهتاف الأثير الذي سرى في أوصال الدنيا بأسرها: «مسلم ومسيحي إيد واحدة».

لم يكن حقًّا يلتفت إلا لهذا الأمر الكبير. كثيرًا ما تغاضى عما سمعه أو رآه من كلام فارغ داخل مكتب السياحة، أو فوق صالون شقة السيدة جمالات الكائنة في الدور الرابع بإحدى الأبنية الملاصقة لميدان التحرير، والتي تركتها للثوار

يلتقون فيها لتبادل الرأي حول ما يجري.

اليوم الوحيد الذي تغيرت فيه ملامح حسن، وامتلأ وجهه بانزعاج شديد، حين رأى شخصًا مجردًا من ملابسه يقف في قلب مكتب السياحة عاريًا إلا من خيط رفيع يستر عورته، والدم يتساقط من جسده، وتقيم على وجهه كآبة عميقة. كانت يداه مكبلتين خلف ظهره، تحطان على جملة تقول «كلب أمن الدولة» مكتوبة بلون أزرق، يختلط بدم يسح من كتفيه. أخذ يبكي بحرقة ويقول:

- واللهِ أنا منكم.

لكن شابًّا يقف إلى جانبه، ويلعب بإصبعيه في لحيته، يلكزه بقسوة ويقول:

- إنت أمن دولة.

شاب آخر دخل المكان فجأة، وأخرج من جيب بنطاله قصَّافة لمعت في بصيص النور الذي تسرَّب إلى المكتب من النافذة المغلقة، وراح يمزِّع جسد المكبل بغلٍّ دفين، وهو يصرخ:

- يا ابن الكلب.

رمى حسن جسده، كل جسده، أمام الشاب المضروب، ومدَّ يده وأمسك بيد الضارب، وصرخ فيه:

- حرام عليك.

وأخذ الشاب المضروب إلى المستشفى الميداني الذي أقامه الثوار في زاوية صغيرة خلف مطعم «هارديز»، فقام الأطباء بترتيق جَرحه، ثم سلَّمه إلى قوات الجيش التي كانت تعسكر أمام «مجمع التحرير»، فاكتشفت أنه محامٍ من طنطا.

كان الشيخ رأفت مغازي خارج المكتب في هذا الوقت، وحين جاء وعرف ما جرى اكتسى وجهه بغضب، وجلس واضعًا رأسه بين راحتيه، وساح في ظنون لا حدود لها، فقد وجد نفسه ينزلق إلى متاهة ليس لها قرار.

قبل هذه الأيام كانت الحياة بسيطة في نظره. يلتقط الكتب العتيقة في طبعتها الجديدة المذهبة، ويجلس إلى مكتبه يفتش فيها بإمعان، ويدون ما يراه مناسبًا للدرس الذي سيلقيه على آذان تصغي إليه جيدًا مثبتة في وجوه ملتفتة إلى شاشات زرقاء، وعيون تكاد أن تخرق الأثير وصولًا إلى فم مَنْ يعظ، وهو يمط الحروف، ويكرر الكلمات، ويغمض عينيه تصنعًا للتقوى، أو ربما تعبيرًا عنها، لا أحد يدري إلا علام الغيوب.

اليوم تغير كل شيء، دنيا جديدة انفتحت أمامه فجأة ولم يكن يدري عنها شيئًا. كان يقول مع نفسه أحيانًا: ما الذي أوقعني في بحور السياسة الغريقة؟ ساعات كان يعض على أسنانه، ويضيق عينيه الضيقتين أصلًا، ويحلّق بخياله في البعيد ويقول: لعبة ونجربها، لن نخسر شيئًا. كل ما كان يزعجه ويؤرقه في

سريره، أو يجعله يستيقظ من نومه أحيانًا غير منشرح الصدر هو الخوف من أن يفتش خصومه السياسيون في ماضيه، وكل شيء لديهم مباح. أحيانًا كان يتخيل أن أحدهم كتب مقالًا في صحيفة شهيرة يكذب فيها الدراسات العليا والمؤلفات الكبرى التي نسبها الشيخ إلى نفسه. أحيانًا كان يتخيل قيام أحدهم بتكليف مَنْ يفتش في فتاواه وأقواله، ويفضح تناقضاته وتلاعبه بالدين إلى حد عجيب. أحيانًا كان يعتقد أن أحدهم سيصل إلى كثير ممن رأوه في بداية حياته كداعية منسي، يطرق بيوت الأثرياء ليريح ضمائرهم لقاء أجر معلوم، وذلك قبل أن يشق طريقه بمكر ودهاء إلى دنيا المشاهير.

كل هذا كان يؤرق الشيخ، لكن ما أطار النوم من عينيه حقًّا هو ما عرفه حسن عبد الرافع عما فعله هو، وما دبَّره أصحابه، الذين كمنوا للثورة حتى أوشكت على الاكتمال، ثم خرجوا من جحورهم يريدون اختطافها إلى الأبد، ففسد كل شيء.

11

معَّن حسن عبد الرافع النظر في الأوراق القليلة التي أعطاها إياه الأستاذ إسحق عبد الملاك، ثم قال بوجه مشرق:

- خطة رائعة لمظاهرة مختلفة.

كان الليل يلقي حمله الثقيل على جدران الأبنية القديمة في حي «جاردن سيتي» العريق، وينسكب على ثلاثة مقاعد منزوية في ركن قصي لمقهى «مشمش»، فيغطي وجه حسن وإسحق، ويدفعهما إلى الهمس الذي لا يمكن أن يصل إلى أسماع مرتادي المقهى المنهمكين في لعب «الطاولة» و«الدومينو» أو الثرثرة حول كرة القدم، ولا تشغلهم الدعوة التي طفحت بها «الشبكة العنكبوتية» إلى مظاهرة بعد غدٍ في يوم عيد الشرطة.

ابتسم إسحق وقال:

- سيكون احتجاجًا رهيبًا.

- يمكننا أن نحوِّله إلى ثورة كاملة.

- كيف؟

- الناس محتقنة مما يجري، والاستياء بلغ مداه، والكل متحفز بعد ما جرى في تونس.

- يبدو أن الطاغية سيقول «فهمتكم» بعد أيام.

هزَّ حسن رأسه ثم قال:

- لا ينقص هذه الخطة سوى أمرين.

- ما هما؟

- شائعة تطلق عصرًا لا تزيد على جملة واحدة تقول: «الرئيس يُحتضر والوريث يستعد للهروب». هذا سيشجع الناس على الخروج إلى الشارع، وهو ما نريده.

ثم صمت برهة وتساءل:

- هل لدينا شرائح موبايل بلا صاحب؟

- كثير.

- إذًا نطلق في وقت واحد هذه الشائعة على هواتف عشوائية من مختلف الشبكات، وبعدها نجمع الشرائح ونضعها في كيس بلاستيكي ومعها حجر ثقيل، وتُلقى في قاع النيل.

- فهمنا هذه، فما الأمر الثاني.

- إذا قمعت قوات الأمن المظاهرة، كما هو متوقع، يتفرق الشباب إلى جماعات صغيرة، بعضها يهاجم مقرات الحزب الحاكم فجرًا ويضرم فيها النار. هذا قد يشجع الناس على النزول إلى الشوارع، فهم سيدركون أن الأمر هذه المرة

مختلف، إن استيقظوا فوجدوا أمامهم نارًا تشتعل في مقرات هذا الكيان السياسي الكريه.

بعدها التقط حسن الأوراق من جديد، وقرأها مرة ثانية، وقال:

- ستكون المرة الأولى منذ أربعة وثلاثين سنة التي تلتحم فيها الطليعة الثورية بالقاعدة الشعبية في الشوارع الخلفية المنسية.

ثم تنهَّد بوجع:

- سبع سنوات قضيناها في مظاهرات محدودة، حفظنا فيها وجوه مَنْ يأتون إليها، وكأننا زملاء مقهى، أو عشاق متواعدون في حديقة لا يعرفون غيرها. قفزنا وصرخنا طويلًا على سلم نقابتي الصحفيين والمحامين وأمام دار القضاء العالي، ولم يسمعنا الطاغية، بل سخر حين سأله أحد زبانيته في برلمانه المزور عن البرلمان الشعبي الذي أقمناه، وقال له بصوت مشبع بالصلف والغرور: «خليهم يتسلوا». بعد غد سنتسلى به.

ورشف إسحق من كوب الشاي الساخن، الذي طوقه بكلتا يديه ليستمد منه دفئًا، وقال:

- المشكلة الآن في موقف الإخوان والسلفيين والكنيسة.

- لا تقلق، لا يوجد عاقل يعوِّل على الإخوان في المظاهرات الكبرى. كانوا دومًا يرسلون لنا عشرات منهم، ويقولون، سنحشد بقدر ما تحشدون. إنهم يؤمنون بالإصلاح البطئ المتدرج، ولا يوجد لفظ ثورة في كتاباتهم أبدًا، ولا في تعاليم مَنْ أنشأهم الذي جعلوه فوق كل شيء.وكانوا كلما سمعوا هتافًا موجهًا ضد الرجل الكبير انسحبوا سريعًا خائفين. والسلفيون أغلبهم ضحايا الفقه الذي قام على طاعة السلطان، وهم لا يدركون خبايا هذا التواطؤ التاريخي بين الفقهاء وأهل الحكم. أما الكنيسة فقد ارتاح رأسها لدور مقاول الأنفار، الذي تستدعيه السلطة ليحشد لها أيام الانتخابات مقابل منافع صغيرة. هذا الرجل اختزل قضية المسيحيين في بناء الكنائس، وكلما ضربوه على خده الأيمن أدار لهم الأيسر، وليس حادث كنيسة القديسين منا ببعيد.

- يتصور أنه زعيم سياسي.

- هذا وهمٌ، دفع ثمنه المسيحيون.

ثم مدَّ حسن يده إلى كوب الشاي ورشف رشفة أخرى، وقال:

- خطتنا تستهدف الناس العاديين. الكتلة الصامتة، أو الصائمة عن السياسة. هؤلاء باتوا ككومة قش في صيف قائظ، تنتظر مجرد إشعال عود ثقاب لتنفجر سعيرًا يحرق الظلم والظالمين.

ولسعه إسحق بسؤال خاطف، عن شيء لم يرد على خاطر حسن في هذه اللحظة:

- وماذا عن موقف الجيش؟

تاه برهة شاردًا في الفراغ ثم أجاب:

- الجيش في ظني ضد التوريث؛ لأنه يعتبر نفسه صاحب السلطة في هذا البلد، ومجيء الوريث سيقطع عليه الطريق، ربما إلى الأبد.

- لكن الرجل الكبير يمضي نحو توريث نجله، والجيش يعايش كل هذا بصمت مطبق.

- هو يراقب الموقف، لكن قدرته على الحركة محدودة، وربما يعول على تحرك الناس، ووقتها قد يدعمهم.

- البعض يستفزه الآن بكتابات ونداءات تستدعيه ليخلصنا من الوريث، لكن المشكلة ستبدأ بعد هذا.

- أنا لا أعول على ذلك أبدًا. الشعب هو القوة الأساسية التي لا تقهر... لا تنس أن مَنْ نريد إسقاطه هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، ومَنْ تحته يدينون له بالولاء.

- لا أظن الأمر على هذا النحو البسيط.

- بل هو كذلك. الطاغية تخلَّص من كل معارضيه حتى داخل الجيش. كل مَنْ شك في ولائه أحاله إلى التقاعد. كل من شعر أن به نبوغًا أو يمكن للناس أن تعول عليه حاصره وعزله في نعومة خادعة.

- هذا كلام لا دليل عليه.

- مَنْ لا يرى من الغُربال أعمى. هذه مسألة لا تحتاج إلى برهان، والأيام بيننا.

- ما أراه جيدًا هو أنه أبعد الجيش عن السياسة، وفتح كل الأبواب أمام جهاز الأمن ليمارس السياسة كيفما شاء. الداخلية أضعاف القوات المسلحة، ولا ينقصها سوى الدبابات والطائرات لتصبح جيشًا كاملًا.

- رفضُ الجيش للتوريث جعل الرئيس يعول على وزارة الداخلية في إنجاز هذه المهمة القذرة، وأخشى اليوم الذي تصطدم فيه الجهتان.

- لا صدام يا عزيزي. توجد بين الكبار مصالح لا تنتهي. شركات وعمولات وعلاقات وتربيطات ومستمسكات وملفات مفتوحة. جميعهم في قارب واحد، قد يغضبون من أشياء صغيرة تعكر صفو ما بينهم أحيانًا، لكنهم يدركون جيدًا أن رؤوسهم جميعًا معلقة في حبل متين. إنه تحالف غير مقدس ضد هذا الشعب المسكين.

- لا تتعجَّل يا إسحق. قد نراهم قريبًا وجهًا لوجه، وكل منهم يهمس في داخله: إن جاءك البحر طوفانًا حُط ابنك تحت رجليك. قد نرى الجنرالين الكبيرين يتصارعان على البقاء.

- يقال إن بينهما صداقة ووفاءً.

- لهذا حدود. المشكلة في المصالح المتداخلة والملفات المفتوحة، والمكاسب التي لا تنتهي. وكله على حساب الناس.

وسعل فجأة فارتفعت نبرة صوته، وتناثر كلام لم يفهم منه الجالسون شيئًا، لكنه لم يلبث أن تماسك من جديد، حبس صوته وقال:

- هي إذًا لعبة عسكر وحرامية.

- أو حرامية وعسكر.

- سيَّان يا عزيزي.

وابتسم حسن في مرارة ثم صمت برهة ومال على إسحق هامسًا في أذنه:

- سقطت على أذني معلومات مهمة حول هذا الموضوع سأقولها في حينها، وكله بأوانه.

ثم ضحك فالتفت كل من في المقهى إليه، وهو يردد قول المتنبي:

«نامت نواطير مصر عن ثعالبها... وقد بشمن وما تفنى العناقيد»

***

مرَّ اليوم التالي في حذر. تواصل الثوار عبر هواتف أخرى، لا أصحاب لها، وتبادلوا المعلومات، واطمأن حسن إلى أن المجموعات الشبابية ستنطلق من الأحياء الشعبية، وستدفع المتظاهرين إلى وسط القاهرة. في المساء فتح الكمبيوتر، وحرك الفأرة إلى حساب «خالد سعيد» على «فيس بوك» فوجد الاختمار على أشده. الكل عازم على النزول. كثيرون يضعون صورهم ومعلومات عنهم في تحدٍّ سافر لأجهزة الأمن. الشعار الأساسي قد نضج : «عيش.. حرية.. كرامة إنسانية»، فابتسم في داخله وقال: شكلها مظاهرة دائمة، أو بمعنى أدق: ثورة ولا شيء غيرها.

صلَّى العشاء، وتمدد في سريره غارقًا في أفكار متلاطمة، ثم أغمض عينيه فتهادت إليه رؤيا عجيبة، استيقظ في اليوم التالي، وهاتف كل أصدقائه وهو يقول:

- رأيت البُشرى.

- أي بُشرى.

- جاءتني علامة النصر.

ثم انطلق إلى الشرفة، وعانقت عيناه شمس الضحى الدفيئة، ثم انزلقت لتستقر على أسطح السيارات التي تمضي على مهل في زحام الشارع، ودون إرادة منه وجد نفسه يمد ذراعه، ويرفع إصبعيه الوسطى والسبابة على هيئة رقم سبعة، وأنفه يسحب من نسيم عليل سرى فجأة في أوصال الفراغ.

12

«اهرب يا حسن. الأوغاد وصلوا إلينا. حاول أن ترجع إلى الصعيد. أنا سألحق بك.. بسرعة يا حسن من فضلك، بسرعة». كان هذا آخر ما قالته صفاء عليوة لحسن عبد الرافع. كلمات سريعة كطلقات الرصاص، كاشفة كدفقة نور انبرت من خلف غيوم سابحة. ألقتها بصوتها الرخيم دفعة واحدة وهي تلهث، والرصيف يسحب طاقتها المتداعية بلا شفقة.

ساعات قضتها في نسخ ما على «الفلاشة» من معلومات. تسعون «جيجا» كاملة تحوي ملايين الكلمات وعشرات الآلاف من الصور مختلفة الأحجام. صور شخصية تم التقاطها في أماكن محددة. نسخ مصورة من مستندات عن الفساد حصل عليها من صديق له يعمل بـــ«الجهاز المركزي للمحاسبات». أشكال جهنمية متعددة لتجارة غير مشروعة. مخدرات وسلاح ورقيق أبيض. عروق ذهب نائمة في أحضان الصخر وآبار نفط تغلي تحت الرمل. شبكات تقوم على أكتاف شخصيات تتحدث دومًا في برامج «التوك شو» عن العدل والحرية والفضيلة. سمسرة وتوكيلات مفتوحة. صفقات أمنية وسياسية تحت الطاولات وفي الغرف المغلقة. أرض الناس التي احتكروها ووزعوها على أصحاب الحظوة. صناديق عامرة بالمليارات من قوت الناس ولا يعرف عنها أحد شيئًا.

- يا أولاد الأفاعي... كل هذا الخداع.

هكذا قال حسن وهو يطالع الملفات والصور، وإلى جانبه صفاء، وقد فغرت فاها، واكتست ملامحها بحزن وانزعاج، ووجدت نفسها راغبة في التقيؤ، فجرت إلى المرحاض.

ولما عادت سألته:

- من أين أتيت بهذا؟

فابتسم وقال:

- ضابط مخابرات متقاعد، يريد أن يفضحهم.

- قابلته.

- أرسلها لي عبر وسيط من وسيط، والأخير الذي قابلني لم يخبرني باسم الضابط، واكتفى بتسميته بأنه «فاعل خير» و«رجل خائف على البلد».

ورآها مهمومة تكاد أن تبكي من فرط ما عرفت، فعرض عليها أن يبكرا نزهتهما الأسبوعية، التي ينتظرانها على أحر من الجمر. سير بطيء على كورنيش النيل يبدأ من ميدان عبد المنعم رياض لينتهي في منيل الروضة. في الطريق يتسليان بقزقزة الترمس والذرة المشوية، وأكل البطاطا الساخنة، وشرب الشاي والحَلِبسّة. يضحك هو، ويقول:

- المصريون عباقرة. صنعوا من هذه المساحة الضيقة التي تعانق انسياب النيل

العظيم مسرحًا طويلًا للتسكع والفرح وإطلاق الأحلام المجنحة.

ابتسمت فلمعت أسنانها في شمس العصر الأليفة، وقالت:

- احتلوا النيل بعوامات ومطاعم وفنادق، وإن صبرنا أكثر من ذلك قد يفرضون ضرائب على مَنْ يمشي هنا ليلًا أو نهارًا.

تاه هو في نفسه برهة وعاد:

- ما أجمل هذا الكورنيش في الأفلام القديمة. كان النيل ماثلًا للعابرين، وعلى ضفتيه حشائش يفترشها ويتوسدها المتعبون القادمون من الحارات الخلفية.

***

يروق لحسن دومًا أن يتوقف مع صفاء قليلًا أمام محل «لارين». يعبر الشارع ليعود ومعه كأسين من «الآيس كريم»، يجلس على السور الذي تحتضنه خضرة ملونة ترميها أشجار الزينة، ويعبر بعينيه إلى الضفة الأخرى من النيل، فتستقران على البناية الشاهقة التي يلف الزجاج أركانها، وينام الشفق على جانبها الأيمن، ويرتد نثارًا من النار يزركش الماء بحمرة وزرقة خافتتين. يلتفت إلى صفاء فيملأ روحه من روعة حسنها، ويهمس:

- أحبك يا يمامتي.

تضغط على يده، وتسأله:

- متى يجمعنا عش هادئ.

يعيد بصره إلى البناية التي تطعن الفضاء، ويقول:

- شقة في هذه العمارة تحل مشكلة ألف شاب مثلي.

تُطرق صامتة، ثم تعود لتسأله:

- هل قابلت السمسار؟

- قابلته وبلي حذائي الأجرب وأنا أدور معه في حفر الشوارع المنسية ولا فائدة.

- ومشروع إسكان الشباب؟

- لم يحددوا موعد القُرعة... وحتى إن فعلوا فمن أين لي الآن بمقدم الحجز؟

ثم زفر في أسى:

- الحكومة تبيع لنا مترًا في شقة عادية التشطيب بألف وثمانمئة جنيه، بينما تعطي رجال الأعمال متر الأرض بنصف جنيه فقط، بعد أن تمد إلى أرضهم كل المرافق. يبنون قصورًا وفيلات فارهة وملاعب جولف، فتتكدس في جيوبهم المليارات من قوت الشعب، ونعيش نحن مشردون.

ربتت صفاء كتفه:

- اقترب خروجنا من هذا النفق.

ثم نظرت في عينيه مليًّا وهمست:

- سننزل سويًّا يوم 25. سويًّا يا حسن. نموت معًا أو نعيش معًا.

مدَّ يده في جيبه وأخرج ورقة صغيرة، مكتوب في سطرها الأول: «الجمعية الوطنية للتغيير»، تحوي نقاطًا أقرب إلى تعليمات يجب اتباعها أثناء التظاهر. دفعها إلى صفاء لتقرأها. وبينما هي مستغرقة في مطالعة السطور، راح هو يضغط على أرقام الهاتف ليتحدث إلى والدته.

جاء صوتها ملهوفًا. بكت بحرقة. شعر أن دموعها تتساقط على خدِّه، فراح يمسحها برفق، وعيناه ذاهبتان في الأفق تتابعان السحب الداكنة التي تسبح في هدوء نحو الجنوب الشرقي. بالضبط كانت تسير في اتجاه قريته الراقدة هناك مستكينة لآلامها المزمنة. آلام تخز ضميره كلما مر بخاطره مشهد الوجوه الضامرة للكادحين في صهد الشمس، والأجساد النحيلة لأطفال بمرايل كالحة مرتقة يئنون تحت «مِخَل» محشوة عن آخرها بكتب وضعت على عجل.

يحاول أن يطمئنها، لكنها كانت دائمًا خائفة عليه. يرى حال أهله فيتجاسر، ويأتيه صوتها فيسري في عروقه خوف عابر، سرعان ما يقتله، ويعود إلى شجاعته النادرة، التي كان يعرفها كل مَنْ شاركه النضال في السنوات الأخيرة.

في الساعات الحاسمة كان كل شيء قد تبلور وانجلى. نصائح مفيدة ليوم مختلف. راح يستعيدها وهو ينظر في الورقة بعد أن استردها من صفاء، ويقول في نفسه: قد نصنع المعجزة.

نصائح أو تعليمات بسيطة لكنَّ اتباعها بجدية أمر ضروري كي يسير كل شيء على ما يرام. هو يحفظها عن ظهر قلب: «تبدأ المظاهرات من أطراف القاهرة لجذب أكبر عدد ممكن من البشر إلى الاحتجاج».. «تكون الشعارات والهتافات متجاوبة مع احتياجات الناس حتى يتفاعلوا معها».. «يبدأ التظاهر بعد الظهر لإرهاق قوات الأمن التي حتمًا ستبيت ساهرة ليلة الانطلاق معتقدة، وكما جرت العادة، أن الاحتجاج سيبدأ صباحًا».. «يتفرَّق الشباب إلى مجموعات في الشوارع الجانبية حال قمع تجمهرهم بأعداد غفيرة ويدخلون في كرٍّ وفرٍّ ضد قوات الأمن حتى تستنفد قواها».. «تستمر هذه اللعبة حتى مشارف الفجر، ثم يتبخر الشباب مهرولين إلى بيوتهم، ينامون بعمق، ويظهرون من جديد بعد الظهر لتكرار المواجهة».. «يجب اصطحاب زجاجات خل صغيرة لتقليل آثار القنابل المسيلة للدموع».. «يجب طيلة الوقت تشجيع الناس أو تحريضهم على المشاركة في المظاهرات».. «يهتف المتظاهرون طيلة الوقت، سلمية/ سلمية، ويعلو صوتهم بالهتاف كلما اقتربوا من قوات الأمن».

طوى الورقة في جيبه، ومدَّ يده فأمسك يد صفاء الطرية، ورفع هامته ليرى آخر الرصيف. كان كوبري عباس يغصُّ بالسيارات والمارة. كل شيء يجري كما يريد السلطان. أو كما توهم ذلك. فتيات وشباب يتسكعون ليروضوا الوحش الذي

ينهش أجسادهم ليل نهار. رجال يسيرون منكسي الرؤوس من ذل الحاجة. نساء مرهقات يقطعن الشارع جيئة وذهابًا.

هناك أمام سينما «جلاكسي» يجلس هذا الفتى المعذب بألحان قديمة. يحتضن عوده، ويشدو لسيد درويش وعبد الوهاب وفريد الأطرش. أحيانًا تأخذه النشوة فيصدح بموشحات قديمة:

«صحت وجدًا يا ندامى... جودوا وصلًا أو دعوني

إنـي صب في هواكم... سـال دمعـي من عيونـي

إن جننت اليوم فيكم... فاعذروني وارحموني»

يغني ويروض الدموع في مقلتيه، ثم يُردف:

«في هوى حاوي البهاء... ضاع مالي والنُّهى

عنه رضوان سهى.. حور عين أو ملك»

يلتئم حوله العابرون فيصدحون معه. يهزون رؤوسهم وهو لاهٍ عنهم كأنهم غير موجودين، وكأنه يغني في خلاءٍ صافٍ تسكنه كل أقمار الكون ورياحينه.

وفجأة وبلا مقدمات، ولا سابق إشارة. وبينما كل المتحلقين حوله ذائبون معه في كلام الغرام، إذا به ينتقل إلى دنيا أخرى. لا أحد منهم يعرف سببًا لهذه النقلة التي قطعها الملحن والمطرب الذي يسعد الناس بالمجان كل عصر على كورنيش المنيل. لا أحد منهم سمعه قبل اليوم ينقل ألحانه إلى هذه المساحة التي تم الابتعاد عنها طويلًا. لا أحد منهم كان بوسعه إلا أن يصرخ معه حين فارق صوته الانسياب الناعم الحائر الملتاع، وفارقت أصابعه أوتار الشجن، وامتلأت نبرته بقوة لا يعرفون من أين أتته، فأخذهم إلى حيث انتقل، وانضم إليهم عابرون كثر، وراحوا جميعًا يصرخون:

«أنا الشعب أنا الشعب

لا أعرف المستحيلا

ولا أرتضي بالخلود بديلا».

13

ليلة انطلاق الغضب رأى حسن عبد الرافع كل شيء. قبض بقوة على يقينٍ لم يأتِ إليه من قبل، وقال لنفسه والنور ينضح من خصاص النافذة، ويسري في أوصال العتمة النائمة على صدره: يبدو أن الأيام القادمة ستكون استثنائية.

استيقظ منشرح الصدر، وشعر بأن قوة عجيبة تتقافز داخله، لكنه روَّضها قليلًا، وذهب إلى المطبخ وأعدَّ فنجان قهوة، راح يرشفه في بطء وهو يقضم شطائر الجبن في تلذذ عجيب. وهتف في نفسه هاتف لم يرد إليه قبل اليوم، فأغمض عينيه، وانطبقت أجفانه على رذاذ دمع راح يتسرب خلسة من مقلتيه آخذًا مجراه المعتاد إلى وجنتيه المقددتين.

أسند رأسه في مقعده، فجاءته رؤيا الليلة الفائتة، استعادها حلم يقظة، فلما انتهت بدأها من جديد، وهكذا لم يُردْ لها أن تنقضي أبدًا، حتى بشقها الملغز الذي ألقى في نفسه حيرة، وتشتتًا عميقًا.

تقلب الليلة الفائتة طويلًا من الأرق، وتقوض ذهنه بمخاوف من ألا تأتي مجريات الأمور في أرض الواقع على الحال الذي تهيأت به على الورق، وطالعه مع إسحق عبد الملاك.

وغلبه سلطان النوم، فرأى نفسه واقفًا في مكان فسيح يغص ببشر لا أول لهم ولا آخر. كانوا متلاصقين في دوائر لا تنتهي، كأنهم قطع من اللحم المضغوط. جسد واحد، أو كتلة واحدة. كانوا يرفعون هاماتهم إلى السماء، وعيونهم تنظر إلى مكان واحد، تسكنه شمس عفية، نورها مبهر لكنه لا يؤذي الأبصار، وهيئتها على غير العادة، مربع لا دائرة، في جنباته حروف مكتوبة بخط أحمر فاقع.

كان الجميع يحاولون أن يقرأوا هذه الحروف، لكن بُعد المسافة أعياهم. تساءلوا كثيرًا ولم يجدوا إجابات شافية كافية. فجأة وجدوا أنفسهم قد شبكوا أيديهم تمامًا، ثم أخذوا يرتفعون. أقدامهم تطول وكذلك أعناقهم. عيونهم تتسع، ونور الشمس يسطع أكثر كلما اقتربوا منه، لكن نارها تخبو، ومربعها العجيب يكبر، والحروف التي في جنباته تزدهي، ثم هطل مطر غزير. تساقط على جنبات الشمس، فراحت الحروف تهتز في مكانها، ثم انزلقت إلى الأسفل. طارت في الفضاء الرحب، وحطت على رؤوسهم.

حاول حسن أن يتذكر هذه الحروف فلم يفلح. كانت غائمة في رأسه كأنها مرت به أيام الطفولة الغضة، حين تُسقط الذاكرة كل شيء تباعًا فلا يبقى منه إلا تهويمات بعيدة. بدا كأنه قد لمح هذه الحروف قبل سنين غابرة. زمَّ شفتيه، وأغمض عينيه، ووضع رأسه بين راحتيه وجلس القرفصاء، ولم يتهادَ شيء له أبدًا.

لكن الشق الثاني من الرؤية كان ماثلًا في ذهنه تمامًا، يحفظه كما يحفظ

بعض سور القرآن.ويراها لا تخلو من نبوءة كما يرى أشعار أمل دنقل ومحمود درويش وصلاح جاهين. كان المشهد واضحًا يراه جيدًا كما يرى أصابعه المستكينة على ركبته. رفع هامته قليلًا فعانقت عيناه الجدار، ورسمت عليه ملامح رجل عجوز متكابر، يتساقط ببطء، ويكاد أن يهوي في حفرة عميقة على يساره، لكنه يعاند متشبثًا بموقعه. يضرب قدميه في سجادة فاخرة، حتى كاد أن يمزقها من جانبيها، ويمد يده إلى رجال يرتدون أزياء مائلة للأخضر، زيتية أو بترولية أو عوان بين ذلك. على أكتفاهم تلمع نجوم، وتحوم نسور، وتمتشق سيوف من أغمادها.

كان العجوز يصرخ بحرقة، ويسترحمهم أن يمدوا أياديهم إليه. ابتسموا في البداية حتى اطمأن، وظن أنهم سيسحبونه من مكانه، لكنهم تقاطروا، الواحد تلو أخيه. أمسك كل منهم بكتف مَنْ يتقدمه في الطابور، وأعطى كتفه لمَنْ يليه. كان أول رجل فيهم أسمر ذا جسد ممشوق، في عينيه ألق كسير، ومن رأسه تنسكب تجاعيد متلاحقة ثم تنداح في وجهه المثلثي المسحوب في اعتدادٍ ظاهر.

راح هذا الرجل ينظر إلى العجوز المتداعي الذي أخذ يهز رأسه، ثم قال له:

- ألم تكن إمارة وتجارة؟

- بلى كانت.. كانت ولم تعد.

- أتحسبها الآن من الماضي، تتنكر لها ولي، وأنا أعطيتك فوق ما تستحق.

فتقطب جبينه، ونظر إليه بغيظ شديد، وسأله:

- وهل ما أنت فيه تستحقه؟

وأردف:

- حلمت أن تكون مجرد موظف يعود آخر النهار أو أول الليل لأهله يتعثر في خطواته الوئيدة، ويحصي القروش الراقدة في قعر جيبه، فجنحت بك الدنيا العجيبة حتى صرت سلطانًا علينا.

- وأنا أعطيتك من سلطاني الكثير، وصنعت منك سيدًا. أجلستك متربعًا سنين عددًا فوق هامات مَنْ لم يكن بوسعك أن تتقدمهم من غير أعطيتي.

- لا أنكر، لكن ماذا أفعل لك وحولي دوائر لا نهاية لها، تزأر وتسن أنيابها كي تنهش لحمك، وتنهي عنادك الطويل.

- إن تركتهم يصلون إليَّ اليوم فسيصلون إليك غدًا.

فابتسم الرجل الأسمر، ونظر إلى الذهب الذي يلمع على كتفيه، ثم ضيَّق عينيه أكثر مما هما عليه من ضيق، وقال:

- لا خوف عليَّ، لقد استدرجتهم وزيَّنت لهم أني معهم، وأن سواعد رجالي قد حمتهم من بطشك، وصدقوني.

فهز العجوز رأسه وقال بصوت مشروخ من فرط الألم:

- سيكشفون كذبك يومًا، وساعتها سيكون حسابك أشد من حسابي، وعقابك أقسى من عقابي. أنا لم يعلقوا عليَّ أملًا في أي يوم، أما أنت فحمَّلوك آمالهم، ولذا سيكون الانتقام منك رهيبًا.

فصمت الرجل الأسمر برهة، وقال:

- ظهري مكشوف، وحالي كحالك، وما اتهموك به يصمني، وما يعيبك يعيبني. أنا مكبل فكيف أفك قيودك؟

- أنقذني تنقذ نفسك.

- إن أنقذتك سنسقط سويًّا.

- كيف ومعك كل هؤلاء الرجال؟

- أنت تعلم أن كبارهم يوالون بالمال والجاه، أما صغارهم فلا ود بيني وبينهم، ولا يحترمونني.

- لكنهم مضطرون إلى طاعتك الآن حتى لا تغرق بكم السفينة.

ثم صمت العجوز برهة وهمس في أذنه متوددًا:

- جرِّب أن تنقذني وسأحميك.

رد عليه الرجل الأسمر ساخرًا:

- لا تضيع وقتًا. ليس أمامك من سبيل سوى أن تتهاوى في الحفرة التي تراها هنا على يسارك. ولا تخفْ ففي آخرها نفق ضيق، يمكنك أن تسلكه زاحفًا على بطنك أو على ظهرك لتنجو.

- أتسمي هذه نجاة؟

- اشكر لي، فرغم خطيئتك سأفتح لك بابًا للهروب، وسأبني جدارًا بينك وبين الغاضبين.

- وماذا عمَّا كان بيدي؟... هل أترك كل هذا وأرحل محسورًا كلص موشوم بعاره؟

- كل ما لك يجب أن يزول الآن، وإلا فتكوا بنا جميعًا.

- وفلذة كبدي الذي وعدته بأن أضع المُلك في قبضته؟

- هذا الولد الغرير المستهتر هو من جرَّ الويلات عليك، وأوقعنا جميعًا في هذه الأيام العصيبة، التي تجري على غير هوانا.

- أفهم حقدك عليه؛ لأنه كان سينهي مجد رفاقك، ويضعكم في ركن قصي، تتحسرون على أيام المال والجاه.

- هذا ما توهمته، رغم أنك منَّا، وتعرف طباعنا، وتدرك أننا إن جلسنا لا نقف بسهولة، وإن رقدنا نمدد أرجلنا ونلتصق بفراشنا تمامًا، مثلما فعلت أنت فامتد

بقاؤك كل هذا الزمن مع أنك لم تملأ عين أحد منذ أن قدموك على كل الصفوف.

فابتسم العجوز ثم نظر إليه باندهاش وسأله:

- وهل أنت ستملأ عين أحد؟

- لا تتعجل، سآخذ فرصتي ونرى.

- نرى ماذا؟ مَنْ غضبوا مني يغضبون منك، ألست مني؟

- رأوني أبتعد عنك خطوات، أو أوهمتهم بهذا، وصدقوني.

- مهما ابتعدت، كيف تعمي أبصارهم عما سلبته منهم؟

- أعرفهم وتعرفهم، إنهم ودعاء متسامحون دومًا.

- هكذا ظننتهم وخاب ظني.

ثم صمت العجوز برهة أخرى، وغمس سبابته في أنفه، ثم رفع عينين مملوءتين بالدموع وقال:

- صدقني، ستنهش النميمة لحمك، وتثار عنك شائعات، وتلك بداية خسرانك.

فأشاح له بيده وقال:

- ألست أنت صاحب هذا الكلام: «دعهم يقولوا ما يشاءون وسنفعل ما نشاء»؟

- ثبت خطئي، فلماذا تكرر أنت خطيئتي؟

- لا بأس، أفلحت هذه الخدعة معك سنوات طوال، وأنا لا أحتاج إلى خداعهم سوى شهور حتى أغطي ظهري المكشوف. ومن يدري ربما تفلح اللعبة وأجلس على عرشك، وأضع أقدامي من جديد فوق رؤوسهم، وإن لم يحدث سأخرج بكل ما أخذت آمنًا ومكرمًا.

ثم اكتسى وجه الرجل الأسمر بغلظة، ومد يده بقسوة، ودفع العجوز فتهاوى في الحفرة. وراح الرجال الواقفون وراءه يبتسمون في خبث، ثم التفتوا إلى المتزاحمين في دوائر لا تنتهي، وطلبوا منهم الانصراف، فانصرفوا إلا رجلًا في جبهته زبيبة، راح يلعب بأصابعه في لحيته، وهو يقول للأسمر:

- خذ ما عنده، وأعطه لي، ولك الأمان.

فأوجس الواقفون منه خيفة، لكنه تقدم إليهم متوددًا، وفرد يده وقال:

- هذه يميني ضعوها في أيمانكم جميعًا، وسيكون لكم ما تريدون.

فابتسم الرجل الأسمر وقال:

- أنتم على الأقل متحدون إن تحدثنا مع كبيركم فكأننا تحدثنا معكم جميعًا.

- وقوتنا تلك لكم.

- لا تبالغ، هي الظروف التي حكمت وليس بيننا وبينكم سوى الأيام لتثبت ما إذا كنتم جادين أم أنها خدعة جديدة.

- ليست خدعة أبدًا. لو تعلم ما في قلوبنا من هيبة لكم ما تسرَّب أدنى شك

إليك في أننا يمكن أن نمارس معكم أنتم الخداع.

وبينما هما يتحاوران في جد، ظهر رجل أبيض، فارع الطول، يرتدي قبعة على رأسه، دار حولهما وقال:

- أُنصت إلى حديثكما ويروق لي.

فتهلل وجه الرجل ذي الزبيبة واللحية واحتقن وجه الأسمر، لكنه لم يدعه يفكر وقال له فيما يشبه الأمر:

- هذا هو الطريق الذي أرتضيه لكما.

ومد يده، فأخذ بيد صاحب اللحية وجذبها نحو يد الرجل الأسمر وقال:

- أبارك لكما هذا الاتفاق، ولن ينفك إلا بمشورتي.

هذا كل ما تذكَّره حسن عبد الرافع من رؤيا الليلة الفائتة. استعادها مرات، ثم نزل من بيته ليشارك في المظاهرات، وهو قابض على هذه البُشرى التي أتته طوعًا، بشرى أولئك الذين يشبكون أياديهم وترتفع أعناقهم إلى عنان السماء. لكنَّ قلبه كان يأكله خوفًا من آخر الرؤيا، من هذا الحوار الذي دار بين رجلين لم يظنا في يوم من الأيام أنهما سيلتقيان، وهذا الرجل الثالث الأبيض الذي ظل طيلة الوقت يبتسم في مكر، وبعينيه جوع واشتهاء.

14

وهما يترنحان إعياءً ووجلًا في قسم باب الشعرية، همس خالد السبع في أذن أكمل قائلًا:

- سأنتظرك على قهوة النيل المصرية في شارع أمير الجيوش.

خرج أكمل من القسم يجر ساقيه مجهدًا إلى هذا المكان الذي لم تطأه قدماه من قبل. كان اسم الشارع محفورًا في رأسه، فمن بوسعه أن ينسى كلمة «الجيوش» في زمن حكم «المجلس العسكري»؟

دار في ميدان باب الشعرية، وتوقف قليلًا أمام مبنى منخفض يطل كوجه ضامر بائس، عليه لافتة باهتة مكتوب عليها: «المركز الثقافي».

كان قد قرأ ذات يوم الحروف الراقدة على هذا المبنى في جريدة وقت أن تم حرقه، ويعرف أنه يعود إلى وصيف الرئيس المخلوع في انتخابات الرئاسة الوحيدة التي جرت في تاريخ مصر حتى لحظة وقوفه هنا بين الأبنية الصامدة في وجه الزمن.

وتذكر أنه كان مكانًا لإعطاء دروس خصوصية بالمجان لطلبة الحي الذي كان صاحب المبنى نائبًا عنه ذات يوم في البرلمان. راح البرلمان بينما تاه هووتخبط في معارج السياسة التي لا قرار لها. هكذا الأيام دول بين الناس.

سأل عجوزًا تتعثر في خطواتها، عيونها زائغة تتلفت، وعلى شفتيها كلام محبوس:

- أين شارع أمير الجيوش؟

فرفعت هامتها، ونظرت إليه طويلًا، وكأنها تُشبِّه عليه، ثم قالت:

- أنا رايحة هناك... تعالَ معي يا بني.

وسارت إلى جانبه صامتة، وانعطفا يمينًا في شارع يتلألأ. ترمي الشمس ذهبها على الأواني ذات اللون الفضي المرصوصة على الجانبين فتسطع في وجوه بائعين يبتسمون ويوزعون الكلام على بعضهم بعضًا حتى تمر ساعات انتظار الزبائن. راح أكمل يعانق كل شيء حوله، والدهشة تفرش ألقها على صفحة وجهه. ولمحته المرأة فقالت:

- هنا تجد كل حاجات المطبخ.

فابستم وقال:

- واضح يا حاجة.

نظرت إلى كفَّيه نظرة شاملة وقالت:

- لمَّا تنوي الزواج هات العروسة تأخذ حاجاتها من هنا.

ثم مصمصت شفتيها في وجع، وواصلت:

- جيلكم مظلوم. حملكم ثقيل وظروفكم صعبة.

وصمتت برهة، ثم ضحكت قائلة:

- عملتم ثورة ولم تنصفكم وهناك مَنْ يتحايل الآن لسرقتها.

كان كلامها سهمًا خرق قلبه، وانطفأ وجهه، والتفت إليها تائهًا فيما ذكرته، ثم سألها:

- أين قهوة النيل المصرية؟

رفعت يدها، وأشارت إلى مبنى منخفض، لونه أصفر كالح، وقالت:

- على يمينك.

مد يده وانحنى ولثم ظهر يدها، وحيَّاها:

- مع السلامة يا ماما.

رفعت وجهها وثبتت عينيها في عينيه مليًّا، وقالت:

- كله بأوانه.

ومشت في طريقها صامتةً، بينما مال هو يمينًا وقطع ثلاث خطوات ليجد نفسه في قلب مقهى قديم، تنتظم فيه طاولات رخامية نظيفة، تبدو غريبة على الشخشيختين اللتين تتوسطان السقف وينضح منهما نور مبهر، وعلى المرايا الثلاث العريضة المثبتة بالجدران وتطوقها براويز خشبية عليها نقوش وحفائر قديمة، تكسوها طبقة من غبار خفيف.

***

كان السبع يجلس متربعًا على أريكة مركونة في صدارة المقهى، أمامه كوب شاي، وفي فمه مبسم الشيشة، وأنفه يطرد دخانًا كثيفًا. كان يشفط على مهلٍ وينفخ في المساحة التي تمتد من رأسه إلى قلب الشارع الضيق، الذي يتهادى تحت أقدام متمايلة لبنات خارجات من مدرسة أمير الجيوش الثانوية، وسيدات عائدات من العمل أو السوق.

ثبت السبع عينيه حتى يصطاد فريسته. ما إن تظهر إحداهن في حيز بصره حتى يمسحها من أخمص قدمها حتى ناصيتها، فإذا نظرت إليه يغمز لها بطرف عينه، فإن ابتسمت، سجلها في دفتره النسائي الحافل بالأسماء، ووضعها في موقع مناسب من دوائر الاحتمالات التي يعشق العيش بين خطوطها المتلاقية دومًا.

حين رأى أكمل قام وأخذ يده وأجلسه إلى جواره، ثم نظر في عينيه وقال:

- خسارة موت حسن عبد الرافع.

- كان أنبلنا وأشجعنا، ولن يعوضه غيره.

ابتسم السبع، وربت على كتف أكمل:

- البركة فيك.

فاغرروقت عيناه بدموع ساخنة، لمعت في المرآة التي تواجهه، ثم تساقط بعضها في كوب الشاي الساخن، الذي وضعه النادل أمامه.

وكانت فرصة للسبع كي يمارس هوايته. نظر إلى شاب قصير، لحيته نابتة، وشعره مجعد، وعلى وجهه إرهاق مزمن، وسأله:

- متى بُني هذا المقهى يا محجوب؟

فأجاب على الفور:

- قبل الثورة.

ودهش أكمل وهو يطالع آثار الزمن الطويل على الجدران، لكن السبع عاجله:

- عمره إذًا شهور قليلة.

فقهقه وقال:

- عمره ستون سنة.

- كيف، والثورة جرت هذا العام؟

- يا بيه، أنا أقصد الثورة الثورة.

- ماذا تعني؟

- أعني ثورة جمال عبد الناصر، وهل هناك ثورة غيرها؟

- وما نعيشه الآن؟

- هذه ليست ثورة، إنها تخريب وتدمير.

وسرى في أوصال أكمل غضب شديد لكنه كتمه، ولاذ بحزنه، مستسلمًا لغمزة من عين خالد، الذي مال على أذنه هامسًا:

- محجوب مرشد يعمل لحساب أمن الدولة... لا مؤاخذة الأمن الوطني. هأهأهأهأ...

ثم التفت إلى جانبه:

- والجرسون مرشد مباحث.

داس أكمل على ضروسه من الغيظ، وقال في مرارة:

- هؤلاء الأوغاد مكلفون بتشويه الثورة.

هزَّ السبع رأسه:

- صوتهما وصل إلى أسماع كثيرين، ولن تستردوا الصورة التي كنتم عليها في ثمانية عشر يومًا مرت كحلم عابر.

- صوتهما، وصوت الإعلام الرخيص، الذي ينفث سمومه في رؤوس الناس. إنها خطة محكمة لشيطنة الثورة. في البداية جرَّسُوا وجرَّمُوا حق التظاهر السلمي.

بعدها هاجموا الثوار واتهموهم بالعمالة والخيانة. الآن يجلدون الثورة نفسها، ويُحمِّلونها كل الإخفاقات التي نعيشها. يتركون الجلاد ويعاقبون الضحية. يحاكمون الثوار مع أنهم لم يحكموا.

حرف السبع شفتيه في خبث، ثم سأله:

- والأخطاء التي ارتكبها الثوار؟

- لا أنكرها، لكن هناك مَنْ تصيَّد صغارها، وسلَّط عليها مرآة مقعرة، فكبرت في عين الناس، وجعلت كثيرين يختلط عليهم الأمر، فيرون الحق باطلًا، والباطل حقًّا، ويجعلون من الانقلاب ثورة، ومن الثورة انقلابًا.

- لستم ملائكة.

- جميعنا بشر.. لكننا نعتقد أننا فئة مخلصة، قد يجانبها الصواب أحيانًا، إلا أنها لا تتمادى في الخطأ إن وجدت مَنْ يرشدها، وهمُّها الأول هو انتشال هذا الوطن من الضياع.

ودخل النادل فجأة وصرخ:

- أحد شباب الثورة قتل أمس في ميدان باب الشعرية، ولا حديث للناس هنا إلا عن هذا الموضوع.

تبادل خالد وأكمل النظرات، ولاذا بصمت مطبق، قطعه الأول سائلًا:

- وهل عرفوا مَنْ قتله؟

فردَّ بثقةٍ يُحسد عليها:

- يتعارك شباب الثورة، يُخوِّن بعضهم بعضًا، وهاهم يتقاتلون.

فزع أكمل لكلامه، وسأله:

- أبهذه السهولة تتهم الناس؟

نظر إليه بارتياب، ثم غمغم وهو يبتعد، ويعطيه ظهره:

- كل الناس في شارع أمير الجيوش تقول هذا.

نظر خالد إلى النادل وهو يكتم ضحكًا خفيفًا وزجره:

- امشِ... الله يخرب بيتك يا ملعون.

فانفجر في ضحكة طويلة وتمايل بجسده متجهًا إلى «النصبة» مزهوًّا بنفسه، وهو يتهكم بصوت مسموع:

- كانوا في ميدان التحرير يأكلون كنتاكي، ويقبضون دولارات، وينفذون أجندات أجنبية، ويسمون هذا ثورة.

ضحك خالد مرة أخرى، ونهره من جديد:

- اخرس يا فلول.

ثم التفت إلى أكمل وقال له:

- كان عضوًا في الحزب الوطني المنحل.

أومأ أكمل برأسه، وقال:

- مسكين، أمثال هذا كانوا مجرد مثقال حبة من برادة على مسمار صدئ لترس متهالك في آلة جهنمية اسمها الحزب الواطي، الذي لم يكن له شغل سوى دهس المصريين. أمثاله كانوا يؤجرونهم بعشرين جنيهًا فقط؛ ليهتفوا باسم المخلوع في مظاهرات مصطنعة. والآن يؤجرونهم من جديد ليعتدوا على الثوار وأهلهم.

وأشار بيده ناحية اليسار وقال:

- يدفعون لآلاف الشباب، ويجلسونهم أمام الكمبيوتر ليل نهار ليهاجموا الثورة والثوار.

وصمت برهة ثم قال:

- وغدًا سيأتي غيرهم، يقف على أكتافكم ويفعل بكم أقسى مما كان هؤلاء يفعلون.

- مَنْ تقصد؟

- أولئك الذين يزعمون أنهم شركاؤكم في الثورة، ويربضون لكم حتى تأتى اللحظة المناسبة فينقضون عليكم بلا خجل.

ومد يده من جديد إلى كتف أكمل وقال:

- لا تتعجَّب فمَنْ يقف خارج الحلبة يرى أفضل ممن يقع داخلها.

وتابعه أكمل صامتًا، وراح يتضاءل في أحزانه، والرؤية تغيم أمام ناظريه، ودوار خفيف يسحبه إلى البعيد، لم يلبث أن اشتد، فسقط مغشيًّا عليه.

15

ما الذي جرى؟ ساعات ثقيلة تطلق في دمها أشواكًا. ساعات كأنها دهر، وصوت حسن لم يصلها، فراحت تفتش عن نغماته المتصايحة داخلها، وتستعيده كي تشعر بالأمان. ليس هو مَنْ يهرب من أداء واجبه. هكذا عهدته. وكانت أحيانًا تردد أغنية سمعتها ذات مرة في فيلم هندي لا تتذكر اسمه الآن: «أنتم لا تعرفون حبيبي، إنه لا يخلف الوعد أبدًا»، كانت البطلة أسيرة لدى عصابة فتاكة، وكانت تؤمن بأن فتاها سيأتي حتمًا ويخلصها من أيديهم الملوثة بالدماء، وجاءها في الوقت المناسب تسبقه الجسارة. قتلهم جميعًا، وحملها بين ذراعيه، وسار بخطى واثقة نحو أرض براح.

دائمًا كان حسن عند حُسن ظنها. كلما احتاجت إليه تجده. كلما اشتاقت إلى رؤيته يتهادى أمامها كزهر الربيع. كلما ضاقت الدنيا في عينيها أتى ومعه أبواب وسيعة مفتوحة على الكون. لم يخذلها أبدًا فأسمته: أعز الرجال.

ولدت يتيمة الأب فصار أباها. وماتت أمها بعد أن عرفته فلم تشعر باليتم. انطوت سنين عمرها مغتربة عن صراع مَنْ حولها الرخيص على الفتات فأصبح صديقها الوحيد. وكأي بنت طالما راودتها أحلام عن فارس هُمام يخطفها على حصان أبيض، تمثلته وتخيلته ونادته منذ أن سرت في أوصالها دفقات النشوة المبهجة، وهاهي تحترق معه في بطء، تنتظر ماءه ليطفئ نارها. معذبة هي بالحلال، لكنها معتزة به، لا تتصور أن يسترخصها أحد، حتى ولو كان من تهبه مشاعرها الفياضة، كاملة من دون نقصان.

أين هو الآن؟ لا تدري. تخشى إن هاتفته أن يرد عليها فيحدد أعداؤه مكانه. هو إن وجد اسمها منقوشًا حوله هالة من ضياء على شاشة هاتفه سيجيب، وفي إجابته مقتله. وقالت لنفسها: حين يُؤمِّن نفسه سيهاتفها. هي ليست مطلوبة مثله. على الأقل ليس بالإلحاح الذي يسكن رؤوس مطارديه. هم يعرفون أنه عرف أكثر من اللازم، ولا بد لصوته أن يصمت إلى الأبد.

دخلت صفاء إلى دورة مياه محطة القطار فتاة سافرة، يهفهف شعرها في نسيم بارد، راح يدغدغ ستائر الشرفات وهامات شجيرات معزولات في شوارع تنتظر انتهاكها صبحًا بأقدام المتزاحمين. دخلت هكذا ملفوفة في تنورتها وبلوزتها، وخرجت مستطيلًا أسود نحيفًا يسير بخطى مسرعة نحو رصيف 11 بمحطة رمسيس، ويكاد أن يتعثر في هذا الإسدال الطويل.

جاء القطار يطلق نباحه في فراغ الأرصفة المنكمشة بين يدي الصقيع، وفي آذان المسافرين المهرولين نحو مقاعد متهالكة. لم تحجز مقعدها، فلم يكن لديها وقت لهذا. دلفت سريعًا إلى مقاعد الدرجة الأولى فوجدت مقعدًا وحيدًا خاليًا. جلست تلتقط أنفاسها، وأسندت رأسها إلى الوراء ثم أخذت تتحسس جيبها لتطمئن إلى استقرار «الفلاشة» في قعره بعد أن نسخت عليها الملفات

والصور التي تبين جانبا كبيرًا من المؤامرة. لم تكن كأي «فلاشة» من تلك التي مرت عليها في تاريخ طويل من التعامل مع الكمبيوتر، بل كانت كنزًا من الأسرار. صور وملفات ومستندات مسحوبة عن طريق الإسكانر، ومعها تعليقات تبين حجم المأساة التي تحط على رؤوس الناس من دون أن يشعر أغلبهم بها.

في الوقت الذي كانت تبحث فيه عن مقعد وحيد يستضيفها ساعات حتى تبلغ مقصدها، كان الرصاص يبحث عن قلب حسن، وكانت الأيادي تبحث عن الفلاشة الأصلية التي بحوزته. جلست واطمأنت إلى استقرار الكنز في جيبها، لكن مثيله ضاع من حبيبها في هذه اللحظة. مدوا أياديهم سريعًا إلى جيوبه وأخرجوها من أحدها وفروا هاربين في ظلمة الليل.

زال الاطمئنان عنها فجأة. لسبب لا تعرفه راح جسدها يهتز، وقلبها يرفرف، وعيونها تزوغ فيتراقص الناس أمامها مع أنهم راكدون في مقاعدهم، ملتصقون بها وكأنهم قد صاروا جزءًا منها. وكأن الزمن لا يريم، وكأن شيئًا لم يجر أبدًا، أو أن ملايين زلزلوا الشوارع ذات يوم بأقدامهم الغاضبة.

لا يعرف أيٌّ من هؤلاء أن حسن عبد الرافع غاب في قلب الليل، وذاب في فجاج النور السرمدي. لا يعرفون أن كل شيء قد سكن في متاهات القاهرة، التي طالما ابتلعت في بطنها الوسيع آمالًا مجنحةً، وداست بأعناقها الشاهقة على أكتاف المتعبين، وجعلت كثيرين يخفضون جباههم، ويرفرفون كدجاج مذبوح.

***

غمست صفاء عينيها في النافذة، ورأت النور وهو يغمر جنبات الأرض، ويسربل أشجارًا تجري، ونخيلًا يطلق ساقه الطويلة للريح، وبيوتًا يملأ بؤسها عيون الناظرين. هكذا انشغلت بالمدى الأخضر حتى صرعها النوم.

في قيعان الحلم البعيد رأته يبتسم. كان وجهه أكبر من ذلك الذي ألفته وحفظته. اتسع واستدار وتشرَّب حمرة رائقة ترسل نورًا مبهرًا يتساقط على هامات الرائحين والغادين، وعلى أسطح أبنية تقف شامخة معتزة بسكانها الذين خرجوا ذات يوم وملأوا الشوارع والساحات، وشغلوا الدنيا بهتافهم الأثير: «الشعب يريد إسقاط النظام».

كانت هي واقفة بينهم. تصيح مثلما فعلت في عالم الشهادة. تقف ويد حسن راقدة في يدها، ويدها راقدة في يده. كانا يصرخان بصوت مبحوح، ويسيران بخطى واثقة بين المتظاهرين. عند مبنى مجلس الشعب، الذي طالما نامت قبته الوسيعة على رؤوسٍ لا ضمائر فيها، انطلقت قنابل الدخان الخانقة، وفتحت خراطيم المياه الدافقة. إنها الحرب إذًا، الحرب التي فرقتهما. ضاعت يدها من يده في الزحام الرهيب المتدافع. نادت: حسن. كان ثغاءً رفيعًا مات في الهدير. نادى: صفاء. كان عويلًا متهدجًا مات على أطراف شفتيه. وحال بينهما زئير

وهرولة ودخان كثيف وأرواح مجهدة لا تريد أن تفارق الدنيا قبل أن تصل إلى مبتغاها.

ظمأ واختناق وارتطام نقلها إلى الدنيا الحاضرة. تلفتت حولها فوجدت كثيرين قد أغمضوا عيونهم. البعض يتابع انطواء الأرض عن يمينه وعن يساره. هي شعرت بغربة وخوف، ووجدت نفسها في احتياج إلى حسن أكثر من أي وقت مضى. التقطت الهاتف وتصفحت قائمة الأسماء وهي تفكر فيمن تكلمه. حركت القائمة في اتجاه الشيخ رأفت مغازي، وطلبته. جاء صوته ذو الرنين قائلا:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سألته عن حسن، فصمت برهة وقال:

- لا أريد أن أعرف عنه شيئًا.

وخزها كلامه، لكنها تماسكت وسألته عن السبب، فأجاب:

- الملعون يفتش في دفاتري القديمة. لا يعجبه تقديمي كحارس على الثورة. يصفني بأنني ثعلب مكر وصبر حتى لهف ما ليس له. هكذا وصلني ما يطلقه من شائعات عني. وزاد على ذلك أن أسرارنا التي جمعناها من قلب ميدان التحرير وطويناها معنا باتت مكشوفة بفعل لسانه اللاذع وحقده الدفين. يبوح بكل شيء ويسمي هذا شفافية، وما هو إلا عبط وسذاجة. وقد يدفع قريبًا ثمن خبله وثرثرته التي لا تنتهي.

انقبض وجهها وسحت دموع على خدها، فقد كان كل ما يقوله مغازي ويصف به حبيبها كذبًا وبهتانًا. لكنها تماسكت من جديد وقالت له:

- حسن من الثوار الشرفاء، وإن كان خلاف قد وقع بينكما فلا يجب أن يكبر ويسيء إلى كل ما تفعله الثورة.

قهقه ساخرًا، ثم قال:

- بيننا.. هكذا تقولين. هل أنا أشغل رأسي بخلاف مع حسن هذا؟ لا لا.. أنت مخطئة. كل ما في الأمر أننا أسقطناه من حساباتنا.

- حساباتكم؟

- نعم حساباتنا، وهي دقيقة. أتعتقدين أننا مجرد عيال غاضبين أغرتهم صورة طاغية تونس المذعور وهو يقول «أنا فهمتكم» فأرادوا أن يروها في مصر ليثبتوا رجولتهم. لا لا.. نحن تنظيم كبير.. بل تنظيمات تكافح على هذه الأرض منذ زمن، وتنتظر فرصة، وهاهي قد جاءت ولن نسمح لأحد أن يضيعها منا.

- لكن يا شيخ. هذه ثورة شعب، فكيف تحولونها لتكون مجرد أداة في مشروع وهمي لفصيل يعيش خارج الزمن.

- اخرسي يا بنت.. يبدو أن أهلك لم يربُّوكِ، أنتِ....

أغلقت الهاتف في وجهه، ولم تدعه يكمل بذاءاته وغطرسته. هذا الذي أتى

متوددًا إلى الميدان، يمشي على استحياء، هاهو يُقسّم كل شيء وكأنه يملك المكان والزمان. كأنه سلطان الوجود وسيده. ثم ابتسمت ساخرة منه، وقالت في نفسها: هؤلاء لا يتعلمون أبدًا من أخطائهم. هم مجرد موجات متلاحقة من الغرور. مجرد زبد يطفو فيظنه أصحابه سيعلو إلى عنان السماء، ثم لا يلبثون أن يكتشفوا أنه مجرد رغاء، يهيج فيملأ العين فإن حاول أحد إمساكه تلاشى في يده. قد يربحون الكراسي لكنهم يخسرون أخلاقهم، وحين يقفون عرايا مجردين من كل عطف نالوه من قبل سيلعنهم الناس ويطاردونهم.

تنهدت في أسى، وراحت تقلب قائمة الأسماء من جديد. تجلَّى أمامها اسم الشيخ عبد الرحيم القوصي، فابتهجت؛ إذ تذكرت أن حسن كان قد أخبرها بأنه ذاهب إلى هذا الرجل. قال لها في آخر مكالمة بينهما أمس الأول:

- سأذهب غدًا إلى مولانا في باب الشعرية.

هزت رأسها وقالت:

- هو، ليس غيره مَنْ يستطيع أن يطمئنني على حبيبي الغائب.

وضغطت زر الهاتف وانتظرت انسكاب الرنين الملهوف بأذن رجل صوفي فارق الستين منذ شهور، يقطن شقة وسيعة بمبنى قديم في شارع الجيش.

16

جلس وحيدًا. الماء أمامه والسماء تنام على رأسه. كان يشخص ببصره إلى المدى فيرى صورًا لم يعد لها وجود في دنيا الناس الآن، لكنها مرت به ذات يوم. لا، لم تمر في حقيقة الأمر، بل عاشها بحلوها ومرها، وتسربت من بين أصابعه دون إرادة منه.

قبل أيام شاهد فيلم «آلة الزمن»، وقبل أسابيع قرأ رأيًا في مجلة منسوبًا إلى أديب كبير يصف فيه الزمن بأنه «الفتوة الأكبر»، وقبل دقيقة من الآن تملكه شعور جارف بأنه قشة في مهب الريح، أو نبتة ضعيفة داستها أقدام العابرين. وتمنى أن يعيد كل شيء إلى حاله القديم. حين كان طفلًا لينًا يأمر أبوه أمه أن تلبسه «البدلة العسكرية» ويعلق له النجوم على كتفه بيده، ثم يقف أمامه ويضرب قدمه في الأرض بكل ما أوتي من قوة، ويقول له بصوت يسمعه الناس في الشارع: تمام يا أفندم.

هكذا ظل الصول عبد الستار يغرس في ابنه أحمد مستقبلًا محددًا، كبر معه. وحين أشرف على التخرج في الكلية الحربية رحل الأب وترك ابنه يعانق أوجاع الحياة، لا يجد أي متعة سوى في تلك الدقائق التي يقتنصها من الألم، يترك زملاءه، ويأتي هنا إلى شاطئ البحر، يجلس وحيدًا يحدق في البعيد الأزرق.

طالما كان يشرد في الحكمة التي رددها مدرس اللغة العربية كثيرًا: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك»، وهاهو يجد نفسه ممزقًا إرْبًا إربًا، وهناك يد ضخمة، أكبر من كل هذا البحر الوسيع الهائج، تمسك بقطع لحمه وتضغط عليها حتى تصير عجينًا، ثم تكورها على هيئة حبات أكبرها كحبة القمح وتنثرها على سطح الماء فتلتقطها الأسماك الجائعة.

أخيرًا وجد لنفسه فائدة في الدنيا، أو هكذا كان يحس بأنه عالة على الحياة. ربما لأن طموحه أكبر من هذا بكثير. ربما لأن الصورة التي زرعها أبوه في رأسه كانت أجمل بكثير من الواقع البائس الذي يكابده. ربما لأنه لا يجد نفسه فيما يتباهى به غيره ويزهو. ربما لأنه عجز عن عد مرات تثاؤبه كل يوم.

كل شيء انقلب. زال التثاؤب، وسرى في أوصاله نشاط لم يعهده منذ طفولته السعيدة. وقف انتباهًا كما لم يقف لأحد من قبل، وضرب قدمه اليمنى في الأرض بعنف، وأدى تحية بيد من حديد، وهو يرفع هامته، ويشم هواءً نظيفًا. لم يكن ضابطًا عظيمًا يقف أمامه في طابور الصباح أو ميدان الرماية، لكنه كان شيئًا. ليس حيوانًا ولا تمثالًا أو صورة لزعيم أو بطل، إنما شاشة زرقاء ملتهبة بوجوه ساخطة وأيادٍ منقبضة تدق الفراغ في ثبات عجيب، وتهدر: «الشعب يريد إسقاط النظام».

أغمض عينيه، وراح يستجمع نفسه من بطون السمك، حبة حبة. كانت المهمة شاقة، لكن عزيمته لم تتراخَ. قال لنفسه بصوت مسموع: إنها الآن

مسألة وجود. وواصل ما يفعله في صمت. حين اطمأن إلى أن هيئته قد اكتملت زفر في ارتياح، وانتفض واقفًا لمَّا جاءه جندي وقال له:

- قائد الكتيبة يريدك.. الجيش سينزل الشارع بأمر القائد الأعلى للقوات للمسلحة.

انتفض وابتسم وشعر لأول مرة أن لأقدامه أثرًا على الرمل. انتفض ومشى بخطوات نشطة، وكأن أقدامه تريد أن ترتفع عن الأرض. ترتفع وتطير في جوف الفضاء البعيد. ولولا خوفه من أن يراه أحد لرقص وصدح وأسمع الدنيا كلها غناءه، وربما هتف مع الهاتفين هناك في الساحة الوسيعة الملتهبة ونادى بسقوط النظام.

في طريقه إلى قائده المباشر انفتح رأسه على ظنون. فمنذ أسابيع تناقل زملاؤه خبرًا عن ضابط برتبة مقدم دعا إلى «ثورة» ثم خمدت دعوته، واختفى صوته. ورددوا قبلها بشهور شائعة تقول إن لواءً متقاعدًا هو الذي تزعَّم لصق لافتات تطالب بمدير المخابرات رئيسًا. أيكون ما يجري هو ثمار هذه الدعوة؟ أم تلك المحاولة التي استقبلتها جدران عديدة بالقاهرة؟ لا لا.. هذا أمر مختلف. لم يتوقعه أبدًا.

هذا شيء يبدعه عقل كبير جدًّا لم يصادفه يومًا، وقد رأى نتائج ما فعل في كلمات وتصرفات قائده الكبير جدًّا، الذي بدا شاحبًا بليدًا كعادته، يحاول أن يظهر تماسكًا ليخفي خواء نفسه وذعره، وهو يتحدث بنبرته المعتادة، محافظًا على الإيقاع الرتيب الممل، وكأنه يخطب في عيد الشرطة. ثم حلت برأسه الهتافات التي اقتحمت أذنه فراح يرددها:

«يا سوزان قولي للبيه... تلاتين سنة كفاية عليه»

«يسقط يسقط حسني مبارك»

«يا عادلي يا ديل مبارك... المشنقة في انتظارك»

«كل الكدب حصري... عالتلفزيون المصري»

«الجدع جدع والجبان جبان... واحنا يا جدع هنموت في الميدان».

راح يردد معهم في داخله، وعيناه مغمضتان وروحه ترى له الطريق إلى مكتب القائد. لمَّا وصل كانت «قناة الجزيرة» تقول: «ذكر التلفزيون الرسمي المصري أن الرئيس حسني مبارك قرر بصفته الحاكم العسكري مد حظر التجول الذي فرض يوم الجمعة ليشمل جميع محافظات الجمهورية».

***

لم تمضِ سوى ساعة واحدة حتى كانت دبابته في ميدان الأربعين قلب مدينة السويس، يلفح برجها دخان قاتم يتصاعد من قسم الشرطة الذي تأكله نيران غِلٍّ وقهر مزمنين. كانت الأوامر المعطاة له لا تزيد على تلك التي نسبها

التلفزيون الرسمي إلى الرئيس: «مساعدة قوات الأمن على حماية المنشآت العامة والحيوية وسلامة المواطنين».

ابتسم أحمد ساخرًا وهو يتذكر التخريب المنظم الذي أصاب هذه المنشآت، حتى صارت مجرد غابات متتابعة من الأسمنت ينحبس بين جدرانها هواء فسد وتعفن منذ سنين طويلة. وقال لنفسه، ثم جلجل بضحكة عارمة: سلامة المواطن. أي مواطن أيها العجوز؟ حتى نحن هنا الذين مررت يومًا من بين صفوفنا صرنا حطامًا بعد أن داسنا كبارنا الذين بايعوك على الخراب أو صمتوا خائفين وتواطئوا مع جشعك ونهمك الفاضح. وتقاذفتنا أرجل أصحاب الجيوب المنفوخة والكروش التي تزيح قبابها الصلبة كل من يقف أمامها، وهي مطمئنة إلى أن الجنرال الكبير يبتسم ويبارك هذا الطحن الصامت.

رفع الخوذة الرابضة على رأسه، ولوَّح بيده للمتظاهرين، فهرع إليه العشرات من الشباب، ركبوا الدبابة، وكتبوا على جانبها «يسقط مبارك»، وأمر هو الجندي الذي يقودها أن يجري بها في الميدان، فأسرعت مبتهجة تتراقص على أهازيج راكبيها، الذين يرفعون أعلام مصر في الهواء، ويهتفون: «الجيش والشعب إيد واحدة»، ثم يصرخون في فرح وكأنهم يتسابقون بمدينة ملاهي. في هذه اللحظة تذكر أباه الصول عبد الستار. وفي لمح البصر استحضره أمامه واقفًا ويبتسم، ثم رفع يده وأعطاه التحية، وهو يغالب الدموع المختزنة منذ سنين في دلتا أحزانه.

غلبته الدموع وراحت تسح على خديه دون أن يشعر بها، لكنه أحس بشيء ناعم يسري على وجهه. فتح جفنيه فوجد شابًّا ممشوق القوام تطل من عينيه جسارة غريبة، وتسكن على جبينه سكينة وثبات، يمد منديلًا ويمسح دموعه ثم يقول له:

- لا تبكِ يا سيادة الرائد... حانت لحظة خلاصنا وخلاصكم.

رفع أحمد عينيه في وجه مَنْ يكلمه. عصر ذهنه حتى كادت خلايا مخه أن تخرج من جمجمته، ثم قال له:

- أنت حسن عبد الرافع.

- نعم.

- أعرفك، وأتابعك منذ مدة، وأنت تهاجم الفاسدين والمستبدين، ولمحتك مرات على الشاشة وأنت تهتف مرفوعًا على الأعناق في ميدان التحرير.

وساد صمت قصير، قطعه أحمد سائلًا:

- ما الذي أتى بك إلى السويس؟

- السويس هي رافعة الثورة، إن استمرت صامدة سنصمد هناك، وإن انتصرت سننتصر، وإن - لا قدر الله - انكسرت فقد ننكسر. هذا قدرها، وهذا عهدنا بها، ولن تخذلنا أبدًا.

ابتسم أحمد ورفع وجهه إلى أعلى ثم ابتسم في وداعة ولين، وقال:

- حقًّا، الدنيا ضيقة، كما يقولون. تمنيت كثيرًا أن أراك، ولم يخطر ببالي أن يكون اللقاء هنا في ميدان الأربعين.

ربت حسن كتف الرائد أحمد، ومال برأسه إلى اليسار، وقال:

- قضيت فترة تجنيدي قبل سنين في قرية الشلوفة على بعد عشرة كيلومترات فقط من هنا. ولهذا المكان في نفسي ذكريات لا تنسى.

وعاد الصمت، وسأل أحمد:

- هل تعتقد أن الثورة ستنجح؟

رنا صامتًا لبرهة، ثم نظر في عيني أحمد طويلًا، وقال بصوت واضح وصريح:

- إن أخلصتم أنتم النوايا، وآمنتم بأن التاريخ يقف الآن على باب آخر، بابنا نحن، وأن مصر في حاجة إلى دم جديد، فمن المؤكد أن ثورتنا ستكتمل.

فعاد أحمد إلى هز رأسه، ثم لاذ بصمت شامل، بينما قفزت صورة الشيخ رأفت مغازي إلى رأس حسن، هكذا فجأة، دون أن يعرف لهذا سببًا، فوقع هو الآخر في صمت عميم.

17

حين غمر النور الأرض، وتخللت هالاته الفياضة شواشي النخل وآجام الشجر، كانت صفاء تلقي رأسها إلى الخلف مستسلمة لنوم خاطف، سرعان ما هرب ووخزها قلق ففتحت عينيها وطالعت شاشة الهاتف فلم تجد سوى عتمة راكدة وبيانات ثابتة مألوفة لا تكاد أن تنجلي.

«لم يأتِ جديد».. هكذا قالت لنفسها، وانسحبت داخلها ومرت أمام ناظريها الذاهبين إلى الأفق البعيد صور سريعة كأحلام الليل. كانت مشاهد «ميدان التحرير» التي لا تنسى أبدًا. اعتادت أن تجلس وحيدة تستعيدها في أناة كلما تسرب داخلها شك في أن دماء الشهداء يمكن أن تذهب سدى، ودموع الأمهات الثكالى يمكن أن تروح بلا جدوى.

كانت أحيانًا تتفرس في ملامح العابرين، الغادين والرائحين، وقد عاد إليهم الانحناء قليلًا، وتقول لنفسها: سيرفعون هاماتهم من جديد. لقد أطلقوا غضبهم في أوردة الشوارع حتى انفجرت ذات يوم، وما هم فيه حالة عابرة. اكتئاب طارئ. حزن شفيف، مآله الموت على عتبات الفرح العظيم بنجاح ثورتنا، ووصولها إلى شاطئ الحرية والعدل والكفاية والكرامة. أليست هي الشعارات التي رفعها المحتشدون في كل ميادين التحرير بطول البلاد وعرضها؟ أليست هي الجسر الذي تعبر به بلادنا إلى الاستقلال الثاني؟ نعم، هو الاستقلال الثاني، أنا أعني ما أقول. أعرف مرارة هذه العبارة وقسوتها، لكنها الحقيقة التي لا يجب أن نهرب منها. فما عشناه كان احتلالًا. بل هو أفظع من ذلك الذي مرَّ على هذا البلد طيلة عمره المديد. أليس أقسى ظلم هو الذي يرتكبه أولو القربى؟ كنا نفهم لماذا يقهرنا الغريب ويسرقنا، لكننا نتقزز إلى حد التقيؤ الدائم من سرقة وقهر بني جلدتنا لنا.

ألم يكن الرئيس المخلوع في يوم من الأيام طفلًا يلعب في شوارع تعج بالتراب، ويلقي التحية على الفلاحين الراكعين إلى خصوبة الأرض والشمس تأكل رؤوسهم؟ هم بالضبط مثل هؤلاء الكادحين الذين يمرقون من نافذة القطار ويتساقطون الآن إلى الوراء. ألم تُعدّ زوجة الرئيس أطروحة في علم الاجتماع عن فقراء حي بولاق الدكرور؟ كيف هان عليهما أهلهما فأطلقا الجوع والمرض يرعيان في أجسادهم المكدودة، ويضرب الشتاء ظهورهم بأسواط لا ترحم؟ إنها حكاية لويس السادس عشر وماري أنطوانيت التي لا يمل التاريخ من تكرارها في أماكن عدة، وكأنه حريص على أن يوزعها على كل أصناف البشر. متى يهل العدل من طيات الظلم الأسود؟ متى ينهار الجدار السميك الذي يحجب النور؟

وبينما هي غارقة في أفكارها المتضاربة رن الهاتف وكان حسن. ضغطت الزر في لهفة، وقالت بصوت متهدج:

- حسن...

فجاءها صمت تام، قابلته بوجيب رجَّ قلبها، وانطلق وحش الخوف ينهش روحها، ونادت من جديد:

- حسن... آلو يا حسن..

وأتى هذه المرة صوت غريب مشبع بفجاجة وتكبُّر:

- صباح الخير.

اهتزَّ كل جسدها، وقالت بشفتين ترتعشان:

- صباح النور.

- حضرتك صفاء عليوة؟

واهتز المقعد تحتها من فرط ارتجاجها، ثم ردت:

- نعم.

- أنا خالد السبع.

- مَنْ؟

- قلت خالد السبع.

وساد صمت، قطعه هو متخذًا طريقًا غليظًا نحو ما يريد كما اعتاد:

- البقية في حياتك.. اغتالوا حسن.

صرخت ففتح الركاب عيونهم في فزع. وهرع بعضهم نحوها، وهي تضرب النافذة بقبضة يدها، ثم تطوح رأسها على مسند المقعد الذي يسبقها وتنخرط في بكاء حار. كان الهاتف ملقى على حقيبتها يترنح وهو يفرغ حروفًا متتابعة تنزلق بين المقاعد فيدوسها المهرولون إلى صفاء. مدَّ أحدهم يده والتقط الهاتف، وتحدث مع خالد السبع قليلًا، ثم أعطاها هاتفها، فقالت في مرارة:

- أنت تكذب.

لكن خالد لم يتخلَّ عن ساديته فلسع روحها قائلًا:

- لو كنت أكذب ما الذي أوصل هاتفه إلى يدي، وجعلني أعرف مَنْ هو ومَنْ أنتِ، وما هو رقم هاتفكِ؟

- أنت عميل مباحث أمن الدولة.

- قصدك الأمن الوطني.

- سيَّان.

صمت برهة ثم سألها:

- أتعرفين شخصًا اسمه أكمل؟

- نعم.

- اطلبيه وستجدي ما أقوله لك صدقًا.

***

هاتفت أكمل وطلبت منه أن يحكي لها كل شيء. يحكي التفاصيل وكأنها كانت معه، تلقت الرصاص في صدرها معه، أو أخذت رأسه على حجرها، واحتضنته وهو يغيب إلى الأبد، وهي التي كانت قبل دقائق تقبض على يده تحت هالات ضوء خافت، وعتمة رائقة، وعيون تخترق ستائر الليل من خلف النوافذ نصف المغلقة. كأنهما كانا يتقاسمان الحروف. حرف.. اثنان.. ثلاثة. كلمة.. جملة، تحوي معنى كاملًا من تلك المعاني التي كان لا يكف عن إهدائها إليها.

ورنت إلى الخلاء الذي يلف كائنات تجري بلا هوادة، فرأت هناك في عمق الخضرة الرائعة وجه أمها. لم يكن متعبًا كما رأته وهي على عتبات الرحيل الأبدي، بل بدا يفيض بشرًا وشبابًا، ويكتسي باطمئنان عميم.

تخيلتها تبتسم وتحدثها. لم تتخيلها بل جاءت لها من العالم الآخر في هذه اللحظة العصيبة. أغمضت صفاء عينيها فشعرت أن يدًا حانيةً تربت كتفها، وتطلق دفئًا إلى أوصالها، وألقى هاتف في أذنها:

- راح حسن وعليكِ أن تكملي الطريق.

ورنَّ في أذنيها صوت حسن المبحوح من فرط الهتاف والكلام المتواصل الذي يسكبه في آذان المحتشدين الذين تغبرت أقدامهم بتراب ميدان التحرير:

- إن مت فلا ترجعي من منتصف الطريق.

وكانت تمد يدها لتسد فمه، لكنه مد يده وحرَّر فمه وواصل:

- أنا جادٌّ يا صفاء.

لكنه عاد ذات ليلة ووجهه مغلف بقشرة سواد رائق جعل أسنانه تزداد بياضًا، قال لها:

- إن مت عودي إلى بلدك وانسي كل شيء.

وكانت تتعجَّب من هذا التبدُّل في كلامه ونبرته، فكان يبرر لها ذلك قائلا:

- نحن نواجه عصابات ضارية، وأخاف عليك.

لكن صفاء اختارت الآن، وقبل أن تجف دموعها، في أي طريق تسير. لم تنسَ وصية حسن التي بثها إليها في متاهات الليالي الباردة.

مدَّت يدها واطمأنت إلى وجود «الكنز» في حقيبتها. كنز من الأسرار لا ينقصه سوى سرٍّ واحدٍ ويكتمل في يدها بعد أن تستخلص ما تبقى من مخالب وأظلاف الكائنات المتوحشة التي تسعى بكل كيانها إلى تفريغ الثورة من مضمونها. خطوة واحدة نحو رجل لا تعرف هيأته، وضحكت طويلًا حين سمعت اسمه أول مرة «الزنباع». عند هذا الزنباع المختفي في رحم الغيب إجابة عن السؤال الغريب والمثير والمقبض والخطر. الإجابة التي إن ركبتها أي أقدام ستنزلق بها إلى الهاوية. الهاوية التي سقط فيها حسن عبد الرافع قبل أن يمسك الإجابة

بيده، وهو يحاول جاهدًا أن يهتك الأسرار، ويخترق الحجب، ويكسر المحرمات التي عشَّشت زمنًا طويلًا في أركان معتمة لا يصلها أدنى بصيص من نور.

آهِ يا حسن. كم كنت جسورًا وأنت تعبر راقصًا فوق خيوط الألم والأمل. كان القلق يطلق جمرات في دمك، والرغبة في الوصول إلى أعماق ما جرى تقضُّ مضجعك، وتحيي غربتك وأنت تهيم على وجهك في الشوارع، بعد أن ظننت أنك قد عدت إلى وطنك ووطنك قد عاد إليك حين رأيت الحشود تدق الهواء بقبضات لا حصر لها. كم سألت نفسك يا حسن: لماذا يخذلنا مَنْ قالوا إنهم شركاؤنا؟ أهم شركاء حقًّا؟ أم أن هذه كلمة ناعمة لفعلٍ قاسٍ لا علاقة له بالإحساس الذي يجرف رفاق الدرب وأبناء المصير الواحد؟ ما الذي جرى؟ لماذا يأتون هذه الأفعال الخرقاء ضد مَنْ جددوا دماءهم التي تخثرت، وعبَّدوا لهم طريقًا وسيعًا نحو مجد لم يتوقعوه ولا يستحقونه؟ أهي عصا غليظة تسوقهم إلى حيث يريد صاحبها؟ ومن الصاحب الذي يريد أن يقتل النهار ويعيد قطع الليل لتجثم فوق القلوب والعقول من جديد؟ أهو على بعد مرمى حجر منَّا؟ أم يعيش بيننا ويزاحمنا في دبيبنا المتلاحق نحو الآتي؟ أم هو هناك خلف البحار الهائجة، والسحب الداكنة، ومقبرة الشمس، ودوائر الريح؟ ألم يتعلم هؤلاء الدرس؟ ألا يزالون سادرين في أوهامهم القديمة ولا يعرفون أنه لا يوجد على الأرض أقوى من شعبٍ يريد؟

مئات بل آلاف الأسئلة حلت كعاصفة هوجاء برأس صفاء، بعد أن تاه في دهاليزها حسن عبد الرافع من قبل، حتى انخطف قبل أن تكتمل لديه الإجابات.

18

اتَّسع وجه الشيخ رأفت مغازي بابتسامة ماكرة حين جاءه نبأ مقتل حسن عبد الرافع. تجرَّع كوبين من الخروب ثم تجشأ، وطرق بأصابع أربعة من يده اليمنى على منضدة مطروحة أمامه وهواء الصبح يضرب مفرشًا من الدانتيللا يكسو صفحتها المنسابة في نعومة، ثم يتصاعد إلى لحيته القصيرة فتهتز قليلًا.

ضيَّق عينيه، وسحب شهيقًا عميقًا، وتاه رأسه في مليون رأس كانت مرفوعة في ميدان التحرير ترسل عيونًا متحفزة إلى طائرات الـ إف 16 التي كسرت حاجز الصوت لتخيف المحتشدين فزادتهم إصرارًا، وهدروا بحناجر مدوية: ارحل.

كان الشيخ وقتها يطل على طرف السماء، والشمس تنكسر في عينيه، وقطعة سحاب عابرة تمرق غير عابئة بما يجري على الأرض. وكان حسن يذهب بناظريه إلى حيث يتابع الشيخ، وهما واقفان في شرفة تنام على الرؤوس المشرئبة، وتبدو لمن يحل بها وكأنها مقيمة في قلب الميدان.

وضع مغازي يده فوق عينيه ليصد الشعاع المبهر، وقال:

- جاءني خبر أن الطاغية يركب طائرات الأباتشي التي عبرت قبل قليل.

امتلأ وجه حسن بالدهشة وقال:

- أمعقولٌ هذا؟!

- يُقال إنه أنكر أن الميدان ممتلئ بالمتظاهرين، وظنَّ أن هذه لعبة إعلامية لإسقاطه، وطلب أن يرى بنفسه.

ساد صمت لكن سؤالًا وخز رأس حسن فألقاه متلهفًا:

- كيف عرفت هذا السر الدقيق؟

ابتسم في خبث وربت كتفه:

- نقف هنا معكم ولنا هناك عيون وسند.

- أين؟

- في أرفع مكان يصل إليه خيالك.

تذكَّر حسن ذهاب رفاق الشيخ ومجيئهم في مساومات فاشلة مع السلطة، بينما كانت الأرواح تزهق في شوارع مزدحمة بصدور مشرعة للموت، ونفوس لا ترضى عن إزاحة الطاغية بديلًا. هز رأسه وسأله في غيظ:

- أتدبرون أمرًا من خلف ظهور الناس؟

- أيُّ ناس؟

أشار حسن إلى الميدان وقال:

- هؤلاء الذين خرجوا قبلكم، وآمنوا دومًا بما كنتم تحسبونه من المستحيل.

أشاح بيده من علٍ فغطت رؤوسًا لا حصر لها أمام عيني حسن وقال له:

- هؤلاء جنود سخَّرها الله لنا... جنود سائبة هائمة على وجوهها تدوس أرضًا ملغومة فتفتح طريقًا أمام من نظَّموا أنفسهم من سنين طويلة، وتحملوا البطش في صبر؛ ليتقدموا الآن إلى حيث يستحقون.

- يستحقون ماذا؟

قهقه، ثم ضيَّق عينيه وقال:

- الحكم طبعًا... وهل هناك غيره؟

ثم قبض راحته ودقَّ الهواء، وقال:

- إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

أدار حسن ظهره، وهمَّ منصرفًا بينما يطارده كلام الشيخ:

- كن ذكيًّا... لا تخسرنا، فكل شيءٍ سيؤول إلينا، شئت أم أبيت. كن معنا وإلا ستموت بغيظك.

عندها وقف حسن مكانه، ثم استدار، ووضع عينيه في عيني مغازي وقال له في تحدٍّ:

- أنا لا أخون... وأنتم واهمون، حتى لو خطفتم كل شيء فلن تهنأوا به، سيتحول إلى حنظل في حلوقكم وقد يخنقكم فتسقطون صرعى.

ومضى وفي حلقه غصة ومرارة، وقال لنفسه وهو يهبط درجات السلم ذاهبًا ليلقي أحزانه تحت أقدام المحتشدين الذين يعضون على إخلاصهم: «لا يعرف هذا الشيخ المزعوم أنه كان بوسعي أن أذهب في طريق السلطة من سنين، وآخذ من ذهب المعز وأتقي سيفه.. ولا يعرف أنني قلت لمن طلب مني الانضمام إلى أمانة السياسات التي يرأسها نجل الرئيس أنني تعلمت من عرق الفلاحين في الغيطان، والعمال في المصانع، والموظفين في المكاتب، والباعة في الأسواق، ولا يمكنني أن أخونهم وأنضم إلى جلاديهم وسارقيهم، وحين امتقعت ملامح الرجل، وأخذته عزة منصبه بالإثم، وزفر في تبرُّم، لاحقته قائلا: أنت وأمثالك مسمار صدئ في ترس متهالك لآلة جهنمية تفرم شعبنا المسكين بلا رحمة ولا هوادة.

ذهب الرجل يومها نادمًا على دعوتي، وكان كلما ذُكر اسمي أمامه فيما بعد، أو رأى صورتي في جريدة، تنقبض ملامحه ويقول:

- مغرور ومجنون.

هكذا نقل لي بعض الصحفيين الذين قابلوه.

***

لم يكن حسن مغرورًا ولا مجنونًا، إنما كان وفيًّا للناس. كلما اهتز اليقين داخله يجلس وحيدًا في غرفته المعلقة على سطح مبنى قديم بحي المنيل يفتش

في كتب قديمة عن «روح مصر» هذه الفكرة التي كان يبلورها على مهل ذاهبًا إلى اتجاه مضاد لذلك الذي سار فيه جمال حمدان. وعلى المقهى كان يقول لأصدقائه:

- لا يرى كثيرون النار التي تستعر تحت رمادٍ كثيف.

أحيانًا كانت تخنقه بأسئلتها التي لا تنتهي وإجاباتها الناقصة التي لا تشفي الغليل، فيخطف حقيبته الكالحة، ويرمي جسده داخل قطار الدرجة الثالثة. كان يرى فيه مصر الأخرى. مصر التي أضناها السفر، وعذبتها الآمال المجروحة. يتفرَّس في الوجوه السمراء الضامرة، ويطالع العمائم الراقدة فوق رؤوس مسكونة بالفكاهة المرة، النائمة في قلب المواويل والأغاني الشعبية وفن الواو، الذي أورثه لهم ابن عروس. كلما قرأ شيئًا باهتًا، أو سمع رأيًا باردًا، يقطر بالنفاق لأي مثقف باع ضميره، واشترى جيبه، يردد مع نفسه:

«الندل ميت ماهو حي... ولا حد حاسب حسابه

طعمه كما الترمس الني... حضوره يشبه غيابه»

وهناك بجوار القنطرة التي تبدأ بها قريته الصغيرة يحلو له الجلوس نهارًا مع الناس، ينصت إلى شكاواهم، ويروض العجز الذي يضغط على روحه حتى يكاد أن يزهقها. في الليل تجمعه بهم المصاطب التي تغالب الزمن.

كل شيء كان ينطق بالغضب. الترع التي تنيخ تحت مياه ضحلة وطمي ثقيل. الأرض التي لم يعد ما تغله كافيًا لإطعام كل هذه الأفواه الجائعة. البهائم الضامرة. الأطفال الذين يقيم الذباب على وجوههم. النسوة اللاتي يغالبن الشوق ويقتلهن الحنين إلى أزواجٍ تركوهن من سنين ورحلوا يسعون وراء رزق قليل في بلاد النفط. يهاتفونهن مرة كل أسبوع، لكن أصواتهم لا تغني عن دفء أجسادهم. طيور المنازل التي اختفت بعد أن اجتاحتها «إنفلونزا الطيور» الظالمة. لا نسيرة لحم أبيض ولا بيضة تطلق طاقتها في عظام طفل فتقويه على القفز المتلاحق.

في أول الليل تنقُّ الضفادع، وفي الهزيع الأخير منه تعوي ذئاب في قلب زراعات القصب، وبينهما ينطلق صراخ رضيع يفتش عن ثدي ضامر، وتترامى أنات مرضى لا يجدون ثمن الدواء.

وهناك أيضًا في الشوارع الخلفية للمدينة المتوحشة يعشش البؤس في الطرقات المتربة المزركشة بحفر متفاوتة الأحجام، وفي البيوت الخفيضة الكالحة، وعزب الصفيح المعلقة في الريح، ووجوه العيال التي تطل من نوافذ متداعية تعانق رفات الموتى. والليل الموحش الذي يتعثر في أقدام رجال يعودون منكسي الرؤوس إلى المقابر بيوتهم، وبيوتهم المقابر. العشرة الذين يقفون في طابور كئيب أمام حمَّام متهالك لا يمنع شمس الصبح العفية من أن تفضح كل شيء. والشباب الملقى على المقاهي يدخن بشراهة ويروض

الوقت، والبنات اللاتي يقفن في شارع جامعة الدول العربية ليصطدن الرغبة الطافحة من أجساد الغرباء ويحصين ما يلقى بين أثدائهن من جنيهات بعد أن ينسحقن تحت البطون المملتئة بالطعام.

يستدعي حسن كل هذا وهو يطالع الميدان الزاخر بالثوار. يرى أن تطبيق شعار «عدالة اجتماعية» سيؤدي إلى ملء الوجوه الضامرة باللحم، وعودة المغتربين في متاهات البلاد التي تستحم كل يوم في الهواء اللزج، واتساع قراريط الفلاحين لتصير أفدنة تتحول تدريجيًّا من الأصفر الكئيب إلى الرمادي الخفيف ثم الأسود العفي الذي تكسوه خضرة تمتد بلا نهاية. الصحراء التي وزعوها على أصحاب الحظوة فأوجعوها بملاعب الجولف والقصور والفيللات الفارهة ومحلات المليون صنف، ستكون مجرد بداية لصحراء أخرى ترقص تحت أسنان الفؤوس المشتاقة إلى الضرب والقضم والتقليب المتواصل، وتترك وراءها نخيلًا باسقًا وشجرًا وارف الظلال.

كل هذا لا يعبأ به الشيخ مغازي، فالثورة لا تعني بالنسبة له سوى حيازة الإمبراطورية التي فككها الاستعمار وحالت بين قطعها المتجهمة سياسات حكام لا همَّ لهم إلا الدفاع المستميت عن غنائمهم. الجاه والمال والآمال الزائفة بالبقاء الأبدي في كراسيهم التي ينخر فيها السوس من دون أن يدروا.

- الشريعة حقوق قبل أن تكون حدودًا.

هكذا قال حسن للشيخ وهما يخلعان أحذية كادت أن تبلى من كثرة الدوران على أطراف الميدان للتأكد من متانة نقاط التفتيش التي أقامها الثوار، وهم يُسيِّجون جمهوريتهم الصغيرة، التي بدت منقطعة الصلة بدولة العجوز المترهل.

صمت الشيخ برهة، وقال:

- هذا فخ ينصبه العلمانيون لنا، ظاهره الرحمة وباطنه العذاب. منهجنا يا أخ حسن كلٌّ لا يتجزأ، إما ترضون به كاملًا أو تكفون إلى الأبد عن التلاعب بالألفاظ. طريقنا واضح لا لبس فيه. الثورة نقطة الانطلاق إلى دولتنا التي طال انتظارها.

- أيُّ دولة؟

- الدولة التي دفعنا ثمنًا باهظًا من أجل بلوغها.

- الإسلام دين للإنسانية كلها، وحبسه في دولة يضر غاياته الكبرى.

- الدولة ستحرس الدين.

- الدول تقوم وتزول، والدين باقٍ، وقوته في ذاته، وهو يحرس نفسه، وإلا ما انتشر منذ قرون في بلاد لم تطأها سنابك الخيل.

- أعرف حيلك كلها، فأرِحْ نفسكَ، كلامك يدخل من هذه الأذن، ويخرج من أختها.

لكن حسن لاحقه:

- كل التضحيات المزعومة التي تتحدث عنها كانت من أجل فكرتكم الواهية، ولم تكن أبدًا من أجل هذا الوطن العريق.

ثم وضع إصبعيه في أذنيه، وأشاح وجهه بعيدًا، فصمت حسن وهو يقول في نفسه:

- يا خوفي على ثورتنا، أطلقها الأبرياء المغامرون، وقد يركبها لئام لم يحلموا بها يومًا، وكان بعضهم يراها حرامًا أصلًا.

وبعد رحيل حسن بشهور كانت هواجسه تمشي مختالة في كل الشوارع ويراها الناس، ويسمعونها وهي تقول لهم:

- كل شيء بات في يدي، وموتوا بغيظكم.

ثم تُخرج لسانها للجميع وتمضي مزهوة بنشوة انتصارٍ لم يكن أبدًا من صنع يدها.

19

حين جاء إلى أذن مولانا عبد الرحيم القوصي نبأ اغتيال حسن عبد الرافع كان خارجًا لتوه من صلاة العشاء. كم أوجعه أن الخبر تأخر عنه كل هذه الساعات؟ لم تتهادَ له رؤية تعبر رأسه في نوم القيلولة، ولم يسقط عليه هاتف من بعيد، ولم يجُلْ بخاطره نداءٌ هامس يحيطه بما جرى خبرًا. ولم يهاتفه أيٌّ من الشباب المؤمنين بكراماته، ولم يجلس اليوم يستمع إلى إذاعة أو يشاهد التلفزيون. كل شيء كان يمر أمام عينيه رتيبًا كما ألفه، وهو يتفاعل مع كل ما يدور حوله بصمت وسكينة.

كان حسن يعتقد في قدرات مولانا الروحية. يقول لنفسه وهو ينصت إلى حديث المريدين عن الأفعال الغريبة والأشياء التي فوق النواميس: «هناك مَنْ وهبهم الله قدراتٍ جسدية فائقة، نراهم وهم يستعرضونها أمامنا فنسلِّم بها. ولابد أن يكون هناك مَن مُنح طاقات روحية طليقة، لكن هذا مما لا يمكن لنا أن نراه، ولذا تساورنا شكوك حوله».

جلس حسن إلى مولانا شاردًا، لكنه أصاخ السمع، وأيقظ كل خلايا رأسه حين قال له:

- في الأيام الأولى للثورة، هاتفتني رئاسة الجمهورية لتسألني عن مآل ما يجري.

- وماذا قلت لهم يا مولانا؟

- لم أكذب يا حسن ولم أجامل، قلت لهم ببساطة شديدة «قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان».

- وصدقوك؟

- جرَّبوني من قبل وصدق معهم ما ألهمني الله به.

- أتدار البلاد، ويُتخذ القرار وفق ما يجود به عالم الغيب على بعض عباده.

- لا تنسَ أن الملوك والسلاطين والخلفاء والأمراء طالما استعانوا بالمنجمين.

- هذا في الأزمنة الغابرة.

- في كل زمان، وحتى يومنا هذا، لم ينقطع السبيل بين الغيب والشهادة، والإنسان ضعيف حتى لو كان ملكًا أو رئيسًا، وفي أوقات الشدة يستهوي الناس أن يسمعوا أي شيء يطمئن خواطرهم المضطربة.

ابتسم حسن ساخرًا وقال:

- الحل هناك في الميادين والشوارع، وأهل الحكم يبحثون عنه فيما وراء الطبيعة.

- هم لا يعرفون كيف السبيل إلى الخروج من المأزق؟ إنها الطامة الكبرى

بالنسبة لهم؛ لأنه لم يدُرْ بخلدهم يومًا أن الناس ستجتمع على كلمة سواء، وستخرج كل هذه الجماهير الهادرة لتطالبهم بالرحيل.

ثم صمت الشيخ برهة وقال:

- ما لدينا ليس بالشيء الهين يا حسن، وأنت تعرف.

أومأ حسن برأسه مؤمِّنًا على كلامه، ثم استفهم منه:

- مَنْ سألك بالضبط يا مولانا؟

- رئيس ديوان الرئاسة.

- فقط؟

- بعد ساعة من حديثي معه، هاتفتني السيدة الأولى. كانت منزعجة مما وصل إليها من كلامي، وأرادت أن تستوثق بنفسها، فلم أزد في قولي. بعدها لم يكلمني أحد منهم، حتى انتهى كل شيء على النحو الذي رآه العالم بأسره.

- تقصد حتى تنحي الرئيس؟

- بل نُحِّي. غادر القصر دون أن يوقع شيئًا بهذا. طلب منه الجنرالات أن يخرج ويوجِّه خطابًا إلى الشعب لكنه ماطل، ثم وعدهم أن يفعل ذلك بمجرد وصوله إلى شرم الشيخ، المنتجع الذي فضَّله على مصر كلها، أو اختزل في صورته المصطنعة أعرق بلد في الدنيا. ومرَّت الساعات دون أن يأتي منه شيء، بينما كانت الجماهير الساخطة الهادرة تزحف على قصوره. عندها دفع العسكر نائبه ليتلو بيان التنحي. كتبوا له الصيغة في جمل مقتضبة، فغيَّر كلمة واحدة فيها وهي «تنحيه» وجعل مكانها «تخلِّيه». كلمة بدَّلت الحال يومها وأطلقت أكبر حفل في تاريخ الإنسانية.

- هذا كلام خطير يا مولانا.

- الأخطر قادم يا بني.

- ارتباك وفوضى، أظنها مقصودة.

- بعضها كذلك، وبعضها مجرد توابع كانت متوقعة لهذا الزلزال الرهيب.

- وماذا يريد مَنْ يخلق الفوضى أو يتركها دون علاج، ومَنْ يؤجل مطالب الناس مع أنها واضحة كالشمس، راسخة كالجبال؟

- إياك أن تنسى أن مَنْ آل إليهم الأمر الآن جزء من الماضي، لهم منافع مخفية لا يريدون لنور الثورة أن يكشفها، ولهم مخاوف مكبوتة لا تريد أن تذهب عنهم بينما الميادين زاخرة بالمحتجين، والحناجر ملتهبة بالصياح. ولا تنسَ أن الأمريكان لا يريدون مصر مختلفة حتى لا تهدد مصالحهم.

- مظالم الناس لا حدَّ لها، ولا سكوت عنها، وهذا ما يجب أن يفهموه جيدًا، هم والأمريكان.

- هم يراهنون على الوقت، رفيق النسيان، وعلى المتاهة التي تبتلع الناس في تفاصيل الحياة الصغيرة والتافهة.

- رهان خاسر.

- الخسارة يحددها الزمن، وتحكم عليها الأيام. ما نراه الآن ليس كل الصورة، وما نعرفه مجرد جزء من الحقيقة.

- مهما حدث فلن نكِلَّ ولن نمَلَّ في طلب العدل والحرية.

***

يتذكر مولانا هذا الحوار، ويتوه في أحزانه الشفيفة، ويعجب لهؤلاء المنهمكين في خلاف ساذج على مكان وضع اللوحة مع أن الجدار متآكل ومتهالك ويكاد أن ينقضَّ.

تركه حسن في تلك الليلة الموعودة دون أن يصل مولانا النبأ قبل وقوعه. رؤيا أو أحلام يقظة أو خواطر سابحة ترسو على شاطئه. كان منشغلًا مع المكالمة التي جاءته من جُدَّة؛ فهاشم الغامدي، أحد مريديه، بكى له حتى كاد الشيخ يحس بسخونة دمعه في سماعة الهاتف، وهو يقول له:

- أريد أن أتوب يا مولانا.

لهذا لم يَرِدْ بخاطره ما جرى لحسن. هل هو القدر المحتوم الذي لا ينفع حذر لتفاديه؟ أم هو عمى البصيرة الذي أصابه في السنين الأخيرة حين حطَّت الدنيا على رأسه وطاب لها المقام؟ لا شك أن أشياء ومعاني كثيرة قد فسدت منذ أن عرف أهل الحكم طريقهم إليه. هو الضلع الثالث في رحلة كشف المجهول التي لا يكفون عن القيام بها، ويرهنون لها أقدم دولة في تاريخ الإنسانية. مفسر أحلام أسمر أعطاه الرئيس رقم هاتفه وأمر بشراء هاتف له غير مسموح بأن يسجل عليه رقم آخر، وحين يرن يرد منتفضًا: أفندم سيادة الرئيس. ومخاوي جن ذاع صيته يُستدعى أحيانًا إلى القصر الكبير. والثالث هو الولي صاحب الكرامات، وكراماته ولَّت منذ أن وضعها في خدمة العرش.

في الزمان الأول كان يتوه برهة ثم يقول لمريديه:

- أخوكم على لحم بطنه منذ يومين، خذوا هذا الطعام إليه.

وحين يطرقون باب أخيهم يجدونه يئنُّ من فرط الجوع. ولمَّا يرجعوا والدهشة تعقد ألسنتهم يسألونه في لهفة:

- كيف عرفت يا مولانا؟

فيهز رأسه ويقول لهم:

- ليس المسؤول بأعلم من السائل.

لكن الرئيس ذكر اسمه غير مرة في جلساته، فجاءه وزراء، تكلموا عنه فزاره أرباب الأموال الطائلة والفنانين الذين تغمرهم الشهرة، ثم طلبه صحفيون يريدون

مقابلات لجرائدهم. تمنَّع في البداية ثم انجذب إلى ساحات الدنيا فضاع كل شيء. وداس بوعي تامٍّ على نصيحة شيخه عبد الحق إلهامي الخلوتي: «كراماتنا ليست لنا. فلا نتعب أنفسنا في تفسيرها، ولا نسوقها إلا لمَن يستحق، وإن سُئلنا عنها أنكرناها حتى لو كانت ظاهرة، وصرفنا الأنظار عنها حتى ولو كانت جليَّة»، وظل الخلوتي مخلصًا لما ينصح به مريديه فمات وهو على بصيرة ونور.

لو كان في الزمان القديم، زمن المعرفة الحدْسيَّة والأذواق والمواجيد، لنبَّه حسن إلى أن يمضي من طريق آخر فنجا، أو دعا له بطول العمر فلم تخذله السماء. لكن المحظور وقع، وهاهو يتلقى نبأ مقتله ببال كسيف، وحيرة تكاد أن تتشقق لها جدران شقته الوسيعة. كان يمضي ولسانه يلهج بالتسابيح إلى اجتماع عاجل يعقده مريدوه ليطرحوا على أنفسهم أولًا، وعلى الناس بعد ذلك، تلك الرغبة المحمومة التي اندلعت في رؤوسهم خلال الأيام الأخيرة، وكدَّرت صفاء نفوسهم التي تقاوم شهوات الدنيا بقدر المستطاع. فكرةٌ همس بها أحد المريدين في أذن الشيخ، فانشغل بها وجرَّ وراءه كل أحبابه، فصاروا يسألونه في كل حضرة: «متى ستعلن إنشاء حزبنا السياسي يا شيخنا؟». الليلة لا يشغل رأسه بهذا الحزب المزعوم، بعد أن سمع النبأ المؤلم، وعرف أن طريق السياسة محفوف بالخطر لكل مَن انحاز إلى المصالح العليا للوطن، وعضَّ بالنواجذ على مبادئه، ورفض المساومات الرخيصة، وتصرفات أنصاف الرجال. وحتى الذين داهنوا ونافقوا، يفرِّون الآن كالفئران المذعورة.

***

كان الشيخ يعرف صفاء عليوة. زارته مع حسن مرات ومرات. هاتفها ليُعزِّيها فجاءه صوتها ملفوفًا بالسواد:

- البقية في حياتكَ يا مولانا.

وسألته عما سيأتي. أين تذهب؟ وما مصيرها؟ سألت باقتضاب، وانتظرت إجابة مسهبة، لكنه وَجَمَ، وارتعش جسده، وذرفت دموع ساخنة من عينيه، وماتت أصابعه على زر الهاتف فوجم هو الآخر، وحلَّ الصمتُ والفراغ في أذن صفاء، فأغلقت الخط.

أما هو فرفع كفيه إلى عمق السماء، وراح يدعو بلهفةٍ وحرقة ورجاء وامتنان:

«يا الله، يا رب الكون وسيده الأوحد، يا أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء، يا مَن تقول للشيء كُن فيكون، احفظ بفضلك هذا البلد الذي ذكرته في كتابك الكريم، واحمِه من كيد الأعداء والمتربصين والمستهينين به وبأهله وقدره وتاريخه، وأرشد ناسه الطيبين إلى كل ما يبعدهم عن الباطل، ويهديهم إلى الحق، ويأخذ بأيديهم دومًا إلى طريق الحرية والعمل، ووفقهم إلى اختيار مَن يقيم فيهم العدل، ويرفع بهم البنيان، ويباهي بهم الأمم في مشارق الأرض ومغاربها.

اللهم امنحِ المصريين صوابًا لا يوقعهم في زلل، وكرامة لا ترمي بهم في ذلة، وإخلاصًا بقدر اليقين الذي وهبته لأنبيائك وأوليائك».

20

حين تنثر ملائكةُ الليل حبَّاتٍ سوداء على أطراف السماء فتلف الشوارع بأردية معتمة ينزل خالد السبع من شقته. يرتاد سيارته، وينعطف بها يسارًا شارخًا الزحام بأبواق متلاحقة في إلحاح، وسير متماوج بين أجساد الصفيح المنفوخ التي يكتظ بها «شارع بورسعيد». يمر غير عابئ بالبيوت القديمة الشامخة، حتى يصل إلى حي «السيدة نفيسة». يلقي نظرة شاملة على المسجد الغارق في التسابيح والفيوضات الربانية، ثم يدخل على مهل إلى المقبرة.

في مساحة وسيعة تأخذ شكل مستطيل تنفرج أضلاعه قليلًا تتراص مقاعد الخيزران على الجانبين وأمامها مناضد بسيطة. عند الضلع الداخلي تقف نصبة الشاي والقهوة، وتتجاور الشّيَشُ الصغيرة والجوَز، ويزدهي الفحم بنارٍ لا تنقطع. وفي نصف الضلع الخارجي نصبة أخرى خفيفة تبدو جزءًا من مسرح شعبي يمتطيه قزم يصرخ بأغنيات مستهلكة، تم إنتاجها في أيام التردي والانحطاط وتغييب العقول، من قبيل «باحبك يا حمار» و«أركب الحنطور».

يصرخ ثم يهبط من مكانه، الميكرفون في يد والأخرى تمتد إلى الجالسين على الكراسي لتجمع النقوط. كلٌّ بما يجود به. يعود إلى موقعه فيصرخ بوصلة غنائية جديدة، ثم يعود مرة أخرى إلى التقاط رزقه. والرزق وفير لأن مَن يمنحونه تجار كبار في كل شيء. ملابس وأدوات كهربائية وأوانٍ منزلية وأقمشة. خيش ورخام وأسمنت. آثار وذهب. مخدرات وأدوية. خليط من أفراد قلائل يقبضون على عنق السوق بأيديهم حتى تكاد روحها أن تزهق، ثم يعطونها ترياق الحياة تدريجيًّا فلا تموت. لكنها لا تحيا. تظل متعطشة إلى توازن بين العرض والطلب لكنه لا يأتي أبدًا. وكيف تعتدل الأمور والمحتكرون يفعلون ما يريدون؟ يرفعون الأسعار باتفاق بينهم فيلهث الناس في الأسواق بجيوب حسيرة، وعيون كسيرة، والغلة الوافرة التي تنهمر في حجور التجار يتقاسمونها مع أصحاب القرار، الذين وضعوا لهم القوانين التي تحميهم. إنها السرقة بالقانون التي جعلت وعَّاظ المساجد يتلون صباحًا مساءً: «ظهر الفساد في البر والبحر» ، لكن ليس هذه المرة بما كسبت أيدي الناس، إنما بما فعل الطاغية العجوز وزبانيته.

يأتي هؤلاء إلى تلك البقعة الصاخبة بفعل صراخ زاعق ونصف طرب؛ ليلفهم الدخان الأزرق فيتوهون ساعات قليلة بعيدًا عن الأرقام والحسابات التي تطاردهم ليل نهار. أحدهم دعا خالد السبع إلى هذه الحفلة بعد أن أودع في حسابه ببنك «القارة» مائة مليون جنيه ربحها في صفقة واحدة، لم يستغرق إبرامها سوى عشر دقائق. قال له يومها:

- ما أحلى أن يُقلق الأحياء موتاهم.

فضحك خالد وقال له:

- يستحقون القلق.. لماذا ماتوا وتركوا مباهج الدنيا.

***

ما إن يصل أحدهم إلى مدخل هذه البقعة العجيبة حتى تستقبله جوقة من ثلاثة رجال يقبضون على أورج ودُف وطبلة، يعزفون «سلام مربع» للترحيب بالضيف. بين الضيوف تجلس نساء غريبات. جمال صارخ ملفوف في جلابيب طويلة، وشعور هائمة تسافر مع نسائم الليل الطرية، ووجوه ملطخة بالأحمر والأخضر. عيون وسيعة وشفاه مكتنزة وآذان مشدودة إلى أقراط ذهبية عريضة، ومرهفة إلى شفاه الجالسين، وهي تتابعهم بغمزات وابتسامات وتنهدات حارقة، فإن أشار أحدهم إلى إحداهن تتقدم إليه وتجالسه فيحلو السهر والسمر، وإن أعجبته يواعدها على لقاء بعيد عن هنا. فهذا الحفل لا يقام إلا يومي الأحد والأربعاء، وهناك خمسة أيام كاملة لتنفيذ الوعود في الفرُش الدافئة.

إحداهن، واسمها دلال مشرقي، أسرَّت إلى خالد السبع بما لم يتوقعه أبدًا، بعد أن وطأها مرات ومرات. جلست إلى جواره وهي تطلق يدها لتجوس شعره، وهمست:

- كان يريدني الليلة لكنني فضَّلتك عليه رغم أن أُعطيته كبيرة.

- مَن؟

- بطل موقعة الجمل الخفي.

- أتقصدين أنه وراء الهجوم على المعتصمين بميدان التحرير يوم الأربعاء الدامي؟

- نعم.

- مَن هذا؟

- المعلم شحتوت تاجر الرخام وملك «شقّ التِّعبان».

ثم صمتت برهة وواصلت:

- كنت بفراشه في اليوم التالي لمحاكمة المتهمين بتدبير المعركة. كان قلقًا إلى درجة أنه عجز عن هزِّي وسحقي كالعادة. صدَّني عنه، قال لي إن شابًّا اسمه حسن عبد الرافع، على ما أظن، يسعى خلفه، وأنه قد جاء إلى «شق التعبان» وسأل تجارًا ينافسونه وعمالًا عن تفاصيل صغيرة بوصفه صحفيًّا يجري تحقيقًا عن الموضوع. شحتوت عرف ما جرى، وفتش وراء هذا الاسم، فقيل له إنه من شباب الثورة، ومن يومها ركبه شرود وحزن لم أعهده فيه أبدًا.

- لكن... ما دخل المعلم شحتوت بالثورة؟

- كان ينفذ أوامر الكبار. طلبوا منه أن يأمر بشحن عربات نقل بكسر رخام ويرسلها إلى أطراف ميدان التحرير؛ ليستعملها البلطجية في ضرب المتظاهرين.

- ولِمَ ينفذ أوامرهم ويورِّط نفسه؟

ضحكت ومالت إلى الخلف حتى كادت أن تقع على ظهرها، وقالت:
- دوائر متداخلة، ومصالح مترابطة.
- أي دوائر؟
- العِلم عِلْمَك، ربما رجال من أركان النظام الحالي، وربما آخرون أرادوا أن يورطوا الرجل الكبير.
فنظر خالد إليها مليًّا، ثم سألها:
- من أين لك بكل هذه المعاني يا دلال؟
فربتت كتفه، وقالت وهي تمصمص شفتيها:
- أنا خريجة كلية التجارة يا سبعي.
- كلية التجارة، هاهاها... زميلة كلية، وزميلة سرير.
- لم أجد واسطة للعمل في بنك مثلك.
- كان بوسعك أن تعملي سكرتيرة مثلًا.
- اشتغلتها يا سبعي. وكان صاحب الشركة يريد أن يحصل على كل شيءٍ بستمئة جنيه فقط. ثم عملت جليسة أطفال لكهل أرمل فأراد كل شيء أيضًا بألف جنيه. عندها قلت لنفسي أعطي لمن يدفع أكثر، بلا مواربة، وكانت هذه هي بداية اكتمال وفساد كل شيء.
- تجربة غريبة!!
- في عهد المخلوع هان كل شيء.
- أنتِ مع الثورة إذن؟
- أنا ضحية زمن الطاغية العجوز. أكرهه وألعنه كلما انسحقت تحت أصحاب القروش والكروش. في كل مرة، وقبل أن يجف عرقي، أسبُّه في سرِّي. ذات مرة ارتفع صوتي فقال لي أحدهم، وهو يرتدي سرواله على عجل:
- إياكِ أن تسبِّي ولي نعمتنا.
ثم تنهدت في حرقة وألم وقالت:
- صدقني يا سبعي، إنها عصابة كبيرة، يتواجد أفرادها في كل مكان وكل شيء، والخلاص منهم صعب ومرير، وثمنه باهظ.
- أتحكين عن أمر أعرفه جيدًا.
ثم شاركها التنهد، وأشاح بيده:
- لا تبدِّدي وقت اللذة المبهجة في متاعب مضنية. تكفيني عصابة البنك الذي صار مرتعًا لناهبي الأموال من غاسليها والباحثين عن الأبواب الخلفية للائتمانات التي لا ضمان لها، والتحويلات التي لا يسأل أحد عن سببها، والادخارات التي تنهمر كالمطر دون أن يُعرف مصدرها.

- لا تعرف مصدرها ولا سببها، لكن ماذا عن مآلها؟

- كل ما نفهمه أن بنكنا باب إلى ثروات ما وراء البحار.

فجلجلت بضحكة أنهتها بتأوه لا يخلو من غنج ووجع، وقالت وهي تشير إليه:

- يجعل سره في أضعف خلقه.

فضايقه قولها، لكنه رنا إليها مستفهمًا بعينين مندهشتين ولسانٍ صامت، فلم تدَعْ حيرته تطول وقالت:

- بوسع واحد مسطول زي حضرتك أن يعرف أين خبأت العصابة أموال الشعب المسكين.

فقهقه، وضرب كفًّا بكف:

- المشكلة أنني مسطول.

- أفقْ لحظة لتعرف.

- المعرفة هي التي جعلتني مسطولًا.

- ألغزٌ هذا؟

- أبدًا.. حتى تدققي في حسابات لا أول لها من آخر، تضربين طيلة النهار على آلة حاسبة فتنقش أمامك مئات الملايين، ثم تعودي أول المساء إلى حي يخفي ظاهره بؤسًا وعوزًا وحرمانًا، تجدي نفسك في حاجة ماسَّة إلى الغياب عن الوعي ولو ساعة... أنا أكره الفقر والضعف وعقلي وقلبي موزعان بين ما يهديه لى العيش بين البسطاء وبين الجبابرة الذين يأتون إلي البنك. أنا شخصيًّا لو خيروني سأختار الصنف الثاني، لكنني لا أزال عاجزًا، ولا حل لي سوى الذهاب إلى بقعة البهجة لاسيما أنها تسوي عند المساء بين مَن يسحقون ومَن ينسحقون، ولو لوقت قصير.

- ملامحك الخشنة وغلظتك تخفي ما يمكن أن يخبرني به ما تقول.

- هكذا أنا يا دلال، تائه، رغم أنني أبحث عن الإنسان الأسمى.

- الإنسان الأسمى؟! سمعت كلامًا مثل هذا من هاشم الغامدي.

- مَن الغامدي هذا؟

- شابٌّ سعودي كلما جاء إلى مصر طلبني، وراح يحكي لي، بعد أن تهدأ لوعته وترتاح أنفاسه، عن أحلامه في أن يصير أغنى رجل في العالم.

- المسألة مختلفة جدًّا يا دلال، هو يبحث عن المال ليحمله على رأسه، أنا أريده كي أركله بقدمي، أريد أن تكون قوتي في ذاتي، لا في أي شيء يقع خارج نفسي وجسدي.

- لا أفهم.

- لا تتعبي رأسك بهذه الفلسفة. العالم لا ينقصه مزيد من الأحلام الجبارة،

ويكفي المساطيل مشروع سوبرمان واحد.

ثم جذبها إليه بقوة، واعتصر شفتيها، وطرحها على الفراش، وغابا عن الوعي.

21

جلس حسام عبد المغيث إلى طاولته المفضلة في صدر مقهى «لؤلؤة السلطان» المنزوي في مساحة متواضعة بين الأبنية الشاهقة والفخيمة التي تضج بها منطقة النادي السياحي بأبي ظبي. وكعادته وزع نكاتًا جديدة على أسماع الجالسين فاستغرق بعضهم في قهقهة صاخبة، لا تناسب النكات العادية، التي أطلقها، لكنها الرغبة الدفينة في التقاط أي فرح وسط الكآبة المقيمة على رؤوس الغرباء. نظر إلى نفرٍ واجمين منهكمين في احتساء الشاي، ونفث الدخان الأسود، وقال:

- اضحكوا يرحمكم الله.

ولم يكن يعلم أنه بعد دقائق سينضم إلى الواجمين، بل ستنهمر دموعه حتى تبلل عنوانًا جانبيًّا في جريدة «الاتحاد» يقول: «مصرع أحد شباب الثورة في ظروف غامضة». دقق في الاسم المكتوب وسط كلمات اعتيادية تعبر عن مثل هذه الأخبار، ثم ضرب جبهته براحة يده، وقال:

- يا ليلة سوداء.

فتطلع إليه الذين تفاعلوا مع نكاته، لململوا بسرعة بقايا الابتسامات التي كانت لا تزال تسري في وجوههم ودفنوها في آبار أحزانهم العميقة. أما الذين تجاهلوه فجرت ابتسامة على شفاههم، لكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى التحديق في الفراغ.

وقال له النادل الهندي، القصير الأسمر، الذي يعرف كثيرًا من العامية المصرية:

- خير؟

لكن حسام لم ينطق. فتح الصحيفة المطوية في يده، وراح يقرأ الخبر حرفًا حرفًا، ثم التصقت عيناه بالاسم «حسن عبد الرافع». اسم بلا صورة وبضع حروف لا يمكنها أن تفي بحق الفجيعة التي تنهش صدره، ولا بالوجع الذي لابد أنه الآن يضني شبابًا ثاروا في براءة ثم وقعوا في فخاخ العواجيز ورجال العصابات التي تشكلت على مهل وبتبجح شديد حتى صارت لها جذور تضرب في سابع أرض، وأصحاب اللِّحى الذين فتحوا حجورهم، وهم قعود، وانتظروا أن يسقط فيها كل شيء بعد أن يتعب الأبرياء أو يتفرقوا.

لا ينسى حسام صديقه الأول في غرفة الدردشة التي أنشأها عام 2001 على «البالتوك». أيامها كانت هذه الغرف يقيمها الراغبون في التسلية والتسرية عن النفس. نكات وصور غريبة وأغانٍ جديدة، ومحاولات لا تنتهي في اصطياد لحظة غرام عابر، ذائب في فراغ الأثير.

تجوَّل حسام في غرف مناظرة أقامها فلسطينيون فوجدها حافلة بنقاش سياسي وفكري جاد، يردون فيه على كل ما يثار في الإعلام الإسرائيلي

ضدهم. على الفور حوَّل غرفته إلى منبر سياسي، وأطلق على نفسه اسم «فرعون». كان أول مَن دخل إلى الغرفة في هيئتها الجديدة حسن عبد الرافع، وسرعان ما تصادقا، وأصبح معهما فقط مفتاح الدخول.

نفخ حسن في هذه المساحة الإلكترونية الضيقة من حماسه ومعرفته فاتسعت أرجاؤها، وصارت منبرًا وسيعًا لتبادل الرؤى، وتلمُّس الخطى على طريق إيقاظ الهمم النائمة. ولفت انتباه الأذهان الشاردة إلى فداحة وقبح الواقع الذي تنغرس فيه أقدامهم، وتلتف حباله الخشنة المتينة على رقابهم المشرئبة إلى أمل طائر لا يريد أن يحط على الأرض أبدًا.

هنا كانت النقطة الأولى التي انطلقت بها رحلة الناس إلى طريقة مختلفة للتواصل بعد أن حالت بينهم عيون لا تكف عن المراقبة، وأيادٍ امتدت بقسوة إلى أوراق بيضاء ذات يوم وسطرت عليها مواد قانون الطوارئ البغيضة، والتي تمنع الاجتماعات واللقاءات، وتجذب كل فرد على حدة إلى الوراء؛ ليعود إلى عزلته المعتمة يروض آلامه، ويضمد جراح نفسه المهيضة، وينظر إلى الآخرين من بعيد ويظن أنهم جواسيس يعدون عليه أنفاسه.

لكن هذه الطريق لم تكن آمنة أبدًا، فأنف أمن الدولة تشتمُّ عن بعد رائحة المعارضة والمخالفة والمغايرة والرغبة في الخروج على المألوف، ونزعات التمرد، وكل ما يتفوَّه به أو يفعله الرافضون للسير مع القطيع.

***

لكل هذا أوقفوا حسام في مطار القاهرة وهو عائد في إجازة قصيرة من «أبو ظبي». تطلع حائرًا إلى جواز سفره المعلق بين إصبعي أمين شرطة لا يعرف اسمه. أخذه الرجل وغاب عشر دقائق كاملة، ثم عاد عابسًا والجواز قد انتقل من يده اليمنى إلى اليسرى، وأمامه ضابط برتبة مقدم نادى حسام بنبرة جافة:

- تعالَ.

وذهب خلفه إلى غرفة جانبية. جلس المقدم على مقعده، وأسند كوعه على المكتب النظيف المنبسط أمامه، ثم أشار إلى حسام أن يجلس فرمى جسده المنهك على واحد من مقعدين يتقابلان ويحاذيان المكتب. ساد صمت مريب، قطعه الضابط قائلًا:

- معلوماتنا تقول إن عائلة كاملة معلقة في رقبتك، وتغترب من أجلها. ونعرف أنك تعمل في مكان حسَّاس بالإمارات، وليس في صالحك ما تفعله.

فاكتسى وجه حسام بدهشةٍ وضغط بأسنانه على شفتيه المكتنزتين ثم قال:

- خير يا أفندم؟

- سيصبح خيرًا إن سمعت كلامنا.

- كلامكم؟!

- ألا تعرف ماذا تفعل؟

- ليس معي مخدرات ولا ذهب ولا قطعة أثرية ولا دولارات مزيفة حتى يصبح ما أنا فيه شر.

ضحك المقدم حتى انكشفت أسنانه الصفراء المرقطة ببقع سوداء صغيرة من فرط التدخين، وصرخ:

- أنت تفعل ما هو أخطر من كل هذا.

- ليس هناك ما هو أخطر من هذا سوى القتل.

- تعريض أمن الدولة للخطر أفدح من أي جريمة.

امتلأ وجه حسام بالحيرة، ودقَّ قلبه بعنف، لكنه غالب ضعفه الطارئ، وجال ببصره في أرجاء الحجرة المقبضة التي يُساءل داخل جدرانها، ثم قال:

- لا أحد يريد أن يعبث بأمن الدولة.

رفع المقدم وجهه، وثبَّت عينيه في عيني حسام، وقال:

- أسمع كلامك أصدقك، وأشوف أمورك أستعجب.

أي أمور يقصدها هذا الرجل، الذي يظن أنه نصف إله. يحدثني بعجرفة، وينظر إليَّ من طرف عينه، ويستجوبني من طرف أنفه وكل لسانه. هكذا حدَّث حسام نفسه، لكنه آثر أن يكمل اللعبة إلى النهاية، ولا بأس من أن يسدِّد رمية قوية إليه. ألقى نظرة فاحصة على الأوراق المرتبة أمام الضابط، وقال:

- لم أكن في يوم من الأيام عضوًا في تنظيم سرِّي، ولا جماعة محظورة. قضيت أيام كلية الزراعة جامعة أسيوط لاهيًا منغمسًا بقوة في تصاريف المتع الدنيوية. وحتى الأحزاب السياسية التي تعمل في النور لا أثق فيها، ولم أنجذب إليها، وفريق كرة القدم بالكلية كان هو الجماعة الوحيدة التي انضممت إليها في حياتي.

- وغرف الدردشة الإلكترونية؟

هكذا ردَّ إليه الرمية، ثم فتح ملفًا يرقد مستكينًا في قهر إلى جانب أمثاله التي تشتمل على حكايات أخرى للعذاب والألم. وراح يتصفح أوراقًا متساوية الأحجام، ثم قدمها إلى حسام وقال:

-أليست هذه آراؤك؟

قلَّب الأوراق، واستعاد كل شيء في لحظة، ثم قال:

- هل هذا هو الذي يهدد أمن الدولة؟

زفر المقدم في غضب، وارتفع صوته:

- نحن الذين نحدِّد ما يهدد الأمن وما لا يهدده. وحين أقول لك إن ما تكتبه يشكِّل خطرًا على البلاد، فليس أمامك سوى أن تؤمِّن على كلامي، وتتعهَّد ألا

تفعل هذا مرة أخرى، وإلا....

ثم نظر إليه بعينين جاحظتين قاسيتين ثابتتين، فعضَّ حسام على أسنانه مرة ثانية، كاظمًا موجة هادرة من الغيظ، ثم رمى في وجهه العبارة التي تعلَّمها من حسن عبد الرافع، ووعاها جيدًا:

- خطر على البلاد أم على النظام؟

- لا تتفلسف. نحن ندافع عن نظام الدولة ضد دعاة العبث والفوضى الذين تحركهم أفكار هدامة.

وأدرك حسام أن المناقشة مع هذا الرجل لا جدوى منها، فلاذ بصمتٍ مطبق، وراح ينظر إلى جواز سفره الملقى على المكتب، لكنَّ انتظاره لم يطلْ؛ إذ مد المقدم يده ودفع إليه الجواز، ونهره بصوتٍ حاد:

- لا أريد أن يتم توقيفك في المطار مرة أخرى.

واستحضر وجوه أهله المعلقين في عنقه، فثقل بهم وكاد أن يغوص في مقعده، لكنه جمع أشتات نفسه، وأطلق ما تبقى داخله من عناد، ثم تحفز وخلع جسده من مكانه، ووقف مادًّا يده إلى المقدم، دون أن يعتني بحفظ اسمه المحفور على لوحة خشبية صغيرة أمامه، وقال:

- أعدك ألا أقف في المطار مرة أخرى.

***

حين مرقت به السيارة في طريق «الأوتوستراد» راحت عيناه تصافحان البيوت الخفيضة، والوجوه الضامرة، وروائح الليل النفاذة المنزلقة من الحارات الضيقة لتلوث دفقات الهواء التي تجود بها منشية ناصر والدويقة والزرايب. واقتحمت رأسه الصور القديمة المتجددة عن المحشورين في الباصات، وعن الباعة الجائلين المستندين إلى الحوائط وأفواههم تلاحق العابرين، وعن الأطفال الواقفين في إشارات المرور يبيعون المناديل، أو يدفعون أياديهم بلا استئذان لتنظيف السيارات الواقفة مؤقتًا لقاء شيء زهيد.

حين وصل إلى بيته في «بركة الفيل» كان الخوف والحذر قد تبخرا تمامًا، وحلَّ مكانهما إيمان عميق بأن شيئًا يجب أن يقال، والأهم شيء يجب أن يُفعل، ولذا فعليه أن يُسقط من كل حساباته كل هذا الكلام السخيف الذي سمعه متأذيًا في المطار، وأن يمضي في طريقه غير هياب بالعواقب، وكان يقول لنفسه: «الشجاع يموت مرة واحدة، والجبان يموت ألف مرة». وما إن عاد إلى عمله في «أبو ظبي» حتى جلس مرة أخرى إلى غرف الدردشة، لكن هذه المرة باسم آخر مستعار.

وحين عاد الدكتور محمد البرادعي من الخارج، وقال جملته الشهيرة: «قوتنا في عددنا»، كان حسام من أوائل الذين عوَّلوا عليه، فانبرى يدافع عنه، ويدعو الناس إلى التوقيع على مطالب الإصلاح التي أطلقها الرجل، ويرد على

الشائعات التي نثرتها أجهزة الأمن في الأسماع والأذهان كي تشوِّه صورته. وهنا التقى مرة جديدة بحسن عبد الرافع، الذي كان في هذه اللحظة مفعمًا بإيمان جازم بأن النور سيشرق من طيات الظلام الموحش، وأن ساعة رحيل الفاسد المستبد قد اقتربت، وأن كل الدروب إلى الحرية تتهادى أسرع مما يظن أولئك الذين سرقتهم الأوهام، ونسوا أن الله يمهل ولا يهمل، وأن التاريخ ماكر، ولا يكف عن التلاعب بكل مَن يزهو ويتجبر وينسى ويعتقد أنه أذكى من السالفين.

التقى حسن وحسام في العالم الافتراضي، ولم تسمح لهما الظروف بأن يطلَّ أحدهما في عين أخيه على قارعة طريق أو في نهر شارع مزدحم أو في ممر ضيق محشو بالأجساد السابحة في العرَق والضجر. والأهم أنهما لم يلتقيا أبدًا في ميدان التحرير؛ لأن الثورة راحت تدب على الأرض بقوة جبارة، وكان حسن في قلبها بينما كان حسام لا يزال ينقر في العالم الافتراضي باحثًا في غربة الجسد وسطوة الروح عن أقصر الطرق إلى الغضب العارم، ودوائر الريح التي لا تبقي ولا تذر.

وأراد في غربته أن يشارك بأي شيء فكان يقضي وقتًا في تأليف الهتافات المسجوعة ويرسلها إلى هاتف حسن، ثم يجلس أمام التلفزيون ليسمع ترديدها في الميدان. كانت تأتي هادرة فينتشي، لكن انتشاءه راح يفتر بمرور الوقت حين أخذ الميدان يتحول إلى بقعة للأسى، وحين سقطت الثورة في حجر مَن لم يؤمن بها.ومع هذا لم يتخلَّ حسام أبدًا عن الحلم الذي تقاسمه مع حسن عن بعد حتى بعد رحيله الأبدي، ولم يكف عن العودة إلى النقر على لوحة الحاسوب ليرسم حروفًا في العالم الافتراضي تطلب الخلاص من جديد.

22

يرمي الفجر ضوءه الفضي على شواشي النخل، ثم ينسكب على عينَي عم فاروق فيتململ في مخدعه الخشن. ينفض عن روحه نومًا عميقًا، وينهض ليشعل في بيته الصغير حركة دائبة. يلتهم كسرة خبز وقطعة من الجبن القديم ويعبُّ وراءها كوبًا أسود من الشاي ثم يحمل «صندوق الورنيش» ويترك الحوامدية قاصدًا النقطة التي يلتقي فيها شارعي الفلكي ومجلس الشعب. هناك أمام مقهى لا اسم له يجلس على مقعد خشبي يشبه صندوقه، الذي صنعه بيديه ذات يوم، يستقبل أحذية المارة ليعيد إليها لمعانها الذي تلاشى في تراب الطرق.

بعض زبائن عم فاروق من أعضاء مجلس الشعب. يأتي بعضهم صباحًا ليدخن الشيشة قبل انطلاق الجلسات. يجلس كل منهم على المقهى، يخلع حذاءه ويدفع به إليه، ثم يُجزل له العطاء. وحين تتراكم النقود في جيبه يبدأ في الغناء. يصدح بألحان عذبة شجية من أغاني الزمن القديم، مستغلًا صوته الرخيم الذي لم تنل منه السنون. أحيانًا يستعمل الغناء في جذب المارة الذين يهرولون في «شارع الفلكي» نحو وزارات الصحة والتعليم والإسكان، أو ينعطفون نحو مجلس الشعب ومجلس الوزراء.

لم يكن يوم 25 يناير مختلفًا لديه عن بقية الأيام. كان قد سمع نقاشًا بالأمس عن مظاهرات ستندلع في كل مكان، لكنه لم يأخذ الأمر على محمل الجد. فكثيرًا ما وصل إليه وهو منهمك في تلميع الأحذية كلام ساخر عن «الجمعية الوطنية للتغيير»، و«6 إبريل»، ولا ينسى اليوم الذي كاد فيه شاب أن يمسك برقبة نائب البرلمان عن «الحزب الوطني الديمقراطي» الحاكم حين وصف المعارضين بأنهم خونة وجواسيس للأمريكان.

في تلك اللحظة كان حذاء النائب بين يدي عم فاروق، وصرخ في وجه الشاب:

- لو كانت الجزمة معي لضربتك بها على أم رأسك.

احتقن وجه الشاب بغضبٍ عارم. نهض من فوق مقعده، وصرخ فيه:

- الجزمة سنرفعها لكم قريبًا يا فسدة، يا ظلمة، يا من بعتم بلدنا برخص التراب.

لكن النقاش في المقهى أخذ طريقًا مختلفًا بعد أن هرب رئيس تونس عقب قولته الشهيرة: «أنا فهمتكم»، وقال الشاب للنائب في مناكفة جديدة بينهما:

- سيقول سيدكم «فهمتكم» عمَّا قريب.

فقهقه النائب حتى كاد أن يقع على قفاه وقال:

- مصر غير تونس يا خفيف.

وفجأة انهال رجل بدين يمشي وراء النائب في كل مكان على الشاب ضربًا، ثم

دفعه بكلتا يديه فسقط على صندوق الورنيش، وانطبع وجهه في وجه عم فاروق، الذي مدَّ يده وأسنده حتى وقف على قدميه. نظر عم فاروق نحو الرجل البدين، وقال:

- صلُّوا بنا على النبي يا جماعة.

وتوالت النكات في جنبات المقهى، وذابت وسط الدخان الأسود والشهيق والسعال والرشف المتواصل من المشروبات الساخنة والتحليق الطويل في الفراغات النائمة بين المقاعد.

«تونس اختارت التغيير ومصر اختارت شيبسي بالجمبري»

«يعني إيه كوك زيرو: يعني البرادعي يطالب بالتغيير في مصر والشعب يستجيب في تونس»

«الشعب التونسي أراد الحياة فاستجاب القدر... الشعب المصري أرد الحياة لقيها على تردد 11255 أفقي»

«الشعب التونسي تقول له ثور فيثور. أما الشعب المصري فتقول له ثور يقول احلبوه»

«تبقى في بقك وتقسم لتونس»

كانت هذه النكات اللاذعة تنهمر كالمطر على «فيس بوك» وتنتقل بسرعة البرق من «العالم الافتراضي» الذائب في الأثير إلى الواقع الخشن الغارق في البؤس والقهر والغضب المكتوم والترقب الحذر.

لكن عم فاروق لا يعلم شيئًا عن هذه الوسيلة الجديدة للتواصل بين الناس، فهو في حياته لم يكتب خطابًا لأحد؛ لأنه لا يعرف القراءة والكتابة أصلًا، وفي قريته الغافية الراضية لا يتصل بأحد سوى وهو ينظر إلى عينيه ويبتسم في وجهه ثم يقول له ما يريد دون رتوش.

هذه المرة اهتم بما يجري على غير العادة، وقال للنائب:

- إيه هو «فيس بوك» يا أفندم؟

فرماه بنظرة شاملة ثم صرخ فيه بحدة:

- خليك في الجِزَم يا فاروق.

***

ظلَّ منكبًّا على الصندوق حتى يوم انطلاق الغضب الكبير. كانت الشمس تزحف بخطوات سريعة نحو كبد السماء، وتعكس شعاعها على صفحة الأحذية فتلمع في عينيه، فيطفئها بيده السمراء المعروقة، وفرشاته القديمة وتلك الإسفنجة التي كانت صفراء واسودَّت مع الأيام. لم يكن هناك ما يشي في ذهنه بأن شيئًا كبيرًا سيجري، ولذا انطلقت عقيرته بالغناء، وعيناه تتابعان نهر الشارع. يهز رأسه للعابرين فيأتونه وكل منهم يبحث في قعر جيبه عن جنيه

واحد سيعطيه له حين يفرغ من تلميع حذائه.

فجأة ارتبك أمامه المشهد الرتيب. شباب يجرون في أقصى سرعة ممكنة، منزلقين من شارع منصور وضريح سعد نحو مبنى مجلس الشعب، ثم تحل عربات الأمن المركزي كالغربان، ويقفز منها في دقائق المئات من الجنود ضامري الوجوه وفي عيونهم مزيد من الاندهاش والغربة، ويتوجهون في صفوف منتظمة نحو الغرب. ما الذي يجري هناك على بعد مئة متر منه؟ لا يدري. بعد دقائق بان كل شيء. سُحُب دخانٍ خانق هبَّت من الشمال والغرب، تزجيها ريح خفيفة يدفعها النيل في الفجوة الطويلة بين الأبنية الممتدة من ميدان التحرير إلى ميدان لاظوغلي القريب من مبنى وزارتي الداخلية والعدل.

في البداية تشبَّث بمكانه، فما أكثر الاحتجاجات التي شهدتها الشوارع المواجهة له طيلة السنين السِّت الماضية. موظفون وعمال من مؤسسات وهيئات عديدة متناثرة على رقعة الوطن يأتون إلى هنا، في اعتصامات طويلة، بعضها امتد شهورًا. يحطون رحالهم في الزوايا التي يرى جانبًا منها وهو في موقعه المستديم. بعضهم كان يأتي ليمسح حذاءه فزاد زبائنه، وقال في نفسه:

- اللهم أدم الاحتجاجات.

لكن اليوم غير الأيام التي كرَّت وانفرطت من بين أصابعه ولم يشعر خلالها بالشيب الذي تسلل إلى فوديه، ولا بأسنانه التي تتساقط وتترم تباعًا، ولا بعينيه اللتين تغوران بينما وجهه يضمر، وروحه تشف، ورأسه تثقله الحكم والمعاني وعصارة السنين.

اليوم لن يكون بوسعه أن يراقب تحركات المحتجين وكأنه في مسرح العرائس، وينتظر مَن يهلُّ عليه منهم ليمدَّ حذاءه أمامه في رضًا وامتنان.

صاحب المقهى تلفَّت يمينًا ويسارًا، ثم رمى جسمه قليلًا، حتى انكشف له الشارع المؤدي إلى «مجلس الشعب»، ثم قال:

- باين أن الأمر جادّ هذه المرة.

ونظر إلى يساره فوجد فاروق منهمكًا في مسح حذاء، فزعق فيه بغيظ:

- قم روَّح يا فاروق لعيالك الوضع خطير.

ثم أغلق باب المقهى الذي اختفى منه الزبائن فجأة، وتركوا على المناضد نصف أكواب المشروبات الساخنة، والشّيَش يتصاعد منها دخان لكنه لا يجد أنفاسًا يختلط بها، ولا وجوهًا يحط عليها.

حين وصل عم فاروق إلى بيته بالحوامدية وجد الناس لا حديث لها سوى عما يجري في القاهرة والسويس والإسكندرية والمنصورة. وسأله شباب جالسون على جذع نخلة ملقى على رأس الحارة:

- ما الأخبار في شارع قصر العيني يا عم فاروق؟

نظر إليهم دون اعتناء وقال:

- ربنا يستر.

وبعد ساعات تأكد فاروق وهو يُحملق في شاشة التلفزيون أن مكان أكل عيشه قد بات مأوى للخطر.

الصندوق ملقى عند مدخل باب البيت يدور حوله ذباب الشتاء الخجول، بينما جسده هو ملقى على سرير قديم غارق في غلالات الضوء المنبعث من التلفزيون بلا انقطاع، وأذنه تقتحمها هتافات هادرة: «الشعب يريد إسقاط النظام».

كانت زوجته تجلس إلى جواره وعياله الخمسة متناثرين حوله. اثنان تحت قدميه يتابعان ما يجري، وثلاثة هناك يمسكون الكتب الدراسية في الصالة الضيقة، ولا يعنيهم كل ما يشغل الناس.

دسَّ يده في جيبه وأخرج رزق هذا اليوم القصير في نظره، الطويل جدًّا في نظر كثيرين وفي عرف الوطن كله. لم يكن ما معه يزيد على عشرين جنيهًا. أعاد النقود إلى جيبه وقال لزوجته:

- كم تبقى معكِ من الفلوس التي أعطيتها لك الأسبوع الفائت؟

- أربعمئة جنيه

- حافظي عليها، ولا تصرفي منها إلا بحساب، واضح أن قعودي في البيت سيطول.

وطالت جلسته بالفعل، بينما مدخراته القليلة تتآكل بأسرع مما تصور. وحين عاتب زوجته قالت له بغضب:

- أسعار السلع زادت، ولا نشتري إلا الضرورات.

فزفر في غضب:

- الله يعطل حال مَن عطل حالنا.

وراح يستعيد في جلسته الرتيبة الجدل الطويل الذي طالما سمعه على المقهى بين مرتاديه حول الفساد والظلم والقهر، وحلَّ في رأسه فجأة الشاب الذي تشاجر مع نائب الحزب الوطني في البرلمان، وكاد حارسه الشخصي أن يقتله. استعاد كل حرف أنصت إليه، وكل ملمح في وجه هذا الشاب العنيد، الذي ارتطم جسده بصندوق الورنيش لكنه لم يفقد ثباته ولا تفاؤله، وقام وقتها وكال الاتهامات للنائب، وعيَّره بأراضي الدولة التي استولى عليها، والرشاوى التي يأخذها من أهل دائرته مقابل إيهامهم بتوفير وظائف للشباب العاطل.

كان الدم ينزف من أنفه، وجبينه مدهوسٌ بلكمةٍ قوية، وذراعه تنز بسحجات متفاوتة الحجم، لكن روحه كانت قوية وإرادته لم تهتز. رفض كلام كل من طلبوا منه أن يترك المكان. تقدم نحو مقعد في الركن القصي وسحبه، وجلس عليه

وقال في تحدٍّ:

- الشرفاء لا يتركون المكان ويبقى فيه اللصوص.

ووجد النائب أن مصلحته تقتضي انسحابه قبل أن يكمل هذا الشاب العنيد سلسلة الاتهامات القاسية، فأشار إلى حارسه الضخم وخرجا يومها سويًّا بينما شمس الضحى تفضح خطواتهما الوئيدة، ثم غابا في شارع مجلس الشعب، وبقي الشاب جالسًا يودعهما بنظراتٍ غاضبة. يومها كبر في عيني فاروق وتعاظم، وهاهو تأكد من عظمته حين دقق النظر في شاشة التلفزيون الذي يكاد أن يسقط فوق رأسه ، وجده أمامه، هو هو. لا أحد غيره. فأنصت إلى الكلام المُرتب والعميق الذي يطلقه. نادى ابنه الأكبر وقال له:

- اقرأ المكتوب تحت الصورة.

فنظر الولد ثم قرأ:

- حسن عبد الرافع من شباب الثورة.

23

لا يعرف المهندس إبراهيم الشربيني أي شيء عن حسن عبد الرافع، ولم يتوقف كثيرًا أمام خبر اغتياله الذي قرأه في صحيفة «النهار» الكويتية، وهو يجلس مستكينًا في انتظار الوجبة اللذيذة التي يلتهمها كل أسبوع بالمطعم الإيراني في فندق «كراون بلازا». كل ما لفت انتباهه هو وصف القتيل بأنه من شباب الثورة.

أمعن النظر في هاتين الكلمتين ثم تحوَّلت السطور أمامه إلى مسارب ضيقة مُتعرجة بين طوفان بشري يملأ الميدان، وراح يستعيد كل شيء، بقلبٍ مفطورٍ وعينين يسكنهما الأسى، وبدت يدُه ترتعش فتتراقص الكلمات والحروف وتغور في خيوط الدم التي أصابته بالدوار بينما كانت الشمس تحط فوق مئذنة مسجد عمر مكرم وتضنُّ على الثائرين بآخر دفقات نور تقذفها في أوصال الدنيا.

حين اندلع الغضب كان في الكويت يباشر إدارته لشركة «الشحن» التي يمتلكها. تابع التلفزيون في الأيام الثلاثة الأولى، وقال لنفسه:

- مظاهرة أكبر نوعًا ما لكنها سرعان ما ستذوب في بحار اليأس التي أغرقت الشعب، أو تتهاوى تحت ضربات وحشيَّة لأجهزة القمع التي لا ضمير لها.

لكن حين انهارت آلة الأمن الباطشة تحت إصرار الثائرين، وداس الناس على اليأس وهم يزحفون بقوةٍ كاسحةٍ نحو ميدان التحرير؛ ليرابطوا فيه، ويزلزلوا قلبه وجنباته بهتافهم الأثير: «الشعب يريد إسقاط النظام»، نادى موظف العلاقات العامة بالشركة وطلب منه حجز مقعد له على أقرب طائرة تأخذه إلى القاهرة.

بَدَا مطار القاهرة الدولي في عينيه مختلفًا، حركة هادئة وعيون يتخالط فيها الترقُّب بالسرور، لكن الظهور كانت مستقيمة والهامات منتصبة، والضباط يوزعون ابتساماتهم في تؤدة وامتنان. شقَّ طريقة بيسرٍ لم يعهده من قبل، وذهبت عيناه إلى الشاشات الكبرى المثبتة عند البوابة الخارجية والتي تسكب على الأعناق المتطلعة إليها صورًا متلاحقة من الميدان.

كانت الأمور لا تزال ملتبسة في نظره، واجتاحت رأسه ظنون لا نهاية لها، ووجد نفسه عاجزًا عن تقييم ما يجري. أثورة تلك كما يصفونها؟ أم مجرد غضبة عارمة سرعان ما تهدأ ليواصل الناس حياتهم الرتيبة؟ كان يضنيه في تنقلاته بين القاهرة والكويت مشهد الجالسين على المقاهي وعيونهم مثبتة في شاشات التلفزيون وهي تعرض مباريات المصارعة الحرة، وأفواه الشّيَش في أفواههم، والدخان يتخلل شعورهم الراقدة على رؤوس يرعى فيها الاستسلام والخضوع. وعاد إلى بيته ذات مساءٍ حزينًا بعد أن بذل جهدًا مضنيًا في سبيل أن يجد لجسده ممرًّا بين المحتشدين في صخب للاحتفال بفوز منتخب كرة القدم.

كان يجلس في غرفته وحيدًا يُحدق في الفراغ ويسأل نفسه بعد أن يفرغ من قراءة الصحف:

- متى يفيق هؤلاء الغافلون؟

ولم يكن له مهرب من هذا كله سوى استعادة اللحظات المجيدة في حياته، حين كان يقود سريَّة من سلاح المهندسين العسكريين مهمتها إغلاق فوَّهات أنابيب النابالم التي كان الإسرائيليون قد زرعوها على الشاطئ الشرقي لقناة السويس ليُحوِّلوا مياهها إلى نار بكبسة زر. كانت الأوامر التي أعطيت لهم يومها أن يطلقَ أيٌّ منهم الرصاص على زميله أو على نفسه إن انكشف أمره، ولا يتردد أبدًا في هذا، حتى لا يقع أيٌّ منهم في الأسر ويُعذَّب ويُجبر على البوح بأسرارٍ ومعلوماتٍ تفيد العدو.

عاد هو دون أن يطلق أحد الرصاص عليه أو يصوب هو رصاصة إلى رأس أو قلب أحد، وبقيت في خاطره هذه الأيام العصيبة، يلوذ بها كلما طارده اليأس وهو يرى كل شيء حوله يسير بخطى سريعة إلى الوراء.

ورغم أنه يعيش أغلب أوقات السنة في الكويت فإنه يتابع ما يجري في مصر بدقة، يتفاعل مع الصغيرة والكبيرة. ويقول لأصدقائه هناك الذين طالما طلبوا منه أن يريح ذهنه حتى ولو بعض الوقت حتى يقاوم أمراض الضغط والسكر التي راحت تناوشه بقسوة:

- مصر تسكن في دمي، سيرتها وأحوالها لن تفارقني إلا بالموت.

وأحيانًا يقول:

- حتى بعد الموت يخيل إليَّ أن روحي ستتابع ما يجري فيها.

***

توسَّلت إليه زوجته أن يمكث في البيت، ولا يذهب إلى ميدان التحرير، لكنه أقنعها بالذهاب معه. ودخل إلى دائرة الثورة المكتنزة بحماس هادر من ناحية شارع «طلعت حرب»، ثم انعطف يمينًا حتى استقر به المقام قبالة مقهى «وادي النيل»، وكان يعاني من متاعب صدرية فحرص على أن يبقى على أطراف الزحام.

لم يندمج مع الهاتفين، وظل في موقعه يراقب المسيرات التي تجوب الميدان، وقلبه يهتز وعيناه تدمعان وقدماه تكادان أن ترتفعا لتأخذاه إلى عنان السماء. لكن هذه الفرحة لم تطُلْ؛ إذ سرعان ما جاءت لحظة الدم. رصاصة مرقت من أعلى سطح أحد الأبنية فولدت موتا حط أثقاله على كل الهامات التي انحنت لترى هذه الرفرفة الأخيرة لجسدي شابين متجاورين وعيونهما ينسحب منهما النور وشفتاهما تنطقان بالحروف الأخيرة.

جاءت الرَّصاصة فاخترقت رقبة أحدهما لتستقر في قلب الآخر. وكانا على بعد خطوة واحدة من المهندس إبراهيم فجرى إليهما، مستعيدًا كل الطاقة الكامنة داخله من أيام العبور العظيم. أخذ الأول على فخذه اليمنى، والثاني على فخذه اليسرى، وصرخ في الشباب الواقفين:

- الإسعاف.

لكن أيُّ إسعافٍ يمكن أن تأتي لتنقذ من يتهمهم رجال النظام وإعلامه بأنهم خونة. وعلى مشارف النهاية المحتومة، قال الأول بصوتٍ واهن:

- اسمي أحمد حسن هاشم، من مصر الجديدة، أسكن بجوار مسجد الخلفاء الراشدين.

وقال الثاني بصوتٍ أكثر وهنًا:

- وأنا اسمي حنَّا تادروس صومائيل، من مصر القديمة، أسكن بجوار كنيسة مار جرجس.

في هذه اللحظة كان صوت حسن عبد الرافع يصرخ في مجموعة من الشباب التفَّتْ حوله:

- الثورات كأسماك القرش كلما رأت الدماء ازدادت توحُّشًا.

اقتحم الكلام أذنَي إبراهيم، لكنه لم يُعنَ بمعرفة مَن يقوله، ولم يشغله في هذه اللحظة سوى البحث عن سبيل لإيقاف نزيف الدم. ولم تكن أمامه أي حيلة أو طريقة لبلوغ هذا الهدف سوى إسكات مصادر النيران. وقال في نفسه:

- لن تسكت النيران إلا إذا انتهى أمر مَن يُشعلها.

ووجد نفسه يرمي جسده في الزحام غير عابئ باختناقه من العرق والأنفاس الملتهبة، التي لم يفلح برد الشتاء في قتل سخونتها، وراح يصرخ بكل ما أوتي من قوة:

- «يا للعار يا للعار... حسني بيضرب شعبه بنار»

وجاء الردُّ من شابّ نحيفٍ محمولٍ على الأعناق:

« يا مُنتقم يا جبَّار... فوَّضناك تاخد بالتَّار»

فأخذ ثالث منه حبل الهتاف:

« بالرُّوح بالدم.. مصر بلدنا أهم»

وتسلمه شاب رابع:

«كله ينزل من البيوت... حتى يرحل في التابوت»

وتدخَّل خامس:

«متعبناش متعبناش... الحرية مش ببلاش»

منذ هذه اللحظة التصق إبراهيم بالميدان، وصار جزءًا منه. يدور في جنباته قابضًا على أيدي أولاده وزوجته، وحين يهدهم التعب يذهبون إلى شقةِ قريبٍ لهم على بعد مئة متر من التحرير في شارع يوسف الجندي. ينام ساعات قلائل ثم يذهب إلى الميدان، ويقول لزوجته وهو يدوس على يدها في انفعال:

- من أيام حرب 73 لم أعش لحظات كتلك التي أمرُّ بها الآن. أنا أُولد من جديد

رغم أني أقترب من الستين. شبابنا أعادوا إلينا الشباب، بل أعادوه إلى بلدنا كله.

ويدندن بأغنية الشيخ إمام، التي طالما غرَّدت بها منصة اليساريين المنتصبة على مدخل شارع طلعت حرب قبالة الكعكة الحجرية التي تسكن صامدة في وسط الميدان:

«مصر يا امَّه يا بهيَّه... يا أم طرحه وجلابيَّه

الزمان شاب وانتي شابه... هوَّ رايح وانتي جايَّه».

وبحكم خبرته السابقة كان المهندس إبراهيم يجوب على النقاط التي ترابط فيها قوات الجيش على مداخل الميدان، ويسأل الجنود دومًا:

- ما الأوامر التي أُعطيت لكم اليوم؟

- حماية المُنشآت العامة والحيوية وحماية المتظاهرين.

ينظر في عيونهم ويهز رأسه ويبتسم، ويسألهم:

- لو أمروكم بتوجيه بنادقكم إلى صدورنا، أو اجتياح الميدان بهذه الدبابات، فماذا ستفعلون؟

يردُّون في ثقة:

- لن نُنفذ الأوامر.

- لِمَ؟

- لأننا منكم.

لكن حين وقعت «معركة الجمل» وقف مندهشًا أمام الجنود الصامتين، وعيونهم تزاور عن الثوار، ويتابعون الأحجار وزجاجات المولوتوف التي تنهمر على رؤوس كل مَن في الميدان، وتبرق السيوف والخناجر التي يحملها البلطجية، وينعكس لمعانها الفتَّاك على وجه المصفَّحات والدبابات الراكدة عند مدخل الميدان، دون أن تُحرك ساكنًا، لا هي ولا الذين يربضون فيها.

بعض الجنود دخل إلى صحن الدبابات وأغلق عليه غطاؤها السميك، وانقطع عن النار والدم والوجع والأسى الذي انفطرت له قلوب العالم كله وهو يتابع جمالًا وبغالًا وجيادًا تهاجم الثوار وكأننا رجعنا فجأة إلى حروب القرون الوسطى.

تركوا حرب الكل ضد الكل. شُبَّان يجالدون على الأرض، وآخرون صعدوا إلى أسطح العمارات التي تلتف حول الميدان من ناحية المتحف المصري وراحوا يصدُّون المهاجمين بلا هوادة، ولم ينفكُّوا حتى انتصروا.

حين وضع القتال أوزاره بهروب البلطجية عاد إبراهيم إلى الشقة القريبة من الميدان يجرُّ قدميه من الإنهاك، ويغالب الأسى الذي انفجر في أحشائه وذاكرته تتنقل به بين مشهد قناة السويس ومشهد ميدان التحرير الأخير.

ألقى جسمه على السرير، وضغط على زر التلفزيون، وأغمض عينيه فلم يَرَ

الوجه الذي يحوي الشفتين اللتين تتحدثان على الشاشة، لكنَّ الكلام وصل إلى سمعه ووعاه جيدًا. كان صاحب الصوت يقول:

- نحن أمام مشهدين، شباب يستخدم الإنترنت ونظام يستعمل البغال والجمال، وعلى الشعب المصري أن يختار بين الكمبيوتر والحمار.

كان المتحدث هو حسن عبد الرافع، لكن إبراهيم لم يرَ وجهه أو اسمه المطبوع على الشاشة، ولم يعنِه في هذه اللحظة سوى هذا التأرجح العنيف بين بطولات الأمس ومغامرات اليوم، والذي انتقل معه من عالم الواقع إلى الأحلام، التي تدفقت على نفسه كشلال هادر بينما كان شخيره يرن في الجدران المصمتة.

24

سارت صفاء بمحاذاة النيل، ثم انعطفت على الترعة الفؤادية متجهة إلى السمطا. لم تشأ أن تركب إليها مباشرة، بل أرادت أن تمشي لتسري عن نفسها بعض الشيء بإطلاق بصرها يجول في المروج الخضراء والماء الرائق، وتترك أنفها يسحب ما وسعه من النسيم المسافر إلى حضن الجبل والخوف والسواد القادم هرولة.

لم تنصت إلى التحذيرات التي انهمرت على رأسها حين علم مَن حولها أنها ذاهبة إلى هذا المكان. وقالت لهم في ثقة:

- قتلنا الخوف في ميدان التحرير.

كانت شمس العصر تُلملم بعض نضارها وترميه في جيب الليل، وبدأت فرقعة الرصاص تصرخ من كل الجهات، حيث نجوع الشيخ بريك ورويشد والزرازرة ومزاير والشيخ علي وأبو عقرب وعزبة نظيف. لكنها مضت واثقة من خطواتها، فقد ألفت هذه الفرقعات الهادرة في شوارع الدم والموت والفرح والعناد، وبعض هذا الصخب لا يزال ساكنًا في أذنيها وحقيبتها التي كانت تحمل فيها زجاجتي خلّ وماء وكمامة لتخفيف وطأة الغاز الخانق، وبعض الأحجار الصغيرة وثلاث تفاحات زادًا ليومٍ كاملٍ من الاعتصام.

كانت تحفظ الوصايا عن ظهر قلب. لا تخافي، وإن شعر أهل القرية أنكِ غريبة سيرحبون بكِ، وإذا سألك أحد: «من وين الأخت» فلا تترددي في قول الحقيقة، فالصدق مع هؤلاء نجاة. ستمرين في أماكن خطرة وكأنك تتفقدين مواقع حربية. وأكثر ما سترينه هو وجوه العجائز والأرامل، فالرجال إما حصدهم رصاص الثأر أو هاجروا. ولا تتعجبي حين يُقال لك في كل مكان إن كل هذه النجوع بنيت على رؤوس عفاريت ولذا لا تعرف الهدوء ولا تشبع من الدم. وإذا أردتِ أن تقسمي أمامهم فاحلفي بأي شيخ صوفي؛ فأهل القرية مشدودون إلى كرامات الأولياء، وزواج الأقارب ملأ شوارعها بعيالٍ مشوهين يسمونهم «مجاذيب» و«بهاليل» ويعتقدون في أنهم من أهل الله.

سألت عجوزًا تتوكَّأ على عصاها، وتنظر إلى الدنيا بعينين كليلتين:

- أين بيت الزنباع؟

فقربت عينيها من وجهها، وتاهت برهة ثم قالت:

- ثالث بيت على اليمين.

وسمعها طفل فسارع إلى البيت، وطرق بابه، فخرج إليه رجل قصير القامة، ملفوف في جلباب صوفٍ رمادي، وعلى رأسه عمامة بيضاء مدَّها إلى أعلى لتمنحه طولًا. كانت صفاء قد وصلت إلى البيت فرفع هامته إليها، وسحب ابتسامة فاترة من مخزون أفراحه المطمورة تحت رُكامٍ من مآتم هذه القرية

الغريبة، وقال لها:

- اتفضلي يا أستاذة.

***

دخلت إلى صالة البيت. كانت وسيعة ونظيفة ومرتبة. تحوي فراشًا وثيرًا، وفي منتصفها طاولات متتابعة عليها فواكه مختلفة أنواعها وألوانها وأطباق بها مكسرات وحلويات، وطفايات للسجائر، وفي الأجناب تتراص شِيَش وقلل ينضح منها الماء، وصنايق تطل منها زجاجات البيرة.

جلست وفي قلبها حيرة والكلام يرقد على لسانها دون حراك. كيف ستتحدث في هذه القضية الخطيرة مع رجلٍ لا يبدو من هيئته أنه يمكن أن يدرك دون جهد نبل مقصدها؟ ليست جاسوسةً، ولا تاجرة تنافسه في بضاعة الدم والخراب، ولا راغبة في الحصول منه على ما تصوبه إلى رأسٍ أو صدر، فهي رغم كل ما جرى لا تزال تؤمن بأن سلمية الثورة مبدأ لا خروجً عنه، وأن الكلمة أقوى من القنبلة، والدم سينتصر حتمًا على السيف.

تفرَّس فيها صامتًا، فاستجمعت قواها وسألته:

- أتعرف حسن عبد الرافع؟

امتلأ وجهه باندهاشٍ، اتسعت له حدقتاه ووجنتاه، ثم قال:

- أسمع عنه.

- هو قابلك من ثلاثة أشهر.

صمت برهة ثم سألها:

- مَن أنتِ؟

- خطيبته صفاء.

- وأين هو؟

- لاقى ربه.

- متى حدث هذا؟

- قبل ساعات؟

- ومَن قتله؟

- وكيف عرفت أنه قُتل؟

- أمثاله قتلهم محتوم. لقد عرف أكثر من اللازم.

- قبل اغتياله بأيام طلب مني أن أجيء إليك لأسألك عن شيء.

- خير.

- كان يريد أن يعرف مَن اتصل بكَ طالبًا سلاحًا.

قهقه الزنباع حتى كاد أن يُسقط القُلل والشّيَش، ثم قال:

- بهذه البساطة؟
- أرجوك.
- وماذا تستفيدين من معرفة هذا؟ ألم يكْفِكِ مقتل خطيبكِ حين أراد أن يعرف؟
- أريد أن أُكمل ما بدأ. هكذا عاهدته ذات يوم ولن أخلف العهد.
- أنت تعاهدينه كما تريدين، أما أنا فلم أعاهد أحدًا.
وكانت تعرف الطريقة التي حصل من خلالها حسن على بعض المعلومات، فقالت له:
- وسأكمل معك أيضًا ما فتحه معك.
فنظر إليها نظرةً شاملة، ثم لاذ بصمتٍ لم يستمر طويلًا، ثم سألها:
- أنتِ عضو في التنظيم؟
- نعم.
ابتسم وقال:
- لا مؤاخذة. لماذا لم يرسلوا لي رجلًا؟
- ألم أقُلْ لك إنني خطيبة حسن؟
- وما علاقة هذا بقيادة التنظيم؟
- قلت لك إنني رسول إليك ولست قائدة.
-وهل الاتفاق على صفقات السلاح يكون مع النساء؟
- قيل لي إنك قادم من ليبيا، وهناك كان حُرَّاس الرئيس الذي قُتل من النساء، وفي ميدان التحرير كان النساء يسبقن الرجال.
ابتسم وقال:
- لكن، لا أريد أن تتعرَّضي للخطر.
- لا تشغل بالك بهذه المسألة، كما أنني مجرَّد رسول، وسيأتي مَن يدفع ويستلم السلاح والذخيرة. طبعًا هم رجال.
وحين شعرت أن كلامها قد ألانَ دماغه، جمعت كل إمكاناتها الأنثوية وذكاءها وخبرتها ورغبتها العارمة في أن تلقف الخيط الذي تركه حبيبها معلقًا في الفراغ، وقالت له بصوت رخيم خفيض:
- المهم أن تكون بنادق ورشَّاشات من النوع نفسه الذي حصل عليه مَن يقصدوننا بسوء.
- الفلول معهم فلوس لا تحرقها نار. كما أنهم أصحاب الفضل علينا، وأصحاب اللِّحى الكثة تأتيهم أموال طائلة من الخارج، لا يشغلون أنفسهم في عدها.
- زمان الفلول راح وزماننا قادم.

ضحك، ثم سحب سيجارة من صندوق مُذهَّب، ووضعها على طرف فمه وقال:

- أنتِ واهمة يا أستاذة. كل شيء لا يزال على حاله.

- هم يريدونه هكذا، لكننا سنُطهر البلد من فسادهم واستبدادهم.

- بالسلاح؟

- ثورتنا سلمية.

- إذًا لِمَ تحتاجون بنادق وذخيرة؟

- ربما نضطر للدفاع عن أنفسنا.

- ضد مَن؟

- عصابات النظام الذي نسعى لإسقاطه وبعض المُتحالفين معه ضد شباب الثورة.

- عرفنا هذا. وماذا عن أصحاب اللِّحى؟

- يُكفروننا، وقد يعودون إلى إرهابهم القديم، ويرفعون السلاح في وجه الكل، لاسيما أنهم يسعون إلى إحياء ميليشياتهم المسلحة.

تنحنح، ونظر إليها نظرة شاملة، وقال:

- ونحن جاهزون، أسبوع وستأتي الأسلحة من ليبيا، فجهّزوا أنتم الفلوس.

- لكنَّ فلوسنا على قدر حالنا. ليس لدينا مال الفلول، ولا أصحاب اللحى.

- الفلول ليسوا بحاجة إلى أمثالي، فمنهم كبار تجار السلاح في البلد. حتى الرجل الكبير كان كذلك. لقد عشنا سنوات على الفتات الذي يتساقط من بين يديه. والمتطرفون لهم سبلهم السالكة التي تضع في أيديهم كل ما يريدون.

لسَعتْها كلمة الرجل الكبير، فنظرت إليه مندهشة، وتساءلت:

- الرجل الكبير؟!!

- هذه مسألة نعرفها نحن جيدًا. سفن كاملة تأتي مُحمَّلة من كل صنف، ترسو قليلًا في موانينا؛ ليعاد تغليف ما فيها، ثم تذهب إلى بلدان في أفريقيا.

- أكانوا بهذا السوء؟

- سلاح ومخدَّرات وآثار وذهب وبترول وغاز. كل شيء في يدهم حتى الآن، وهذا ما يواجهه أمثالكِ من الأبرياء، وهم يظنون أن إقالة وزير أو تغيير قانون سيحل المشكلة. الأمر أعقد من هذا.

ـ وأصحاب اللِّحى؟

ـ لا يريدون تغيير الحال، إنما يسعون إلى وراثته كما هو، المهم أن يعمل لهم هم فقط.

ورفعت رأسها إليه وفي عينيها عجبٌ من كلامه، ففهم ما يدور برأسها، وقال لها:

- لا تندهشي، أنا خرّيج المعهد الفني التجاري بأسيوط، وتجربتي القاسية منحتني الدكتواره في الحياة، ولا فخر.

- ما الذي ذهب بكَ في هذه الطريق؟

فرقع بضحكةٍ صاخبة مرَّة أخرى:

- أنتِ هنا في السمطا، حيث يلهو الأطفال بطلقات الرصاص، ولا يأتي إليهم نومٌ إلا إذا سمعوا فرقعاتها.

وساد صمت قطعه هو قائلًا بينما عيناه تحُطَّان بقوةٍ في عينَي صفاء:

- لا أُصدق أن معكم ما تشترون به السلاح.

فتذكَّرت ما كان حسن قد قاله لها، وردت بسرعة:

- هناك مَن سيمول هذه الصفقة، لكنه لا يُريد أن يظهر في الصورة أبدًا.

نظر في الساعة، فشعرت هي أنها أثقلت عليه.مدَّت يدها إلى حقيبتها، فسرى حرج في نفسه، لكنه قال لها:

- مضطر أن أذهب إلى «الدائرة»، مكان يجلس فيه كبارنا ليحلوا مشكلاتنا التي لا تنتهي. خذي راحتكِ والبيت بيتكِ.

ثم نادى زوجته وأشار إلى الفتاة الجالسة أمامه:

- الأستاذة صفاء ضيفتنا.

ثم سحب عصاه، وعدل وضع عمامته، وخرج وأغلق الباب، وحلَّ صمت ووحشة، ودارت في رأس صفاء أسئلة جديدة أكثر مما حصلت على إجابات. كان حسن قد قال لها ذات ليلة وهو يتدثر ببقايا الأمل في أن الطريق لا يزال قادرًا على الاتساع لأقدام رفاقه الأنقياء:

- بلغ اليأس مداه ببعض الشباب فبدأوا يفكرون في الكفاح المسلح. راحوا يسخرون من النهج الذي سلكته ثورتنا، ويقولون «خالتي سلمية ماتت من زمان». أزعجني هذا، وعرفت أن بعضهم يتصل برجل في السمطا اسمه الزنباع للحصول على سلاح، لكنني لا أدري من أين لهم بثمنه؟ وتساقطت أخبار عن أن بعض المتطرفين يسعون لشراء شحنات كبيرة منه، وأنهم سيحملونها إلى سيناء، حيث يعلنون إمارتهم الإسلامية المزعومة. بعض هذه الشحنات وقع في يد أجهزة الأمن وأغلبها وصل إلى المكان المراد.

وكان قد أخبرها يومها بأنه اتصل بالزنباع هذا وذهب لمقابلته وأوهمه أنه يريد أن يشتري بنادق ورشَّاشات، وحذره من بيع سلاح لغيره من الشباب؛ لأنهم مرصودون من الأمن والجيش. وتمكَّن من إفشال كل شيء، لكنه اكتشف من حواره مع الزنباع أن هناك مَن يشتري سلاحًا في الوقت نفسه. الرجل لم يُفصح له عن أي معلومة كاملة.

راوغ الزنباع وحار ودار وانحرف به عمَّا يريد وهو ثابت لا يريم، لا يهتز له رِمش

ولا تظهر على صفحة وجهه أي علامات للارتباك أو الخوف.

كان حسن يريد أن يُكمل الطريق معه، بعد أن أمسك من ثنايا كلامه خيطًا قد يوصله إلى رابطة تجَّار السلاح الموزعة في مراكز النفوذ والقرار أيام المخلوع وبعده، والتي تحرِّك كل شيء من خلف الستار، وتضع الجدر العالية الخشنة أمام أقدام الثوار المَجهدين، وهم يكافحون من أجل أن يتقدموا ولو بخطىً وئيدة نحو شاطئ الحرية والفرح.

25

تندفع كل الشياطين التي تسكن دم سامر خفاجي إلى لسانه فيُوسِع حسن عبد الرافع هجاءً كلما ذُكر اسمه أمامه. يستدعي حكايات مبتورة ثم يضيف إليها من خياله الخصب، أو يحرفها عن الطريق الذي سلكته حين وقعت، أو يتطوَّع بتأويلها فيشيع في المكان جوًّا من الغيظ والكراهية، ثم يجلس مسترخيًا يدخن في تلذذٍ، وهو يجمع من أفواه الآخرين حصاد ما زرعه في أسماعهم منذ دقائق.

قبل أيام احتدم النقاش بينهما وارتفع صوتهما حتى كاد أن يخترق جدران الشقة الضيقة التي يجتمعون فيها للبحث عن سبيلٍ لإكمال الحلم الذي أطلقوه فحلَّق فوق ربوع الوطن، لكنهم اختلفوا، وساروا في سبيلين لا يلتقيان أبدًا.

كان حسن يدافعُ باستماتةٍ عن سلمية الثورة، ويرى أن الاحتجاج المتحضِّر الذي صنعه الناس أيام موجتها الأولى هو أعظم ما فيها. إنها الصورة التي سكنت رأس العالم وسحرته. أول ثورة في التاريخ تنظف مكانها. الحناجر التي تحدَّت المصفحات، والأحجار الصغيرة التي واجهت الرصاص والزجاجات الحارقة. الأنامل التي نقرت على الهواتف المحمولة فانتصرت على ترسانة إعلام السلطة التي لا تكف عن صناعة الزيف والغواية.

ويصرخ خفاجي في وجهه:

- كفاك حديثًا عن هذا الحَمَلِ الوديع الذي تأكله الذئاب.

- هذا الحملُ الذي لا يعجبكَ أكل الذئب الأكبر.

- وبعدها انتهت قدرته على بلع أي شيء، فجاءت الذئاب لتلتهمه على مهل وهو يبكي من عجزه وخوره.

- الدم سيفقدنا تعاطف الناس وهم الحضن الوسيع الذي نرتمي فيه، والنبع الذي تنهل منه ثورتنا، وإن جفَّ ستموت عطشًا.

- كفاكَ فلسفةً، أليس هؤلاء الذين ما إن ثاروا على الظلم حتى استسلموا لظلمٍ جديد. لقد فاض نبعهم مرة واحدة ثم يبس ولم يعد لديه ما يبل ريقنا، وإن انتظرنا تفجُّره من جديد أو رضخنا لمنطقه العاجز سيعود بلدنا إلى أسوأ مما كان عليه قبل غضبنا العارم.

- لا تفرض وصاية على الناس، أو تعتقد أنك أفهم منهم. وعليك أن تدرك دومًا أن بين التغيير والفوضى خيطًا رفيعًا لا يجب أن نقطعه.

- فوضى.. فوضى. أليس لديك غير هذه الكلمة؟

- وما الذي يضيرك من هذه الكلمة.. ألست معتنقًا لفكر الفوضوية؟

- قلت لك اسمها «اللاسُلطويَّة»... إنها الفكرة التي تعطي كل نفوذ للشعب بدلًا من أن يسرقه الوسطاء أو مَن يعتقد أنهم يمثلونه.

- هذه فكرة لا تقف على قدمين، ما طبقها أحدٌ إلا وأخفق بشكلٍ مُزرٍ.

- العيب في التطبيق وليس في الفكرة.

- أتريد أن تكون بلادنا حقل تجارب في هذه الأيام العصيبة؟

- بل أريد العدل وحقوق الفقراء المنسيين وتقويض الجدران السميكة التي تحمي الفساد، وتمكين الناس من الحكم.

- هذه أحلام الجميع، لكن كيف يمكن أن تسعوا إلى تحقيقها دون عنف؟

- عبر التاريخ كان عنف أمثالنا محدودًا، وأغلبه كان ردَّ فعلٍ، وكثير مما نُسب إلينا من صنع أعدائنا. وحتى تعرف هذا جيدًا اسأل صديقك الإخواني المعدل مازن عبد الرحيم.

- ظنِّي أن البشرية جرَّبت في سيرها الطويل نحو العدل والحرية والكفاية كل هذا، وما لديكم لم ولن يكون شيئًا أصيلًا في يوم من الأيام.

- يمكن أن تستغل أفكارنا في تعزيز النقابات التي تم تدميرها. ولتعلم يا حسن أنه لا ديمقراطية بلا استقلال المجتمع.

- أنت تقبض على الريح، وتحرث في الماء.

- وأنت دودة في ثمرة ناضحة.

- هذا كلام لا يُقال أبدًا للثوريين.

- الثوريون هم نحن الذين لم نترك الميدان وقت أن كنت أنت ترقص في حفل التنحي الكبير الذي ملأ الشوارع من أسوان إلى الإسكندرية.

- أنت تُقدِّس الحزن.

- بل أعي أن ما جرى كان تمثيلية كبرى. كان فخًّا نُصب لكل المصريين ووقعوا فيه.

-وهل أنتم فقط مَن تمتلكون الوعي والحقيقة في هذا البلد؟

- لم نقلْ هذا، لكننا لا نقبل أنصاف الحلول.

- لا أحد يقبل أنصاف الحلول في الثورات لأنها ببساطة تغيير جذري.

- وأين ذهب هذا التغيير الآن يا عزيزي؟ أسقطنا واحدًا فقذف لنا من فمه وأنفه عشرين.

- لا بأس، من استطاع أن يُسقط الطاغية بوسعه أن يدهس تلاميذه.

- وهل ستفعل ذلك أنت وبعض رفاقك الموهومين؟

- بل الشعب كله.

- غيَّبوه وأعادوه إلى الجُبِّ وأطلقوا عليه «حزب الكنبة». خوَّفوه من الفوضى والجوع، واستجاب لهم، ولا تطلب من الناس أن يفعلوا ما لا طاقة لهم به.

- أكفَرتَ بالناس بهذه السرعة؟ ألم يكن هؤلاء مَن خطفوا بصرك وعقلك قبل

شهور، وكنت تصرخ في ميدان التحرير باسمهم وتقول عنهم «الشعب المعلم».

- نحن بحاجة إلى ثورة فكرية بعد ثورتنا السياسية، وإلا سيسقط كل شيء في حِجر أصحاب اللِّحى المتربصين بنا.

- وهذا ما يجب أن نتعاون فيه، ولا نُضيِّع وقتنا في أفكارٍ لا تحط على الأرض.

- مرة أخرى تعود إلى تسفيه ما أؤمن به.

- لا تسفيه ولا تحقير، أنا أكره الجدل العقيم، ولذا لنبقى مختلفين لكن دون أن نكفر بأن هذه الثورة يجب أن تمضي في طريقها السلمي حتى تبلغ كل أهدافها.

- وإن اعتدوا علينا؟

- لن نعيد الكلام من البداية.

***

لم يكن سامر يكره حسن عبد الرافع ولا يُحبُّه. لم يكن يحسده ولا يغبطه. كان يقف حياله في منتصف كل المشاعر. أحيانًا يجد نفسه قد اقترب من الاقتناع بما يقول وأحيانًا يقف على النقيض تمامًا مما يسمعه منه أو يقرأه له. يُنصت إليه وقت أن تطالع عيناه وجهه في شاشة التلفزيون ومرة أخرى يغيِّر القناة أو يغلق الجهاز تمامًا وينفخ في غيظ.

لكنه في الأسابيع الأخيرة اجتاحه شعورٌ لم يعهده من قبل عكَّر ما بقي من صفو أي علاقة بينهما، وحين جاءه خبر اغتياله تنهَّد بشدة، إلا أنه لامَ نفسه بعد برهةٍ عن هذا الارتياح الذي يضنيه أن يعرف سببه، أو يقف على سرِّه الدفين.

هذا الفراق تعزَّز مع كل ضربة هراوة كانت تسقط على جسد سامر وهو يتدثَّر بما تبقَّى له من أمل في الشوارع الحافلة بالألم. كان يرى كل شيء يذوي أمام عينيه، والوطن الذي ظنَّ أنه سيبيت في حضنه بعد طول غربة وهجران يتسرَّب من بين ذراعيه ويتباعد حتى لا يكاد يراه. ومع الحسرة التي راحت تنهش روحه بدأ إيمانه يتزعزع حيال أن تكون الحناجر أقوى من القنابل، والكلمة أعتى من الرصاص، وأنك إن رميت وردةً حيال مَن يضربك بحجرٍ فإنك ستهزمه لا محالة. وقال لرفاقه ذات ليلة بينما دخان السجائر يغطي رؤوسهم: لا تحدثوني بعد اليوم عن الوداعة، وعن الحمل الذي يمكنه أن يُرعى من الذئب.

يجلس ليستعيد كل ما قرأه، ويقول لنفسه: الفوضى هي النزعة الطبيعية للكون. كل شيء منتظم أمامنا تدور في قلبه فوضى عارمة بين جزئيَّات لا نراها بالعين المجردة، وتاريخ بني آدم يتطور في ثبات ظاهر ينطوي باطنه على حرية تكاد تصل إلى العشوائية. والإنسان لا يمكنه أن يستجيب لطبيعته ولا يحترم العلم إلا أذا آمن بكل قوانين العصيان.

وتوجَّس أحد الشباب ذات يوم وهو يسمع منه هذا الكلام فصرخ في وجهه:

- أليست هذه هي الفوضى الخلاقة التي أنذرنا بها المستعمرون الجدد؟

فردَّ عليه في غضب:

- أفكارنا قائمة على مقاومة الاستغلال والتسلُّط فكيف يمكن لنا أن نُعبِّد الطريق أمام غزاة؟

- لكن هذا ما يُقال في الشارع.

- دعاية مغرضة كغيرها من الأكاذيب التي لفَّقوها ليكره الناس ثورتهم.

- لكن إصرارك على ما تقول يعطيهم مبررًا لاعتقالك.

- الأفكار لها أجنحة تطير بها ولا تواجَه إلا بمثلها.

ولم يكن النقاش ينتهي بين هؤلاء جميعًا بشيء واضح. لكن حين يهبطون إلى «ميدان التحرير» تموت هذه الاختلافات، وتحيا وحدة السواعد والحناجر والهدف. يذوب الكل في واحد، تتقارب الأبدان فتنصهر في كتلة لحمٍ ضخمة تملأ كل هذه المساحة الفسيحة. كتلة تمرق فيها الدماء وتسكنها روحٌ واحدة تهيم بكل من يصرخ بأعلى صوته مناديًا على الحرية التي تحوم فوق الرؤوس المرفوعة بينما الشمس تتنقل في هدوءٍ وصمت من المقطم حتى تنام خلف الشاطئ الغربي للنيل العظيم وهو يتقدم صوب الشمال واثقًا من خطاه، ويعرف كل ما يجري حوله فيبتسم في امتنان عميم.

26

لم ينسَ خالد السبع تلك الموسيقى التي انسكبت في أذنه دفقة واحدة، فهزته وحفرت فيه مسربًا مفعمًا بالحيرة والرغبة والفضول. لم يكن يعرفها. لم يرها أبدًا، لكنه راح يرسم ملامحها على مهل مستدلًا برخامة صوتها، وكل ما يعرفه عن حسن عبد الرافع. لابد أن يختار هذا الفتى الحالم وجهًا بريئًا على قدر نقائه الثوري، وجسدًا ممشوقًا على قدر استقامة مسلكه، وأنوثة طاغية ترقى إلى فورته التي لا تهدأ.

هكذا انحفرت صورة صفاء عليوة في رأسه...

لكن منذ متى كان السبع يرضى بالصورة بديلًا عن الأصل؟ ويكتفي بالخيال دون أن يسعى إلى الانغماس في الواقع بكل ما فيه من أفراح وأتراح؟

تردَّد لحظة، ثم لامَ نفسه، وقال لها: مَن يسعى إلى بلوغ مرتبة الإنسان الأسمى لا يجب أن يعرف التردُّد إلى روحه سبيلًا.

استعرض قائمة الاتصال على هاتفه، ثم ضغط زر الاتصال، وراح يستقبل رنينًا زاعقًا يتواصل بإلحاح في مكان لا يعرفه، لكن لا مجيب.

أين ذهبت صفاء؟ أتجلس الآن تروض الحزن وتستعيد الذكريات الحاضرة؟ أم أخذتها الدنيا التي تحمل على ظهرها ركامًا لا نهاية له من السلوان ومحاولة النسيان؟ أم تجلس معذبةً بين ماضٍ لا يرحل وحاضرٍ لا يبرح مكانه؟ لاشك أن روح حسن تمنحها جَلَدًا وصبرًا يقويها على مواصلة الحياة نحو شاطئها الأخير في دأبٍ وإصرار. لكن إلى أين ستمضي؟ هل تواصل طريق حسن عبد الرافع دون أن تهاب الأشواك التي تنبت تحت خطواتها؟ أم تقف مكانها في استراحة محارب؟ أم أنها ستنفض عن كاهلها كل هذا العبء الثقيل وتترك نفسها لأمواج الحياة تتقاذفها إلى حيث تشاء كما يعيش الملايين في هذا البلد؟

وتمنَّى أن يكون الخيار الأخير هو الذي يتهادى خلال الأيام المقبلة، حتى تصير صيدًا سهلًا له. لا يعرف لماذا يريد هذه الفتاة بالذات؟ بل يعرف لكنه يهرب من مصارحة نفسه. ما الذي أعجبها في حسن؟ وما الذي أعجبه هو فيها؟ لا يريد الإجابة على أسئلة، فلا وقت لديه للاستفهام والحيرة؛ فهذا في نظره من صفات الضعفاء، بل يريد أن يلقي على جسده جمراتٍ صافيةً قبل أن تجف فيه المياه ويصير ترابًا.

لن يكون سعيدًا في نومه الأخير وهو يشعر أنها بين أحضان شخص لم يكن في يوم من الأيام يقبل صداقته ولا حتى الاقتراب منه أو الاستماع إليه. وهذا هو المطلوب. أن يهزمه بأي شكل. لم يتمكن منه أبدًا حتى رحل، وسينال منه وهو في صمته المطبق، وعجزه التام.

لكن هل هذه هي أفعال الأقوياء؟ كان يجب أن يسعى إليه وهو يدب على

الأرض ويملأ الدنيا ضجيجًا. هكذا بدأ يقول لنفسه، إلا أن الفرصة فاتت، وعزاؤه أنه سمع أو قرأ ذات يوم أن الموتى يشعرون ويحسُّون بكل ما يجري بعد رحيلهم. حسن سيتعذب وهو مقيد في أغلاله الأبدية، أو حريته التي لا نهاية لها، وتغنيه عن العالمين، ولا عودة منها إلى عبوديتنا هنا في هذه المهزلة الأرضية، في هذه الدوامة التي لا تكف عن الابتلاع.

صفاء عليوة. هذا ما تبقى له كي يمارس فيه هوايته. طالما تمنى أن ينازل حسن نفسه ليقهره ويتركه معلقًا على باب الزمن، لكن لم يعد باليد حيلة. لم يعد سوى صفاء أمامه، وعليه ألا يضيع وقتًا، وليذهب إليها مباشرة، يقتحمها ويهزم فيها الثورة وكل الثوار، ثم يجلس ليدخن في تلذذ، وينفخ الدخان الأزرق على رؤوس كل العيال الذين وقفوا في الميدان والصقيع ينام على رؤوسهم، وعيونهم مصوَّبة إلى آمالهم الطليقة.

هي آمال كاذبة في نظره. أي شيء أو معنى يجعل الإنسان يعيش حياة مضطربة أو يظن أنه يضحي من أجل الآخرين هو كذب وخبل. الصدق أن يعرف الإنسان ما يريده هو، وما ينفعه هو، وليذهب الجميع إلى الجحيم. ويستعجب خالد من أن الذين يفعلون ذلك يطلق عليهم الناس أنانيين. أليست هذه الطبيعة البشرية دون رتوش ولا تجمُّل ولا نفاق؟

***

وعاد يطلبها من جديد. الهاتف يرن، ونباحه الطويل يضيع في الفراغ الكبير الفاصل بين صالون شقته ومكانها الذي لا يعلمه. جلس يحدق في السقف والمقاعد تشاطره وجعه وغيظه. ثم برق في خاطره حل هذه المشكلة. التقط الهاتف من جديد، وطلب أكمل، وواعده على اللقاء.

- الآن.

- لكن أنا مشغول.

- أرجوك، هو أمر مهم على كل حال.

وجاءه يلهث وفي رأسه كل الظنون، ففوجئ أنه يحدثه عن صفاء عليوة. يريد أن يعرف كل شيء عنها، هكذا بلا تردد ولا حياء. وفطن أكمل إلى ما يدور في رأسه، فلم يعطه شيئًا. وكان ما يعرفه قليل، لكنه بخل عليه به، وخرج من عنده غير ما دخل. انشغل هو الآخر بالإجابة على هذه الأسئلة.

عرفها في ميدان التحرير، أيام فقط بل ساعات قليلة رآها فيها إلى جانب حسن، الذي كان حضوره يطغى على الجميع، هكذا كان الأمر في عينيها هي على الأقل. جميلة الروح والجسد هي، وعلى دراية بكل ما يدور حولها. يكفيها أن تكون مع شخص مثل خطيبها الراحل حتى يمكنها أن تعرف وتدرك وتلتهم قيمًا راسخة أو تعزز ما لديها منها، ثم تحدد اتجاهها في حياة مضطربة لا تعرف إلى السكون سبيلا.

كل شيء يترنح أمامه، والأمور تسير في اتجاه غير الذي أرادوه وهم يزحفون في الشوارع ويرابطون في الميادين. وسأل نفسه: كيف أخرج من كل هذا خالي الوفاض؟ سكنته أحلام عريضة بالحرية والكفاية وتوسيع موطئ قدمه في الزحام. لكن الحرية تغور والفساد لا يزال على حاله، الاقتصاد ينزف، ومَن ظنوهم شركاءهم يبذلون جهدًا خارقًا حتى تظل الأمور على حالها، وأصحاب اللحى يفتحون حجورهم عن آخرها، ليتساقط فيها كل شيء، ثم يغلقونها ويصرخون في وجه الجميع: هذا لنا ونحن الأولى منكم في الاستئثار بكل شيء.

طار الرأس وبقي الجسد المترهل المتعفن كما هو. وثبت لديهم جميعًا أن المشكلة لم تكن في رأس السمكة كما اعتقدوا مع أول خطوة قطعوها في طريقهم، والطريق نفسه بدا أطول مما حسبوا. أشواك وجمر وقطع من صخر مسنون ورمل سافٍ، وأطماع بلا حدود. كل هذا كان مستيقظًا أمامهم، وكلما هموا في المسير توالت الجراح. دم ووجع وغربة جديدة.

ليهرب، لكن إلى أين؟ أيعود من حيث أتى بلا انشغال أم يبحث عن انشغال آخر؟ أيترك الوطن هكذا على قارعة الطريق يتيمًا مذمومًا محسورًا؟ أم يواصل مع رفاقه تبديد هذا اليتم؟ أم يسير في خطين متوازيين؟ أو خط واحد في حقيقة الأمر يتماهى فيه ما يخصه، وما يخص الوطن؟

وقال لنفسه: امرأة نحبها قد تكون الوطن. صفاء عليوة، الثورية الحالمة، فيها ومعها يمكن أن تلتقي الطريق بالطريق، ويعانق الحلم الحلم. ولعل هذا يسعد حسن في تربته. من المؤكد أنه يريد لها السعادة، فهو لم يكن أنانيا في يوم من الأيام. ومن هذا الذي يسعدها أكثر من صديق الميدان المخلص الوفي.

***

خرج إلى الشارع ورأسه تضطرب فيه الظنون، ونفسه تموج بالخواطر. استقل سيارته الصغيرة، ومرق بها نحو وسط القاهرة. مر بالشوارع التي ترك فيها علامة خلال أيام لا تنسى، وانهمرت عليه الذكريات حتى أخذته خارج اللحظة التي يحياها، وطفرت عيناه بالدموع، حتى كادت الرؤية أن تغيم أمامه. على مقهى «التكعيبة» جلس وطلب شايًا وشيشة، وراح يعيد ترتيب كل شيء في رأسه، وهو يحاول أن يجيب على سؤال لم يشغله قبل اليوم: كيف الوصول إلى صفاء عليوة؟

نظر إلى الهاتف الراقد أمامه على الطاولة، ثم مد يده وطلبها، وجاءه صوتها الرخيم:

- أهلًا يا أكمل.

- أين أنت؟

- في مكان ما.

واهتز جسده، وشعر أنه قطع مسافة أطول من اللازم نحوها في تعجل،

فسحب شهيقًا وأطلق زفيرًا، وقال:

- لا تخشي شيئًا، أريد فقط أن أطمئن عليكِ.

- أنا بخير.

بلع ريقه ثم سألها:

- متى نراكِ؟

- قريبًا إن شاء الله.

عاد إلى بلع ريقه، ثم سأل من جديد:

- في القاهرة؟

- لا أعرف الآن، سأتصل بك فيما بعد وأخبرك.

- خذي بالك من نفسكِ يا صفاء.

- على الله.

- سلام.

- سلام.

وضع الهاتف في مكانه، وسحب دخانًا كثيفًا من الشيشة، ونفخه في الفراغ، ثم أخذ يتابع الدوائر السوداء التي يصنعها في صمت، وهو يشعر بدوار يأخذه إلى عوالم أخرى فارقها منذ أكثر من عام، وتركها هناك على شاطئ عريض يحل عليه أناس ينشدون الراحة والسكينة والشمس الجلية.

وضع يده في جيبه ليحصي النقود التي تبقت من رحلة السنين، وتبخرت في الشهور الأخيرة وهو يدور في الشوارع؛ ليولد الوطن على كفه، فيجني أضعاف ما زرع، لكن هاهو الزرع يصفر ويضمر ويهتز بعنف في عاصفة هوجاء لا قلب لها.

بالأمس هاتف زميله الذي بقي في شرم الشيخ، فجاءه صوت منكسر:

- لم يعد هنا ما يشجع على البقاء. اختفى السُّياح والفنادق خاوية.

ضحك في مرارة وقال:

- وأخشى ألا يعود هنا أيضًا ما يشجع على البقاء.

وبدا له أن السبل قد تقطعت به، لكنه بات مؤمنًا بأنه لا يمكنه الرجوع، وأتاه صوت حسن عبد الرافع زاعقًا: «الشعب الذي يصنع نصف ثورة يحفر قبره بيده».

27

لم يكن القس جبرائيل مكاريوس قد قابل حسن عبد الرافع سوى مرة واحدة. كان حسن مدعوًّا ليلقي محاضرة بالكنيسة حول ما يجري وما هو آت. قدمه مكاريوس يومها على أنه الشاب الذي يجسد النقاء الثوري في أجلى صوره. وما إن جرت الحروف على لسانه حتى أفرط حسن في التفاؤل ليبدد القلق الذي سكن وجوه الحاضرين، وتبعثر من عيونهم إلى المسارب الضيقة التي تفصل بين صفوف المدرجات العريضة الطويلة، ثم صعد إلى المنصة فاهتزت أركانها، وطفح الضجر على الألسنة، وبدا القادم مخيفًا.

كان الشيخ رأفت مغازي قد ظهر على إحدى الشاشات الزرقاء متجهمًا، وقال: «سنطبِّق أحكام الشريعة وليست مبادؤها فقط، والنصارى لهم حقوق الذمية التي تعارف عليها أجدادنا قبل سقوط الخلافة الإسلامية».

ترك كلامه ذعرًا في نفوس الذاهبين إلى الكنائس، ووجدوا أنفسهم محاصرين من جهات ثلاث، نظام مستبد هضم بعض حقوقهم، ورجال دين يتسلطون عليهم، ونظام قادم يريد أن يعيدهم إلى الأزمنة الغابرة. الجهة الرابعة هي التي أراد حسن أن يأخذ أجسادهم المكدودة وعيونهم التي يأكلها الأرق إليها. إنها النضال من أجل الوصول إلى الشاطئ الآخر الذي ترفرف عليه أجنحة الحرية، وتغمر الكفاية كل جنباته العامرة بالأمل، ويجد كل الجالسين عليه والمتجولين فيه العدل الذي أضناهم البحث عنه.

لكن حسن نفسه كان يغالب الانقباض الذي يهاجمه بقسوة وهو يتابع نتائج الانتخابات البرلمانية. كل شيء يذهب بعيدًا عن اللافتة الأولى المكتوبة بخط متعجل ركيك والتي علقها الشباب في «ميدان التحرير». كل ما خطُّوه بأناملهم التي كاد الصقيع أن يجمدها راح يبهت ويذوي، ثم يتساقط تحت أعمدة لافتات أخرى، كانت مختزنة خلف جدر المكر والدهاء، سرعان ما تقدم حاملوها ووضعوها في كل العيون، وقالوا: كل شيء تم على أيدينا وبها، وانقلب الأمر على عقبيه، وحلَّ تيه وغربة ووجع.

خوف ينشب أظافره في صدرين لرجلين لم يتقابلا سوى مرة واحدة. لم تكن مرة عادية، كل ساعة فيها بعمر كامل. جرت وسط دم ونار ودموع ولفتها أكاذيب وغموض وحيرة. كان كل شيء قابلًا للانفجار أمام مبني الإذاعة والتلفزيون «ماسبيرو»، حيث يجلس أناس مستسلمين لأناقة زائفة ولأيادٍ تمتد في أماكن لا يرونها لتضغط على أزرارٍ فتحركهم كيف شاءت ليطلقوا أكاذيب مسموعة ومرئية. كانت نسمات الربيع تداعب مياه النيل، والشمس تسكب بعض دمها على صفحته، ثم تنعكس على لحية مكاريوس الكثة وتزيد شفتيه احمرارًا وهما تقولان في وجع:

- ليست الشجاعة في مواجهة الموت، ولكنها في مواجهة الحياة.

ويرفع رأسه ويجيل بصره في كل الوجوه المحتشدة، ثم يتأمل أذرعهم المرفوعة وعلى أطرافها صلبان من خشب مختلفة الأحجام والألوان، ويقول:

- أبناء الكتيبة الطيبية لم يخلفوا الوعد، جاءوا إلى هنا ليُظهروا أننا لن نصمت حيال ما يجري لنا. كنيسة هُدمت، وأخرى حُرقت، ورجل قطعت أذنه. حقوق مؤجلة قلنا إن الثورة ستلبيها، لكن لا علامات على أي شيء مختلف.

كانت الأصوات الزاعقة تغطي على كلامه:

«بالروح بالدم نفديك يا صليب»

«بالطول بالعرض إحنا أصحاب الأرض»

***

بدا المشهد غريبًا عن ذلك الذي مر على أعين الناس في ميدان التحرير، صلاة الجمعة التي يحرسها المسيحيون، وقدَّاس الأحد الذي يحرسه المسلمون. الهلال يعانق الصليب، والهتاف الأثير «مسلم ومسيحي إيد واحدة». إنها الأيام الرائعة التي ظن الحالمون أنها ستبقى، وتبيد الاحتقان الطائفي الذي عشش في رؤوس كثيرين عقودًا من الزمن.

ما تلك اليد الخبيثة التي امتدت في أيام معدودات لتفسد الكثير من المعاني، وجعلت بعض الناس يتحدث من خلف الشاشات الزرقاء عن مخاوف الحرب الأهلية؟ أيُّ حرب تلك في بلد تتعانق فيه الأشياء في رسوخ عجيب. لا توجد مدينة ولا قرية، ميدان ولا شارع ولا حارة، طريق وسيع أو مسرب، برج يطعن الفضاء أو بيت خفيض يدفن رأسه في الأرض، إلا وكان الهلال والصليب يتجاوران، ويحُكُّ كلاهما الآخر في دخولهما وخروجهما. وهاهنا في ذلك المكان الطافح بالغضب توجد سيدات منتقبات ومحجبات يصرخن وسط الصلبان المشرعة في الفراغ: عاش الهلال مع الصليب.

انخلع مكاريوس فجأة من حسن عبد الرافع، وسار بخطى ثابتة نحو المنصة الضئيلة التي نصبوها في وجه مبنى الإذاعة والتلفزيون الذي يطلق عليه الثوار «قلعة الخطيئة»، ثم صرخ في المتظاهرين:

- استبسلوا كما صمد أجدادكم الذين خرجوا من أرض طيبة قبل أكثر من ألف وسبعمئة سنة ليشكلوا أبسل فرقة بالجيش الروماني وآثروا الموت عن جبن العيش، وإنكار إيمانهم، ورفضوا التبخير لآلهة وثنية. كانوا 6600 رجل ، عدد يماثل عددكم الآن، لكنهم لم يتنازلوا عن إيمانهم وآثروا الاستشهاد على العيش الذليل.

ثم راح يصرخ بأعلى صوت:

- نموت أوفياء ولا نحيا جبناء.

وراح المتظاهرون يرددون خلفه بكل ما أوتوا من قوة، وقبضات أياديهم تدق

الهواء من جديد، وعيونهم مصوَّبة إلى نوافذ المبنى المستدير، الذي تقذف أطنانًا من الكلام الأعور كل ساعة في الجهات الأربع.

حين أنزلوه من على المنصة اقترب منه شاب متهدل الشعر، وقال له بصوت سمعه كثيرون:

- شجاعتك يا أبونا تذكرنا بشجاعة القائد العظيم موريس.

فشدَّ على يده وصاح فيه:

- أريدك أنت ورفاقك أن تكونوا على قدر أتباعه النبلاء.

ولم تمضِ سوى دقائق حتى تبعثر كل شيء. فرقع رصاص من فوق كوبري 26 يوليو فسقط بعض المتظاهرين مسربلين في دمائهم، وتوالى صراخ جارح، ووقع هرج ومرج. كتل ضخمة من البشر تقدمت نحو الأسلاك الشائكة التي تحمي المبنى المستدير فصدَّتها الأشواك الحديدية، واشتعلت نار في مصفحة فغضبت أخواتها وراحت تهرول وسط الناس وتدهس الأجساد بقسوة، ثم انطلق رصاص خارق من أماكن غطاها الظلام، فتوالى سقوط الجثث على الأرض.

تفرَّق الحشد يمينًا ويسارًا، ودارت معارك بالطوب والعصي تحت كوبري عبد المنعم رياض. ووسط الغبار والدخان اختفى مكاريوس. من يومها لم يقابله حسن سوى هنا في الكنيسة، جلس إلى جانبه يقدمه، ثم يخلتس النظرات إليه من آنٍ إلى آخر، حين سأله بصوتٍ هامس قبل أن يبدأ اللقاء:

- أين اختفيت يوم ماسبيرو؟

فحملق إليه، وهو يكتم غضبًا كاد أن يقذف شررًا من عينيه وقال له:

- لم أختفِ، ابتعدت عنك حين ضغطت الأجساد الهاربة عليَّ فأبعدتني، ولم أجدك.

نظر إليه حسن نظرة شاملة، ثم ابتسم، ولم ينطق.

وعلى مقهى «البستان» جاء ذكر مكاريوس أمام المهندس هاني جرجس، الذي لم يفارق ميدان التحرير منذ لحظة الانطلاق، فقهقه حتى سمعه كل الجالسين وقال:

- كم من مهازل ترتكب باسم الدين؟

استغرب حسن كلامه، ورنا إليه منتظرًا أن يمضي شارحًا ما يقول. فسحب نفسًا عميقًا من الشيشة، وقال:

- الفئران المذعورة خرجت من جحورها تظن نفسها أسودًا. قضينا عمرًا طويلًا في الزنازين المعتمة الباردة، وخرجنا في اللحظات الأولى للثورة ورقابنا على أكفنا، ولما تهاوت تحت أقدامنا الجموع المدججة بالنار والطغيان، خرج هؤلاء ليصنعوا بطولات زائفة.

صمت برهة، وشفط جرعة من الشاي الساخن، ثم سحب نفسًا آخر من

الشيشة، وزفر سحابة صغيرة من الدخان عبرت في رحلتها إلى الفضاء البعيد عشرات الرؤوس، وقال:

- مكاريوس هذا كان يخاف من ظله. لا يعمل شيئًا للدينونة، ولا يبدو من قوله أو فعله أنه ينتمي إلى أبناء المسيح. لا تسامح ولا عفة ولا شجاعة. الآن يتصدر المشهد خلف بعض الأنباوات النازعين إلى الزعامة الفارغة، بينما يبقى المخلصون منهم، الداعون إلى المحبة والسلام في صوامعهم العامرة بالرضا والسكينة، والتي تشع في جنباتها تعاليم يسوع.

- إنه الخطأ الكبير الذي انزلق إليه رجال فتركوا مهمتهم في تربية الروح ورعاية الأخلاق، وراحوا يزاحمون الناس على مطامع الدنيا الفانية.

- القس ميخائيل مكاريوس يذكرني بالشيخ رأفت مغازي، انتهازية وخفة وغرور وحب جارف للشهرة.

- هؤلاء يلعبون في الهامش الضيق، بينما كل شيء يُصنع على مهل بين أكابرهم، ولا عزاء للثوار.

- لأول مرة أشعر أنني لا أفهمك جيدًا.

- الأشياء تبدو غامضة، لكن كل شيء سينجلي مهما تكتَّموا عليه.

- عَمَّ تتحدث؟

- عن صفقة أصحاب اللحي ولابسي الكاكي، التي تعيدنا إلى نقطة الصفر، بل تدخلنا مرة أخرى إلى زمن الجليد والبلادة والقهر، وعن بعض آباء الكنيسة الذين لا صناعة لهم إلا مباركة ما تفعله السلطة، ثم لا يملون من الحديث عن الشعب.

- نعم، لكنه شعبهم هم، أولئك الذين يعتقدون أنهم الأغنام التي خلقها الله ليجعلهم رعاة لها.

- كثير من الأغنام لا تجد رعاة يحمونها بل ذئابًا تفترسها.

- وهذا ما يجري. كل شيء حولنا يتم افتراسه. قوة جهنمية تريد أن تدمر أحلام الناس، وتعيدهم إلى ما كانوا عليه. عيون مصوبة نحو الأقدام التي تتعثر في خطوات وئيدة نحو المجهول.

وأشاح بيده وواصل:

- سمعت مَن يقول إن الرصاص الذي صوب على المتظاهرين المسيحيين أمام ماسبيرو لم يكن طائشًا، إنما عن عمد، وبترتيب ماكر عجيب.

- يحملون المسؤولية للبلطجية وأصحاب المحلات في «وكالة البلح» الذين خسروا من إغلاق المتظاهرين للشارع المؤدي إليهم.

- المسألة أكبر من كل هذا، إنما تقع في رقبة أولئك الذين يريدون أن يدقوا إسفينا غائرًا بين الجيش والأقباط، ويريدون للمجلس العسكري مزيدًا من

التوعك حتى يؤول كل شيء إليهم في النهاية.

- كل شيء جائز في هذا البلد، لاسيما في أيامنا تلك التي اختلطت فيها الأمور إلى حد بعيد.

وسادت لحظة صمت، تذكر فيها حسن أمرًا خطيرًا، فنظر إلى هاني وقال له:

- سمعت أن مكاريوس يضمر لك حقدًا دفينًا.

- أنا أرى هذا في عينيه.

- لكنه يُحرِّض عليك.

- ومَن منا لا يجد مَن يحرضون عليه.. حتى أنت يا حسن يلاحقك التحريض من كل جانب.

فابتسم حسن وقال:

- أشعر أن نهايتي قد اقتربت، لكنني أواجه هذا بنفس راضية، فقد فعلت كل ما حلمت به. لن أموت ناقصًا ثورة كما كنت أتخوف دومًا، بل سأغمض عينيَّ وأنا رجل حر، وورائي حكاية ستروى. ولا يضني المرء أن يذهب بعد أن ترك خلفه علامة.

28

دخل ميدان التحرير والشمس تطل من بين الأبنية على الرؤوس المرفوعة. مشى بخطوات سريعة نشطة وكأنه يسبق الزمن، أو أنه يستعيد زخم أيامه التي ولَّت ويستحضر لحظة البدايات ويطلقها في ساقيه النحيلتين، فيدوس على الأرض بثقة.

يبدو غريبًا هنا بجلبابه الرمادي وطاقيته التي تقف كجذع نخلة قديمة على شعره الذي سكنه المشيب. طاقية تحتفظ داخلها بكثير من الهواء الذي جاء معه من براح الزرع، فتعطيه طولًا وشموخًا.

لا أحد هنا يعرفه إلا قلَّة، أما هو فيعرف الجميع. سيماهم في وجوههم من أثر التمرد. الثائر الساكن تحت جلده خرج من مسامِّه يطل على الغاضبين في تلك البقعة المحررة من الوطن الذي اغتصبوه، ويستعرضهم وجهًا وجهًا. كلهم يشبهونه في ميعة الصبا. وهنا المكان الذي بوسعه أن يقف على أي شبر فيه يسع جسده النحيل وهو يشعر أنه لا يزال على قيد الحياة، التي عاش يتمناها.

ماتت أحلامه منذ انكسر وصاحبه في قرية كمشيش، حين خرجوا ذات فجر يصرخون ضد الإقطاعيين الذين كانوا يمصون دمائهم في صمت وتلذذ. ذهبوا وجاء غيرهم وانفتحت أفواههم الوسيعة وأمسكت أسنانهم الحادة برقاب عشرات الملايين، بينما عيونهم تضحك وأجسادهم لا تتراخي أبدًا، ولم يجدوا إلا أصواتًا مبحوحة لا تصل حتى إلى آذان مَن يطلقونها.

لا تدري الأغلبية الكاسحة ممن يحتشدون هنا في ميدان التحرير شيئًا عن الرصاص الذي فرقع في الزمن البعيد فخرَّ أحد المناضلين صريعًا في قريته التي جذبها من غياهب النسيان ووضعها في قلب التاريخ. لا يدرون شيئًا عن الأرملة التي احتضنت ذكراه صابرة، ولا عن الشِّعر الذي جرى على ألسنة كثيرة تتغنى به:

«فلاح ابن فلاح والبلد كمشيش

لسه الرجال فيها عايشه باقية

ومابتمشيش

ثابت على مبدئي وقولي

وكلامي تراث للتاريخ هيعيش»

من قبل كانوا يأتون به إلى منتديات وندوات محبوسة في جدران جيدة الطلاء، ويقولون للناس: سنقدم لكم «الفلاح الفصيح» فيرهف كثيرون آذانهم انتظارًا لبلاغته الفطرية. كان يتكلم بلغة بسيطة لكنها عميقة، تخرج من قلبه فتصل إلى كل القلوب، وتملأ العيون إعجابًا.

اليوم جاء صبحًا يسبق الشمس. خرج عقب صلاة الفجر من قريته الساهرة

أمام الشاشات الزرقاء، وأتى مهرولا إلى حيث المكان الذي يليق به أن يكون فيه.

***

ما إن وصل إلى منتصف الميدان حتى رآه حسن فسار إليه يجر ساقيه، مستحضرًا في لحظة واحدة كل حواراتهم خلال زياراته المتكررة لكمشيش. كان مجهدًا، فالنوم فارقه الليلة الفائتة وهو يفكر في كل ما يجري حوله، ويضنيه كثيرًا ما قاله له الشيخ رأفت مغازي بوجه عبوس وعينين ثابتتين في وقاحة شديدة.

حين وصل حسن إليه أخذه بين ذراعيه:

- الحاج عبد الحميد.

- أهلًا يا أستاذ حسن.

وكالعادة سحبه من يده حتى وصلا سويًّا إلى المنصة، التي تعبت الليلة من صراخ المتكلمين والهاتفين على خشبها الذي طالما ناخ ثم قام تحت الأقدام المتحفزة. نظر إليه وأشار إلى المنصة وقال له:

- ليسمع الميدان كلمة الفلاحين.

فنظر الحاج عبد الحميد حوله وابتسم وقال:

- أغلب أولادهم هنا.

تقدم خطوة، ثم رجعها وثبت مكانه، ونظر في عيني حسن، ثم همس في أذنه راجيًا:

- نتكلم من عشرات السنين. هذه أيام العمل، دعنى أدعك جسدي في كل هذه الأجساد وأنا أمر في الزحام، فهذا يكفيني الآن.

وأعاد حسن احتضانه، وشدَّ على يده وتركه ينطلق، ثم راح يتثاءب ويطلق أي طاقة متبقية إلى عينيه لتظلا مفتوحتين.

أما هو فراح يمر بين الجموع، والهواء يتمدد في طاقيته قادمًا من منخاريه اللذين أخذا يتسعان وهو يشمخ بوجهه نحو نسيم الصبح الساري من صفحة النيل الذي يسير متمهلًا، والابتسامة تكسو صفحته التي طالما انعكست عليها آلام العابرين.

لكن ما جعله يتألم حقًّا هو أن أولاد الفلاحين هنا نسوا آباءهم. كيف لا يرفع أيهم لافتة تنادي بإنقاذ الرقعة الزراعية التي تأكلها غابات الأسمنت المتمددة بلا هوادة؟ وكيف لا يتحدثون عن الغرس والحصاد؟ ألم يقل هيرودوت منذ آلاف السنين إن «مصر هبة النيل»؟ فأين مصر التي صنعتها بعض المروج التي نبتت على ضفاف المياه العذبة الرائقة المتدفقة من زمن سحيق؟

كل الأحاديث التي يسمعها هنا لا تأتي على ذكر أولئك الذين تركهم يعلقون

آمالهم على ما جرى. جاء هو ليقول لكل هؤلاء بملء فيه: الأرض التي نهبت ستعود وتوزع على أولئك الذين ركنوا فؤوسهم إلى جانب الجدر الخفيضة بعد أن فاضوا عن حاجة الطين إليهم. كثروا هم وتضاءل هو، زادوا هم وانحسر هو.

هنا لا توجد كمشيش وأخواتها أبدًا.

ربما توجد في الشعارات العامة عن العدل والعيش والبناء. لكنه كان يريد كلمات مباشرة تعبر عن أن الواقفين هنا يشعرون بالكادحين في الحقول المغسولة في الندى والأوجاع. وسأل نفسه: هل يظن هؤلاء أن مصر ستقف على قدميها إلا بالزراعة حتى لو كانت الطليعة الثورية قد خرجت من عالم «فيس بوك» و«تويتر»؟

وتجوَّل في الميدان يبحث عن الجلابيب فوجدها هناك ممددة تكسو أجسادًا نائمة في صفوف تحت البطانيات القديمة المتسخة. نظر إليهم وقال في نفسه: كيف جاء هؤلاء إلى هنا دون أن يحملوا لافتة واحدة يقولون فيها: الفلاح هو الأصل. ثم يضعون ضمن المطالب عودة الاحتفال بعيده الذي نسيه العجوز المستبد، الذي نبتت عظامه وسط الغيطان ثم نسي أصحابه في صعوده المتواصل نحو مكان لم يتوقعه أبدًا.

وابتسم حين تذكر ما كان يقوله عنه دومًا كلما جاء اسمه أمامه: «يدِّي الحلَق للي بلا ودان» و«الحظ لما يآتي يخلي الأعمى ساعاتي» و«ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب».

***

مر الحاج عبد الحميد في قدومه إلى ميدان التحرير على القرية التي ولد فيها صاحب السلطان، وألَّف كثيرون عنها الأغاني، فوجد الفرحة طافحة من عيون ناسها. بعض شبابها سبقه إلى هنا، وهم أكثر أيمانًا بأن رحيل السلطان محتوم. ألم يعلمهم آباؤهم أن مَن ليس له خير في أهله ليس فيه خير لأحد. حتى عشيرته الأقربون باعدت بينه وبينها السيدة المتغطرسة التي قتلها جبروتها. لا بد أنها تصرخ الآن في القصر الوسيع، تجمع أشياءها وتبللها بدموعها المملحة، ولا تريد أن تصدق كل ما يجري، وتنظر إلى فتاها الغرير، وتقول له في أسى: فعلنا ما في وسعنا، وقدَّرنا وضحكت الأقدار.

لكن الميدان مختلف يا عبد الحميد. هكذا راح يحدث نفسه: نحن حملنا السلاح في الزمن البعيد، وانكسرنا، وجاء مَن حمله بعدنا وانكسر. لم يتعلم أحد الدرس سوى هؤلاء الشباب. جاءوا مسلحين بالأمل، وهاهم يهزون عرش الطاغية. بحثوا عن قوة أخرى لمساندة الحق، ووجدوها. قوة العدد الكبير والحشد الزاحف. الكل في واحد. هذه الحكمة الفرعونية القديمة ظلت كامنة في رحم التاريخ الطويل وولدت هذه الأيام عفيَّة شامخة كأشجار الكافور.

ولمَّا أكمل جولته في الميدان كان التعب قد نال منه، فجلس إلى جوار خيمة،

وأخرج علبة السجائر، والتقط واحدة، أشعلها وراح ينفث الدخان بتلذذ عجيب، وشمس الظهيرة تحط على طاقيته، وتنفذ من مسامها إلى رأسه الذي كان يغلي بأفكار عجيبة.

تخيل أنه عاد إلى قريته. وقف في الدوار الوسيع، واعتلى الدكة، وراح يخطب والفلاحون يتجمعون حوله، حتى ملأوا الشوارع، ووصل هتافهم إلى كل القرى، فجاء الناس على الجسور المتداعية، خارجين من الحقول الموحولة والبيوت النائمة على الصبر، واحتشدوا هنا حتى سدوا عين الشمس، وحملوه على أكتافهم، ونقلوا جسده النحيل حتى صار في مطلعهم، ظهره إلى الأمام ووجهه إليهم، يهتف وهم يرددون خلفه. يقفون دقائق عند قبر رفيقه الذي رحل قبل عشرات السنين، يقرأون الفاتحة على روحه، ثم ينعطفون يمينًا ويسارًا فيمينًا، ويكررون هذا عشرات المرات وفي كل الاتجاهات، دون تعب، حتى يبلغوا ميدان التحرير، ويضعوا أياديهم في أيدي رفاق حسن عبد الرافع.

29

تم نقل الضابط أحمد إلى القاهرة. التحق بزملائه الذين يحمون مبنى الإذاعة والتلفزيون. ترك دبابته مصوبة نحو الفراغ بعد أن انسحبت من ميدان الأربعين صامتة؛ لتخلد إلى جانب صاحباتها وسط الرمل والهجير، تلمع أحيانًا في الزيوت والشحوم التي يسكبها الجنود أثناء الصيانة الدورية على جسدها الذي لا قلب له أبدًا، وأحيانًا يروح منها البريق وتتوحد مع لون الحصى والرمل.

هنا راح يراقب كل شيء. الجميع يأتون إلى هذا المكان إلا الشهداء والفقراء. يمرون من أمامه صامتين وعلى شفاههم ابتسامة المنتصرين، أحيانًا يشيرون بأيديهم إلى الضباط الواقفين أو الجالسين على مقاعد متداعية في نوبات الحراسة التي لا تنتهي. بعضهم يتفحص أفرولاتهم المموهة ويحط عينيه على أكتافهم ويعد النجوم وما بجانبها فيعرف أقدارهم، ثم يقول:

- السلام عليكم يا رجالة.

أول مَن رآه هو الشيخ رأفت مغازي، كان في البداية يمر منحنيًا بخطى سريعة، يرفع هامته قليلًا، ويرمق الواقفين بعينيه الضيقتين، ويبتسم ويهز رأسه. كل ما يجري يحط على ملامحه. التشكيك في علاقة جماعته بالثورة، والذي يجد نفسه محتاجًا إلى أن يشحذ عقله طويلًا كي يرد عليه. ويندم طويلًا على الكلام الذي قاله قبل الانطلاق بأيام حين رفض أن تنضم جماعته إلى المتظاهرين؛ لأنها لا تعرف مَن دعا إلى التظاهر وما هي أهدافه؟ الرد على كل هذا ليس صعبًا على من احترف الأكاذيب. لكن ما يقلقه حقًّا هي الأقاويل التي تتردد عن صفقة بين جماعته والعسكر. فالكلام في هذا قد يضر بمصالح الجماعة الآتية ضررًا بالغًا. فإن هو أقر بما يقال فسيغضب العسكر، وإن نفى فقد يغضبون أيضًا. لا يعرف على وجه اليقين ما يرضيهم، أو يرضي دهاقنة الجماعة الذين يضنون بالأسرار على أتباعهم. لكن ما كان يعرفه مغازي جيدًا أن العسكر هم القوة التي يراهن مكتب الإرشاد عليها أن تمسك في يدها بزمام الأمر حتى تسلمه له عن طيب خاطر.

يجادل طويلًا أمام الكاميرات وفي الميدان وداخل القاعات ليقول:

- كنا متواجدين منذ اللحظة الأولى، ولا صفقة إلا في رؤوس الواهمين.

وحين يرى ابتسامة السخرية مرسومة على الشفاه، والاستغراب محفورًا على الوجوه، يقول:

- لم نعلن عن تواجدنا حتى لا نعطيهم فرصة سانحة لضربنا بقسوة، ولا نحتاج إلى إبرام صفقات مع أحد.

وحين يقول له البعض في قسوة:

- غيركم نزل ورأسه على كفه ولم يخشَ الضرب، يهز رأسه ويقول:

- كلما كنت أكثر قوة كنت أشد حذرًا، فلدينا ما نخسره دومًا وغيرنا ليس لديه شيء.

ومع تقدم الأيام تغيرت مشيته، صارت بطيئة متمايلة تنطق بفرح لا يخلو من زهو، وثقة لا تخلو من غرور. لم يعد معنيًّا بالرد على أحد، وقال لأحد محاوريه في صلف:

- أنتم لا وزن لكم، نحن كل شيء، الشعب أعطانا الشرعية والثقة وضربكم أنتم على أقفائكم العريضة.. نحن لن ننشغل باتهاماتكم عن طريقنا المرسوم منذ زمن، ولتضربوا رؤوسكم في كل الحوائط التي تجدونها أمامكم، وتموتوا بغيظكم.

في بداية الطريق كان الشيخ يخرج أحيانًا متأبطًا ذراع أي من محاوريه. مرة شاهده الضابط أحمد وهو قابض على ذراع حسن. ومرة مع مولانا الشيخ عبد الرحيم القوصي، بل مرة مع القس ميخائيل مكاريوس. كان يسير إلى جانبهم ويتحدث معهم بودٍّ شديد.

في الأيام الأخيرة يخرج بمفرده، يتأبط أحيانًا أذرع الجنرالات المتقاعدين الذين يكلفونهم بمهمة الدفاع عن أمثالهم ممن لا يزالون على رأس خدمتهم وعلى رأس البلد كله في غفلة عجيبة من الزمن والشعب الطيب.

***

كل شيء كان يتغير حول أحمد، إلا حاله هو. قلبه يهيم بالثورة وعقله مقيَّد بواجبات صارمة لوظيفته. يرضي نفسه أحيانًا ويقول لها: ألسنا شركاء الثورة؟ لكنه يشكك في الإجابة كثيرًا، وهو يرى المجموعات التي تأتي هنا أمامه تهتف بسقوط العسكر، وتتطاول على الجنرالات الكبار، كل أحد باسمه.

هكذا انتقلوا أمام قادته من أسماء مجهولة للناس إلى حروف تجري على ألسنتهم، كانوا يمدحونها في البداية، ويمسونها برفق في منتصف الطريق، واليوم يلعنونها بقسوة.

كان يعرف بعض الأسباب، لكن كل التفاصيل لم يكن يلم بها أمثاله من الضباط الصغار، فمَن بوسعه منهم أن يصل إلى الثروة الطائلة التي تمتد لتشمل أرض مصر كلها، والتي يديرها حفنة من الرجال؟ شركات ومشروعات وارتباطات واحتكارات ومصالح عابرة للحدود، لا رقيب عليها ولا حسيب. يتابعون أخبارًا عنها يتناقلونها هامسين، وكل منهم يتمنى أن تجري الأيام ليجد نفسه على باب هذه المملكة، ويجنح به الخيال أحيانًا فيرى نفسه سيدها الأول، يقف عند بابها الوسيع ويقول للجميع:

- هذا عرقنا ولن نفرط فيه ولو كلفنا هذا دمنا.

ينظر إلى كتفيه، ويعد النجوم المتزايدة في أناة وبطء وينتظر على مضض. أحيانًا يزعجه الكابوس المرعب، حين يلقون به من السفينة المبحرة إلى تلك

المملكة في منتصف الرحلة وهو بين الصعود والهبوط، وكتفاه لم يثقلهما اللون الذهبي بتشكيلاته البارزة، التي يعني كل منها لقبا محددًا. ملازم، ملازم أول، نقيب، رائد، مقدم، عقيد، عميد، لواء، فريق، فريق أول، مشير. كم هي طويلة هذه الرحلة المفعمة بالأوجاع والحسرات؟

لكنه فوجئ بحسن يحدثه عن كل الأسباب. كان لم يَرُه منذ أن افترقا بالسويس وسط الدم والنار اللذين يمتزجان بقوة لينبثق الأمل.

جاء حسن إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون وعلى وجهه غضب وتحفز، فلما رأى الضابط سلَّم عليه بحرارة وقال له:

- اليوم سيعرف الشعب كله لماذا هم يأكلون ثورتنا بنهم وقسوة؟ ولماذا يقتلون رفاقنا بلا ضمير؟

أطلق كلامه بسرعة فارتجت أذن أحمد وامتلأ عقله بالحيرة. لم يكن يعرف على وجه اليقين عمَّ يتحدث حسن، فاقترب منه، وهمس في أذنه:

- كيف سيعرف الشعب؟

فدس حسن يده في جيبه وأخرج «الفلاشة» وقال:

- كله مسجل هنا.

ثم فتح حقيبة جلدية سوداء كانت في يده وقال:

- وهنا توجد أوراق ومستندات أخرى عن الثروة والجرائم والصفقات والألاعيب والأكاذيب. كل شيء هنا موثق ولا يمكن إنكاره.

وطالع الضابط الحقيبة بعينين زائغتين، ثم قال:

- أنت تدخل عش الدبابير.

- ليكن، لست أفضل ممن استشهدوا.

- يا ليتها تقف هذه المرة عند حد قتلك.

- لا أخاف منهم.

- بل يجب أن تخاف ممَّن لا يخافون الله.

- الشعب سيحمي مَن يزيح عن عينه الغمام.

نظر الضابط حوله ثم رفع رأسه إلى السقف وأشار بيده وداس على الحروف بأسنانه:

- الشعب يمكن أن يوجهوه من هنا. سيقولون عنك خائنًا، ويقدمون مستندات مصطنعة عن خيانتك، ويأتون بمَن يقدحون فيك، حتى من بعض الشباب الذين يقفون معك في الميدان.

ثم زفر في ألم وقال:

- ليس كل الناس سواء. لا تخدعكم ابتساماتهم الباهتة، إنهم يظهرون فقط

أسنانهم قبل أن يشرعوا في افتراس الجميع.

امتقع وجه حسن بغضب عارم ثم صرخ بحروف قاطعة:

- لم نعد نخشى أحدًا إلا الله.

ثم مضى نحو المصعد، قلبه ينبض بصوت يصل أذنيه، وعيناه مصوبتان نحو الهدف الذي جاء إلى هنا من أجله، وقدماه تتقدمان بثبات كأنه ذاهب لاستلام جائزة. «الفلاشة» في جيبه والحقيبة في يده والإصرار يملأ نفسه.

قبل أن يدخل إلى غرفة راكدة خلف الاستديو تستقبل ضيوف البرامج ليلتقطوا أنفاسهم حتى يحين موعد إطلالتهم على الناس، تلقى على هاتفه رنينًا، ضغط على الزر فجاءه صوت أكمل زاعقًا:

- أرجوك يا حسن، أمسك لسانك حتى لا تفتح على نفسك باب جهنم.

صمت حسن برهة ثم حاول أن يهدئ من روعه:

- لم يعد هناك مجال للخوف. لسنا أفضل ممن ضحوا بأرواحهم ليفتحوا لنا الطريق إلى الحرية والكرامة.

- بين الشجاعة والتهور شعرة.

- كشف الحقيقة الآن ضرورة مهما كانت العواقب.

- لن يرحموك.

- ولن أرحم نفسي إن سكت عن قول الحق، ولن يرحمني الناس حين يعرفون عاجلًا أم آجلًا أنني كنت أعرف وجبنت عن الكلام.

- لن نخفي شيئًا، لكن التوقيت غير ملائم.

- كل الأوقات ملائمة لقول الحقيقة.

وجاءت لحظة صمت، قطعها حسن بقوله لصاحبه:

- مع السلامة.

فلم يجد أكمل بُدًّا من أن يقول له:

- ربنا معك.

***

دخل إلى الاستراحة وطلب فنجانًا من القهوة؛ ليطلق في خلايا مخه أقصى طاقة ممكنة للتفكير. إنها لحظة المكاشفة، البرنامج على الهواء مباشرة، والمذيع متعاطف مع الثورة، وكذلك المخرج، وقبل أن يتنبه الرقباء سيكون قد ذكر كل شيء. طيلة الليلة الفائتة انشغل بهذا الأمر، وحشد ذهنه جيدًا.

جمع كل شيء ثم بدأ رحلة الحذف ليبقي على المفيد فقط. رسائل تلغرافية مصحوبة بالأدلة، طلقات كاشفة ستفضح المستور، وبعدها ستبدأ رحلة البحث عن كل شيء، وتنفتح النوافذ، ويتحدث الجميع، وتصل الأخبار إلى القاصي

والداني. راح يخلي أفكاره من أي زوائد أو شحوم أو أورام ونتوءات؛ لتبقى الفكرة الرئيسية فقط بلا أي أعباء تجرحها من الثرثرة أو الخروج على النص أو الاستطراد الذي يشتت الانتباه. فعل كل هذا وهو يردد في نفسه مقولة النفري المحفورة في رأسه: «إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة».

لكن أحدًا لم يسمح له بتقديم رؤيته بأي عبارة. فقبل أن تأتيه القهوة جاءه معد البرنامج مطأطأ الرأس وفي عينيه اضطراب وألم. وقف أمامه يستجمع الكلمات من جوف وعيه ورغبته، ثم قال بطريقة جافة:

- متأسف يا أستاذ حسن، الحلقة تأجلت.

نظر حسن إليه وعلى شفتيه ابتسامة منقوعة في السخرية والمرارة، ثم وقف وتوجه إلى المصعد. وكان عليه أن يدرك منذ هذه اللحظة أن حياته في خطر شديد. صباح اليوم جاءه خبر اعتقال سامر خفاجي، أمسكوه في شقة ضيقة بحي الشرابية كان مختبئًا بها منذ أسبوع. اتهموه بالاشتراك في حرق «المجمع العلمي»، بيت المعرفة الذي تركه الغزاة الفرنسيون وحافظت عليه مصر ما يزيد على قرنين من الزمن.

ابتسم حسن في أسى حين سمع الخبر وقال لرفاقه:

- معي صور تؤكد أن النار اشتعلت في المبنى من الداخل.

وحين امتلأت عيونهم بالعجب، قال لهم:

- لم يكتفوا بتشويه الثوار في داخل البلاد، بل أرادوا للعالم أجمع أن يكرههم. لا يعنيهم شيء سوى أن يرانا الناس مجموعة من الهمج والحمقى، أعداء الحضارة والسكينة. يريدون أن ينسى الجميع عظمة وتفرد ما فعلناه.

استعاد حسن كل هذا الحوار وهو يسرع الخطى نحو الشارع، وحين وصل إلى كورنيش النيل تأمل طويلًا المياه المنسابة بهدوء، والمراكب الراسية تنتظر قدوم العشاق مع حلول المساء، والأبنية الفخيمة التي تطل من الشاطئ الغربي، واقتحمت أذنه أبواق السيارات التي تمرق في الاتجاهين، ولا أحد من راكبيها تلسعه النار التي تكوي ضلوعه، ولا يضنيه الظمأ الذي أخذ يتمدد في حلقه، ولا يدري شيئًا عن الأسئلة التي غرست أشواكها في رأسه: هل يتنصتون على هاتفه؟ هل أبلغهم الضابط بما سمعه منه؟ وقفزت في ذهنه صورة أكمل فجأة، لكنه هز رأسه بعنف وقال لنفسه: مستحيل، بل من رابع المستحيلات.

التفت يمينًا ويسارًا حتى اطمأن إلى أن أحدًا لا يتبعه، ثم انعطف تحت كوبري أكتوبر وذاب في الزحام.

30

تعرف جيدًا أن الذي قتل ابنها هو المقدم سيف عبد الجبار، قال لها مَن حملوه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة إنه أطلق صرخة حادة، وإنه واجه الرصاص مبتسمًا فاتحًا ذراعيه، وفي يده زجاجة خل صغيرة، وكان ينظر إلى قاتله باستهانة.

كرر حسن عبد الرافع على مسامع الست عواطف هذه الحكاية حين استقر على كرسي متهالك تحويه شقة متواضعة بالمعتمدية في حي بولاق الدكرور، حيث زحفت من هنا الآلاف يوم «الغضب الكبير» وداست على الحفر وأكوام القمامة المتراصة على رصيف يقسم شارع ناهيا، ولم تعبأ بروائح اللحوم الرخيصة المنبعثة من النوافذ وواجهات المطاعم أو تتوقف أبدًا على المقاهي التي شهدت غربتهم وحيرتهم وضجرهم الطويل.

أنصتت الست عواطف إلى حسن بعينين دامعتين، ثم قالت:

- لا يعوضني عن هاني سوى القصاص من قاتله.

هز حسن رأسه واستعاد الحكمة السابغة:

- القاتل يُقتل ولو بعد حين.

فامتلأ وجهها بغضب عارم وقالت:

- محاكمات القتلة هزيلة، والأدلة ناقصة، والأوغاد يعرضون علينا تعويضًا يشعرنا بالإهانة، وكأن ابني مات في حادث طريق.

ثم تنصت لحظة وتواصل:

- أعرف أن القاتل كان ينفذ أوامر سادته. هم القتلة الحقيقيون أو المحرضون، لكن ما يعذبني أن عينيَّ لم تريا هذا الضابط وراء القضبان. أذهب إلى المحاكمات أسأل عنه فلا أجده. خبؤوه في مكان لا يعرفه غيرهم، أو أنهم لا يهتمون بالبحث عنه، فقلوبنا الجريحة لا تهم غيرنا، ودموعنا الساخنة لا تمسحها غير أيدي ذوينا الذين يتقلبون معنا في وجع مقيم.

تذهب إلى عملها صباحًا في هيئة المساحة، تنظر مليًّا في كل الخرائط،ولا تدري أن في بقعة صغيرة على إحدى تعاريجها ومنحنياتها يقف سيف عبد الجبار منكسرًا بين أعواد زرعه المترنح في القيلولة. تتساقط دموعها على الخطوط المتعرجة، وتقول:

- كان زرعًا في الزمن البعيد، وأصبح بيوتًا وشوارع استشهد ابني بأحدها في عز الظهر.

تدخل إلى غرفة صغيرة، تلقي نظرة دامعة على سريره البسيط، ثم تدسُّ يديها في رف وتخرج بعض ملابسه وعليها آثار دماء. تضعها أمام كل مَن يزورها وتقول:

- نزف ولم ينقذه أحد حتى خرجت روحه إلى ربها.

تصمت برهة وتواصل:

- لم ينزف بل سقط مرة واحدة. جاءته الرصاصة في رأسه فخرج السر الإلهي على الفور.

يربت حسن كتفها ويقول لها:

- لن ننساه أبدًا يا أماه، ولن نستريح حتى نقتصَّ له.

منذ أن رحل وهي تقضي أيامها تتأمل التماثيل الصغيرة التي تركها. كان يرصها في رفٍّ كامل من دولابه ويدون عليها تواريخ وأسماء، ويضع بعضها في مقابل الآخر، وكأنه يريد منها أن تتناجى. يقف أمامها غارقًا في الشجن والهيبة، وينصت إليها طويلًا؛ ليعرف ما تهمس به، ثم يسأل نفسه متحسرًا: «كيف لهؤلاء الأجداد العظام أن يتركوا وراءهم ذرية ضعيفة تتداعى عليها الأمم».

***

كانت الشمس تحط على رؤوس العابرين لشارع ناهيا، وتزيح بعض الغيوم الهاربة من سوط الريح، حين داس هاني على العتمة الراقدة خلف باب شقتهم واستقبل نورًا غامرًا ينسكب من منور السلم، وهبط إلى الشارع، على كتفه سجادة الصلاة وفي فمه بعض التسابيح. كان قد تابع كل ما يجري منذ لحظة الانطلاق وحتى لحظة نزوله تلك، ودبَّ في قلبه شعور بأن الأيام المقبلة ستكون مختلفة.

ما إن قرأ التحيات وسلم عن يمينه وعن يساره حتى اقتحم أذنيه صراخ شاب نحيف يضع على كتفيه كوفية تتعانق فيها مربعات بيضاء وسوداء: «الشعب يريد إسقاط النظام». كان صوته مبحوحًا، ولكن الهتاف يجيء من الأعماق البعيدة لروحه، فتنتفخ عروقه ويلمع بريق عينيه في عيون كل الذين فرغوا للتو من صلاتهم. انضم إليه شاب آخر، وأخذا يهتفان: «عيش.. حرية... عدالة اجتماعية»، وانضم ثالث، وفجأة صاروا مجموعة كبيرة، سارت نحو الخارج، والناس يأتون من الحارات والفجاج الجانبية وينضمون إليها، فلما وصلت المسيرة إلى نهاية الشارع كانت قد اكتملت ملامحها، وصارت حشدًا هائلًا، فاض على شارع السودان المؤدي إلى شارع التحرير، الذي يصب هناك في الميدان الفسيح.

تقاطر المحمولون على الأكتاف، هزوا أنصافهم العلوية النحيفة وطوحوها فوق الرؤوس التي كانت مصوبة إلى أعلى لأول مرة منذ سنين، نظموا الهتافات ورددوها بإيقاع موزون وجارح فجاء الرد هادرًا، وانفلتت الأصوات إلى كل النوافذ فأطلت النساء منها، وبدأن يلقين زجاجات المياه على الرؤوس؛ لتبتل الحلوق التي جففها الصراخ.

وتقدم الحشد حتى وصل إلى منتصف شارع التحرير، وهنا ظهرت جحافل «الأمن المركزي» بلباس أسود يشبه الدخان الذي تطلقه القنابل والرصاص

الأعمى الذي يمرق من فوهات البنادق والحاضر البغيض الذي أوصل الأمور إلى لحظة المواجهة تلك.

كان الجنود يقفون بأجساد مشدودة تقاوم الإعياء من قلة النوم، وعيون مصوبة بانكسار فاضح نحو المتظاهرين، ينتظرون أوامر الضابط الذي يقف إلى جانبهم، مادًّا بوزه نحو القادمين، ولا يعرف ماذا يفعل معهم. قال له قادته إنهم لن يأتوا أبدًا، وإن جاء بعضهم فسيأتون فرادى أو مجموعات صغيرة يسهل افتراسها. هاهم يسدون عين الشمس، ويبدو زحفهم الرهيب قادرًا على أن يجرف أي شيء وأي أحد في طريقه.

رنَّ اللاسلكي في يده فصرخ:

- تمام يا أفندم.

هز رأسه مرات ومرات، ثم صرخ في الجنود:

- غاز.

وانهمرت القنابل الخانقة مصحوبة بزخَّات قوية من عربات الماء، فابتل الدخان وسد الأنوف وكتم على الصدور، فانطلق السعال جارحًا من حناجر لا حصر لها. كانت رئتا هاني قويتين، فغلب الدخان والماء، وتقدم بثبات عجيب نحو القنابل الساقطة على الأرض تنزف سوادها الخانق وأمسك إحداها بسرعة خاطفة ورماها نحو الجنود.

كرَّر هذا مرات ومرات، فتشجع شباب آخرون والتقفوا القنابل وقذفوها بشدة، فبدأ الجنود يسعلون ويتراجعون للخلف، ويتقدم المتظاهرون إلى الأمام. وجرى نحو ناقلات الجند الواقفة على جانبي الشارع، ونزع الكوفية التي تطوق عنقه، ثم وضعها في وجه الماء المنهمر فابتلت، ونظر في كل مكان حتى وجد قطعة خشب طويلة، كسرها، ولف الكوفية المبتلة عليها، ودفسها في شكمان عربة الجند، فاشتعلت فيها النار. وتوالى حرق العربات باستخدام عصي ترفرف عليها الأعلام، فلما رأى الجنود ناقلاتهم تأكل النيران أجسادها الحديدية أخذوا في الهرب لتبدأ رحلة الزحف المتواصل نحو الميدان.

في هذه اللحظة كان المقدم سيف عبد الجبار يقف على بعد أمتار من الاشتباك الرهيب، ورأى ما فعله هاني، وحفظ ملامحه جيدًا، بل صوره بكاميرا هاتفه المحمول. وقال سيف لنفسه وهو يعض على أسنانه: «سنعتقل هذا الولد وسيعرف عاقبة الاعتداء على أسياده».

ومع هروب الجنود تقهقر سيف نحو كوبري الجلاء وعسكر هناك مع صفوف متراصة من جنود الأمن المركزي تصنع سدًّا من لحم وعظم للحيلولة دون تقدم الثوار إلى ميدان التحرير. وزاد الحشد بانضمام أهالي حي «الدقي» وفاض متدفقًا صوب الشرق. كان هاني في مطلع النسق الأول، وإلى جانبه أقرانه من الشباب المتحفزين، يهشون قطع الغبش المندفعة نحو وجوههم الغارقة في

الحماس والدهشة.

حاولوا أن يتقدموا لكن الضرب المبرح أعادهم إلى الخلف، دخان خانق ورصاص مطاطي وخرطوش وكاسحات صلدة تدوس الأجساد بلا ضمير.

وظلوا بين كرٍّ وفرٍّ ساعات طوال، يتناقصون تباعًا، بعضهم يسقط صريعًا، وبعضهم يصاب ويزاح جانبًا؛ ليتولى أطباء قليلون من بين المتظاهرين علاجهم بإمكانيات غاية في البساطة. من تأخذهم سيارات الإسعاف تسلمهم إلى مباحث أمن الدولة فتعتقلهم وتأخذهم إلى المحابس، ويستجوبون بتهمة التجمهر والشغب والتخريب. ولهذا فضل كثيرون أن ينزفوا دماءهم قطرة قطرة ولا تأخذهم عربات الإسعاف. سلموا أجسادهم لأطباء ميدانيين بلا أدوات تكفي لعلاج جروحهم العميقة وتركوا فرصهم في الحياة معلقة بين يدي القدر.

وجاءهم المدد قبيل الغروب، جموع حاشدة زحفت من حيَّي «فيصل» و«الهرم» وكسرت أطواق الأمن في طريقها، وأخرى قادمة من حي «إمبابة» تجرف أمامها كل مَن بقي من جنود أنهكهم الانتظار بلا نوم، وخواء البطون، وعدم عدالة القضية التي يقفون لها، والتقت خطوط الغضب عند عنق كوبري الجلاء.

ولم يؤدِّ ازدياد الحشد إلى زحزحة هاني عن موقعه. ظل في الطليعة، يصول ويجول دون أن يهاب شيئًا. أعطته الساعات المضنية التي مر بها حصانة في مواجهة الخوف. حملوه على الأعناق، لكنه لم يكن يجيد الهتاف. هذه هي المرة الأولى في حياته التي يشارك في مظاهرة، ويجد لغضبه المكتوم منذ سنين طريقًا إلى التصريف الهادئ خارج جسده الذي تعب من ترويض البطالة والعوز.

ست سنوات مرت على تخرجه في كلية الآثار، ولم يجد عملًا حقيقيًّا في بلد يعرف أنه يحوي أكثر من ثلث آثار الدنيا. لا يهمه أن يموت الآن في سبيل أن تغرب الشمس عن وجوه ظالميه، الموت راحة كل حي. الموت هو الانعتاق الحقيقي من العبودية التي تتناسل بأشكال مختلفة وتخدع مَن يظنون أنهم أحرار.

تقدم وكان سيف عبد الجبار في انتظاره، يحفظ ملامحه وينتظر فقط أن يأتيه أمر بضرب الرصاص الحي، كان يتوقع هذا، بل يعرفه، فكل ما فعلوه من أجل منع زحف هذه الجماهير الغاضبة داسته الأقدام، ولم يعد هناك سوى الرصاص.

في منتصف كوبري الجلاء، جاءت اللحظة الفاصلة. رصاصة واحدة من يد إلى رأس وبينهما فراغ مسكون بكل شيء، الخوف والشجاعة، اليأس والأمل، التقدم والتقهقر. كل شيء حدث في سرعة خاطفة بين الضغط على الزناد والصرخة التي اقتحمت كل الآذان والدم الذي انبجث دافقًا وساخنًا، والجسد الذي سقط دفعة واحدة إلى الراحة والحرية.

31

يراقب حسن عبد الرافع من بعيد ويقول في نفسه: «أنجبناهم ونسونا»، ثم يبدأ السير البطيء في الميدان يلتقط أي وجه يعرفه فيمد لصاحبه يده بحرارة، ويود لو يسمع منه شيئًا عن مجالدات الزمن القديم. ينصت إلى الهتافات التي تتردد في كل مكان ويقول لمن يسأله:

- نصفها على الأقل بضاعتنا.

لكن الحزن الطارئ سرعان ما يذوب في طيات نكران الذات، تلك الفضيلة التي امتلكها جمال أبو العزم طيلة عمره، وجعلته يكتفي بالابتسامة وهو يرى كثيرين يقفزون على كتفيه ثم يعطونه ظهورهم، وقد لا يلتفتون إلى الوراء أبدًا.

اعتاد في الزنازين الباردة أن يحكي لشباب محبوسين معه كل شيء عن أولئك الذين خرجوا في ميعة الصبا يطلبون الحرية، وساقتهم أقدامهم إلى ميدان التحرير، التفوا حول الكعكة الحجرية وصرخوا مطالبين باستعادة الأرض التي احتلتها إسرائيل، وبعد حرب أكتوبر عادوا في انتفاضة هادرة من أجل الخبز والحرية، ملأت الشوارع بملايين البشر في ساعات قلائل، وأوجعت أهل الحكم وكسرت تجبرهم فعادوا عن قرار رفع الأسعار، وامتلأت قلوبهم بمهابة الناس.

يرفع هامته ويرسم بخياله على سقف الزنزانة شوارع وميادين ورؤوسًا وأقدامًا، ويدعو الجميع إلى السكوت فجأة ويصيخ السمع فتأتيه هتافات بعيدة، ثم يهز رأسه ويقول لهم وعيناه تحجزان دمعًا غزيرًا يبحث عن مسرب للخروج:

- كان يمكن أن تكون ثورة لولا العجلة والإفك والرضا بالقليل.

ويضحك أحد رفاقه ويقول له:

-وصفوها بأنها انتفاضة حرامية.

فيقهقه ويقول:

-بل هي فورة الغلابة الذين خرجوا إلى الشوارع فجأة وبشكل أذهل الجميع.

كانت عيناه تلمعان وهو يتكلم وترتسم على شفتيه ابتسامة غامضة، ثم يتنهد ويلوذ بالصمت. وكان حسن عبد الرافع ينصت إليه ويتوه شاردًا. في قرارة نفسه يغبطه؛ لأنه رأى الناس، قبل سنين، تملأ الشوارع غاضبة. إنه المشهد الذي يحلم حسن به، وهو يهتف وسط عشرات الأشخاص ممن يحفظ ملامحهم، ويكاد يعرف سيرهم الذاتية تفصيلا. كان يمضي في الشوارع والحارات يتفرس في الوجوه، ويجيل النظر في الأماكن، ويقول لنفسه: خرجوا من هنا ذات يوم. ويطفر من عينيه دمع جديد يبرق في وقدة الشمس أو خيوط الضوء المنبعث من لمبات الليل حين يسأل نفسه السؤال الذي عذبه طويلًا: هل يمكن أن يخرجوا مرة أخرى كما خرجوا في يناير 1977؟ لكن الزمن يمر ولا تمتلئ الشوارع بالغاضبين.

وبينما كان سائرا مع حسن في شارع «عبد الخالق ثروت» خطفتهما الشرطة من أمام نادي القضاة. كانا عائدين للتو من مظاهرة على سلالم نقابة الصحفيين نادت بإسقاط الطاغية، وذهبا للتضامن مع القضاة الذين يطالبون بتصفية العدالة من الشوائب الكثيفة التي عكرتها، ويصرخون بين جدر القماش التي صنعت لهم سرادق ضخما: الاستقلال الاستقلال.

كادوا أن يقولوا كما كان يهتف المصريون أيام الاحتلال الإنجليزي: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام». شيء يدعو للأسى والاشمئزاز، وكأن الزمن لم يمر، ولم يأتِ إلينا مَن قالوا لنا أنهم حررونا من الاستعمار، ثم جلسوا على أجسادنا يبتسمون وشربوا في جماجمنا ما أسكرهم، ولم تصل أناتنا الحارقة إلى آذانهم أبدًا. كيف يمكن للأحلام أن تتحول إلى كوابيس سوداء؟ وكيف يصير الماء الرائق أشد سوادا من أسفلت الشوارع التي يزحف فيها الناس على بطونهم في ذهاب وإياب لا ينقطع؟

لم يعد هناك فرق بين الزنازين والحارات، وظهر الأرض تساوى، عند كثيرين، مع باطنها. هؤلاء ينتظرون الموت، تلك اللحظات الحتمية التي تنقلهم إلى مكان يحققون فيه كل أمنياتهم، التي حرموا منها هنا في الزحام والفساد والطغيان والعذاب المقيم. يجلسون طوال النهار والليل يرهفون آذانهم إلى ألسنة تتحرك بين شفاه تطوقها لحى كثيفة، تحدثهم عن أنهار العسل واللبن والخمر وحور العين اللاتي تنتظرهن أبكارا.

ولا يقولون لهم إن الطريق إلى هذا النعيم لن يتعبد إلا بمقاومة الظلم وتشييد العمران والمحبة والتسامي عن الصغائر والتأمل في بديع صنع الخالق والاشتياق للقائه، بل يخبرونهم بأن الخلاص يأتي بالإغراق ليل نهار في التسابيح، ودخول بيوت الخلاء بالقدم اليسرى، وعدم نسيان دعاء الركوب وقت الدخول إلى الحافلة. إنها المظاهر التي طمرت الجواهر، والتغييب المتعمد الذي جعل كل فرد يدخل إلى شرنقته مستسلما ينتظر النهاية المحتومة حتى وهو في عز الصبا، ولا يتردد في رأسه إلا صدى صوت شيخ يزعق:

ـ ما نحن فيه هو نقمة من الله لأننا نسيناه.

لكن جمال أبو العزم لم يكن من بين المستسلمين لهذا الكلام الذي خدَّر الملايين وأقعدهم عن الخروج على الظلم. كان دومًا في أول الصفوف بجسده الممشوق، وشعره الذي تفضض من طول الانتظار. يتمايل كأنه يقود فريقا كبيرا من العازفين في سيمفونية حماسية. بارع هو في إبداع الهتافات، تجري على لسانه جريانا غريبا، وتخرج عميقة من فرط إيمانه بما يقول:

«يا بلدنا

يا تكية

يا وسية

سرقوك الحرامية»

ينطقها بلحن مميز ويرددها المتظاهرون وراءه. يمسح وجوههم جميعًا بعينيه الضيقتين اللتين يخرج منهما شعاع يحط في عيونهم فيعلو صراخهم. يسير أمامهم ذهابا وإيابا، كأنه قائد يتفقد جنوده قبيل انطلاق المعركة. يستدير أحيانًا ويعطي وجهه للجنود الواقفين في صفوف متلاحقة يطوقون المتظاهرين ويبتسم ثم يصرخ:

«عسكر عسكر عسكر ليه

إحنا في حرب ولَّا إيه»

ثم يرفع هامته فيرى اللواءات الجالسين على مسافة من المظاهرة يتابعون كل شيء في صمت ويصرخ مرة أخرى:

«علّي سور السجن وعلّي

بكرة الثورة تقوم ما تخلي»

كان حسن يقف مع الواقفين، يردد بحماس مفرط، وعيناه تتابعان قائد السيمفونية في حركاته وسكناته. تغيرت الدنيا من حول أبو العزم وهو كما هو، أغناه الله عن كل ما في أيدي الناس، ورضي بطريقه المفروش بالأحلام. تنتهي المظاهرة فيجلس على المقهى يحتسي الشاي الأسود وأمامه علبة سجائره نائمة على صبره وقلقه في آن.

وسط هالات الدخان وصوت الرشفات المتلاحقة ترتسم أمام عينيه هناك في البعيد الأزرق شوارع وميادين مكتظة بالزاحفين يدقون الهواء بأيديهم المعروقة. ويقوم حاملا معه أحلامه التي لم تجف ليقفز في أي أتوبيس يقربه من الحي البعيد الذي يقطنه.

***

حين انحشر حسن في عربة الترحيلات كاد أن يصرخ من الفرحة. أخيرا سيكون مع جمال أبو العزم لليالي طويلة، يسأله وينتظر إجاباته، ينهل مما لديه، ويخرج الكنوز التي خبأها في رأسه وقلبه كل هذه السنين. طالما ذُكراسمه أمامه أيام الجامعة، وكان لا يزال يحبو على أول طريق النضال. ويتذكر جيدًا صديقه الذي لم يرَه منذ تخرجهما حين كان يشهق وهو يذكر صاحب هذا الاسم، ويقول للجميع كلما فكروا في أن يُنظموا مظاهرة احتجاجية: «أين نحن من جيل جمال أبو العزم».

هاهي الأيام تسير ويجد حسن نفسه رفيقا لجمال أبو العزم في وقفات احتجاجية لا تنتهي، ويجود عليه الزمان بالانحشار إلى جانبه في عربة ترحيلات واحدة، ينظر إليه مليا في بقايا نور ينضح من شبكات الحديد التي تتقطع عليها ظلال البيوت وأعمدة الإنارة الواقفة في صمت. هاله حين اقترب منه أكثر أن جلد وجهه آخذ في الانكماش والاصفرار، ولون شعره أكثر بياضا مما يظهر عليه وهو

واقف يضرب بيده وحنجرته أمام غاضبين محتشدين يلتقطون كل ما يخرج من فمه ويمضغونه ويخرجونه كلمات كالرصاص.

وسأله وهو يرى علامات الزمن تنحفر في كل ملامحه:

- كيف بقيت في القلب رغم أنهم يبذلون كل ما في وسعهم من أجل أن تبقى في الهامش؟

فربت كتفه وقال له:

- بوسعك يا حسن أن تكون ما تريد.

- لكننا نواجه نظما ومؤسسات وأموالا وجنودًا وأسلحة وغابة من القوانين التي فصلوها لكي يقصونا.

- من وجهة نظرهم نحن لا شيء. مجموعة من القرود المجنونة التي تتقافز في الشوارع طالبة المستحيل. لكننا نحن نضع أنفسنا في القلب حين نكرههم ونحتقرهم ونراهم لا شيء، ونؤمن بأننا في يوم من الأيام سنضعهم خلف الأسوار ولن يجدوا من يكفكف دموعهم.

ثم يبتسم ويقول:

- أنت تراني في القلب لأنك تسير على دربي، لكن هناك كثيرون يرون أنني ضيعت عمري هباءً. كان بوسعي أن أغرف مثلما غرفوا. أركب سيارة فارهة وأقطن قصرا وتتراكم حساباتي في البنوك فلا أقدر على إحصائها، لكنني اخترت ما أنا فيه، ولم أندم أبدًا، وخذلت أهل الحي الطيبين الذين قالوا لي في أول الصبا: ستطير بعيدًا وتنسانا.

في عتمة السجن أنصت إليه وهو يحكي طويلًا عن «انتفاضة الخبز»، يصف المشاهد له وكأنها تحدث أمامه ويعلق عليها. لا يترك شاردة ولا واردة إلا وأتى على ذكرها. حين سأله حسن عن سر احتفائه بكل هذه التفاصيل، هز رأسه وقال:

- لأنني استعدتها آلاف المرات طيلة السنوات التي خلت. لا يمر يوم إلا وأجلس مع نفسي ولو دقائق أرتب المشاهد في ذاكرتي حتى لا يسقط شيء.

ثم يعود إلى الخلف قليلًا؛ ليتذكر ما فعلوه حين نزلوا يطلبون إنهاء حالة «اللاسلم واللاحرب» والعمل بجدية على استعادة الأرض السليبة، ويقول:

- انتهى بنا المطاف إلى ميدان التحرير، حيث تحلقنا حول الكعكة الحجرية.

ويهتز قلب حسن حين يتذكر قصيدة أمل دنقل التي أعطاها هذا العنوان. يقف بينهم في الزنزانة وينشد بصوت يتعمد أن يكون فخيما وعميقا:

« أيها الواقفون على حافة المذبحة

أشهروا الأسلحة

سقط الصمت ، وانفرط القلب كالمسبحة

والدم انساب فوق الوشاح
المنازل أضرحة
والزنازن أضرحة
والمدى أضرحة
فارفعوا الأسلحة
واتبعوني
أنا ندم الغد والبارحة
رايتي: عظمتان وجمجمة ، وشعاري: الصباح».

وبعد أن ينتهي من القصيدة، التي يحفظها عن ظهر قلب، يجلس وينظر إلى وجه أبو العزم ويقول له:

- كان من الممكن أن تكتب حكايتك.

طوَّح يده في الهواء وكأنه يهش الكلام الذي سمعه:

- خشيت أن تؤدي كتابتها إلى شفائي منها، ومع هذا بدأت في سطورها الأولى على مهل ولا أعرف متى سأنهيها، ولا متى ستنتهي.

أربعون يوما قضوها في حجوزات أقسام الشرطة وخلف أسوار سجن طرة، مع رفاقهم من حركة «كفاية» وبعض النشطاء السياسيين وشباب تصادف وجودهم بالقرب من سرادق نادي القضاة. مرت عليهم جميعًا كأنها دهر، ما عدا حسن الذي لم يشعر بالوقت وهو يلهث وراء كل ما سمعه من جمال أبو العزم الذي يطلق عليه «أكاديمية النضال الوطني».

عرف منه أشياء كثيرة ساعدته على أن يصعد سريعًا وسط المحتشدين في ميدان التحرير، فمخاطبة الجماهير فن، وصنع التنظيمات فن آخر. المعارف والخبرات التي اختزنها أبو العزم كل هذه السنين شربها حسن في أسابيع قليلة، وبات التلميذ الذي تفوق على أستاذه.

كان أبو العزم يتابعه ويتبسم قائلا: «أنجبنا كثيرين ونسونا إلا هذا الفتى». ولما سمع خبر اغتياله، جرى كالمجنون وهتف:

« يا شهيد نام وارتاح
وإحنا نواصل الكفاح»

ورددت وراءه الملايين بقلوب بلغت الحناجر، وعيون ترى جرافيتي للفقيد مرشوق على جدران كل الأبنية التي تعانق ميدان التحرير، بعد أن رسمها فؤاد بهيج، ثم جلس تحتها يبكي.

32

فاقت كراهية حسن عبد الرافع كل الحدود في قلب عاطف الشطنوفي. كان يمقته بكل ما أوتي من قدرة على النبذ والهجر والتجبر والاشمئزاز، ويفيض الغل بصدره فيتمنى لو أتيحت له فرصة في أي يوم أن يقيد يديه ورجليه من خلاف ويعلقه على عمود الكهرباء الذي يهتز من الهتافات الهادرة في قلب ميدان التحرير.

يجلس أحيانًا مع نفسه ويتخيل أن حسن واقفا أمامه عاريا ويداه مربوطتان إلى سلسلة معلقة في سقف قبو خفيض، فيتقدم هو إليه ومعه سكين نصله لامع وحاد فيمزق جسده إربا إربا ويأخذ قطع اللحم المتساقطة ويقذفها إلى فمه ويجبره على مضغها، بينما يجلس هو أمام الجسد الذي يتناقص ويغرق في دمه واضعا ساقا على ساق، في عينيه شماتة، وبجسده خدر، وأنفه يسحب الهواء في صمت وتلذذ، وحوله كلاب وقطط جائعة تنتظر ما يلقي به إليها من لحم حسن.

حين جاء الشطنوفي إلى القاهرة لم يكن لحسن عبد الرافع ذكر، كان نسيا منسيا. شاب مجهول يجلس على المقاهي فلا يعيره أحد انتباها. يحشر جسده في الباصات ويضربه في جنبه كل من يسعى نحو الباب راغبا في الهبوط. ينزل هو في المحطات فلا يتوقف أحد أمام ملامحه، أو يملأ عينيه من وجهه. فليس بوسع أحد أن يعرف شابا ظهر في التلفزيون مرات تعد على أصابع اليد، أو كتب بضع مقالات في صحف المعارضة.

أما الشطنوفي فكان ينظر إلى الباصات باشمئزاز وهو يجلس راميا ظهره إلى المقعد الخلفي في أي من سيارات الأجرة التي يركبها في ذهابه وإيابه إلى مبنى «مجلس الشورى» الذي يعمل فيه موظف علاقات عامة، لكن طموحه كان يأخذه في كل أحلام اليقظة إلى أبعد من ذلك بكثير. يتخيل نفسه أحيانًا جالسا مكان ممدوح البرماوي، صاحب أكبر منصب في المكان، وطالما أعاد قراءة سيرته العامرة بالتلاعب والمكر والرطانة الفارغة، وقال لنفسه:

- ليس مستحيلا أن أصل إلى ما أريد.

وفي عطلات نهاية الأسبوع كان يجلس في «المندرة» الفسيحة يستقبل أصحاب الطلبات، بعضهم يريدون وظائف لذويهم، وآخرون يحتاجون علاجا، وهناك شكاوى لا حصر لها من معاملة بعض ضباط الشرطة. ويحلو له أن يملأ آذانهم جميعًا بحكايات ملفقة عن علاقته الحميمة بكبار المسؤولين. يأخذ لقطة تلفزيونية بسيطة لم يستغرق زمن حدوثها سوى لحظة عابرة ويضيف إليها من خياله الخصب فتصبح الثواني ساعات طويلة. وكثيرا ما قال لهم:

- الرجل الكبير لا يثق إلا في العبد لله، وأرافقه كظله.

اللقطة العابرة الثانية التي ظهر فيها الشطنوفي في فضائيات كثيرة وهو يقف

خلف سيده كانت ليلة «جمعة الغضب»، حين تسابقت الكاميرات لترصد شفتيه المصبوغتين وهما تنفرجان وتنقبضان أمام لسانه الذي يطلق كلاما أشبه برغاء الصابون. كان الشطنوفي يبتسم في ثقة وهو ينصت إلى كلمات سيده: «نحن نفهم شبابنا الطاهر وسنحتضنهم بكل حب».

وهمس أحيانًا في آذانهم بأسرار عن «غرفة جهنم» التي جهزها سيده العجوز القصير وزملاؤه في مبنى الحزب الحاكم للتعذيب والإخفاء، وكيف أن بها ملفات وشرائط وأقراص ممغنطة تحوي أسرارا دفينة عن بعض أركان السلطة ومعارضين لها.

وفي مرة ظهر في لقطة تلفزيونية وهو يقف خلف سيده ورآه بعض أهل قريته فظل يحكي عنها شهورا، لكنه كان يخفي عنهم سكنه البسيط بحي عابدين، ويقول لهم:

- البيه أمر بحجز غرفة دائمة لي بفندق قريب من المجلس حتى أكون إلى جانبه.

***

فجأة ابتعدت عنه الكاميرات وذهبت إلى وجوه أخرى، كان من بينها حسن عبد الرافع، بينما اختفت سيرة سيده وكأنه لم يكن متواجدا في هذه الدنيا يمشي في خيلاء ويملأ صوته الفخيم كل الآذان.

حين شاهد الشطنوفي جحافل الأمن تترنح ثم تنيخ تمامًا تحت أقدام الغاضبين، أخذ حقيبة ملابسه، ودلف نحو محطة مترو «محمد نجيب» وهبط في «محطة عبود» ليدس جسده في «ميكروباص» إلى قريته شطانوف بالمنوفية.

لم يفعل شيئًا طيلة أسبوعين سوى تحريك أصابعه على «الريموت» متنقلا بين الفضائيات، ووجه حسن يطارده أينما ذهبت عيناه؛ ليجد نفسه يقف صارخا في قلب الغرفة التي أغلقها على نفسه، ويبصق على الشاشة. وقع بعض البصاق على لحيته التي استطالت، فمد طرف قميصه ومسحه دون اعتناء، ثم انخرط في بكاء حار.

شعر أن كل شيء يغور من حوله، وأن دنيا تذهب وأخرى تجيء، وامتلأت ذاكرته بزخم ما قرأه ذات ليلة عن الأيام التي يداولها الله بين الناس، وكان ينظر إلى سيده ومَن حوله فلا يتذوق ما قرأه ولا يدركه. الآن أدرك كل شيء. جاءت الضربة من حيث لا يدري سيده وزملاؤه المنتفخون غرورا. كانوا يتصرفون وكأن الدنيا قد نامت تحت أقدامهم إلى الأبد، والآن انكمشوا في جحور تنام على أجسادهم المهيضة، وشيخوختهم التي طالما أخفوها خلف طلاءات ومساحيق وصبغات زائفة.

وسأل نفسه في مرارة: أين أنت يا سيدي الآن في هذه الهوجة الكاسحة؟ وأطرق برهة ثم ملأه يقين بأن سيده يجلس الآن في مكان وثير، أمامه أوراق

وهواتف لا حصر لها، يخطط ويدبر ليحتوي كل شيء، ويعيده إلى قبضة يمينه، ثم يهديه إلى مخدومه الذي منحه كل قدراته على صناعة الإفك.

أسبوعان وهو قابع في غرفته، فلما سمع تخلي الرئيس عن سلطانه هام على وجهه في الحقول. يمر على الناس تائها، لا يلقي عليهم سلاما ولا كلاما، يجلس على ناصية حقل أبيه المنحسر بين الحقول، ويرمق من طرف عينيه بعض الفلاحين المنكسرة ظهورهم نحو الأرض وفي أيديهم تلمع الفؤوس، ويقول لنفسه من جديد: قد أعود قريبا لأغرس رأسي في هذا الطين حتى توافيني المنية.

ولما اتخذت السلطة قرارا بحل غرفتي البرلمان المزيف اهتز تحته التراب وثار غبار كثيف على نفسه فزادها اكتئابا، لكنه سرعان ما التقط أنفاسه المبهورة، واستعاد بعض سكينته وهو يقول: في النهاية أنا مجرد موظف، لن يتخذ أحد قرارا بحلي وإجباري على المغادرة كما فعلوا مع النواب القادمين بالتزوير، سأصبر وأرقب كل شيء، ولن أعدم وسيلة وصول إلى سيد جديد، ومَن يدريني لعله يعاملني أفضل من سلفه، ويفتح أمامي أبوابا مغلقة. المسألة لن تكلفني سوى اختباء لأسابيع قليلة ثم العودة بوجه جديد وكلام مختلف.

وقهقه حين استعرض وجوه مَن تسلموا الحكم، وقال لأخته الكبرى هازئا: نادوا بإسقاط النظام ثم سلموه السلطة من جديد. وفهم سريعًا أن كل ما جرى هو ضخ دماء جديدة في شرايين العسكر، الذين كان سيده يقول عنهم: جوهر الحكم في أيديهم، وجميعنا يدور حولهم، ويأخذ بقدر ولائه لهم واقتناعهم به.

وأثناء ما هو غارق في هواجسه التي لا تنتهي رنَّ الهاتف وظهر على شاشته رقم غريب. ضغط الزر فجاءه صوت سيده يأمره أن يأتي إليه بسرعة، وأعطاه العنوان، فجرى إلى دولاب ملابسه وارتدى أفخم ثيابه، وهو يشعر أن عافية قوية تدب في جسده، إلى درجة أنه نسي أن شيئًا كبيرا قد وقع، وتوهم أن الأمور عادت إلى ما كانت عليه، فأمسك بكتفي أخته وقال لها:

- ألم أقل لك إن سيدي الماكر سيحتوي ما جرى ويعيدنا إلى ما كنا عليه.

لكن كل هذه الأوهام تساقطت تحت قدميه حين رأى الكدر في وجه سيده، وحين تأكد أن الرجل غير قابض على أي يقين، إنما فقط يحاول ويحاول، متكئا على أن مخدومه قد أبرم صفقة مع السادة الجدد قبل أن يترجل عن بغلة العرش التي ركبها ثلاثين عامًا، دون أن ينسى أنه ضحى ببعض رفاقه حتى ينجو بنفسه.

قرب منه عاطف وقال له:

- حان وقت الرد على ما جرى.

هز رأسه دون أن يتكلم، ووضع كل جهده في أذنيه، وأصاخ السمع:

- لم نفقد التوازن، بل كنا نبتعد مسافة حتى نرى الصورة كاملة، ونعرف أسباب

ما جرى وإلى أين ينتهي بنا.

ثم فتح حقيبة ملقاة بجواره وأخرج مظروفا محشوا بالنقود، ومده إلى عاطف وقال:

- أريدك أن تدفع لشباب من أي مكان، وتكوِّن مجموعة قوية تحشدها لتنادي بعودة الرئيس.

ثم مد يده إلى جيبه وأخرج ورقة مطوية، وأعطاها له وأوصاه:

- فيها شعارات اذهب إلى خطاط ليكتبها على لوحات عريضة، وفيها هتافات يمكن أن تستخدموها في المظاهرة.

ثم نظر مليا إلى وجه عاطف، الذي بدأ يتسرب إليه قلق بدَّد شحنة التفاؤل التي اختزنها حين سمع صوت سيده، وقال:

- لا تستهن بما ستفعله، إنها النواة الصغيرة التي ستكبر مع الأيام ويضاف إليها كل ما سينزفه المتمردون علينا.

ثم أخرج من جيبه صورة فوتوغرافية، ومدها إليه وقال:

- هل تعرف هذا الولد؟

زفر عاطف:

- العميل الخائن حسن عبد الرافع.

ابتسم من طرف فمه في غيظ:

- لكنه شعلة نشاط يثير الحنق. أريدك أن تكون مثله، لكن في الاتجاه المضاد.

وسادت لحظة صمت حاول خلالها عاطف أن يفتح نافذة ليخرج الغيظ من شرايينه، ثم تنهد بعمق شديد، وهو يسمع صوت سيده يقول:

-أصوات أمثال هذا الولد لا بد أن تصمت إلى الأبد.

33

تنظر طويلًا في صندوق القمامة لكنها لا تراه. أيمكن أن يكونوا قد رموا جثته هنا بين العفن الطافح والأشياء الفائضة التي لا يعانق بعضها بعضا أبدًا؟ جالت على صناديق كثيرة لكن لم تره. كان عائلها الوحيد في شيخوختها الواهنة فحلت مكانه هذه الصناديق. علب الحديد الضخمة المحايدة التي لم تشمئز يوما مما يلقى بجوفها وقبلته راضية، أصبحت الآن المصدر الوحيد لعيشها.

تدس يدها المعروقة فتخلط خارطة الزمن المرسومة على ساعدها بكل شيء. قطع من الزجاج والفخار المكسور المسنون، بقايا طبيخ وأرز وعظام خراف وماعز وبقر وطيور وقشر بيض. أغلفة كل البضائع التي تهضمها بطون الناس أو تغسل أبدانهم وتعطرها. قطع ملابس مهترئة وأكياس بلاستيكية سوداء وبيضاء. تهمل كل هذا وتصوب عينيها نحو كسر الخبز اليابسة فتلتقطها بمهارة، وتلقي بها في جوف جوال صغير، تسحبه على الأرض في أناة، متنقلة بين الصناديق التي لا تعبأ بها.

هذا صار مصدر رزقها منذ أن غاب حفيدها. قال لها إنه ذهب إلى ميدان التحرير، ونهرته وقلبها منقبض، لكنه تحايل عليها. اقترب منها وقبَّل رأسها الملفوف في طرحة سوداء ناعمة الملمس، وقال لها:

- عاوز أشارك في الثورة.

أطرقت برهة وقالت له:

- روح وتعالَ بسرعة.

هكذا قالتها بعد أن لان قلبها له، وكأنها تدعوه للذهاب إلى المقهى كعادة كل مساء ليروِّح عن نفسه بعض الوقت في نهاية ساعات طويلة من المكابدة والكدح في مطعم «العصر الجديد». كان يتنقل بين طاولات الزبائن في رشاقة عجيبة، حاملا على كفيه صواني يتصاعد منها بخار لينشر روائح شهية في جنبات المكان.

كان يدور كالنحلة وتحيط به البطون الجائعة حين علُقت عيناه بشاشة التلفزيون التي تتدلى من السقف ورأى كل شيء. أجساد ممشوقة، ووجوه مسحوبة، وعيون تلمع بالأمل، لفتيةٍ يشبهونه تمامًا، فأراد أن يكون بينهم، وهو ما كان.

ذهب ولم يأتِ، ولا يوجد حتى الآن مَن يعرف شيئًا عنه. شهداء ذكرت الفضائيات أسماءهم ونشرت الصحف أسماءهم، غيرهم لم يذكرهم أحد لكن أهلهم تعرفوا على ملامحهم الراقدة بسلام في الثلاجات القاسية.

انتظرت ومرت عليها ليالٍ ثقيلة، لا يخفف عنها سوى فسحة الأمل التي تحطها على رأسها مواساة الجارات الطيبات. لم تذهب إلى ثلاجة، ولم تسأل أحدا،

فقط تنتظر، ويحدوها رجاء كبير من آثار حكايات تسمعها من كثيرين رأوه قبل اختفائه.

تذكرها هؤلاء بصدقات جارية، لكنهم كانوا غلابة مثلها، فأعطوها مرة ثم أمسكوا، ونسيها أغلبهم بمرور الأيام فخرجت تبحث عن رزقها في هذه الصناديق. تضع الكسرة فوق أختها حتى تتعب فتعود لتجد من ينتظرها على أول الحارة ليشتري منها الخبز الجاف ليصير طعامًا للطيور الداجنة التي تربيها نساء فوق أسطح البيوت، أو فوق أرضية الشرفات أو تتركها طليقة في الحارات الضيقة بالمناطق العشوائية.

ورأتها كاميرا أحد المصورين الصحفيين فحلَّ جسدها النحيل المنحني على الصفحة الأخيرة لإحدى الصحف اليومية الشهيرة، وملأ عيني صفاء عليوة. اتصلت بالجريدة وسألت المحررة المكتوب اسمها فوق الحوار القصير المفروش تحت الصورة عن العجوز فقالت لها باقتضاب:

- لم أسألها عن عنوانها؟

ولسعتها الإجابة، لكنها كتمت انفعالها وسألتها:

- أين أجريتِ معها الحوار؟

- تحت كوبري في حي زهراء المعادي.

ثم سادت لحظة صمت قطعتها المحررة قائلة:

- هذا مكانها الدائم.

وذهبت في ظهر اليوم التالي وسألت أصحاب المحلات المواجهة لصناديق القمامة، المستقرة في مكانها لا تبرحه، فأبدوا عدم معرفتهم بها. وقال أحدهم مستنكرا وهو يضحك:

- وهل هذه يمكن أن تلفت انتباه أحد؟

غضبت صفاء وقالت له في قرف:

- يجب أن تلفت انتباه الجميع بعد ثورة نادت بالعدل والكرامة.

قهقه وأطلق في وجهها غيظه:

- لمَّا يحصل الأفندية على العدل والكرامة يمكن أن يصل هذا إلى المتسولين.

وسمع الحوار رجل مسن يجلس على «ميكنة حساب» محل عصير ضيق، فنادى صفاء قائلا:

- تعالي يا بنتي.

وبعد أن أنصت إليها جيدًا ابتسم فبانت أسنانه المثرمة وأفصح:

- أعرفها، تشتري كل يوم نصف كوب من العصير، تدفع نصف جنيه، وتمص ما في الكوب بهدوء وتمشي. حاولت كذا مرة أن أمنعها من أن تدفع ثمن ما تشرب

لكنها ترفض في غضب.

- ألم تقل لك أين تسكن؟

- في إسطبل عنتر.

- أريد عنوانها بالضبط.

- لا أعرف لها عنوانا سوى هنا أمام تلك الصناديق.

جالت ببصرها حتى حطَّ على آخر صندوق هناك عند انحناء الكوبري، وقالت:

- لكنها ليست متواجدة الآن.

رد، وهو يلتقط جنيها مده إليه شاب طالبا كوبا من العصير:

- ربما تأتي غدا.

***

مضت صفاء وفي عينيها دموع، وفي رأسها وعد قطعته على نفسها أن تأتي غدا. لكن الغد جاء ليجدها تهرب إلى مكان بعيد، بعد أن صرخت: «اهرب يا حسن. الأوغاد وصلوا إلينا. حاول أن ترجع إلى الصعيد. أنا سألحق بك.. بسرعة يا حسن من فضلك، بسرعة». إلا أن حسن ضاع منها، كما لم تجد أي فرصة كي تعثر على هذه السيدة العجوز، أو بالأحرى ضاعت صورتها من رأسها.

أما العجوز فلم تنقطع بعدها عن الذهاب إلى مكانها المعتاد. تأتي في الضحى العالي وتتجول تحت الكوبري وعيناها ذاهبتان إلى الصناديق المتتابعة في صمت.

كل شيء كان يتواطأ عليها. كسر الخبز راحت تتضاءل، وكأن الناس لم يعد لديهم ما يفيض عن حاجتهم. والأمل في العثور على حفيدها أخذ يغور، وكأنه لم يكن هنا قبل شهور يملأ الدنيا ضجيجا. سمعت كلاما عن شهداء دفنوهم في مقبرة جماعية في الصحراء، لكن ظل هذا مجرد كلام، لا يوجد دليل عليه أمامها، ولا أمام غيرها.

في يوم كانت تقيم ظهرها من جوف الصندوق فلمحت ظهره. كان هو يمشي خفيفا يكاد أن يطير، فلم تستطع أن توصل صوتها الواهن إلى أذنيه. صرخت على ولد كان يمشي وقالت له في استعطاف:

- اجرِ وراء هذا الشاب، وقل له يكلمني.

وهرول الولد إليه حتى صار أمامه، وتحدث بما لم تسمعه العجوز، لكن ما كانت تريده قد تحقق، عاد الشاب مع الولد فتهللت أساريرها مع قدومه. لكن ملامحها راحت تنقبض كلما اقترب، حتى تغضنت بحزن ووجع.

لما وصل عندها، ابتسم لها وقال:

- نعم يا جدة.

نظرت في وجهه طويلًا وقالت:

- لا مؤاخذة يا بني كنت أُشبِّه عليك.

ومضى تاركا دموعها تتساقط فوق بقايا الأطعمة المشرفة على التعفن، ويديها تتساندان على الفراغ، وقدميها تعجزان عن حملها للذهاب إلى محل العصير، بينما نصف الجنيه المعدن يتراقص في جيبها؛ ليرف بعد قليل على رخام بارد لا يدري شيئًا عن اللهيب الذي يستعر في جوفها.

وقال لها رجل عابر للشارع حين استمع إلى حكايتها:

- بدلًا من صندوق القمامة الذي لطخ ذراعيك، هناك صندوق للشهداء يمكنك أن تمدي يدك وتأخذي منه ما يعينك على الحياة.

لكنها كانت ترفض مجرد التفكير في أن يكون قد رحل وصار شهيدا. كلما حلت بخاطرها صورة له وهو مسجى في الثلاجة أو ملقى إلى جوار جدار وعيناه مغمضتان، كانت تطردها فورا، وتحدث نفسها بصوت مسموع:

- هذه الليلة سيطرق الباب ويبكي على كتفي.

لكن الليالي مرت وبابها موصد، والأمل بقي شاردا في كل الشوارع ولم يصعد أبدًا إلى شقتها. وصرخت ذات ليلة في جارتها التي طالبتها بأن تسعى في استخراج شهادة وفاة له، حتى يمكن لصندوق الشهداء أن يمنحها معاشا:

- حرام عليكِ. الغالي حي، ولا تعوضه كل فلوس الدنيا.

في الحقيقة كان لا يمكن استخراج هذه الورقة التي تعلن عن نهاية التواجد على ظهر الأرض والاستقرار المؤقت في باطنها، هكذا فهمت من المعلم بيومي صاحب المقهى الذي كان الحفيد الضائع يجلس فيه. أنصت إليها وقال لها:

-حفيدكِ مفقود.

- لم يمت؟

- لم يسجل ميتا.

- يعني حي؟

- حي يا حاجة حي.

شعرت وقتها أنها صغرت ثلاثين سنة، وخرجت من المقهى تدب على الأرض في حبور طفولي. لكن الخبر راح يتضاءل شيئًا فشيئًا في صناديق القمامة، حتى كانت تعود كل ليلة وليس معها سوى كسرات يابسات ترن في قعر الجوال الصغير. وجاءت النسوة يسألن عندها عن طعام لدجاجهن فلم يجدن سوى القليل، فانصرفن عنها بمرور الأيام، لكنها لم تكفّ هي عن الذهاب إلى تحت الكوبري، حتى وقع ما لم يكن يخطر لها على بال.

كانت تعبر الطريق نحو محل العصير حين لمحت رغيفا يابسا ملقى في وسط

الشارع. ربما سقط من كيس قمامة فلم يُلقِ له صاحبه بالا، ربما هو رغيف جيد سقط من أحد العائدين من المخبز القريب فلم يدرِ به. وسعت من خطواتها، وقبل أن تلتقطه غارت الدنيا تمامًا في عينيها، ومات في أذنيها صرير سيارة لم ترَ لونها، وهي قادمة إليها في نهر الشارع، وسائقها لاهٍ في فتاة شاردة، رحل عنها حبيبها، فتناثر هواه على قلوب كل مَن عرف شيئًا عنه أو عنها.

كان السائق هو خالد السبع......

34

يقف هنا بعمامته الضخمة وينصت إلى هتافاتنا في صبر. صخرة يجري في قلبها التاريخ ويحط على وجهه الشامخ ثم يقف عند أطراف أصابعه الممتدة فوق رؤوس المحتشدين في ميدان التحرير، ويمهله قليلًا حتى يعطي ظهره لمسجد عريق يحمل اسمه تحوَّل إلى مستشفى ميداني للجرحى، إلى جانب المستشفى الثاني في كنيسة «قصر الدوبارة».

لا يدري كثير ممن جاءوا إلى قلب الميدان غاضبين، والفرحة تسكن عيونهم، شيئًا كثيرا عما جرى لصاحب التمثال الفارع الأنيق. إنه عمر مكرم، الشيخ الأزهري الشجاع الذي قاد ثورة قبل أكثر من مائتي سنة من خروج اليافعين إلى الشوارع، لكنه انكسر. نفاه الذي جلس على عرش مصر، وهو يقول للناس: أحبه وأحترمه، وكان يقبل يده ويقول له: يا أبي.

يقف أمامه حسن عبد الرافع ويحملق في عينيه الحجريتين وتدمع عيناه، ويبدأ في مناجاته:

- يا شيخنا النبيل، قل لنا كيف لا نخدع مثلما خُدعت أنت؟

ويتخيل أنه يبتسم له دون أن ينطق بأي حرف من الإجابة المنتظرة، فيبحث عنها في سطور التاريخ. ها هي عمامته مشرعة على أغلفة الكتب تهفهف في عيون الناظرين إليه، الذين يوجهون إليه سؤالا واحدا:

- لماذا لم تجلس أنت يا شيخنا على الكرسي الكبير؟

تعود الابتسامة إلى التمثال الراسخ في وجه الزمن، وتنطق السطور:

- كان السلاح مع المماليك، والشرعية مع السلطان في الآستانة، والنفوذ مع الإنجليز، ومال التجار ينفق لصالح الغريب الذي جاء من ألبانيا لينفيني إلى دمياط بعد أن بنيت له قواعد ملكه.

- كنت إذًا خالي الوفاض مثلنا يا شيخ.

- كان معي الشعب.

- وتركك وحيدا في وجه الريح.

- لقمة العيش أخذت الناس، والدنيا تلاهٍ. والباشا الذي أجلسناه فوق رؤوسنا راح يقلبنا يمينا ويسارا ويزرع بيننا الفتن، ويغري بعضنا بمتع الدنيا، وهناك مَن استجاب له، فلما تفرقنا مدَّ ساقيه وقبض بيده على الملك، وأخرج لنا لسانه.

- لكن الناس عادوا وطلبوا منك أن تقود حشدهم الغاضب نحو القلعة، فلم تفعل.

- ظهري كان قد انكسر، وسنوات المنفى أكلت بعض عزيمتي، وخفت من إثارة الفتن في بلدنا الذي يطمع فيه الغرباء دومًا.

ثم تنهد في حسرة وقال:

- بعد فترة من انفجار الغضب يبرد الناس، أو ينسون، أو تفتر عزائمهم، أو تتفرق مصالحهم، وقد يحدث لبعضهم كل هذا دفعة واحدة، وتبدو أيام الحماس انقطاعا في تاريخ ممتد من الصبر والقبول. جرح في جسد مترهل، سرعان ما يندمل ولا تبقى منه سوى آثار باهتة لا نتذكرها إلا حين ننظر إليه.

- هذا ما يجري لنا يا شيخنا.

- كان يجب أن تقتنصوا كل ما تريدون قبل أن ينفضَّ جمعكم.

أغلق حسن الكتب، وأعطى ظهره للتمثال وأجال بصره في الميدان شبه الفارغ، ووجد نفسه فجأة يغني: «من قد إيه كنا هنا... من شهر فات ولا سنة» ثم طفرت عيناه بالدموع، ورأى في رقرقة الدمع بعض الحروف التي كتبت على قاعدة التمثال:

«اتنين ملهومش أمان... العسكر والإخوان»

***

في الأيام الأولى كان حسن يسند ظهره على تلك القاعدة الرخامية البنية إن اقترب منها وهو يتجول في الميدان؛ ليستريح قليلًا من التعب. يلصق جسده بالصخرة الملساء، ويود لو كان طوله يسمح له بأن يحط رأسه عند أقدام الشيخ الذي يرسل عيونه لتتفحص الواقفين في قلب الميدان.

يشعر حسن أن التاريخ المختزل في كتب المدارس يتمدد ويبدأ في التقاط النثار والتفاصيل التي أسقطها النسيان؛ ليصبح خيطا من الحكايات والبطولات والمعاني، يدخل طرفه في شرايين حسن، ثم يتسرب بهدوء حتى يستقر في كل خلاياه. يخلع نفسه بهدوء من حضن القاعدة المضلعة حتى لا يقلق صاحبها الواقف صامدا في وجه الزمن، ثم يتابع عيون شباب ملتحين ترسل شعاعا من نار إلى رأس التمثال، بينما سواعدهم تكاد أن تهم نحوه لتحطم أنفه، وتُسقط عمامته، قبل أن تقطع عنقه وتهرس جسده؛ ليصبح مجرد أحجار صغيرة يتركونها ملقاة على مداخل الميدان؛ لتختلط في النهاية مع أكوام الحجر والزلط التي جمعها الثوار ليقذفوا بها البلطجية الذين يهاجمون الميدان بضراوة؛ كي يعيدوه إلى سابق خوائه وصمته.

يعطي التمثال ظهره ثم يسير بخطى وئيدة نحو المسجد الذي صار مستشفى. والمستشفى هو صالة المناسبات التي طالما جلس علية القوم فيها يحتسون القهوة وينصتون إلى آيات القرآن الكريم. ويشردون في ذكريات متناثرة عن الراحلين الذين تحمل أسماءهم لافتات مواربة لباب المسجد، تدل القادمين على المكان الذي يقصدونه للعزاء.

يدخل إليها فيواجه صفين قصيرين من أَسِرَّة وضعت على عجل، ينام عليها فتية وفتيات حمل الثوار أجسادهم التي أنهكها الغاز الخانق، أو ثقبها الخرطوش

في شارع «محمد محمود» حيث المواجهات الحامية بين الثوار ومجندي الأمن المركزي الذين يخوضون معركة ضد أشواقهم ومصالحهم وبعض ما يعرفونه عن هذا العالم المتوحش.

سعال حاد، وأنين متقطع، وصراخ فتاة مصابة بهيستريا بعد أن رأت صبيًّا وضيء الوجه يرفرف أمامها قبل الغياب الأبدي، ورجل في الخمسينيات من عمره يكشف ظهره ليظهر للآخرين عشرات الثقوب التي زركشت جلده بألوان مختلفة الاحمرار. أحمر يميل إلى السواد عند مركز الثقب، حوله أحمر قان، ثم أحمر خفيف ينداح ليصل بمثله يحيط بثقب مواز أو مجاور.

غطى الرجل ظهره ثم جلس يحملق في تقاسيم المشربيات العتيقة ويمعن النظر في الخطوط الفنية البديعة لآيات القرآن. حين اقترب حسن منه، مد إليه يده وقال:

- أنا مدرس تاريخ.

- أهلا بالمعلم الفاضل، والثائر العظيم.

مصمص شفتيه وقال:

- طالما شرحت لتلاميذي سيرة من سُمِّي هذا المسجد باسمه، ولم أكن أحسب أنه سيرى يوما ظهري المثقوب، ويسمع أنيني، ويعرف لهفتي وحزني.

وسمعه شاب يفرد ساقه على السرير وبها سحجات وتسلخات ورضوض فقال:

- طالما شهد هذا المكان تشييع جنازات علية القوم. ها هي الثورة تُمكِّن الفقراء من أن يموتوا فيه، لكن جنازاتهم ستخرج من الحارات الضيقة.

ثم قهقه، ومصمص شفتيه، وباح في أسى:

- كلٌّ يخرج من مسقط رأسه، لكن الأرض واحدة، والدود لا يفرق بين مَن مات من فرط الجوع ومَن قتلته كثرة الطعام ودسامته.

وهز مدرس التاريخ رأسه ونظر نحو الشاب وقال:

- الدود لا يُفرِّق لكن التاريخ يفرق.

فقال الشاب وهو يقهقه مرة أخرى:

- التاريخ يكتبه المنتصر... في كل الأحوال تاريخنا كُتب بمحابر السلاطين.

وجال حسن ببصره على الوجوه التي كفَّت الأفواه المحفورة فيها عن الأنين، وراحت الآذان تنصت إلى ما يجري، وقال:

- أنتم الذين تكتبون التاريخ الحقيقي.

زفر الشاب غاضبًا:

- نحن نصنع التاريخ ويكتبه غيرنا.

فتدخَّل المدرس:

- ذاكرة الناس تمجِّد مَن تهواه.

ثم نظر مليا في المنمنمات التي تسكن في هدوء على صفحة السقف العريض وقال:

- هذا المسجد سُمِّي على اسم رجل يحسبه كثير من المهزومين، وعلى بعد أمتار من هنا، هناك تمثال له في ميدان ثورتنا، وهو أكبر الميادين في بلادنا. ومَن خانوه لعنهم الناس، ولم تُقم لهم النصب التذكارية.

قهقه الشاب:

- والتاريخ أيضًا خلَّد الباشا الذي نفاه.

أومأ حسن برأسه، وقال وهو يهم نحو الخارج وبعض بصره يرمق الميدان الذي يغصُّ بالبشر:

- تضاربت الأقوال في الباشا، بين مدح وقدح. أما عمر مكرم فلم يذمه أحد.

ثم دفع قدميه خارجا، فلفح وجهه هواء بارد، وجاء إلى أذنه هدير الهتافات التي كانت تتخالط في الميدان، وتمتزج بالخطب التي يطلقها الواقفون على المنصات فتتعارك مكبرات الصوت في الهواء الطلق، ويتدفق الكلام الحار إلى كل الشوارع الخارجة من الميدان.

مشى حسن صوب الأجساد المحتشدة، لكنه وجد نفسه ينحرف إلى اليسار قليلًا، ويهم باتجاه التمثال الواقف تحت عمامة تبدو في استدارتها صورة مصغرة من ميدان التحرير. فلما وصل عنده رفع رأسه وحط عينيه في المقلتين الحجريتين وقال له بصوت تخنقه الدموع:

- بِمَ تنصحنا يا شيخنا؟

لكن الشيخ كان مشغولا بالنظر إلى طفل صغير سحب يده من يد أبيه ورفع علما في وجه الريح وهو يصرخ:

- يحيا الشعب ويسقط الخونة.

فجأة ظهر الشيخ رأفت مغازي هناك في أيمن التمثال، فرمقه حسن بسرعة وأعاد النظر نحو صاحب العمامة الثابتة ليجد قسماته قد كساها ضيق وتبرم. ثم شعر أن اليد الممدودة عن آخرها كأنها تريد أن تقبض على رقبة مغازي الذي كان يلوح بيديه للمحتشدين، ويُثقل مشيته غرور طفح احتقارا في عيون كل الذين يتابعونه من الجهات الأربع.

35

على يسار تمثال عمر مكرم بالضبط وقف سعد الزايط أمام «نصبة الشاي» التي جهزها على عجل. يضع فوق رأسه طوقا ورقيا كتب عليه «شاي التنحي»، لكن العرق وصهد الشمس وغبار الأقدام المحتشدة والبخار الصاعد من الأكواب الساخنة وزفير الزبائن أكل الحرف الأخير بمرور الشهور فصار «شاي التنح»، وكان يقول لكل مَن يسأله:

- كتبتها يوم رحيل المخلوع، واليوم تدل على تلميذه الماسك في الكرسي.

كان سعد يجلس في بيته بجيوب خاوية، ينظر إلى أولاده الضامرين بعينين مملوءتين بالحسرة والخوف، سهر الليل على ناصية الشارع مع سليم فهمان صديقه الدائم، ونام حتى قبيل العصر. ثم قام فزعا حين لكزته زوجته التي طالما أنَّبته لكسله وإهماله. كان يتوقع أن تقول له كالعادة:

- قم اسرح على رزق عيالك.

لكنها قالت له:

- قم شوف البلد ولعت.

وقام يفرك عينيه، نظر إلى الشاشة، فوجد جنود الأمن المركزي يجرون، وشباب يجرون وراءهم، ويتصاعد بين الأقدام دخان وتبدو نار في الخلفية البعيدة تختلط ألسنتها بصياح «الشعب يريد إسقاط النظام».

نظر حوله ليتأكد أنه هنا في شقته، وأن الواقفة أمامه هي زوجته، ثم رمى بصره إلى النافذة ليتأكد أن النهار يغسل الدنيا وأنه ليس في حلم ليل. خطف هاتفه المحمول ورنَّ على فهمان فجاءه صوت يقطعه سعال حاد:

- أنت نائم يا سعد.

- صحيت يا فهمان... أين أنت؟

- في شارع رمسيس.

- أسمع فرقعة عندك.

- ثورة يا كسول.. ثورة.

سكت الزايط، ونظر إلى شاشة الهاتف فوجدها قد عادت إلى حالتها الأولى، أما شاشة التلفزيون فقد بقيت على حالها. صخب ونار ودخان وكر وفر، ومشهد جديد يتشكل أمام عينيه، طار له عقله، فخف جسده ووجد نفسه يندفع إلى الخارج، ويجري يجري إلى أن وجد نفسه على تخوم ميدان التحرير.

كانت الدماء التي سالت قد فتحت الطريق إلى قلب الميدان، فسار حتى وصل إلى الكعكة الحجرية، يحملق في وجوه الناس، وهو يسأل نفسه: من أين أتى هؤلاء؟ ولفت انتباه رجل في منتصف عمره أن وجهه كاد أن يأكله الزايط بعينيه،

فأمسك به وصرخ:

- مخبر؟

والتف الشباب حوله، وأمسكه بعضهم من كل جزء في ثيابه، فدمعت عيناه وتوسل لهم:

- أنا مستغرب، أنظر إليكم طويلًا لأتأكد أنكم مصريون مثلي.

فربت الرجل كتفه وقال لمن يمسكون بتلابيبه:

- اتركوه إنه مثل كثيرين ظنوا أن الشعب قد مات.

عندها ساح في الميدان كما يحلو له بقلب طروب وفم يصرخ بكل ما أوتي من قوة: «الشعب يريد إسقاط النظام». قفز كطفل صغير، والتقط قطعة من الحلوى كانت قد بقيت في قعر جيب بنطاله من الأمس فرماها إلى فمه دفعة واحدة، ثم راح يلوكها على مهل.

دار في كل أرجاء الميدان حتى كلَّت قدماه فدلف إلى شارع التحرير باحثا عن مكان بعيد عن الزحام. وقف أمام مقهى «المشربية» الذي امتلأ عن آخره. جالسون يحتسون الشاي على عجل، آخرون يشفطونه وهم واقفون على أقدام منهكة، ودخان الشّيَش ينبعث من جنبات المكان، والنادل يشق طريقه بين الأجساد بصعوبة وكأنه محصل في أتوبيس ذاهب إلى إحدى المناطق الشعبية المزدحمة بالآدميين المتعبين.

وقف يتأمل ما يجري، ينظر في الوجوه بقوة، حتى كاد الجالسون والواقفون أن يرتابوا فيه. وقبل أن يمد أحدهم يده ويمسك به، دفع قدميه نحو ميدان «الفلكي» وعلى بابه برقت الفكرة في رأسه، فقطع الطريق الخلفي نحو شارع طلعت حرب حتى وصل إلى ميدان الإسعاف، ثم دخل إلى حي «بولاق أبو العلا»، الأماكن التي فتح عينيه فوجدها أمامه تتحايل على الزمن، وتعيد حكي بطولات رجال ذهبوا من قرنين سطروها بدمائهم ضد جنود نابليون وهم يكافحون إلى جانب الحاج مصطفى البشتيلي تاجر الزيت الذي أرهق الفرنسيين هنا في الحارات والعطوف المتعرجة الضيقة. حاربهم أياما بجسارة قبل أن يمسكوا به ويسحلوه هنا على هذه الأرض.

***

الفكرة جاءته حين وجد طوابير تتكدس على باب المقهى انتظارا لدورها في احتساء الشاي أو القهوة. وقال لنفسه: الشاي ويسكي الغلابة، وشعبنا لا يستغني عنه.

وفهم أن الأمر لن يكلفه شيئًا كثيرا. عين تقذف نارا تعتلي أنبوبة بوتاجاز في مطبخ شقته الذي يرعى فيه النمل ويغنم من الطعام الرخيص، وعشرة كيلو من السكر، ونصف كيلو من الشاي، وبستلة مملوءة بالماء العذب، ودستتان من الأكواب الزجاجية، أو من البلاستيك الخفيف، وبضع ملاعق، وطاولة من أي

خشب، وقبل كل هذا الابتسامات المشرقة التي تجذب زبائن يبحثون بأي شكل عن كوب من الشاي الساخن يخفف من وطأة برد الشتاء، ويعين الأذهان الشاردة في كل ما يجري على أن تحيط خبرا به وتتغلب على الدهشة.

في الميدان تتوالى الأسئلة: متى سيتنحى؟ ما الذي سيجري بعد رحيله؟ هل الجيش سيترك قائده يواجه مصيره؟ وهل هو حقًّا معنا؟ وهل يتربص الإخوان بنا ويراوغون كعادتهم ليحصدوا كل شيء في النهاية؟ وكيف نواجه سيل الأكاذيب الذي ينهمر من شاشات وميكرفونات وسطور الإعلام الحكومي؟.. تحتاج الإجابة على كل هذه الأسئلة أكوابا لا حصر لها من الشاي، ويسكي الغلابة، كما يراه المصريون.

لم تمضِ سوى ثلاث ساعات حتى كان له موضع في مواجهة تمثال عمر مكرم، وله موقع في نفوس الباحثين عن رشفات الكيف، وبعض دفء ينبعث من أكواب لم تكن تحسب أبدًا أن الأيدي ستتخاطفها وأن ما بها سيزيد من مساحات الصبر في بعض النفوس القلقة، ومساحات الغبطة في النفوس التي أقامت في جنباتها الكآبة عقودا من الزمن.

وشاع في الحواري التي يقطنها أصحاب الزايط أنه يقف في ميدان التحرير، يوزع الشاي بيمناه والثورة بيسراه. يهتف ويدق الهواء بقبضته ثم يفردها بسرعة رهيبة ليلتقط الأكواب ويوزعها، وبالخفة ذاتها يجني النقود ويدسها في جيب بنطاله. وتوالى هؤلاء الأصحاب على الميدان في الأيام التالية، يهتفون ويبيعون أشياء مختلفة، كشري، حلويات متنوعة، سجائر، بطاطا ساخنة، حمص الشام. بعضهم جاء بمئات «الكمامات» ليوزعها في أيام ضرب الغاز الخانق، يجري بين المختنقين وهو يسعل ويصرخ فيهم:

- كمامة بجنيه.. كمامة بجنيه.

كان الزايط يقف على قدميه نحو عشرين ساعة، يصل الليل بالنهار، وحين يُثقل النوم كاهله يسير الهوينى نحو مسجد عمر مكرم، وتحت أي جدار أو عمود يلقي جسده، بعد أن ترك نصبته لصديقه فهمان، الذي كان يقول له دومًا:

- ثورات قوم عند قوم فوائد.

حين تنحَّى الرئيس رقص الزايط ساعة، وظل يبيع الشاي حتى مشارف الصبح، ثم حطت الشمس على رأسه فلمعت دموعه في خيوط الذهب، وشعر بانكسار وغربة. وقال لفهمان وهو يمصمص شفتيه:

- انتظرت يوم الرحيل بفارغ الصبر، فلما جاء انقبضت نفسي لرحيلي أنا من هنا.

لكن الميدان راح يمتلئ بمظاهرات ضخمة في أيام جمع متعاقبة، كلما أعلن عن واحدة منها حمل طاولته وصندوقه الذي يحوي كل ما يلزم لإعداد الشاي، وجاء إلى هنا، حيث المكان الذي رسم حدود رقعته بأصابع قدميه. يقف ويصرخ

من جديد: شاي... شاي يا شباب الثورة.

ومع الجُمع المتكررة، وغلق المعتصمين للميدان، وجد الزايط مكانا دائما له. وجاء ذات ضحى بقوائم حديدية ودقها في الأرض وفرش عليها خيمة ليتحول المكان إلى مقهى صغير. وكان يجري مع المعتصمين لإغلاق الميدان كلما حاولت الشرطة فتحه أمام المارة. وأنصت طويلًا إلى الحوار الذي يدور بين المتحلقين حوله وأكواب الشاي الساخن في أيديهم، وأدرك منه أن جزءا من غضبهم منصرف إلى أمثاله من الفقراء والمعدمين فآمن بما يقولون، وكان يقول لزوجته حين يذهب إليها بين حين وآخر:

- أنا من الثوار.

وكان الزايط يتحرك إلى الشوارع الجانبية التي شهدت اشتباكات على مدار أيام متقطعة بين قوات الأمن والثوار حاملا صينية كبيرة، رصَّ عليها أكواب الشاي. يشق طريقه بين الأجساد المتدافعة دون أن يسقط أو يهتز، وهو يوزع الأكواب الساخنة، ويجمع النقود. يلتقط الجنيه ويلثمه بشفتيه ثم يضعه على جبهته، ويلقيه في جيب صغير شقه في مريلة بيضاء اشتراها في إبريل حين عاد الناس إلى الميدان بعد استراحة استمرت خمسين يوما؛ لأنهم لم يجدوا شيئًا مما طلبوه قد تحقق، بل كانت الأمور تزداد سوءا، ورجوعا إلى الخلف.

مرة واحدة سقطت الصينية من الزايط، حين اصطدمت به دراجة بخارية من تلك التي أحضرها الشبان لنقل جرحاهم وشهدائهم من الخطوط الأمامية للالتحام ضد قوات الأمن. كان الشاب يضغط على بدال الوقود ليمرق من المسرب الذي صنعته له الأجساد المحتشدة متجها إلى المستشفى الميداني بمسجد عمر مكرم، وأمامه تجلس صفاء عليوة فاقدة الوعي تمامًا.

36

لم يكره سباعي الدغل أحدا في حياته قدر كراهيته للمقدم سيف عبد الجبار، الذي أدخله إلى دنيا لم يكن يريدها ولا يتخيل أنه سينزلق إليها فيعيش بضمير معذب، ونفس لا تكف عن الرغبة في الانعتاق والانتقام.

كانت حياة الدغل تسير هادئة وهو يرفل في فتوة ظاهرة، شهد لها كل أهالي حي المنيب، وجعلت كثيرين يستعينون به في إنجاز الأعمال الشاقة. حمل أمتعة ثقيلة إلى الأدوار العليا، تحميل كراتين القيشاني في سوق الثلاثاء، دفع سيارة تعطلت بطاريتها.وفي المشاجرات التي تشتعل كل يوم تقريبًا كان يدخل بين المتعاركين فيتوقف الشجار؛ لأن مَن يرفض التوقف عن ضرب خصمه سيصبح في لحظة عدوًّا للدغل ووقتها عليه أن يتحمل وزر حماقته وطيشه.

في ليلة وقع شجار وتدخل الدغل كعادته، لكن أحد المتصارعين سبَّه حين جذبه من طرف قميصه، فقال له الدغل أمام الناس:

- الله يسامحك.. روح لحالك.

لكنه عاد وسبه، وبصق عليه ثم صفعه على وجهه، فرفعه الدغل إلى أعلى ورماه على أرض الشارع الصلبة، ثم راح يركله بقدميه، ومد يده وسحبه من عنقه، وصوَّب إلى وجهه عدة لكمات، فسقط مغشيا عليه. وفي المستشفى اكتشف الأطباء أن الدماء تنشع من أحشائه وتنداح تحت جلده، فصرخ أحدهم:

- نزيف داخلي حاد.

أدخلوه إلى غرفة العناية المركزة، وحاولوا إسعافه لكنه لفظ أنفاسه الأخيرة، فتلاحقت أنفاس الدغل بين أسوار السجن عشر سنوات، وفسد كل شيء.

لا ينسى الدغل أبدًا رأفت مغازي، السجين السياسي الذي كان قليل الكلام، يرى دومًا على شفتيه ابتسامة لا تنفرج لها شفتاه، وفي عينيه غموض مريب، رغم أن ملامحه تحتفظ بثبات ظاهر يجعلها تبدو مطمئنة راضية لكل مَن ينظر إليه سريعًا.

جيء بمغازي إلى الزنزانة التي حل بها الدغل، فقضى مع الجنائيين شهرا كاملا، حين عاقبته إدارة السجن على تهريب مقالات إلى بعض صحف المعارضة مع بعض زائريه، عما يجري وراء الأسوار.

كان بالنسبة للدغل عالما جديدا لم يألفه، فاقترب منه لينهي مساحة الغموض مع أمثاله، الذين كان يرى بعضهم وهم يعبرون الطريق على عجل موزعين ابتسامات خاطفة على الجالسين.

أحدهم استأجره يوما ليحمل له متاعا إلى الدور التاسع، لكن ساعة واحدة انهمك الدغل خلالها في تجفيف عرقه لم تكن كافية للحكم على هذا الرجل، الذي يعرفه الناس في الحي كله بأنه من جماعة «الإخوان المسلمين».

وكان الدغل يسأل نفسه دومًا:

- ألسنا نحن أيضًا أخوة مسلمين؟

لا يدري متى سمع هذا السؤال، ربما انطلق في مقهى ما، مختلطا بنقرات النرد ونشيش الماء واصطفاق أوراق الدومينو. ربما من فوق منبر أحد المساجد ممتزجا بهمس التسابيح وصوت الدعاء. ربما تلفظ به عابر لا يعرف مَن هو؟ ولا إلى أين ذهب في هذه الحياة القاسية؟

عبارة انحفرت في رأسه، لا ينساها وسط عبارات أخرى تراكمت كالنفايات، لا معنى لها، هي فقط مجرد كلام يتبعه كلام فتمضي الأيام متشابهة.

لم يسألها لرأفت مغازي؛ لأنه أصبح في دقائق سيده الذي يجب أن يطيعه. دخل العنبر متمهلا ليجد في انتظاره عيونًا تقدح شررا، فعرف أن مأمور السجن قد أوصاهم بالتنكيل به. ولما وقعت عيناه على الدغل تفرَّس ملامحه مليا، ثم اقترب منه وهمس في أذنه:

- احمني منهم وسأعطيك مكافأة كبيرة.

فابتسم الدغل وسأله:

- كم؟

- ما تطلبه.

- مئة جنيه في اليوم.

- هذا كثير.

- أنت حر.

- موافق.

ومر الشهر على الدغل كحلم، وعاد مغازي إلى مكانه الطبيعي، ولم يمضِ سوى أسبوعين وخرج من السجن إلى بيته، وانقطعت تمامًا علاقته بالدغل؛ لتبدأ علاقته مع رجل آخر، لم يعطه نقودا لكن منحه وقتا للبطش والقتل بدم بارد. هذا الرجل كان سيف عبد الجبار.

***

المرة الأولى التي رآه فيها، كان جالسا خلف مكتبه بوجه متجهم، وأصابع تنقر الخشب في عصبية، وعينين مملوءتين بالغضب.

كان الدغل ذاهبا لينهي أوراق خروجه من السجن وهو يكاد أن يرقص من الفرح، لكن فجأة مات الرقص داخله وحلت كآبة ووجل، حين قابله وجه متجهم وشفتين مزمومتين في حزم مصطنع، وأنف تحط على طرفه عجرفة طافحة، وعينين باردتين محايدتين.

في هذه اللحظة وقع كل شيء، وصار الدغل واحدا من بلطجية السلطة. قاوم في البداية لكن عبد الجبار حاصره من كل الجهات، وهدده بتلفيق تهم لن

تجعله ينام قرير العين ولو ليلة واحدة. وحين قال له متوسلا:

-غيري كثيرون يريدون هذا.

رد عليه ببرود شديد:

- نحن نريدك أنت.

ثم قام من مكانه ووضع يده على كتف الدغل وقال:

- هذه العضلات المفتولة خلقت لنا، وليس أمامك سوى أن تطيع.

ترك لهم كل بياناته. عنوانه ورقم هاتف المقهى الذي يجلس فيه، وكل الأماكن التي يتردد عليها، وأصحابه المقربون الذين يمكن الاتصال بهم بغية الوصول إليه، ثم أمره عبد الجبار:

- تابعنا باستمرار.

المرة الأولى التي استدعوه فيها كانت خلال انتخابات مجلس الشعب سنة 2005. وقف أمام إحدى اللجان بصحبة مجموعة كبيرة من البلطجية، وصنعوا جدارا بشريا صلدا ومؤذيا منع الناس من التقدم إلى الاقتراع. في الداخل كانوا يسوِّدون بطاقات التصويت لصالح مرشح الحزب الحاكم، وفي الخارج كانت العيون تصطدم بالجدار البشري السميك فترتد كسيرة، وينصرف أصحابها محسورين.

مع الأيام انفصل الدغل عن سيف عبد الجبار وأصبح فردا في مؤسسة غريبة، تضم أرباب السوابق وأصحاب العضلات المفتولة، يقودها ضباط كبار، ويوجهونها كيفما أرادوا، وفي الوقت الذي يحددونه.

جاءوا به مرات عديدة للوقوف على تخوم المظاهرات الصغيرة المجهدة مع مجندي الشرطة، الذين يرتدون الزي المدني. كان ينظر إلى العشرات الذين يتقافزون في الشوارع ويضحك في داخله.

يوم انطلاق الثورة دفعوا به إلى ميدان التحرير قبيل منتصف الليل. جاءه صوت زاعق من قسم شرطة العمرانية:

- تعالَ حالا.

وذهب لينضم إلى عشرة من أمثاله أخذهم ميكروباص إلى مبنى وزارة الداخلية فوجدوا المئات في انتظارهم. وجاءتهم الأوامر:

ـ في التحرير عيال «سيس» عاوزين نؤدبهم.

استحضر كل منهم طاقته في ذراعيه، ومضوا قطيعا من الأجساد الصلبة الراسخة نحو الميدان. دخلوا من شارع التحرير، وحين وصلت عيونهم إلى الميدان ارتدَّت إليهم مذعورة. وقال أحدهم:

ـ فهمنا من كلام الضباط إن الميدان به مئة متظاهر على أقصى حد.

فرد عليه آخر:

- الأمر مختلف هذه المرة.

وقال ثالث:

- لو اشتبكنا معهم سيأكلوننا.

ورفع الدغل بصره فرأى شبابا يسيرون نحوهم حاملين على أكتفاهم شابا واضح القسمات وجهه مملوء بالحماس، وحنجرته تصرخ: «الشعب يريد إسقاط النظام».

كان المحمول على الأعناق هو حسن عبد الرافع، الذي لا يعرف الدغل لكنه يعرف أمثاله، بينما الدغل لا يعرفه ولا يعرف أمثاله.

نظر الدغل إلى وجه حسن بإمعان، والعرق يلمع على جبهته رغم برد الشتاء، واستغرب هذا الشاب الذي ينبح حسه من أجل شيء اسمه «النظام»، وسأل نفسه: مَن هذا النظام الذي يريدون إسقاطه؟ وتعجب من هذا فقد تعود في حياته كلها أن «النظام»أمر حميد، ويتذكر جيدًا أن أباه كان يلوم أمه دومًا ويقول لها حين يدخل البيت فيجد أشياءهم مبعثرة: النظام حلو يا أم العيال. فهل هؤلاء الصبية يريدون الفوضى والهرج والمرج وبعثرة الأشياء في كل مكان؟

وقف على جانب تجمع زملائه من البلطجية، ووضع يده في جيبه ليتحسس ثلاث ورقات فئة المئة جنيه، قبضها أمام وزارة الداخلية من أحد رجال الأعمال، الذي قال لهم وهم يزحفون نحو الميدان:

- لما تخلَّصوا المهمة لكل واحد فيكم مبلغ مثل الذي أخذه.

ركب سيارته الفارهة وانطلقت نحو ميدان لاظوغلي، وغابت في انحناء شارع نوبار متجهة إلى مكان لا يعرفونه، بل إنهم لم يتعرفوا على الرجل نفسه. ولم يسألوا أنفسهم مَن هو، فقد اعتادوا منذ أن أجَّروا أجسادهم للسلطة أن يأخذوا الأوامر والأجر مغمضي العيون. ذات مرة سأل أحدهم عن اسم مَن وزَّع عليهم النقود ففزع فيه أحد الضباط وقال غاضبًا:

- لا تسأل عن أشياء لا يجب أن تعرفها أبدًا.

لكن هذه المرة سمع الدغل الرجل الذي ركب السيارة الفارهة يسأل سائقه النحيف:

- أين عاطف الشطنوفي؟

فتلفت السائق حوله ماسحا كل الوجوه في ثانية واحدة، ثم قال:

- كان هنا من دقائق يا أفندم.

لكن الرجل المنتفخ لم يعنه أن يطرح مزيدا من الأسئلة عن الشخص الذي يطلبه؛ ليبقى صاحب هذا الاسم مجهولا بالنسبة لسباعي الدغل، لكن إلى حين.

37

كانت حنان المنشاوي تتنقل كنحلة بين أسرَّة المرضى حتى نضح النور من الثقوب الضيقة التي تَخِزُ رقعة النوافذ في العنابر الوسيعة وحط على جفون تتململ إعياءً، وأفواه تطلق أنات متقطعة تدور في جنبات المكان ثم تتسرب إلى قلبها فتجري باحثة عن مسكنات.

ما إن انتهت ورديتها حتى أسرعت الخطى إلى شقتهم البسيطة الكائنة في حي «دار السلام». في طريقها مرَّت على المخبز فاشترت خبزا ساخنا، ثم إلى عربة الفول الواقفة على ناصية الشارع فاشترت بجنيه واحد، يكفيها هي وأمها الأرملة لزوج رحل مبكرا. بعدالإفطار دخلت إلى مخدعها وأغمضت عينيها وراحت في سبات عميق.

هكذا تمضي حياتها رتيبة لا شيء جديد فيها، متقلبة بين ورديات الصباح والمساء والظهيرة. زهدت في كل شيء بعد خطبة دامت ثلاث سنوات لشعبان النمر انتهت بمأساة، تحملته كثيرا وانتظرت أن يهتدي إلى عمل يساعده على أن يقيم حياة أسرية مستقرة. كان يشيح عنها بوجهه كلما طلبت منه أن يبذل جهدا أكبر في سبيل تغيير حياته.

وغيَّر شعبان حياته فعلا لكن إلى الخلف. حام حول قسم الشرطة والتقطوه ليعمل مرشدا للمباحث. وكانت أول إخبارية في حياته عن حسن عبد الرافع. كان حسن يقطن وقتها شقة صغيرة مع زملاء له، يجلس في المقهى يسخر أمام الناس بصوت مرتفع من أهل الحكم، ويحرض الناس عليهم.

لم يكن أحد يعرف عن شعبان شيئًا إلى أن تم اعتقال حسن، فبان للناس الأمر رويدا رويدا. خرج حسن من المعتقل وقرر أن يبتعد عن حي دار السلام كله ويتركه لشعبان، فاستأجر شقة صغيرة في حي المنيل، وخلعت حنان الدبلة ورمتها في وجه المخبر؛ لتبقى في نفسها مرارة من عواقب السياسة وألاعيبها.

لم تكن تعرف أن هناك مَن يدعو لتنظيم مظاهرة كبيرة يوم 25 يناير، فالشوارع والحارات كانت أمامها ساكنة كعادتها، وأنين المرضى ينبعث برتابته التي ألفتها وتعايشت معها، وما كان يتم في العالم الافتراضي لم يكن يخصها أبدًا؛ فهي لا تقتني كمبيوتر في بيتها، وليس لديها حساب على «فيس بوك» و«تويتر» ولا حتى «بريد إلكتروني»، ولهذا كانت الأمور تجري بعيدًا عن سمعها وبصرها ولمسها، إلى أن تمدد كل شيء أمامها، سمعت وأبصرت ووضعت كفها لتضمد جراحًا، بل وجدت نفسها لأول مرة تحتضن صبيا وروحه تتسرب منه إلى أن كفَّ قلبه عن الخفقان، وخمد تمامًا.

- لِمَ كل هذا؟

سألت الطبيب، فابتسم في مرارة وقال لها:

- رئيس يأمر زبانيته بقتل شعبه.

في اليوم التالي قدَّمت طلب إجازة، وقالت للطبيب:

- مكاني في ميدان التحرير.

وذهبت تتحسس خطاها إلى عالم جديد.

أيام قليلة وكل أطباء الميدان وجرحاه عرفوا حنان المنشاوي. كانت تتنقل بين المستشفيات الميدانية، على ابتعاد المسافات بينها، وكأنها تمر بين أسرة عنبر واحد تحفظ مساحته وتحدها جدرانه، تلملم الأنين في كفيها راضية مرضية.

لمحت ذات عصر شعبان النمر يشق طريقه بين الأجساد فهرعت لتقول للواقفين حوله إنه يتجسس عليهم.في اللحظة الأخيرة أمسكت لسانها، وقالت لنفسها:

- أكل في بيتنا عيشا.

لكنها لم تلبث أن غيرت رأيها، وآمنت أن فضح أمثاله واجب. رفعت عينيها لتتابعه، لكنه كان قد ذاب في الزحام.

لم تكن تغادر الميدان، تبيت وسط زميلاتها، اللاتي يتناوبن على الحضور لكنها هي لا تغيب أبدًا. تختلس دقيقة كل عدة ساعات فتهاتف أمها لتطمئن عليها ثم تعود لتنهمك في مهمتها بكل كيانها. خمسة أيام قضتها لم تنم خلالها إلا بضع ساعات، ومع هذا لم تتأثر طاقتها الجبارة، ورغبتها العارمة في العطاء. وجدت نفسها التي ضاعت منها، وأحست لأول مرة بمعنى الأغاني التي كانت تقتحم أذنيها في المناسبات الوطنية دون أن تتوقف عندها.

وقالت لزميلة لها وهي تكفكف دموعها:

- لم أكن أعرف أنني أحب البلد إلى هذه الدرجة.

وها هي تكرر الجملة مع نفسها حين تزحف ببطء على سريرها محاولة أن تذهب إلى الحمام، بينما الوجع الضاري ينهش عظامها.

***

ذهب الميدان وبقي عجزها وأنينها، يطاردها شعور طول الوقت أن رصيدها من القدرة على العطاء نفد في أقل من أسبوع. فرغت كل طاقتها على ضفاف الجروح الطازجة والسحجات الطرية والرضوض المتورمة، ولم يعد بإمكانها سوى أن تشرد وتستعيد اللحظات التي توالت كحلم ثم تنخرط في البكاء.

لم يعد أحد يسأل عنها. نسوها في زحمة الأحداث، كما نسوا أمثالها الذين جاءوا دون تدبير من أحد فزلزلوا الشوارع ثم انسحبوا تباعا، وفي هدوء.بعضهم جنى خسارة في جسده لكن روحه تعافت واحتشد رأسه بما يستحق أن يستدعيه في أي يوم، ويحكيه لأولاده وأحفاده في الأيام التي ستأتي.

لا تنسى حنان هذا اليوم الصعب الذي انتهى بمجيئها إلى هنا لتروض الوقت وتداوي نفسها بآمال لا تعرف مصدرها. كانت تجلس القرفصاء وتداوي جراح شاب نحيل شج رأسه أحد البلطجية بقطعة من القيشاني المسنون في معركة الجمل. كان دمه ينزف بقوة ووجهه بدأ يتشرب بصفرة غائمة، وبهتت عيناه. راحت حنان تسابق الزمن كي تنقذه، سكبت «الميكركروم» على الجرح، وأعطته حقنة لوقف النزيف، ورشت جبهته بماء بارد، ومدت كفيها تدلك عضلة القلب، ثم هاتفت الطبيب ليرسل الإسعاف على وجه السرعة.

انغمست في الحالة التي أمامها، ونسيت كل شيء، الميدان تحول بالنسبة لها في هذه اللحظة الخاطفة إلى مجرد سرير في مستشفى، وكل مرضاها هذا الشاب النحيل الذي تترنح الحياة في دمه بهدوء عجيب. لم تدرِ شيئًا عن تراجع الثوار إلى الوراء مؤقتا أمام هجوم مباغت عنيف للبلطجية، فبقيت وحدها معزولة عن أي سند، في وجه ثلاثة رجال غلاظ شداد يحملون في أيديهم شومًا، وفي عيونهم شرًّا. كانوا يسرعون إليها قاصدين الشاب الملقى على ظهره، أرقهم ليلة كاملة بخفة جسده وبسالته، وأمطرهم بأحجار كثيفة فجرح منهم كثيرين.

حفظوا وجهه في بقعة الضوء التي كان يأتيها ويذهب منها عند «المتحف المصري»، فلما انبلج النهار، تركوا كل شيء وقصدوا إيذاءه، رماه أحدهم وانبجس الدم من رأسه ثم هجموا عليه بغلٍّ شديد، فرمت حنان جسدها لتغطي بقايا لحمه وعظمه، وصدَّت عنه ضرباتهم المتوحشة، وحين رأى الثوار المشهد ازدادوا حماسة فأقبلوا عليها بهجوم مضاد، تمكنوا فيه من أن يكسحوا البلطجية إلى الوراء ويخلصوها من تحت عصيهم القاسية الغليظة.

أنقذوها من موت خاطف ليتركوها لموت يأتي على مهل، مفعما بالحزن والألم والذكريات الغاربة.

تتقلب ببطء على سريرها، في محاولة لقضاء حاجتها، وأمها واقفة أمامها بإناء بلاستيكي أسود، وعيناها تذرفان دمعًا ساخنًا، وعلى شفتيها دعاء سخي، يرطب القديد المر والجفاف الذي يتوغل عميقا في حلقها.

قالت لها مرة:

- بعت نفسك ، ولم يأتِ إليك مَن يشتري.

احتقن وجه حنان وكتمت نشيجا، راح يمزق روحها والدم يتخثر على لسانها، ثم انفجرت:

- كنت أؤدي واجبي.

أخذتها الأم في حضنها، وراحت تربت كتفها وتغمس أصابعها في شعرها، مثلما كانت تفعل معها أيام الطفولة، ثم همست في تودد:

- آسفة يا بنتي.

- لست غاضبة منكِ، أنتِ تخافين عليَّ.

شردت الأم برهة ثم قالت:

- لم يسأل عنكِ أحد، لا دولة تعالج، ولا ثوار يعرفون الأخبار، وكأنكِ لم تذهبي أبدًا إلى ميدان التحرير.

- لم أذهب كي أنتظر شيئًا من أحد. كنت واحدة من ملايين يفعلون ما كان يجب عليهم أن يفعلوه منذ سنين. كانت حياتنا سيئة، ولم يترك لنا حكامنا خيارا آخر.

ثم تنهدت وقالت:

- الفساد الذي رأيته يعشش في كل جنبات المستشفى هو الذي حرَّك قدمي إلى التحرير. كنت أنسحق تحت أقدام الجبروت والعفن، وصبرت لأني كنت وحيدة ضعيفة، إلا أن مشهد الثائرين قوَّى من عزيمتي. لم يخذلوني فلم أخذلهم، وكان ما كان.

- لكن أحدا لم يعد يتذكرك. زارتكِ صفاء عليوة وزميلاتها أياما ثم انقطعت، وكأنها أدت ما عليها إلى الأبد.

- حاولت مساعدتي لكن ما بيدها قليل. والمثل يقول «الغايب حجته معه».

ثم شردت في سقف الغرفة وقالت:

- لم أفقد الأمل أبدًا في أنني سأعود كما كنت. الله لن يضيعني، وهم سيأتون في الوقت المناسب ليأخذوا بيدي.

وتنفخ الأم:

- لما فاز الإخوان بالرئاسة قلنا ناس تعرف ربنا وسيتذكرون أمثالك وكل أصحاب الفضل عليهم، لكنهم فرحوا بما لديهم ونسوا الجميع.

- الله أكبر من الجميع، عليه وحده يتوكل المتوكلون.

يخطفها شرود فتسترجع ما قاله الطبيب:

- الضرب القاسي تسبب في ورم على الحبل الشوكي، وتحتاجين جراحة دقيقة.

ويصل إليها همسه لزميله، وهما يظنان أنها لاهية لا تسمع:

- جراحة خطيرة قد تقضي على حياتها أو تبقيها عاجزة. نسبة النجاح ضئيلة، لكنها تحتاج إلى مصاريف باهظة.

لا تفقد الأمل في أنها ستجد مَن يُقدِّر ما فعلته، ويأخذها إلى حيث الجراحة الماهرة، والأطباء الذين يعزفون بمشارطهم على أوتار من لحم ودم وأعصاب، في ثقة متناهية، وشعور بالامتلاء.

قالت لها أمها:

- العين بصيرة واليد قصيرة.

ولم تكن في حاجة إلى مثل هذا القول، فحنان تعرف كل شيء، ويمكنها أن تنسى كل شيء، إلا خمسة أيام عاشتها دون نوم، ومرت عليها كحلم رائع انتهى بكابوس مقبض، ينهش جسدها، ويجعلها تبدو عبئا ثقيلا على الحياة، لكنها لم تندم أبدًا على ما فعلت، وفي عز شدتها جاءها الفرج.

38

يقف خليفة الإسناوي كالعصا وقد جفَّ ريقه، ونشب الجوع مخالبه في مصارينه لكنه يتلهَّى عنه، يطارده ويطرده. ممشوق كهراوة الفأس التي تركها وحيدة في صحن الدار الضيق يأكلها الصدأ، بينما تأكل الشمس هنا قفاه النحيل. عيونه مصوبة إلى الصفوف الأمامية التي تتراص عند مدخل ميدان التحرير من ناحية شارع قصر العيني. شباب في عمر الزهور، يمسح وجوههم في سرعة خاطفة، ثم يحط بصره على وجه الولد الواقف في المنتصف يرتدي فانلة يتخالط فيها الأحمر والأبيض، ويغمس رأسه في قعر ذاكرته لعله يعرف أين رآه من قبل؟

لا ينصت أبدًا إلى الهتافات التي تخرج من حناجر الصفوف المتلاحمة كبنيان صلد جديد، بل يشغل نفسه بالوجه المثلثي الذي ينتهي بذقن مسنون كحربة، وجبهة مفرطحة تحتضن بعض شعاع الشمس التي تهرول نحو المغيب.

أين رأى هذا الوجه؟ لا يدري. وجوه كثيرة تزاحمت على رأسه في سنتين كاملتين قضاهما هنا في قلب القاهرة، لم يعرف خلالهما إلا الشدَّة والخوزة والشفتين المزمومتين في وجه المتظاهرين الواقفين على سلالم نقابة الصحفيين، أو نقابة المحامين، أو دار القضاء العالي، أو عند ضريح سعد زغلول، أو على أطراف ميدان التحرير وعند تمثال طلعت حرب، وأولئك الذين جاءوا وحطوا رحالهم في اعتصامات متكررة أمام مجلس الشعب، ومجلس الوزراء، ظهورهم إلى حوائط الأبنية العريقة التي تقف شامخة لكن في وداعة وبساطة آسرة، ووجوههم إلى نوافذ يجلس خلفها موظفون كبار يصمُّون آذانهم عن سماع الهتافات الحارقة. هل رأى هذا الوجه في ذلك الزحام والغضب المتواصل؟ أم لمحه في مكان آخر؟ أين؟

وتأتيه الأوامر فتخلعه من شروده الطويل:

- خطوة للأمام مارش.

بسرعة خاطفة، يتقدم خطوة ويقترب من الوجه الذي تحلُّ على صفحته الستارة الرمادية لليل بارد يأتي بغتة، فتغيم الملامح في الواقع وتبرق في الذاكرة. نعم رآه. ليس في أي مكان من تلك التي جالت بخاطره على مدار ساعتين كاملتين وهو يقف قباله رقما في صف، بل في مكان آخر كم أحبه وراق لعينيه. كان ستاد القاهرة. وكانت مباراة لا ينساها، وإن كان نسي اسم الفريق الأفريقي الآخر الذي كان ينازل النادي الأهلي في مباراة مصيرية.

لا يعرف اسمه، لكنه الآن يعرف شكله جيدًا، ويعرف أنه من شباب الألتراس. يشعر حياله بتعاطف شديد، وتهزه هتافاته الصارخة ضد الضباط المتجبرين ووزير الداخلية المتوحش. يخشى اللحظة التي سيصدر فيها أمر الهجوم. هل يجعل هراوته تتفادى صاحب الوجه المثلثي؟ أم يضربه ضربات خفيفة لا تدمي لحمه

ولا تكسر عظامه؟ لكن لو رآه الضابط الواقف خلفه هل سيفهم تعاطفه هذا؟ لا بالطبع. سيعتبره تخاذلا، وكسرا للأوامر، ويتبعه بعقاب شديد ينزل على رأس خليفة وربما يؤخر موعد تسريحه من الخدمة، فتزيد أيام ابتعاده عن أرضه. وقد يكون العقاب على الأقل هو الحرمان من الإجازة المقبلة، التي طال انتظارها. إجازة سيخطف فيها الفأس ويجري إلى الأرض، سيجدها قاحلة والنجيل لفَّ خيوطه الخضراء المتينة على أعناق البصل الذي غرس رؤوسه قبل أسابيع في الطين ليجد الأب والأم ما يبيعانه في أيام غيابه، ويطعمان إخوته.

لكن الأوامر صدرت فقط بعمل إحماء في وجه المتظاهرين. وقف خليفة في مكانه محاذيا زملاءه عن اليمين واليسار، وبدأت الحمحمات الهادرة المصحوبة بدق الأرض في عنف وقسوة. لكن صاحب الوجه المثلثي سرعان ما شبك يديه في أيدي زملائه، عن اليمين واليسار أيضًا، وبدأوا في إحماء مضاد.

اختلط الأمر على ذهن خليفة فتملكته الحيرة. مَن هو الجندي هنا؟ ومَن هو المتظاهر؟ من هي السلطة التي تضرب؟ ومن هو الشعب الذي يتلقى الضربات والإهانات؟ اعتاد أن يجد أمامه متظاهرين لا يملكون سوى حناجر، ووجوهًا عليها غضب، وعيونًا تبرق، لكنها المرة الأولى التي يرى فيها أيادي مستعدة للاشتباك، وأرجلًا تتأهب للهجوم وليس للهرب. بل لم يرَ هذا العدد من المحتجين قبل ذلك.

يسمع الهتاف: «عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية» فيهتز كل كيانه. إن هذا ما ينقصه وما يريده الآن. يقولون عيش وهو جائع، ويقولون حرية وهو يرسف في أغلال عبودية جديدة. أليس هؤلاء الضباط الواقفين عن يمينه يتصرفون كأسياده يأمرونه فلا يملك إلا أن يطيع؟ يندفع كآلة جهنمية ضارية حين يكون الأمر بالهجوم. ويصمت كحجر حين يصرخون في وجهه:

- امنع الكلام.

لا يمكنه أن ينسى صفعات المقدم سيف عبد الجبار على قفاه وهو يقول له:

- افهم يا بجم.

ولا يمكنه أن ينسى أسبوعا كاملا من العذاب مر عليه وهو يرفع الطوب والأسمنت والرمل في شقة العقيد سليم العناني. كان يصحو عند السادسة ويظل يكدح حتى انتصاف الليل. لم يرحموه إلا حين سقط مغشيا عليه. أخذوه كما أتوا به، وألقوا به وسط زملائه الواقفين في الشوارع القاسية، وجذبوا غيره ليكمل المهمة.

يتمنى لو وجد فأسه، وأغمض عينيه، ورفعها إلى أعلى بكل ما يملك ساعداه ثم ينزلها سريعًا حادة هادرة على رأسه فيرديه قتيلا، ثم يحفن من دمه ويشرب. لكنه لا يملك حتى حق الشرود كي يتخيل هذه اللحظة الانتقامية البغيضة.

ولما أوغل الليل راحلا، ظن أن الأوامر قد تصدر بالرجوع إلى الخلف، أو بالانتظار حتى ينبلج النور. بدا الضباط صامتين، وتحولوا إلى متفرجين على هذا المشهد المهيب. رؤوس تعلو تحت لمبات واهنة، وحناجر لا تكف عن الصراخ، وبشر يتماوجون ذهابا وإيابا بين الحشد الذي أعلن الاعتصام. هكذا صرخ مكبر الصوت الضعيف: «هنا إذاعة التغيير بميدان التحرير». ورمى خليفة بصره فلمح شابا وفتاة يوزعون زجاجات المياه وعلب الكشري على المتظاهرين. ودَّ في هذه اللحظة لو يندفع إليهم ويقف بينهم ليشرب ويأكل. قرصه الجوع وأمضَّه العطش، فرنا إلى الأمام غافلا عن كل شيء، ووهنت في أذنيه الكلمات التي تدفقت من فم الضابط، وهو ينظر نحو المتظاهرين في غضب، بينما المصفحات تتقدم، وعربات المياه تشرع خراطيمها القاسية، ورماة القنابل الخانقة يتأهبون لقذفها.

لم يسمع جيدًا ما قيل، لكنه وجد الأجساد المتلاحمة به تسير ويتقدم معها زيها الأسود الثقيل ليزيد الليل ظلاما، فتحرك هو معها، وبطريقة آلية، تعشش في الذاكرة، رفع ساعده بالهراوة، وراح يضرب يمنة ويسرة، بينما الصفوف تتهاوى متسربلة بالدخان والألم والصراخ المتوالي:

- يا أولاد الكلب.. يا ظلمة.

صوت جاء من عمق الميدان، اقتحم أذن خليفة، وخزه، فتراخت الهراوة في يده، وسحت دموع على خديه، سترها الليل.

***

هي الجملة نفسها التي صرخ بها ذات مساء عندما سحب جنود الشرطة أباه على الأرض وهو يفرفر بين أيديهم متقلبا بين الموت والحياة. تأخر في سداد القسط السنوي المفروض على الأرض التي حازها انتفاعا، فقررت الحكومة دون أن تأخذ رأيه أن تبيعها له.

يومها نال خليفة بعض القسوة التي وزعها الجنود المأمورون في كل اتجاه، وتفرج كل أهالي القرية على الأب وهو يجرجر ساقيه محاولا الوقوف على قدميه دون جدوى.

هاهي الجملة نفسها تنطلق، من أين؟ لا يدري خليفة، لكنه يعي جيدًا أن هناك الآن مَن يُسحب على الأرض أو تدوسه المصفحات أو تخنقه القنابل المنهمرة وتضربه الهَرَاوَى الملتهبة المتعجلة. هاهي استغاثات تنبعث من قلب المكان وجنباته، لكن تنهزم أمام صيحات متحدية تدوي في كل مكان، وسرعان ما راح كل شيء كأنه لم يكن. انفضَّ الجمع في دقائق وبدا الميدان خاويا، إلا من مصفحات تطأ المنشورات المبذورة على الأرض، وبقايا الأحلام المبعثرة، وبعض الكلام الذي كسر حواجز الخرس والعجز.

أين ذهب صاحب الوجه المثلثي؟ هل ذاب في زحام الهاربين؟ أم داسته الأقدام الفزعة؟ أو دهسته العجلات الغليظة؟ لا يهم. كثيرون مثله مروا على

عينَي خليفة واعتاد تواجدهم في حياته.

وقف عند الطرف الآخر للميدان الفارغ من المتظاهرين، واستدعى كلمات مولانا عبد الرحيم القوصي، الذي طالما ذهب إليه وجلس بين يديه: «وزرك ليس كوزر آمرك.. والمُسيَّر غير المُخيَّر، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها». حفظ هذه الجملة هكذا، وجلس في ساعات الخدمة الطويلة يفتتها ثم يلملمها. كلما أضناه ما يفعله مجبورا، يذهب إلى الشيخ، ويجلس بين يديه. نزل من إسنا عليه، بعد أن قالت له أمه:

- الشيخ عبد الرحيم القوصي ابن عمتي.

لكنه كان ينصت إلى الشيخ وهو يقول لشباب يترددون عليه: «أعظم جهاد كلمة حق عند سلطان جائر». ويناقشه شاب عرف فيما بعد أن اسمه حسن عبد الرافع، فيستفيض الشيخ في الشرح، ويقول: «ما طُعن الإسلام إلا من سهم السلطة التي فسدت واستبدت».

وسأله خليفة ذات يوم عن معنى هذا، وعما إذا كان الضابط سلطانا جائرا أم لا؟ فقال له كلامًا كثيرًا عن أذناب الطغاة وذيولهم، ثم ربت كتفه وقال له:

- أنت معذور يا خليفة.

وها هو يحمل عذره على ظهره وبين عينيه اللتين شخصتا بعيدًا في قلب الليل الملفوف بالدخان والهواء البارد الذي يدور في ميدان التحرير ليرشف على مهل بقايا السخونة التي تركتها الأجساد الهاربة، دون أن يدري أن له معها صولات وجولات لن تنتهي في الشهور المقبلة.

39

ما هذا القلق العارم؟ جئت ظامئا لأطفئ حرقتي فوجدت أمامي نارا ليس لها قرار. القاهرة مدينة الأحلام والنشوة وباب التاريخ ومسرب البهجة في حياتي المترعة بالشقاء تغيرت في لحظة، صارت بلدة أخرى غير تلك التي عرفتها منذ عشرين سنة.

هكذا راح هاشم الغامدي يحدِّث نفسه وهو ينظر من شرفته المعلقة بين النيل وفضاء ميدان التحرير في فندق «سميراميس» الذي دخل الليلة الفائتة إحدى حجراته ثم سحبه النوم إلى آخر الدنيا.

لا يعرف في هذا البلد إلا دلال مشرقي ومولانا عبد الرحيم القوصي. كيف جمع بين اثنين ليس بينهما سبيل؟ هو لا يعرف إجابة حتى الآن. إنه القدر الذي ساق دلال في طريقه، ومدير الفندق الذي لاحظ عليه الحزن قبل ثلاث سنوات فنصحه بالذهاب إلى مولانا، الرجل البركة الذي يذهب في حضرته الهم والحزن.

قام متكاسلا عند الضحى وهاتف دلال، وجاء صوتها متناوما:

- حمدًا لله على سلامتك يا هاشومتي...

- وحشتيني يا دلال.

فتنهدت ثم ضحكت بغنج، وقالت:

- أجيء لك.

- ها الحين.

كان يجزل لها العطاء، ثم يرضيها. تضع النقود في حقيبتها، وتنتظر أن يحدثها عن النساء اللائي وطأهن في جدة، فتسأله كل مرة، ولا تمل من تكرار هذا:

- تجد في بلدك أمثالي؟

فيقول لها مبتسمًا، وكل مرة أيضًا:

- بنات الهوى في كل مكان.

وتتلذذ أكثر حين يحكي لها عن صديقه المصري مسعد الحيني الذي تعشقه ثلاث بنات سعوديات مرة واحدة، لكنه لا يستريح إلا لسيدة مطلقة عقيم تكبره بخمس سنوات، ويقول كلما وطأها:

- الأمان معها، وليس مع البنات.

جاءت دلال لتمتعه وتستمتع بكلامه، الذي يشعرها أنها ليست وحدها على هذا الطريق. دخلت الفندق تطاردها سحب الدخان الخانق الذي تطرده الريح من على فوهات الميدان من الشمال واليمين.

حين فتح لها الباب وجدها تسعل بقوة، ثم دلفت إلى الحمام، واستفرغت كل ما في جوفها، ثم عادت والعرق يتفصد من وجهها وينداح على الألوان الحمراء

والبيضاء التي تكسو بشرتها. كان هو بدأ يشعر بشيء يسحب أنفاسه منه، دون أن يعرف ما هو؟ ففي بلاده لا يستنشق أحد غاز قوات الأمن؛ لأن المظاهرات لا تجري أصلا، وإن جرت فهناك في المدن الشرقية البعيدة، والريح تعجز عن حمل الغاز الخانق آلاف الأميال إلى أولئك الذين يمرحون في ملذات الدنيا، غير عابئين بما سمعه هاشم قبيل حلول المساء هادرا، واقتحم عليه غرفته:

«عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.. كرامة إنسانية»

كانت دلال تتقلب في الفراش، حاضنة الوسادة، وفخذاها الأبيضان تعكسان بعض الوهج الأخير للشمس التي تحط على هامة بناية بعيدة، وتسكب بعض نضارها على صفحة النيل. نظر إليها هاشم وتثاءب، وهو يشعر أن عظامه تلين إلى درجة تعجز فيها عن حمله. مدَّ يده وأمسك ظهر المقعد، ثم فتح النافذة، ومشى متثاقلا إلى الشرفة وألقى نظرة شاملة على ميدان التحرير، فسقط بصره على آلاف الهامات المرفوعة، والأيدي التي تدق الهواء: «الشعب يريد إسقاط النظام».

هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها هذا المشهد. طالما جاء وطلب من موظفي الاستقبال أن يحجزوا له هذه الغرفة، كان يستمتع كثيرا بعد العصر وهو ينقل بصره بين الميدان والنيل حتى تغرب الشمس، فينزل مرتديا لباسا لا يميزه عن المصريين، ويدخل شارع طلعت حرب ثم ينعطف يمينا ليجلس على مقهى «البورصة» أو يستقل سيارة أجرة إلى حي الحسين ويجلس على مقهى «الفيشاوي»، وأحيانًا كان يصعد جبل المقطم قبيل الغروب ليرى القاهرة وهي تبتلع الشمس الراحلة على مهل.

في بعض المرات كان يصطحب معه دلال. تسير إلى جانبه وكأنه لها وحدها وهي له وحده، ثم يعودان في المساء؛ ليكملا ما بدآه من التحام لذيذ.

دخل وغمز دلال في كتفها قائلا:

- قومي شوفي.

وقامت تتثاءب فوجدت الدنيا غير الدنيا. اهتز قلبها كما لم يهتز من قبل، ثم وجدت نفسها تصرخ: «الشعب يريد...» وقبل أن تكملها وضع هاشم يده على فمها وسحبها إلى الداخل، وهو يقول:

- أنتِ مجنونة.

فمدت يدها وأزاحت يده، ثم قالت:

- لازم أنزل.

- تنزلي؟

- انتظرت هذا اليوم طويلًا.

- ما لك أنت وما يحدث؟
- أنت لا تعرف شيئًا عني إلا جسمي.
- هو أحلى ما فيك.
- أنت حر في ما تراه أما أنا فلا أرى ذلك.

***

خطفت حقيبتها وصفقت الباب وراءها وغابت في الممر الطويل مسرعة نحو المصعد، ولم تكن في هذه اللحظة تدرك أنها ستقف يوما إلى جانب صفاء عليوة تردد الهتافات التي تطلقها، وتخرج في كل المظاهرات التى نظمتها النساء حين شعرن أن الوافدين الجدد إلى الحكم يسعون إلى الجور عليهن.

عاد هو إلى الشرفة فأغلقها بإحكام، ثم تمدد على السرير، التقط «الريموت» وضغط على زر التشغيل، وواصل الضغط على الأزرار حتى انتهى إلى قناة «الجزيرة». حملق طويلًا، وقارن في رأسه بين المشهد الذي رآه منذ دقيقة واحدة في الواقع، وذلك المرسوم على الشاشة الزرقاء، تم خطف علبة السجائر الملقاة فوق «الكوميدينو» وراح يسحب الأنفاس في عصبية شديدة.

لما انتهت أشعل أخرى، لكنه وجد نفسه في حاجة ماسة إلى كأس من الويسكي. مد يده نحو «الميني بار» وسحب زجاجة صغيرة، نزع الغطاء وسكبها في جوفه مرة واحدة، ثم ألقى جسده على السرير، والتقط ثلاث وسادات وضعها بين فخذيه، وفرك عينيه اللتين تستقبلان الصور المتلاحقة، والأخبار التي تسرع الخطى في أسفل الشاشة، وتتبدل باستمرار.

يعرف مصر جيدًا، كلما اشتاق إليها استحضر خريطتها الكبرى التي يطويها في درج مكتبه، ثم فردها أمامه وراح يمسحها بعينيه ويتوقف عند كل مدينة قليلًا. زار بعضها، وها هو يرى أسماء مدن منها واردة في شريط الأخبار وفي ركابها حروف كثيرة، تصنع كلمات عن مظاهرات صاخبة. ندت عنه آهة عابرة، لا يدري كيف انطلقت من جوفه الساخن؟ ووجد نفسه يشد باب «الميني بار» ويخطف زجاجة أخرى ويتجرعها ثم يتجشأ. ركز بصره فوجد الصور ترتعش أمامه، فسأل نفسه: لماذا يرتعش الناس في ميدان التحرير؟ كيف يتراقصون هكذا ويضع بعضهم رؤوسهم مكان أقدامهم؟

وأراد أن يتأكد بنفسه مما يراه، فاندفع نحو الشرفة، وفتحها فغطى الهتاف رأسه، وملأ الهواء منخريه، وارتعشت في عينيه الأبنية، وبدا الميدان مضطربا تحت غلالات الضوء الذي تصنعه أعمدة الإنارة الموزعة في كل جنباته.

في مدخل شارع قصر العيني كانت العربات الخضر تتراص متجهمة، وتحتها يقف جنود بزي أسود، وعلى رؤوسهم خُوذ تلمع، وفي أيديهم دروع لا تصد النور المنبعث من اللمبات فيتراقص بعضه على أرديتهم الكابوسية. بدوا أمام عينيه كتلة واحدة مصمتة، كأنهم حافلة ضخمة قديمة تركها صاحبها في عرض

الطريق. أمامها كتلة أخرى مختلفة ألوانها، تتراقص وتنبعث منها صرخات متلاحقة.

شخَصَ ببصره في عمق الليل كي يحطه تمامًا بين الرؤوس والأقدام المتوثبة للالتحام العنيف، ثم هز رأسه بعنف، فتهدل شعره على كتفيه، وصرخ من كل أعماقه: «الشعب يريد إسقاط النظام» ثم راح يردها بأعلى صوته، وذبذباته تتبعثر في الفراغ الممتد بين واجهة الفندق والميدان، وتصل إلى أسماع الضباط الواقفين تحت سور الجامعة الأمريكية بين فوهتي شارعي ريحان ومحمد محمود، وترتد إلى الغرف المتراصة في الأسفل والأعلى وعلى الجانبين، فأقلقت بيتر جيدنز الذي كان يحرر تقريرا مفصلا إلى صحيفته في لندن.

صبر جيدنز طويلًا لعل هاشم يكف عن الصراخ، لكن صبره نفد فهاتف موظفي الاستقبال، فأرسلوا اثنين من موظفي «خدمة الغرف» فطرقوا باب غرفة هاشم، لكنه لم يرد. كان منجذبا تمامًا نحو ما يموج هناك تحت بصره، والهدير يقتل أي صوت تحدثه الطرقات الملتاعة الملحة على الباب.

حين لم يجبهما أحد فتحا الباب، ودلفا إلى الداخل فتراءى لهما شبح هاشم وهو واقف في الشرفة وقد خلع ملابسه تمامًا.

40

كان بيتر جيدنز يعرف ماذا يريد. ظلت عيناه مدفونتان أياما في شاشة «اللاب توب» يتابع تناسل الدعوة على شبكات التواصل الاجتماعي إلى مظاهرة عارمة تزلزل أركان الحكم، بعد أن كلفه رئيس التحرير بأن يسافر إلى القاهرة في أقرب فرصة. قال له وهو ينفث دخان سيجاره الكوبي الغليظ:

- أتوقع أن يكون الحدث كبيرا.

جاء جيدنز قبل أسبوع من الثورة، وفور دخوله حجرته بفندق سميراميس هاتف عماد الفاروقي الناشط الحقوقي وطلب منه أن يساعده في مقابلة بعض شباب 6 إبريل والجمعية الوطنية للتغيير والاشتراكيين الثوريين، فأملى عليه العديد من الأسماء على رأسها حسن عبد الرافع، فبدأ به، وسأله على الفور:

- هل تتوقع أن يحدث في مصر ما حدث في تونس؟

فابتسم، ورد بكل ثقة:

- نعم، بكل تأكيد.

- وما الذي يجعلك واثقا إلى هذه الدرجة؟

- في كل مكان أحل به، وفي كل التعليقات التي تنهمر على أي موقع أتصفحه على شبكة الإنترنت، أشعر أن الناس غاضبة وعازمة على فعل شيء كبير. مصر شعرت بإهانة حين سبقها غيرها إلى ما كان يجب عليها هي أن تفعله وتهديه لكل العرب، وأعتقد أن استجابتها ستكون بمستوى هذا التحدي.

ثم ابتسم مرة أخرى وواصل:

- حتى أولئك الذين نعدُّهم مهووسين بكرة القدم تركوها وانخرطوا في التحضير للمظاهرة. بعضهم كتبوا: أحرزت تونس الهدف الأول ومصر ستتعادل قريبا. إنها لغة التحدي التي ينطق بها كل طرف وفق ما يراه وما يألفه، إنها نهيرات صغيرة تنبع من مناطق شتى، بعضها يصنعه المطر وبعضها ينبجس من بين الصخر، لكنها تتجمع عند نقطة واحدة لتصبح تيارا جارفا، وهذا ما سيكون.

ومع نظرة ماكرة وجه جيدنز سؤالًا مباغتًا إلى حسن:

- هل ما قلته تقديرات من مراقب أم تأكيدات من مشارك في صناعة حدث سنراه قريبا؟

ولاذ حسن بصمت استمر عشرين ثانية على الأقل، قبل أن يجيبه:

- الاثنان معًا.

أصغى جيدنز جيدًا إلى العديد من الشباب، وسأل الناس في المقاهي والمطاعم، واستفهم من سائقي سيارات الأجرة، وتابع المحللين في الفضائيات، وقرأ بإمعان أعمدة الرأي في الصحف الخاصة، وكتب تقريرا مطولا عن

مصر التي تستعد لتغيير تاريخي جائح، ثم جلس يترقب.

في اليوم الذي تحدد للتظاهر استيقظ مبكرا، وهبط إلى المطعم، تناول إفطاره، واحتسى كوبا من الشاي الإنجليزي الثقيل، ثم غادر الفندق منعطفا نحو ميدان التحرير. كان الميدان هادئا وعربات الأمن المركزي الخضراء الداكن لونها تقف عند مداخله ساكنة، وبعض الجنود يتثاءبون على جانبيها، وشمس الضحى ترش نورها على الأشجار القصيرة المشذبة التي تتراص داخل أسوار «الجامعة الأمريكية».

تلفت جيدنز حوله، ورمى بصره فأخذ الميدان كله في مقلتيه، ثم دخل إلى شارع محمد محمود حتى وصل إلى المقهى الذي يواجه سنترال «باب اللوق»، جلس على كرسي خشبي قديم، ومد يده ليتأكد من تواجد السلسلة الحديدية التي تربط الكراسي بعضها ببعض. حين جلس أول مرة هنا قبل ثلاث سنوات أطلق عليه «المقهى السجين»، ورآه يلخص كل ما يجري حوله. ينظر إلى الجالسين على الكراسي يحتسون الشاي، ويسحبون الدخان الأسود من مباسم الشِّيَش، ويقول في نفسه: «كلهم سجناء.إنهم مستسلمون لما هم فيه، مثل هذه الكراسي الخشبية المصفدة في الأغلال».

***

هذه المرة وجد الكراسي مكانها، حتى ذلك الذي حفر عليه في صمت العام الماضي الحروف الأولى من اسمه الثلاثي، دون أن يراه أحد، بينما كانت الشمس تنحسر على الأبنية مودعة المكان، وتاركة إياه لعباءة الليل. رمى بصره فوجد الحروف مكانها، مرشوقة على صفحة الكرسي، لكنها بهتت قليلًا. كان الكرسي راكدا تحت النافذة الضيقة الصدئة، وهو الثالث من جهة اليمين.

لم يكن أحد يجلس عليه، رغم أن كل كراسي المقهى تئن تحت الأجساد المنهكة. تقدم إليه ورمى جسده، ثم تحدث مع نفسه ساخرا: «أي مظاهرة تلك التي ستندلع من أجل التغيير، وكل شيء في مكانه مع أن عقارب الساعة تتحرك إلى الإمام».

جاءه النادل وحملق في وجهه وتذكره وقال له مازحا:

- حمدًا لله على السلامة يا خواجة.

فرد بلكنة مصرية تعلمها في الجامعة الأمريكية قبل سنوات:

- إزيك يا محروس.

- كويس.

ثم نظر إلى المنضدة القديمة متآكلة الجدران الموضوعة أمامه وسأله:

- تشرب شاي؟

هز رأسه مجيبا:

- لا.. قهوة زيادة.

التفت إلى يساره فوجد عربات الأمن المركزي الخضراء متراصة على الجانب الأيمن لشارع المنصور، تتابع في صمت كأنها توابيت ضخمة. أعاد بصره إلى فنجان القهوة، ثم ابتسم من جديد وقال لنفسه: «لا بد لهذه السلسلة الحديدية أن تمتد من هذا المقهى المعتقل إلى أول عربة من تلك العربات».

أنهى قهوته، ثم التقط أوراقا بيضاء من حقيبته السوداء الراقدة إلى جانبه، وأخرج القلم من جيبه، وكتب:

«كل شيء هادئ في القاهرة.. الشوارع صامتة مكبلة والصخب يدور فقط في العالم الافتراضي. وجوه الناس لا يكسوها أي ترقب ولا حماس، والحياة تمضي كعادتها، ولا أرى شيئًا مختلفا عما شاهدته وبات مألوفا لديَّ في كل زياراتي السابقة لهذه المدينة التي تحمل كل تاريخ الإنسانية في عينيها. حتى عربات الأمن المحتشدة في أماكن عديدة، لم تخلُ منها الشوارع من قبل، وقد لا يدل تواجدها بالضرورة على أن السلطة تنتظر شيئًا يخيفها».

ما هي العبارة التالية التي عليه أن يكتبها؟ لم يكن شيئًا في رأسه وقتها. وصف كل ما شاهده وانتهى الأمر.

جلس يتثاءب. ورآه محروس فاقترب منه، وسأله من جديد:

- أجيب لك فنجان قهوة؟

أومأ برأسه موافقا، والتفت إلى يمينه فرأى تجمعًا قليلًا يقف أمام كشك الجرائد النابت على سور سنترال باب اللوق. كان أحد الواقفين يشير بإصبعه نحو الجهة الغربية ويقول:

- هناك مظاهرة عند دار القضاء العالي.

انتفض جيدنز وجرى نحو هذه المجموعة، وسأل الرجل الذي تحدث عن المظاهرة:

- عند دار القضاء العالي فقط؟

نظر الرجل إلى عينيه الزرقاوين وشعره الأصفر بارتياب، ثم ردَّ على سؤاله بسؤال:

- حضرتك من؟

- صحفي إنجليزي.

مسح الرجل بعينيه عيون الواقفين معه،وأجاب:

- لا، سمعت إن فيه مظاهرات في السويس والإسكندرية.

***

عاد جيدنز بسرعة نحو المقهى، فوجد فنجان القهوة على المنضدة، شفطه في ثلاث رشفات سريعة، ثم دس الحساب في يد محروس، ومضى مسرعا

نحو ميدان التحرير، بينما راحت عربات الأمن تتحرك خلفه، مزمجرة بغضب، وأجبرته على أن يلتصق بسور مكتبة الجامعة الأمريكية.

دخل ميدان التحرير، ورمى بصره نحو شارع قصر العيني فوجد هناك مجموعة صغيرة تهتف بالقرب من مجلس الوزراء، وقوات أمن كثيفة تمنعها من التقدم. انعطف يمينا قاطعا الطريق نحو دار القضاء العالي.

بدت الشوارع مختلفة في عينيه. كأنها تتأهب لشيء غير متوقع بالنسبة له على الأقل. في ميدان عبد المنعم رياض وجد مجموعة محدودة من الشباب تجري تحت كوبري 6 أكتوبر ويهتفون بصوت زاعق: «عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية»، ثم يندفعون نحو كورنيش النيل، فيخفت صوتهم، ويتلاشى وسط أبواق السيارات المكدسة في «الموقف» الذي تنطلق منه إلى أماكن مختلفةبالمدينة المتوحشة.

لاحت له هناك أعلام ترفرف أمام دار القضاء العالي، وبانت تحتها هامات تعلو وتتمايل. أسرع الخطى وما إن وصل إلى هناك حتى وجد مجموعات تخرج من حي بولاق أبو العلا، يطاردها جنود الأمن المركزي، ثم تختلط بأصحاب الياقات البيضاء الواقفين على سلالم الرخام الباردة بحناجر ملتهبة.

أخرج الورقة من حقيبته ثم شطب كل ما كتبه على المقهى، وراح يسجل ملاحظات سريعة، وهو يتفرس في الوجوه، ويلتقط صورا في رأسه سيترجمها بعد قليل إلى سطور تضع قارئ الصحيفة أمام كل ما يجري هنا.

تحرك الواقفون أمام دار القضاء العالي ببطء صوب ميدان التحرير، لكن قوات الأمن كانت قد تقدمت بعد أن تجمعت في شارع شمبليون واندفعت وصنعت جدارا من لحم ملفوف في أردية سوداء كئيبة، لا تلمع أبدًا في انعكاس الشمس على الخوذ والدروع.

لم يجد المحتجون أي مسرب للتقدم، فتفرقوا في الشوارع الجانبية، وراح زحامهم يتضاءل، حتى بدا كل شيء إلى ذبول. وهنا ضحك جدينز من جديد، وأمعن النظر في السطور التي شطبها، ووضع أمامها علامة «صح»، وقال في نفسه: «لا جديد».

عاد مسرعا نحو الفندق، لكن الهتافات المرتفعة التي جاءت من شارع قصر العيني اقتحمت أذنيه، فسار على مهل تحت الأبنية المتراصة على اليمين، إلا أنه وجد حوائط أمنية غليظة، فدلف إلى شارع الكورنيش باتجاه السفارتين الأمريكية والبريطانية.

ولمَّا لفح نسيم النهر وجهه كانت مجموعات أخرى تترى من الجنوب وهي تهتف بحرقة، وتتقدم صوب ميدان التحرير بينما السيارات تمرق في الاتجاه المضاد. بعض الأفراد استجابوا لتحريض المتظاهرين، وراحوا يقفزون من الباصات وينضمون إليهم.

أخرج جيدنز الورقة مرة ثالثة، ثم زوَّد الشطب على عبارته الأولى، وانخرط في الحشد الذي تجمَّع على مشارف الميدان. وظل يدور مع موجات الشباب مسجلا كل شيء، حتى هجمت قوات الأمن بعيد منتصف الليل، وجرفته مع الهاربين، فتسلل من خلف مبنى وزارة الخارجية القديم عائدا إلى الفندق.

وما إن وصل إلى غرفته حتى أخرج الورقة التي تشبعت بعرق لزج، ووضعها أمامه، وفتح الكمبيوتر، وكتب:

«الشتاء يصير ربيعا على أرض النيل»

لكن طاقة النور الذي غمره بين الحشود الغاضبة لم تلبث أن انطفأت حين قبضوا عليه في اليوم التالي، وألقوه مقيد اليدين من خلاف في زنزانة مظلمة بعد القبض عليه على مشارف الميدان يوم جمعة الغضب. لم ينزعج فقد تعلم أن الصحافة هي مهنة البحث عن المتاعب، وكان يروق له دومًا أن يقرأ في مغامرات زملائه الذين سبقوه إلى الشهرة والمجد. لكن ما زلزل كيانه، وزاده ألما وقرفا وتعجبا هو اتهام السلطات له بأنه «جاسوس».

41

يشعر مازن عبد الرحيم بغصة تكاد أن تحرق حلقه وهو يراقب ما يفعله الشيخ رأفت مغازي. يرميه بشرر من طرف عينه لكنه يكظم غيظه، ثم يخرج من الاجتماع واجما، وهو يسأل نفسه:

- أي شيطان هذا؟

كل مرة يرى مغازي أو يجده أمامه على شاشة التلفزيون، يهاتف حسن عبد الرافع ويقول له:

- محتاج أتحدث معك؟

كان يريد أن يبوح له بما يمور بصدره عن هذا الرجل. إنه يكرهه. هذا شعوره حياله بالضبط، لكنه شعور يعذبه ويقض مضجعه؛ لأنه تربى على طاعة أمثاله وحبهم، إلا أنه لا يعرف كيف يحبه ولمَ يطيعه؟ عزاؤه أن القلوب بين يدي الرحمن يقلبها سبحانه كيفما شاء، ومع هذا يبدو دومًا معذبا به، يريد أن يتجنبه، أو يتوهم أنه غير متواجد في الحياة أصلا، لكن مغازي يقتحم عينيه في كل مكان، ولا يجد مفرا من الانشغال به.

لم تبدأ علاقته بحسن في ميدان التحرير، إنما هي سابقة على هذا بستة أشهر كاملة، حيث تلاقيا مصادفة على هامش أحد المؤتمرات السياسية. يومها تحدث حسن، ورد عليه مازن، وقال لهما رئيس الجلسة:

- هذا موضوع شرحه يطول، ويمكنكما أن تستكملا حواركما عقب انتهاء الجلسة. خرجا سويًّا من مبنى نقابة الصحفيين، وسارا في شارع عبد الخالق ثروت حتى وصلا إلى ميدان العتبة، وهناك أشار حسن بيده:

- يوجد مقهى هنا في الجانب الآخر من الميدان.

فوجم مازن برهة ثم قال:

- ألا يوجد مكان آخر غير المقهى؟

وأيقن حسن قصده، فابتسم ورفع يده صوب الناحية اليمنى من الميدان وقال:

- في مكان هذه البناية كان يوجد مقهى متاتيا، الذي جلس عليه الشيخ جمال الدين الأفغاني يوزع السعوط بيمناه والثورة بيسراه، وإلى جانبه تلميذه النجيب الإمام محمد عبده.

فهز مازن رأسه وقال بحروف متباطئة:

- أعرف، لكن....

لم يدعه يكمل ما يريد، بل وضع يده على كتفه، وشد عليه وهو يقول:

- شيخكم حسن البنا كان يدخل الخمارات ليطلب من الناس أن يتركوا الخمر ويتبعوه، وقد فعلوا لكنهم بمرور الزمن أدمنوا الجماعة.

ثم زفر، وواصل:

- المقاهي كانت ولا تزال مقصدا للمبدعين والباحثين عن البهجة الصغيرة، ويجب أن تتصالحوا معها.

- لسنا في خصومة مع الجالسين عليها.

- إذًا تعالَ.

وجذبه من يده نحو المقهى؛ ليجلسا حتى مشارف الفجر يتناقشان في كل شيء، ومن يومها صارا صديقين.

ومع حسن عرف مازن أن الدنيا أوسع بكثير من جماعة الإخوان، وأن مَن فيها ليسوا بهذا السوء الذي يقرأه فيما يخطه بنان مفتي الجماعة ووعاظها الغاطسين بعيدًا عن الأضواء.في لحظة صفاء وجد مازن نفسه يقول لحسن:

- أنتم لا تعرفون شيئًا عنا.

- كيف؟

- مَن يتعاملون معكم من قيادات الإخوان هم «الفاترينة» أما الورشة والمخزن ففيهما أشياء أخرى.

وشهق في ألم، ثم واصل كلامه:

- الجماعة مختطفة.

- مَن اختطفها؟

- بضعة أشخاص، تربوا في حجر التنظيم الخاص، الذي ارتكب قبل عقود من الزمن جرائم قتل وتبرأ منه البنا وقال «ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين». هؤلاء يعتنقون أفكار سيد قطب، ومثلك لديهم كافر أو فاسق، وبقية الناس يعيشون في جاهلية.

نظر حوله كمن يبحث عن شيء ضاع منه، ثم واصل:

- لم أعد أطيق البقاء في هذه الجماعة أكثر من هذا، كلما رأيت شيئًا مختلفا، قالوا لي «عليك التزام السمع والطاعة». لست عبدا في ضيعة، ولا جنديا في ساحة القتال، ولا خروفا يسير أعمى خلف الكلأ.

- لا تنسَ أن صرامة التنظيم أبقته على قيد الحياة رغم الضربات المتتالية، بينما ذاب غيره في قيعان النسيان.

- أصبح التنظيم بقرتهم المقدسة، هو عندهم كل شيء، قبلنا، وقبل الوطن، بل ربما قبل الإسلام ذاته، حتى أنني أظن أحيانًا أن بعضهم يتعامل معه وكأنه دين جديد.

أطرق حسن قليلًا، وقال:

- قرأت للبنا والهضيبي، وأحسبهما لا يقران ذلك... وما تقوله أمر خطير إن كان

صحيحا.

- انحرفوا عن النهج الأصلي.

وهنا ضحك حسن وسأله:

- فما بالك بمَن يرى كل هذا انحرافًا عن انحراف؟

- ماذا تعني؟

- جماعة قامت من أجل الدعوة ولن ينصلح حالها في ظل هذا الانغماس التام في السياسة، والجري وراء السلطة.

وانفتح بينهما باب وسيع للأخذ والرد، وتوالت اللقاءات، وتبادلا الكتب والأفكار، فانهارت حواجز، وسقطت أوهام، وبدا كل شيء على حقيقته عاريا.

***

قبل خمسة أيام من اندلاع المظاهرة وجد حسن اسم مازن مكتوبا على صفحة هاتفه يتأرجح بين اهتزازات ورنين، وجاءه صوت مخنوق:

- عاوز أقابلك ضروري.

وذهب لمقابلته بمقهى «وادي النيل» الذي يطل على ميدان التحرير. كان مازن محتقنا، وجهه ازداد حمرة، وعيناه جحظتا من الأرق. تلفت حوله ثم زفر كعادته وقال:

- الإخوان قرروا عدم المشاركة في المظاهرات.

ابتسم حسن، وأشاح بيده:

- هذا متوقع.

عض مازن على أضراسه:

- كدت أنفجر في هذا الذي يُدعى رأفت مغازي، جاءنا يتلمظ وكأنه خارج من وليمة، ثم قال لنا إنه لا يمكن أن نشارك في مظاهرة لم ندعُ إليها، ولا نعرف مَن يقف وراءها.

وقلت له:

- نحن نعرف.

فلكزني أحد الإخوة بكوعه في جنبي، وهو صامت يهز رأسه، مظهرا التزامه الطاعة العمياء، ثم همس في أذني بعد انصراف مغازي:

- لا تجادل.

ربَّت حسن كتفه قائلا:

- لا تحمِّل نفسك فوق طاقتها؛ فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

لكن التحدي قفز إلى عيني مازن:

- سأشارك في المظاهرة، وليحدث ما يحدث.

ثم أطرق صامتًا، وتفرس مليا في الطاولة الثابتة أمامه وقال:

- هناك كثيرون من شباب الجماعة سيفعلون ذلك.

وعند الظهر بالضبط يوم 25 يناير رآه حسن قادما مع مجموعة من إخوانه، يقطعون شارع رمسيس عند صيدلية الإسعاف، وهم يهتفون:

«أمن الدولة يا جبان... يا عميل الأمريكان»

انخرطوا مع المتفرقين من أمام دار القضاء العالي والقادمين من وسط البلد، حتى زاد العدد، فتشجعت القلوب، وأيقنت الأذهان أن اليوم مختلف. قبيل العصر كان القادمون من حي شبرا قد وصلوا بعد أن فتحت لهم قوات الأمن مجبرة طريقا، فتحركت المظاهرة قوية نحو ميدان التحرير، تضرب الأرض وتدق الهواء وتزجي في الفراغ الواسع صراخا ملتهبا يبدد بعض برد الشتاء الذي ينداح في فتحات الشوارع والميادين.

حين امتلكوا بعد أيام الميدان شكا حسن إلى مازن ما يفعله الشيخ مغازي، فضغط على يديه وقال:

- لا تغضب منه، هؤلاء لا يرون غيرهم، ولم يستوعبوا حتى الآن ما جرى.

- لا ينقصهم ذكاء.

- لكن تنقصهم الثقة. هم يشككون في كل الناس، وفي كل شيء. لا يريدون أن يخرجوا من أقباء السجون. تآلفوا مع القهر، واستعذبوه، وهواء الحرية يؤذي أنوفهم التي تعودت عفن الجُدُر الرطبة المتآكلة.

وانقلب الأمر بعد يومين إذ جاء مازن ليشكو لحسن:

- ذهبوا في طريق الخيانة.

- خيانة؟

- عرفت أن ثلاثة من قيادات الجماعة قابلوا رئيس المخابرات، واتفق معهم على أن يتركوا الميدان مقابل حل البرلمان المزيف وضمان مئة وعشرين مقعدا لهم في المجلس الجديد، وثلاثة حقائب وزارية، والسماح لهم بإنشاء حزب سياسي.

- هذه مؤامرة دنيئة.

- لا تقلق، هناك مَن رفض هذا حين طرح الأمر للنقاش بمجلس شورى الجماعة، خوفا من أن يكون هذا فخًا منصوبًا لهم، ثم تنفرد بهم السلطة بعد أن ينفض الناس من الميادين.

- مشكلتهم أنهم لا يتعلمون أبدًا.

- لكنهم رفضوا.

- يريدون غنيمة أكبر أم رفضوا المبدأ؟

- حسبوها مصيدة فتجنبوها.

- ستنصب لهم مصائد لا حصر لها، إن تفادوها اليوم، فلا أضمن أن ينجوا منها غدا.

- شباب الجماعة بخير، فلنراهن عليهم.

فابتسم حسن وسأله:

- كم واحدًا في الجماعة مثلك؟

- كثير.

- سنرى.

وسادت لحظة صمت، وترامت الهتافات إلى آذانهم وهما يقفان تحت جناح الليل الذي ازداد ظلمة في ظلال مبنى مجمع التحرير، وهنا أشار مازن إلى الرؤوس التي تغطس وتطفو في الهواء صادحة بصرخات متلاحقة، وقال:

- يجب أن تصبروا عليهم.

هز حسن رأسه وقال بحروف مشبعة بالألم:

- بل يصبروا هم علينا. نحن في النهاية فُرادى مجردين لا حول ولا طول. كل واحد من هؤلاء يستيقظ صباحا ثم يجلس دقيقة مع نفسه ليقرر أن يأتي إلى هنا. أما الإخوان فليسوا بحاجة إلى التفكير، بل عليهم فقط أن ينصتوا جيدًا إلى الأمر الذي يأتيهم من قيادتهم، فيطيعونه، ويشدون الرحال إلى ميدان التحرير.

زمَّ حسن شفتيه، وسأله من جديد:

- أتعرف أن هذا الجمع يمكن أن ينحسر عن صخرتين ستتناطحان حتما؟

ولم يدَعْ حيرته تطول فواصل:

- الإخوان والعسكر... تنظيمان وحيدان والبقية فرادى. حتى الحزب الحاكم الذي كانوا يتيهون كذبا بالملايين التي تحمل عضويته ثبت أنه وهم كبير، وتلاشى كما تذوب قطعة ملح في موج هادر، وقوات الأمن تبعثرت كالقش في مهب الريح.

وبعد تنحي الطاغية جاء مازن والدموع تتراقص في عينيه الوسيعتين وقال لحسن:

- فصلوني من الجماعة.

قهقه حسن حتى كاد أن يقع على قفاه ثم حاول أن يخفف عنه:

- ولا يهمك، هم الخاسرون.

ثم صمت قليلًا وأردف:

- من قبل كانوا يتمسحون فيكم كلما اتهمهم أحد بأنهم لم يشاركوا في الثورة منذ بدايتها. اليوم انتهت مهمتكم، وبقاؤكم في ائتلاف شباب الثورة بات عبئا

على اتفاقاتهم الصغيرة مع العسكر.
ثم عاد إلى الضحك المتواصل وقال:
- مَن يأكل أولاده لا يمكن أن يؤتمن على أولاد الآخرين أبدًا.

42

ما أحلى الكنبة! لينة ووسيعة، يستريح الظهر على خلفيتها، وتغوص الأرداف في طراوتها. تصلح سريرا للنوم، أو مقعدا لليقظة أمام التلفزيون إلى جانب طبق البطيخ وقرطاس اللب. وحين تغمض عينيك يمكن لك أن تتصورها كوخا معزولا عن الزحام والأرق، أو بساطا سيحملك فوق السحاب وبين الريح. وإذا استبدَّ بك القنوط يمكن أن تراها تابوتا أو قبرا.

كان هذا هو مذهب الست سكينة التي عاشت حياتها كلها مخلصة له. تصحو من النوم مبكرا، تتدحرج إلى المطبخ، حاشرة جسدها السمين بين خزائن المؤن والثلاجة والبوتاجاز، تشعل النار لتسلق أربع بيضات فقط، واحدة لها وأخرى لزوجها الأستاذ مخيمر، والثالثة لابنها مجاهد، أما الرابعة فتلتهمها ابنتها مايسة في لقمة واحدة كالعادة. وتنقل أطباق الفول والجبنة البيضاء إلى طاولة السفرة التي وضعتها في أول الصالة، وراء باب الشقة مباشرة، ولا يمكنها أن تنسى المخلل الحريف الذي لا يطيب لزوجها أن يأكل إلا به ومعه.

بعد الإفطار ينزل الجميع من البيت، الأم وزوجها إلى مبنى وزارة التعليم العالي في شارع قصر العيني حيث مقر عملهما، والابن والبنت إلى جامعة القاهرة، حيث يفترقان عند بابها الوسيع، فتنعطف مايسة إلى اليمين قليلًا ثم اليسار ذاهبة إلى كلية التجارة، أما مجاهد فيمضي في خط مستقيم نحو كلية الحقوق.

حين تعود الست سكينة من عملها، الذي ارتقت فيه حتى وصلت إلى منصب نائب مدير عام، تجهز طعام الغداء، وإن وجدت مايسة بالبيت تساعدها، وإن كانت في الخارج فعليها وحدها أن تقطع المسافة القصيرة بين المطبخ والسفرة متأرجحة حذرة حتى لا تلسعها نار الأطباق. بعد الغداء، تمدد جسدها إلى جانب مخيمر ساعة أو ساعتين، ثم تستيقظ؛ لتكمل تثاؤبها قليلًا على الكنبة المسندة إلى الحائط، وإلى جانبها طاولة صغيرة، عليها طبق من الفاكهة، وطبق آخر يتخالط فيه السوداني مع اللِّب السوري الذي تفضله.

يأتي زوجها ويجلس عن يمينها وجنبه ابنه، وعلى يسارها تجلس ابنتها. تمسك سكينة «الريموت» بيدها، ولا تعطيه لأحد، وإن تنازلت عنه قليلًا فعلى مضض وفي تبرُّم، ثم تُلح في طلبه مرة أخرى. تقلب قنوات التلفزيون، بين برامج الطبخ والمسلسلات والأفلام القديمة، قليلًا ما تتوقف عند برامج «التوك شو» إلا إذا وجدت صراخا بين المتحاورين، فتنتظر بعض الوقت فإن راق الجو وهدأت الأعصاب وعاد الحديث إلى سابق هدوئه، تغيِّر القناة إلى عالمها المفضل.

في الساعتين إلا ربع أو أزيد قليلًا التي تستغرقها مباراة لكرة القدم، تترك مخيمر وابنه أمام التلفزيون وتتدحرج إلى المطبخ لعمل أي شيء، صينية كيك أو بسبوسة أو مكرونة بالبشاميل تظل الأسرة تأكل فيها أياما فتستريح هي من

عناء الطبخ كل يوم.

هكذا مضت الحياة على حالها، بحلوها ومرها، لا يقطعها إلا الذهاب إلى حديقة الأزهر أو الأندلس مرة كل شهر تقريبًا. تجلس هي على بساط النجيل، وتخلع حذاءها، وتمرغ ساقيها، وتملأ عينيها من الخضرة الرائقة، أو تنصت إلى زقزقة العصافير الصادحة بين الأغصان المتمايلة.

هذه هي الفسحة الوحيدة، أما المتعة فهي أمام الشاشة الزرقاء الملونة التي تلد الحكايات والصور والحروف المعجونة بماء الحياة، وتأتي بها من آخر الدنيا إلى أمام الكنبة المستريحة في مكانها من سنين.

***

في اليوم الذي انطلق فيه الغضب، لم تذهب إلى العمل. طلبت إجازة عارضة. ليس لأنها أخذت الدعوة إلى التظاهرة على محمل الجد، وتخوَّفت من نزول الشارع، بل لأنها كانت تفي بوعدها لأسرتها بطبخ تشكيلة من المحاشي. سمعت من زميلاتها في المكتب كلاما حول التظاهر، لكنها لم تُعرْه اهتمامًا، وارتاحت لقول زميلتها النحيفة المنتقبة:

- يمكن يتظاهروا على الكومبيوترات . كل واحد وهو في بيته يرفع جهازه إلى أعلى ثم يصرخ بأعلى صوته: «يا حرية فينك فينك». وقد يزعج جيرانه فيطلبون له النجدة. وامتلأ المكتب ضحكا، وكادت هي أن تقع على قفاها وهي تستعيد الطريقة التي عبَّرت بها زميلتها عن رأيها.

دخلت المطبخ عند الضحى ولم تخرج منه إلا عند الثانية ظهرا. كانت تقتحم أذنيها طيلة الوقت أصوات سارينة عربات الشرطة والإسعاف. لكن هذا لم يهز اطمئنانها إلى أن الأمور ستمر على حالها. الحاكم مُنَعَّم في قصره، والمحكومون يلهثون وراء أكل عيشهم في كل مكان.

حين عاد زوجها وأولادها كانت قد فرغت من إعداد الطعام. كان موضوع النقاش على المائدة هو عن الحلقة المنتظرة من «المسلسل العربي» التي سيعلقون عيونهم بصور ممثليها وهي تترى، ويشنفون آذانهم بالحوار الذي يجري على ألسنتهم سخيًّا رخيًّا كدفقات النسائم الطرية.

ذهبت وزوجها إلى القيلولة المعتادة، وحين راح رنين المنبه يتصادم في الفراغ ويرتد إلى رأسها الملقى على الوسادة، ويتخالط مع الشخير المتبادل بين النائمين، فتحت عينيها في بطء، وراحت تتثاءب، واعتدلت، وغمزت مخيمر في كتفه فتململ قليلًا ورفع رأسه، ثم انتفض ناظرا في ساعته وهو يقول:

- موعد المسلسل أزف.

ونهضا متوجهين إلى الصالة. جلست هي على «الكنبة»، عرشها الدائم، الذي اختارته بنفسها. التقطت الريموت، وراحت تمرق نحو القناة المقصودة. تتابع الشاشات متشابه في عينيها، رغم اختلاف أهدافها وأصحابها وبرامجها. لا

تدري ما هذا؟ صورة واحدة لمكان فسيح لم تتبينه مملوء برؤوس مرفوعة، وأيادٍ تدق الهواء، وأصوات هادرة لم تتبينها.

قال لها مخيمر:

- انتظري لحظة.

وقف إصبعها في مكانه، فثبت الزر، ووضحت الصورة. تفرست فيها ثم صاحت:

- هذا ميدان التحرير.

فمد زوجها بوزه، وثبت عينيه في الشاشة، ثم قال:

- فعلا.

لم تستطع صبرا، فضغطت على الزر، ذاهبة نحو القناة المقصودة. وحين تهادت وجدت جملة «ونعرضها غدا»، مكتوبة تحت الرؤوس المتزاحمة والهدير. لم تفهم، لكن بعد برهة بدأت تمشي على الشاشة عبارة طويلة تقول:

«نعتذر عن عدم تقديم حلقة الليلة من المسلسل العربي نظرا للأحداث الجارية ونعرضها غدا».

نفخت متبرمة، وزفر هو، وجاءت مايسة ومجاهد، يتساءلان عن تأخر المسلسل، فلم يجدا جوابا. جلسا وبعد برهة غرقا في الوجوه المكدسة، ووجدا نفسيهما يرتجفان قليلًا، لكنهما طردا هذا الشعور، وقال مجاهد:

- الله يخرب بيتهم، نفذوا كلامهم. ليست هناك مشكلة، ساعة ويطردهم الأمن المركزي أو يقبضون عليهم كالفراخ، وبعدها سيذاع المسلسل.

لكن أمه، تنهدت في ألم وقالت له:

- ريَّح نفسك، المسلسل لن يأتي.

أشاح بيده، وصرخ غاضبًا:

- لأجل هؤلاء يؤجلون الحلقة.

مدَّ مخيمر يده، والتقط برتقالة، وراح يقشرها في هدوء وهو يقول:

- يبدو الأمر هذه المرة مختلفا.

***

بالأمس كان مجاهد يراسل فتاته على «فيس بوك»، وكانت مايسة تراسل فتاها. قضيا الليل كله يرشقان حروفا غارقة في الهوى، وعيونهما تلمحان بين آن وآخر تلك الدعوة التي تتناسل إلى التظاهر. لم يكن لديهما وقت للتوقف عند هذا، ولا يدخل الأمر في دائرة اهتمامهما أبدًا.

وتوالت أيام تأجيل المسلسل؛ لأن هناك مسلسلا حقيقيا قد بدأ، هو من لحم ودم، لا يتوالد على الشاشات صورا وكلاما، لكن يولد هناك في الشوارع والميادين، أبطاله لا يهتمون بوضع المكياج، ولا حفظ النصوص التي رسمت

بعناية من قبل مؤلف يحتسي فناجين القهوة وينفث دخان سيجارته على الورق، ولا يقبضون أجورا من منتجين جيوبهم متورمة من حصيلة ما جمعوه في المساحات الفاصلة بين العيون والشاشات، لكنهم أبطال جاءوا ليدفعوا الثمن. لا يمثلون بالقطع، بل يقومون بأدوارهم الطبيعية. ربما هي أدوار أدتها قلة منهم قبل ذلك. لكن الأغلبية تؤديها للمرة الأولى في حياتها. وقد تكون هي الأهم في كامل أعمارهم.

لم يرُقْ ما يجري للست سكينة. عقب جمعة الغضب ذهبت إلى مقر عملها في شارع قصر العيني، نظرت إلى ماكينة صرف النقود المكسورة على باب بنك مصر والعربات المحترقة وواجهات الزجاج المكسورة لبعض المحلات، وقالت:

- خربوا البلد الله يخرب بيوتهم جميعًا.

وفي طريق عودتها انعطفت يسارا حتى وصلت إلى شارع الفلكي، وصلت إلى المكان الذي يجلس فيه عم فاروق ماسح الأحذية، فوجدته خاليا. طالما توقف مخيمر عنده ومد إليه حذاءه، وانتظرت هي على الرصيف المقابل تحت المبنى العتيق التابع لوزارة الصحة، والذي يلفظ باستمرار بشرا متعبين يبحثون عن دواء لأمراضهم المزمنة.

لم تكن تعرف أن البلطجية هم من فعلوا ذلك في الليلة الفائتة؛ ليكره الناس الثوار، بعد أن تنطلي عليهم دعاية السلطة التي تقول إنها مؤامرة أجنبية حقيرة على مصر.

عادت بعيد الظهر، وفي قلبها هلع، وفي نفسها اشمئزاز، وعلى وجهها كآبة. لم تجد أي شهية لتناول غداءها، ولم يزر النوم جفنيها. تمطعت مكانها، وقامت إلى «الكنبة». جلست، وضغطت على زر الريموت، وتنقلت بين القنوات، ثم عادت إلى فضائيات ماسبيرو حيث وجدت فيها ما يرضيها. كرهت كل من يقف في التحرير، وذرفت دموعا غزيرة حين طلب الطاغية أن يتركوه ليموت ويدفن على أرض مصر. لكن حين تنحى اهتزت، ولم تدْرِ بنفسها إلا وهي تتدحرج نحو المصعد، وتهبط إلى الشارع لتشارك الناس احتفالهم، وإلى جانبها مخيمر، وخلفها الابن والابنة. كادت أن ترقص، وهي تقول في نفسها:

- الله يا أبطال.

وكانت تستحضر في هذه اللحظة كل ما تعانيه في مكاتب العمل. الترقيات التي تتجاوزها أحيانًا، والمنافقون الذين يصعدون، والنساء الجميلات اللاتي يتمتعن بوضع مميز طول الوقت، وأولئك الذين يمتون بصلة قرابة إلى رجال كبار في نظام الحكم، والموصى عليهم من ضباط أمن الدولة. استعادت كل هذا جملة واحدة، ووضعت إلى جانبه ما يضنيها من تفكير متكرر في كيفية تلبية كل احتياجات الأسرة، مع تواضع المرتبات وارتفاع الأسعار.

ليلة قضت جزءا كبيرا منها في الشارع، ثم عادت لتنام، وتصحو لتجلس على

«الكنبة» وتنصت إلى كل ما يقال، وتصرخ: «كفاية ثورة... عاوزين استقرار»، ودارت عجلة إنتاجها هي في المطبخ والمكتب، فقالت «نعم» للتعديلات الدستورية، واختارت مرشحي الإخوان المسلمين في الانتخابات التشريعية، وحين جاءت انتخابات الرئاسة صوتت مرتين هي وزوجها لمرشح النظام القديم، ولم تنصت أبدًا إلى الموظف الجديد، الذي تشتعل أعصابه دومًا وهو يتحدث بحرقة عن حقوق الشهداء وسرقة الثورة ويتهم المجلس العسكري بالخيانة والإخوان بالانتهازية، ويقول لها في غدوه ورواحه، بعد أن ينظر مليا إلى وجهها الساكن:

«آه يا جيل عاش طول عمره ظالمنا بسكوته

ولما إحنا اتكلمنا جه النهارده وموتنا بصوته»

فتنظر إليه باشمئزاز وسخرية وهي تقول:

- مَن أنت؟

فيجيبها دومًا:

«إحنا الصوت.. لما تكون الدنيا سكوت».

فتشيح بوجهها عنه، وتقول:

- أصبح لدينا رئيس جديد، اتركوه يدير البلد وأعطوه فرصة.

فيقهقه حتى يملأ صوته المكتب ويسيل منه إلى الصالة ويقتحم المكاتب المجاورة، ويقول:

- وما يمنعه؟ هل نقف على رأسه بالمسدسات والسواطير ونحرمه من أن يفكر ويدبر ويتخذ القرار الرشيد؟

فتقابل كلامه بالصمت، وتنظر في ساعة يدها متلهفة أن ينقضي يوم العمل لتعود إلى البيت تتناول الغداء وتنام قليلًا إلى جانب مخيمر وتستيقظ قبيل الغروب لتتابع الحلقة الجديدة من المسلسل العربي.

43

يذهب حامد عبد الظاهر إلى الميدان غارقا في التفكير، في يده كشكول مسطر وقلم رصاص وأستيكة، وفي عينيه ألق، وأنفه يريد أن يقف على كثير مما قرأه في الكتب عن العبيد الذين أذلهم النهر، واستخفَّ بهم الفرعون والكهنة والراكبون فوق العجلات الحربية، ويرن في أذنيه كلام حبيبته النوبية دارية، التي حلم بأن يضمهما بيت واحد في يوم من الأيام، لكن تقاليد أهلها ترفض هذا الحلم؛ لأن النوبيات لا يسمح لهن بأن يتزوجن من غير بني جلدتهن.

بعد شهر واحد من تسجيل أطروحته للدكتوراه في جامعة جنوب الوادي عن موضوع « ثوابت ومتغيرات ظاهرة الاستبداد في المجتمع المصري» اندلعت الثورة، فتبعثر كل شيء منه. كان قد استسلم للمقولات القديمة التي أطلقها الأساتذة الراحلون ثم صمتوا، وتركوا الأجيال اللاحقة ترددها كالببغاوات:

«الفلاح المصري ليس أمامه سوى الخنوع للحاكم الذي ينظم له عملية الري ويتدخل ليحميه من غدر النهر حين يفيض».

«في مصر ليس هناك سوى السيد المُطاع والعبد المُطيع».

« عند قدماء المصريين كان الملك يُؤلَّه في حياته، وبعد مماته».

«شعبها لمَن غَلَب».

«مَن يتمرد ليس أمامه من سبيل سوى أن يخرج من شريط الوادي الضيق إلى المفازات الشاسعة فإما أن يهلك أو يقضي بقية عمره منفيا».

«انتقال التصوف من الصوامع إلى التكايا عَلَّم الدراويش الاستسلام».

ها هم قد خرجوا على ما اعتقد هو أنه المألوف أو الحقيقة الثابتة التي لا تتغير مع الزمن، وأفسدوا له كل شيء. ها هو النهر يجري، والأهرام مكانها، وتكايا المتصوفة على بعد أمتار قليلة من موضع قدميه، والصبية هم من يركبون العجلات الحربية، وتجري بهم في شوارع وسط البلد، كأنه موسم للتنزه، أو فرصة استثنائية للأطفال كي يلتقطوا صورا فوق الدبابات والمصفَّحات الواقفة مكانها كشواهد القبور، بعد أن كتبوا عليها عبارات تطالب بسقوط الفرعون.

يفتح الكشكول ويقول في سرِّه: «لنبدأ على بركة الله»، ثم يسجل كل شيء. الشعارات المرفوعة، والهتافات التي تقذفها الحناجر نحو الصمت والفراغ فتبددهما. يسأل الناس عن الأمور جميعها، بعد أن حدد دليلا واسعا وعميقا للمقابلات.

يبدأ بمعرفة سن وجهة ووظيفة ومستوى تعليم ودخل المبحوث وانتمائه السياسي، يبدأ في طرح الأسئلة: منذ متى وأنت هنا في ميدان التحرير؟ هل شاركت في مظاهرات من قبل؟ لماذا تتظاهر الآن؟ ما هي مطالبك؟ ماذا يعني إسقاط النظام؟.... وهكذا عشرات الأسئلة، تتبعها إجابات متفاوتة في القدر

والحجم والعمق بين ثائر وآخر.

وحين سأل عن أحد القيادات الشابة في الميدان كي يجري معه مقابلة متعمقة، قادوه إلى حسن عبد الرافع. التقاه عصر اليوم الرابع عشر لاندلاع الثورة، في الجانب الأيمن من ميدان التحرير، وقال له:

- أعرف أنه من غير المناسب أن أشغلك بحاجتي، لكن لا أجد شخصا غيرك يمكنه أن يجيب على أسئلتي.

وذهبا سويًّا إلى مقهى «المشربية» وبعد حديث قصير عرض فيه حامد الفكرة الرئيسية لبحثه، راح يطرح الأسئلة ويتلقى إجابات يسجلها بسرعة خاطفة في الكشكول، حتى سَوَّد تسع صفحات كاملة، بينما شربا سويًّا أربعة أكواب من الشاي، وقاما متوجهين إلى الميدان.

كان المتظاهرون يقاومون تعبا وإرهاقا شديدين من أيام قضوها في العراء قابضين على الأمل. بعضهم بدأ يعكس الهتاف الشهير «مش هنمشي.. هو يمشي» الذي أطلقوه في وجه كل مَن قالوا لهم انصرفوا إلى بيوتكم، رسالتكم وصلت، والرئيس سيستجيب إلى كل مطالبكم. قلبوه إلى «مش هيمشي.. إحنا نمشي».

وأنصت حامد إلى هذه الهتافات وكتب في صفحة جديدة ناصعة:

«هاجوا كسَيلٍ عرمرم ثم أخذ ماؤهم ينحسر حتى كاد أن يجف. انطلقوا بأمل كاسح ولم يلبث أن دبَّ اليأس في نفوسهم فتراخت عزيمتهم، وتملكهم شعور قوي بأنهم طلبوا ما هو فوق طاقتهم».

وحين عاد إلى استراحة الجامعة في «عمارات العرائس» بشارع «أمين سامي» راح يقلب في مجموعة الكتب التي حملها معه من الصعيد الجواني عن ثورات المصريين، مرَّ بالصفحات في سرعة خاطفة، وراح يضاهي ما سمعه هناك من أفواه المجهدين الكُثر بما هو مكتوب. توقف عند سطور معينة، ورسم تحتها خطوطا، ثم دوَّن ملاحظات في الهامش الأبيض الممشوق على يسار الصفحة.

بعد ساعات من التنقل بين ما رأى وما قرأ، كتب:

«لقد أدمنوا أَنْصَاف الثورات. غضبهم متقطع لكنه عارم، إلا أنهم يهدأون قبل الأوان، يقطعون رؤوسا ويتركون ذيولا، قد تنمو أسرع مما يتصورون وتصير رؤوسا جديدة، وقد يتركون بينهم مَن ينقلب عليهم غدا ويخطف منهم كل شيء، ثم يعيد الأمر إلى ما كان عليه».

لكن هذا لا يجيب على السؤال الذي يؤرقه دومًا:

- هل هم خانعون دومًا؟

يقرأ عن أنهم صنعوا أول ثورة في تاريخ الإنسانية، ثم توالت احتجاجاتهم على

مدار القرون ولم تتوقف، أما هو فيتوقف عند هذا الكتاب الذي بيَّن كيف انسحب الفلاحون من الأراضي التي يملكها الأعيان حتى اضطر مجلس شورى النواب في عهد الخديوي إسماعيل أن يناقش هذه القضية في أولى جلساته. وعندها يبتسم، ويحدِّث نفسه:

«مهرة في التحايل، يسخرون من الجلادين، ويفاجئونهم بأفعال غير مألوفة تجعلهم يضطربون ويذعرون وقد ينزلون على ما طلب منهم، ويرتدعون عند استخدام السياط المعتقة ولو قليلًا».

بدا متشككا في كل شيء، وكان عزاؤه أن الشك إحدى السمات الأساسية للتفكير العلمي، هكذا علمه أساتذته، وهكذا قرأ في بطون الكتب التي يحملها أينما ذهب.

كان في طفولته ينصت مليا إلى جده وهو يروي له ما فعله الباشاوات بالفلاحين. يتوه قليلًا ويقول له:

- كانوا يجلدون ظهورنا ونحن نكدح تحت شمس الظهيرة، رؤوسنا مدفونة في أعواد القطن، ولا نجرؤ على أن نقيمها، وننظر غاضبين في عيونهم.

وحين يسأله:

- لماذا لم ترموا الفؤوس وتتركوا لهم الأرض تبور؟

يضحك عن أسنان مثرمة، ويرد:

- البعض كان يهرب إلى بلاد الله، لكن الأغلبية كانت تتحمل. هناك مَن فكر في أن يحرق زرع الباشا أو يسمم بهائمه، وقليل ما حدث هذا.

***

ويعود إلى كتب التاريخ فيجدها مفعمة بوقائع السلاطين ويومياتهم. لا يوجد شيء كثير عن الفلاحين وأرباب الحرف والزعر والنور والجعيدية والعيار والشطارين. هناك شذرات متفرقة في ثنايا الحوليات والموسوعات واليوميات. يضع ابن خلكان فوق ابن تغري بردي الأتابكي وفوقهما المقريزي والجبرتي، ويرمق الصفوف من على بعد أمتار ويقول:

- هنا يسكن كل شيء.

لكنه يترك المجلدات الراقدة في صمت، وينزل إلى الشارع الذي يحفل بحركة رهيبة، يقابل الناس، يتفرس وجوههم، وينظر في عيونهم، وهو يستعيد كل ما خزنه في رأسه من معلومات. يقارن هذا بذاك، ويستنتج كثيرا مما يقصد الوصول إليه، لكن الشكوك تطارده.

يذهب إلى مقهى زغلول الذي يقع على يسار مؤسسة روز اليوسف الصحفية العريقة. لم يعد أحد يجلس على الرصيف خارجها، فبدا موحشا عاجزا تحت ظلال الأشجار الثلاث التي تقف صامتة وتنيخ على المقهى؛ لتبتلع الدخان

الخارج من منخريه المصنوعين من الألوميتال البني الغامق. يدخل إلى المساحة الضيقة المحصورة بين حائط أسمنتي وآخر زجاجي، ويترك أذنه لثرثرة الجالسين.

المكان ضيق والكلمات لها رنين. يرى في كل ما يجري بينهم استسلاما لما كان قائما وخوفا من المجهول. في كل مرة ينزل إلى المقهى يسمع هذا الكلام، وحين سأل عن الثورة، قال له أحدهم:

- الثورة في التحرير.

لكنه كان أحيانًا يجد فيهم مَن تسعده الريح التي كنست بعض القش المتعفن، وراحت تصنع دوامات لا تنتهي هناك في الميدان الذي يجلس على بعد مئات الأمتار من هذا المقهى.

واتصل بأستاذه يطمئن عليه ويطلعه على ما يفعله، فقال له:

- اذهب إلى ميدان مصطفى محمود.

وفهم ما يقصده أستاذه، الذي كان يقول له دومًا:

- الباحث القدير هو من يُقَلِّب الأمر على كافة وجوهه، وينصت إلى كل الأطراف، كما يفعل القاضي العدول، ولا يستعجل في إطلاق الأحكام.

وذهب إلى هناك؛ ليقابل أنصار النظام، وينصت إليهم مثلما أنصت لمن يطالبون بإسقاطه. جمع كل ما يبدر عنهم من هتافات وشعارات. سألهم ولملم الإجابات. رمى أذنه لتلتقط كل ما يدور بينهم من حوارات. صراخ هادر وهمس ناعم.

وجلس طويلًا مع عاطف الشطنوفي على مقهى العمدة. ووجد نفسه في هذا المكان متناغما أكثر مع ما طالعه في بطون الكتب السابقة. لكن قال لنفسه: لا تتعجل، أغلب مَن يحتشدون هنا يخافون من الجديد أو يبكون على مصالحهم ومنافعهم التي تهزها ريح الغضب.

خرج من الميدان بصحبة دارية التي التقاها عند تمثال عمر مكرم كما تواعدا، دعاها إلى العشاء في حاتي «عظمة» تحت كوبري الدقي، وحين عاد إلى الاستراحة في المساء ضغط على زر الريموت فامتلأ المربع الواقف أمام عينيه صورا ملونة. كانت إحدى قنوات التلفزيون الرسمي، وقد قسمت الشاشة إلى نصفين تمامًا، وبينهما وجه لمذيعة تقول بحروف مرتعشة: «على يمين الشاشة مؤيدو السيد الرئيس وهم أكثر من المخربين الذين يسعون إلى إشاعة الفوضى والدمار، وهم متواجدون على يسار الشاشة».

أوقفته الدهشة فقد عاين بنفسه كل الفروق، ثم انخرط في ضحكات عالية، جعلت زميله الذي يدرس الكيمياء والنائم في غرفة مقابلة بابها موارب قليلًا يتنحنح ويقول له:

- اهدأ يا حامد، عاوز أنام.

فابتسم وقال:

- كلها كيمياء يا سمير.

ثم أطفأ النور وألقى جسده المنهك على السرير، ولم يلبث أن ارتفع شخيره فلوث الغرفة وساح من تحت بابها ونصف النافذة المفتوحة إلى الردهة الخارجية التي يعبرها في هدوء كل القادمين نحو فرشهم المتأرجحة على أحلام وأوهام كثيرة.

44

انتظرت حنان المنشاوي الفرج بعد الشدة، وها هو قد جاءها. فذات ضحى استيقظت على صراخ التليفون. كان يفرغ الرنين في إلحاح شديد تسرب إلى نومها العميق فتململت قليلًا ثم لم تلبث أن فتحت عينيها والتقطت السماعة قبل الرنة الأخيرة.

- ألوووو...

- حضرتك حنان المنشاوي؟

- نعم.

- أنا هدى السويسي.

طار النوم من عيني حنان وارتسمت على شفتيها ابتسامة، ثم قالت في اطمئنان شديد:

- كنت واثقة أنكِ ستتصلين بي.

فجاءتها ضحكة سكبت في أذنيها دفقات متواصلة من التفاؤل والحبور، وسمعت من الطرف الآخر:

- أنا تحت أمرك يا أخت الأبطال.

في هذه اللحظة اطمأنت حنان إلى أنها قد وضعت قدميها على أول طريق الشفاء. فمن ذا الذي بوسعه أن يتوجع وهو بين يدي السيدة هدى السويسي؟ امرأة جميلة في الخمسينيات من عمرها الحافل بالتضحيات. تعودت أن تعطي ولا تقف ولو لبرهة قليلة لتسأل عما يجب أن تأخذه.

هكذا آلت على نفسها منذ أن بدأت قبل الفوران بسنين طويلة بتدريس التربية الدينية للأطفال في جمعية «الزهراء»، ثم وهي تدور على ملاجئ الأيتام، تكفكف الدموع وتطلق الفرح في عيونهم البريئة، أو وهي تغبر حذاءها غالي الثمن في الشوارع المتربة للأحياء العشوائية؛ لتباشر تنفيذ مشاريع الصدقة الجارية، حيث السواعد المفتولة ومَكِنات الحفر التي مدت تحت الأرض قليلًا مواسير مياه الشرب النظيفة لهؤلاء المحرومين. تخرج من الخنقة إلى المسافات المفتوحة وشعرها الناعم يهفهف في النسائم العابرة، لكنه لا يحرك الصمت اليقظ داخلها، والذي يمنعها دومًا من أن تتحدث عما تفعل.

لكن صمتها انكسر ذات مساء وهي تطالع الشاشات والورق الطويل العريض لصحف تتدفق يوميا عن الشهداء والمصابين. صرخت من أعماق قلبها وهي ترتجف أمام شاشة التلفزيون الطويلة العريضة التي تبدو كسينما صغيرة في منتصف بهو فيلتها الوسيعة:

- حرام عليكم يا ظلمة.

وما إن ارتفعت الشمس قليلًا في كبد السماء حتى كانت قد أنهت اتصالها بكل من يعنيهم أمر اللحم الذي يتمزق، والدماء التي تسيل، والعيون التي يفقؤها الرصاص، والصدور التي يخنقها الغاز، والعظام التي تدهسها المصفحات التي لا قلب لها.

في اليوم التالي كانت عربات الإسعاف تنقل أصحاب الإصابات الخطيرة من المستشفيات البسيطة التي ليس بوسعها أن تعالجهم إلى مستشفى قصر العيني الفرنساوي، بعد أن اتفقت مع إدارته على تخفيض نصف تكاليف الجراحة والعلاج، ثم ساهمت في نقل الحالات الأكثر خطورة إلى ألمانيا والنمسا والسويد؛ ليعالجوا هناك مجانا. ذهبت مع بعضهم إلى المطار، وربتت أكتافهم، وطبعت قبلات على جبين أولادها المعلَّقين بين الحياة والموت. وحين عادت قال الناس لها في قلب الميدان الكبير الذي يطوق ذراعيه على مئات الآلاف من البشر:

- أنتِ أم المصابين.

وفي مكتبها فتحت إدارة كاملة لمتابعة كل شيء. تنقر على «الكي بورد» فتوثق بيانات المصابين. كل شيء عن الأسماء والعناوين والأقارب الذين يقفون ملهوفين أمام مبانٍ تنبعث منها روائح الفينيك والميكروكروم والعتمة المثلجة. وكل شيء عن مواعيد العلاج ونفقاته والأطباء الذين يتابعون ويبذلون كل جهد مستطاع في سبيل تخفيف الألم ومنح الأمل، وكذلك النفقات التى تم صرفها، وما تبقى، وكيف يمكن تدبيره؟

***

حين تجلس مع نفسها بعد انقضاء شهور العطاء والعذاب واللهفة تحل برأسها صور الذين سكبت في أفواههم المنفرجة قليلًا جرعات ماء تروي لحظة الرحيل، وأولئك الذين مدت يدها الرقيقة لتغلق جفونهم المنبلجة على الفراغ، والذين ندت عنهم آخر آهة توجُّع قبل الصمت الدنيوي الأبدي.

لا يمكنها أن تنسى أبدًا الفتى الحالم الذي مات بعد 40 يومًا من إصابته بطلق ناري بالعنق يوم جمعة الغضب. كانت إلى جانبه وهو يرفرف مودعا كل شيء وراء ظهره، أشياءه وأمانيه. وكم شعرت بالعجز وروحه تصعد إلى بارئها؟ وكم تمنت وقتها لو كان بيدها أن تمنحه بعض الوقت ليطلق في العتمة الحالكة أحلاما جديدة؟

ولا يمكنها كذلك أن تنسى الصبي الرائع الذى دهسته سيارة دبلوماسية فزعة بشارع قصر العيني كانت تحاول أن تهرب بعيدًا عن حشد من المتظاهرين. كان الأطباء يتابعون حالته الميؤوس منها ويقولون لها:

- وفِّري المال لآخرين، هذا الصبي أيامه في الدنيا معدودة.

لكنها كانت تصر على أن تستمر في علاجه وهي تضع نفسها مكان أمه التي

تغرف بكفيها كل يوم دموعا لا تكف عن الهطول، بعضها ينسكب على شفيتها المقددتين حزنا فتبتلان قليلًا، وبعضها يتسرب إلى جوفها المعجون بطعم الصبار، فيمنحه بعض الملح الذي يخفف المرارة قليلًا.

وذات مرة صرخت في وجه طبيب طلب منها ألا تتعب نفسها ومالها:

- لو كان ابني كنت سأفعل المستحيل حتى آخر لحظة.

لكنه فارق الحياة في الثالثة فجرا، بالضبط بعد خمسة أشهر من إصابته، ونزلت هي فورًا من بيتها لتلقي نظرة الوداع عليه. وبعد أيام قليلة كانت في قاعة النساء بمسجد عمر مكرم تتلقى عزاءه. ألم يكن ابنها؟

كلهم كانوا أبناءها أو إخوانها. ومن أجلهم تحاملت على نفسها ووقفت ذات عصر على المنصة الكبيرة في الميدان الفسيح لتقول للناس في كلمة مقتضبة وعفوية لكنها عميقة ومؤثرة:

- لا تتركوا أيًّا منهم يواجه الموت وحيدا.

تجلس في ساعات الراحة أمام التلفزيون ترى وجوها كثيرة وتسمع كلاما في كلام. تبتسم حين تسمع أولئك الذين يفرطون في الحديث عن حقوق الشهداء والمصابين. تسخر منهم جميعًا وتقول:

- لم يأتِ أحد منهم ليخفف عن المصابين. طلبتهم كثيرا لكنهم مشغولون بالثرثرة.

كانت أحيانًا تتلقى مكالمات من حسن عبد الرافع يدلها على مصابين ملقين في المستشفيات الخلفية لا يعرف أحد عنهم شيئًا. وكانت صفاء عليوة تتبعها أحيانًا، وتنتظر أوامرها. هدى السويسي التي أرسلت حسن وصفاء لزيارة حنان المنشاوي حين سمعت بحالتها. وهي التي همست في أذن حسن:

- تحتاج السفر إلى ألمانيا؛ فجراحة العظام هناك متقدمة.

وحين شرعت في إنهاء أوراق سفرها كانت ألمانيا كفَّت عن تجبير عظام المصريين التي انكسرت وتهشمت في ساعات الغضب؛ فالحكومة أنشأت صندوقا لمعالجة المصابين، وحين فتحته أُغلقت كل الصناديق الأخرى. لكن هدى لم تيأس، تبرعت بجزء من تكاليف العلاج وهاتفت آخرين من الموسرين ليشاطروها، فوجدت نفوسهم قد تحولت.

وحين قابلها حسن في مساء هذا اليوم، اشتكت له تبدل الأحوال، كان صوتها مخنوقا تغالب البكاء، لا تعرف السياسة وألاعيبها، وما تعرفه جيدًا أن العالم كله يجب أن يقف على قدم واحدة لينقذ نفسا من الرحيل. أنصت حسن، وأومأ قليلًا، ثم ابتسم، وقال لها:

- كيف يُعِين الناس مَن تهاجمهم السلطة ليل نهار وتصفهم بأنهم مخربون وبلطجية؟

فرفعت وجهها في فزع وقالت:

- تقصد أن هذا هو سبب تكلؤهم في الاستجابة لمطالبي؟

- طبعًا. ألم تقابلي الجنرال الكبير مرات ومرات، فيهز رأسه ويعد بما هو عازم على أن يخلفه؟

- لا أصدق أنه يراوغني.

- لو اتخذ قرارا واحدا لصالح الثورة لرفعها الناس فوق رؤوسهم ووضعوها في عيونهم، واحتفوا بمن أطلقها، وجمعوا قروشهم مهما ندرت من أجل علاج أولئك الذين حال القدر بينهم وبين التضحية بأرواحهم.

- فهمت الآن سخريته مني حين أبلغته بأن بعض المصابين الذين تماثلوا للشفاء انضموا إليَّ في مساعدة زملائهم الذين لا تزال جروحهم تنزف وعظامهم لم تلحم بعد.

- سخر منا هو ورفاقه حين أوهمونا بأنهم كانوا في مقدمة الصف.

- لم يمر وقت طويل حتى انضموا إلى القتلة، وضحاياهم نزفوا وماتوا على يديَّ هاتين.

- ومع هذا يؤكدون دومًا أنهم لم يسفكوا دما، وكأننا لا نسمع ولا نرى.

- ألغاز في ألغاز، فوضى وغموض، والحقائق غائبة.

لكن هذا لم يحبطها. كانت تغمض عينيها حيال كل شيء، ولا ترى أمامها إلا ما تسعى هي للوصول إليه. فلا يوجد عندها أبدًا أولى من رتق جرح ينزف، وجبر عظمة مكسورة، وكفكفة دموع أم ثكلى. وكانت تقول لنفسها دومًا:

- أنا أعمل في النصف الحقيقي من الثورة.

وتقول لأهالي المصابين والشهداء:

- أولادكم هم الأبطال الحقيقيون.

وتوالى الغضب، ومع أول شرارة لكل غضبة منها، تسارع لأداء واجبها. تسبق انبجاس الدم وتهشم العظم وحلول الرصاص المطاطي في اللحم الساخن. تصل إلى المستشفيات قبل وصول كل هذه الحالات، تهرول نحو الخطروتقول:

- زجاجة دواء واحدة ومرضى كثيرون.

وحين جاءها نبأ إطلاق الرصاص نحو رأس وصدر حسن عبد الرافع هرولت إلى المستشفى الذي نقلوه إليه، والأمل يحدوها أنها ستجد أنفاسه لا تزال تتردد، حتى لو كانت واهنة، وأنها ستبذل ما في وسعها من أجل أن يعود يدب على أرض الشوارع، ويصرخ في الميادين، وينقر على رقعة حروف الحاسوب، ويتحدث أمام الكاميرات وخلف الشاشات الزرقاء، ويجوب الأحياء الفقيرة والقرى المنسية ليسمع الناس صوت الثورة.

لكن حين وصلت وجدته ممددا في ثلاجة معتمة يلفه السكون...

45

كان شادي محمولا على كتف أبيه حين شق به الزحام باحثا عن أي بقعة غير مزدحمة بأجساد المتظاهرين. رفع بصره الغض ومسح به الميدان من أقصاه إلى أدناه، ثم رفع يديه ورفرف وهتف:

- الحرية مش ببلاش.

ابتسم الأب، وهز رأسه، ونظر إليه الناس بفرح، أما هو فكان مأخوذا بهذا المشهد المهيب، ولا يريد أبدًا أن يفارقه. حين رآه في التلفزيون ليلة أمس قال لأبيه:

- عاوز أروح الميدان.

لكن أمه صرخت في وجهه:

- ميدان! عاوز تموت يا ابن مصطفى بعد ما خلفتك بالعافية.

ظلت عشر سنوات كاملة تدور على الأطباء، وتتعاطى كل أصناف الأدوية. وأخيرا رزقها الله به، فحملته في قلبها، وجعلته بين عينيها، وكرَّست كل وقتها لرعايته، وتحملت من أجله كل متاعب الحياة.

وقال أبوه وهو يضحك:

- بعد معركة الجمل صار الميدان هادئا وآمنا، وأسر كثيرة تأخذ أولادها الصغار ليلتقطوا الصور إلى جانب الدبابات وفوقها، ومع الجنود الواقفين في صمت.

اقتنعت، لكنها اشترطت أن تأتي معهما، فوافق الأب، وصار ثلاثتهم بعد ساعة واحدة في الميدان. دخلوا من ناحية شارع قصر العيني، ووجدوا أنفسهم يتدحرجون دون وعي إلى أن صاروا بالقرب من منتصف الميدان حيث الأجساد المرصوصة. كان الولد وسطهما يرفع رأسه ليلتقط بعض الهواء القليل الذي ينزلق من الأكتاف المتفاوتة في عرضها وطولها.

ولما شعر بالاختناق، صرخ، ورفع ذراعيه إلى أعلى، فمد أبوه له يديه والتقطه ورفعه فوق كتفيه، ثم راح يخرج إلى الدوائر الأوسع، الأقل حشدا، من الميدان. انعطف يسارا قليلًا، فيمينا حول الكعكة الحجرية موليا وجهه شطر المتحف المصري. كانت ثلاث دبابات تقف عند مدخله، فما إن رآها الولد حتى صرخ:

- عاوز صورة.

ذهب الأب نحوها، أنزله عن كتفيه، وأوقفه أمام الجنزير الحديدي الذي تآكلت بعض جوانبه قليلًا، ثم أخرجت الأم الكاميرا من حقيبتها، والتقطت له عدة صور، وطلبت من الأب أن يقف إلى جانبه، ويحمله بين ذراعيه، وبعدها على كتفه، وهي تلتقط الصور. استبدلا الأماكن، الأم مع الولد، والأب يمسك الكاميرا. طلب الولد أن يقف فوق الدبابة. نظر الأب إلى الجندي، وفي عينيه رجاء، فابتسم له وأشار بيده مؤذنا له بما يريد.

رفع الأب الولد وأوقفه فوق الدبابة. كانت قدماه تمسان الجملة المكتوبة بخط نحيل وعلى عجل: «يسقط مبارك»، ويداه مرفوعتان بموازاة البرج الصامت الخامل.

كان يضحك فيشرق وجهه، وكانت عيناه تلمعان. فقد أسعده أنه يقف أعلى من كل الواقفين هناك في الميدان. ورمى بصره ناحية اليمين فوجد شابا يجلس القرفصاء أمام وجه طفل صغير، يمد إليه عِصِيًّا ملونة، يخط بها على خده رسما. أشار بيده، وقال لأبيه:

- عاوز أرسم وجهي.

أنزله من فوق الدبابة، وسار إلى الرسام، الذي فرغ للتو من رسم علم مصر على خدي طفل، ثم انطلق مع أهله نحو الحشد الكبير.

غمس الرسام فرشاته في دوائر صغيرة ذات ألوان كثيرة، ودفعها إلى خد الولد، فاقشعر في بادئ الأمر، ثم استكان، وترك وجهه للألوان المبهجة. رسم له على الخد الأول علم مصر. ثلاثة مستطيلات متساوية، الأسود والأبيض والأحمر. وعلى الأبيض يقف النسر فاردا جناحيه وكأنه يستعد للطيران. على الخد الثاني كتب له: «25 يناير». ومد حرف الراء فاقترب من شفته العلوية، وكان حين يدلي بصره نحو خده يرى الكتابة أيضًا كأنها طائر عملاق يمد منقاره نحو مئات الآلاف من الرؤوس التي تهتز هناك وسط الهدير.

***

ساروا عائدين إلى قلب الميدان، فمروا ببائع أغطية الرأس، مختلفة الأشكال والأحجام، وملونة بألوان العلم. وضع الولد يده على واحد منها على شكل دائرة تخرج منها ثمانية قرون، تنتهي بجلاجل. راح يهز رأسه بقوة فتصتك بعضها ببعض، وتحدث صوتا مبهجا، جعله يتراقص، ويدور حول نفسه مبتهجا، ويقول:

- الثورة جميلة جدا.

نظرت أمه إليه وابتسمت وهي تقول:

- جميلة لمن يدفع ثمنا باهظا من أجلها، ومراراتها قد لا نراها الآن.

ونظرت ناحية اليسار فوجدت اللافتة التي كتبها الثوار على حائط قصير مثلثي، ذي لون بني باهت، تقول:

«ميدان الشهداء».

وأشارت بيدها نحو اللافتة، فسار معها الأب، وهو يمصمص شفتيه ويقول:

- رحمة الله عليهم، ماتوا من أجل أن نعيش حياة كريمة، والله وحده أعلم بما إذا كان ما ضحوا من أجله سيأتي أم يتوه في تعاريج لا تنتهي.

ومرت مسيرة تجوب الميدان، فجرفت معها الولد، دون أن يدري الأب والأم عنه شيئًا. كانت تأتي من ناحية السور الذي يفصل باحة الميدان عن الأبنية الواقفة

في وجه الريح على أكتاف مطاعم وشركات سياحة ومقاهٍ ومحلات لبيع الهدايا وسنترال، وانعطفت يسارا فيسارا عائدة إلى قلب الميدان. بين السيقان المتلاحمة كان الولد يتراقص في مسافة ضيقة تركها له مَن شعروا بوجوده بينهم، ثم مال سامر خفاجي وحمله على صدره، وراح يهزه متماشيا مع إيقاع الهتافات.

ووقت أن كانت المسيرة قد وصلت إلى الكعكة الحجرية كان الأب والأم يقفان أمام اللافتة ويتذكران جيدًا دموع جارتهما أم سعيد التي أمسكت بأكتاف ابنها قبل يومين وهو خامد في العتمة المثلجة، جثة بلا روح.

التفتت الأم خلفها فلم تجد الولد. صرخت من أعماقها:

- ابني ضاع.

ارتجف قلب الأب، وزاغت عيناه بين السيقان الآتية إلى الميدان، فلم يعثر له على أثر.جرى إلى مكان بائع القبعات الملونة، وسأله، فرد الرجل في سرعة خاطفة، وبصره ممتد إلى النقود الراقدة في يد أحد الزبائن:

- لا والله.

أسرع نحو المتحف، ثم مدخل شارعي قصر النيل وشمبليون، فلم يجده.

وقال له شاب كان يدخل الميدان رافعا لافتة مكتوب عليها: «ارحل يا حمار»:

- اسأل عن أكمل.

- مَن أكمل هذا؟

- أحد المسؤولين عن تأمين الميدان.

- وأين أجده؟

- في مكتب السياحة المشرف على الميدان، بأول شارع التحرير.

وحين وصل إلى المكتب وجد حسن عبد الرافع وصفاء عليوة يجلسان على مقعدين يتوازيان قبالة مكتب خشبي فخم يجلس عليه رجل ذو لحية قصيرة مشذبة. نظر الأب مليا إلى عينيه الضيقتين، فعرفه، حيث تذكر أنه قد رآه من قبل غير مرة في التلفزيون. اقترب منه وقال له بحروف غارقة في اللهفة:

- ابني ضاع يا شيخ رأفت.

رفع رأفت مغازي رأسه ونظر إليه وقال:

- أين ضاع؟

- في الميدان.

- وما المطلوب مني؟

- تساعدني في الوصول إليه.

- أنا؟!!

- حضرتك.

فصمت برهة وقال له:

- هذا رقم شاب اسمه أكمل، لا بد أنه في الميدان الآن، كلِّمه، واشرح له المشكلة، وهو سيساعدك في حلها، إن شاء الله.

- هل أطمع في أن تكلمه أنت حتى يهتم بأمري؟

وهنا وقف مغازي في مكانه، واكتسى وجهه بغضب شديد، ثم نظر إلى الأب باشمئزاز، وصرخ فيه:

ـ ليس لديَّ وقت أضيعه في هذا الأمر التافه. كل يوم يضيع صغار ونجدهم. وقلنا للناس لا تصطحبوا صغاركم إلى هنا، لكن لا يوجد بينهم من يسمع الكلام ويطيعه، فلتتحملوا نتيجة عدم عملكم بهذه النصيحة.

وهنا صرخت الأم في وجهه:

- هذا ولدي الوحيد، أعطاه لي الله بعد تعب. أليس لديك أولاد؟ أليس في قلبك رحمة؟

وزاد غضب الشيخ، ومد يده نحو الباب، وصرخ في وجهيهما:

- اخرجا من هنا فورا.

أرسل الأب نظرة غاضبة مسحت جسد الشيخ من تحت منتصفه الذي يظهر من خشب المكتب إلى ناصيته، ثم انصرف صامتًا.

وخرج حسن وصفاء وراءه، ونايا عليه قبل أن يدخل إلى الميدان، وقالا له:

- لا تجزع، سنجده إن شاء الله تعالى.

واتصل حسن بأكمل، فجاء مسرعا من قلب الميدان، وأنصت إلى الأب جيدًا، وهو يعطيه كل أوصاف الولد.

أخذهم جميعًا نحو شاب طويل القامة يمسك بيده مكبر صوت صغير. وبعد أن عرف أوصاف الضائع راح ينادي عليه، لكن صوته راح يذوب في الدفقات الهادرة التي تطلقها الحناجر الملتهبة.

46

يأتي إلى الميدان ناظرا أمامه، ولا يكلم أحدا. عباءته السوداء على منكبيه، أو مسنودة على رأسه وتنزلق على كتفيه. الرأس ملفوف في عمامة مرقطة. خطوط سوداء متماوجة وأخرى بيضاء معشقة فيها، ولها شراشيب خفيفة تهفهف في النسيم. أحيانًا تُحزِّم العمامة جبهته في دائرة تطوق كل رأسه، وأحيانًا تأخذ شكل الزاوية الحادة التي تشكل مع ذقنه المدبب شكل «المُعَيَّن» المكسو بشعر كث أبيض ينبت في ذقنه، وينطلق منها إلى الهواء.

حين يهاجم البلطجية الميدان يكون هو في مقدمة الثوار. نالته من هذه المعارك جروح عديدة في يديه. وتعرَّض للقتل أكثر من مرة لكن الله نجاه. يزحف وراء الاعتصامات في أي مكان. مع الألتراس أمام مبنى مجلس الشعب، مع الذين نظموا مسيرة إلى وزارة الدفاع والتقى حشدهم في ميدان العباسية، وكذلك مع الذين نصبوا خيامهم على يمين مبنى مجلس الوزراء ومنعوا رئيسه من الذهاب إلى مكتبه شهرا كاملا. ينتقل إلى هنا وهناك، ويذهب أحيانًا إلى ميادين أخرى في السويس والإسكندرية والمنصورة والزقازيق وبورسعيد لكنه يعود في النهاية إلى موضعه الطبيعي في قلب ميدان التحرير.

يدخل الميدان من الناحية الشمالية، ماشيا في تؤدة شديدة، حاملا لافتة مكتوبة بخط بسيط. هو خطه الذي رشقه عليها قبل ساعات، ربما في بيته البعيد، أو وهو يهتز داخل الحافلة في الطريق الوعر المرهق.

كانت اللافتة مكتوبًا عليها:

«يا عسكر عيب عليكم استعراض القوة في ميدان الشرفاء»

وتمضي الأيام فتتبدل اللافتات، ويحل اسم المرشد محل العسكر، لكن سمْته لا يتبدل أبدًا. لا الهيئة الوقور ، ولا الزي الذي يرتديه، ولا التزامه الصمت، والنظر إلى البعيد.

رجل في العقد السابع من عمره، لم يغب عن الميدان منذ اندلاع الثورة، إلا ساعات قليلة، يعود فيها لأسرته ببلطيم في كفر الشيخ، ثم يأتي مهرولًا كي يُساند أبناءه هنا.

يمر الناس به في دورانهم حول الكعكة الحجرية ويقرأون لافتته:

«يا جماعات. يا أحزاب. يا حركات. يا أشتات، لا تتركوا الثورة بدون قائد، وتلهثوا وراء سراب الرئاسة. حققوا أهدافها أولا، ثم يولِّي الله مَن يصلح».

لم يفتح قلبه سوى لحسن عبد الرافع. كان قد سمع به من ثوار كثر. تطرقوا إلى سيرته باندهاش وإعجاب وحيرة، وسعى بعضهم إلى أن يعرف أي شيء عنه، لكنه كان يبتسم لهم، ويجيب:

- أنا مواطن مصري.

حين اقترب منه حسن وسأله، عاجله بالإجابة ذاتها، فرد عليه:

- كل من في هذا الميدان، هم مواطنون مصريون، ولا جديد في هذا. لكنني أريد أن أعرف أكثر.

فابتسم وقال:

- من حقك أنت أن تعرف أكثر، فأنا رأيتك كثيرا على شاشة التلفزيون، وسمعت ما تقول، ولم أضبطك في أي لحظة تحيد عن الحق. أحيانًا يرد على خاطري قول وأنا أتابع محاوراتك، فأجدك تقوله. قلة هي التي تتحدث بما يريد الناس أن ينطقوا به.

داس حسن على كتفه في لطف:

- الحمد لله أنك وجدت شيئًا يشفع لي عندك فأعرف ما ضننت به على الآخرين.

تنهد الرجل طويلًا، ثم أشار إلى رجل يقف جانبه وقال:

- الأفضل أن تسمع حكاية هذا الرجل، لديه ما يستحق الإنصات إليه، أكثر مما لدي. أنا إلى جانبه لا شيء أبدًا.

فنقل حسن بصره إلى الرجل الآخر، وقبل أن يسأله، تدفق قائلا في نبرات حزينة:

- أنا عمران عبد الصبور، من المحاربين القدماء، عملت بالقوات المسلحة قبيل حرب السابع والستين، أوجعتني الهزيمة، لكنها لم تكسر ظهري. قمت على قدمي كرفاقي، وخضنا حرب الاستنزاف. كنت أعبر إلى سيناء ليلا، وأعود وقد نلت بعض ثأر أخوتي الذين استشهدوا على كفي، وسقطت دموعي على جباههم الساكنة في رضا وسلام. لكن الفرحة لم ترفرف في أحشائي إلا مع العبور الكبير في حرب أكتوبر.

صمت برهة، سحب خلالها شهيقا عميقا، ثم زفر، ولف عنقه، وحط عينيه على وجه تمثال عمر مكرم، حيث لا يحلو له الوقوف إلا بجانبه، ثم أعادهما إلى عيني حسن وقال:

- لم أطق الاستمرار في الجيش بعد أن وضع رئيسنا يده في يد من قتلوا رفاقي. الصلح في حد ذاته ليس مشكلة، والسلام فعل إنساني محمود، شرط أن يقوم على العدل، وألا يكون استسلاما.

ووخز كلامه عقل حسن، فقال له:

- لكننا لم نستسلم.

- السادات رضي بالدنية، وقبل شروطا قاسية، جعلت سيناء في مهب الريح.

وعاد يتنهد من جديد:

- شعرت أن تاريخي الحربي يُباع أمام عيني، وأن الأرض التي عشت سنوات

أنتظر العبور إليها واحتضانها تهرب من تحت قدمي. فكان عليَّ أن أفعل ما يبقي حلمي بين يديَّ، بعيدًا عن ترتيبات السياسة، وصفقات الزعماء.

- ماذا فعلت؟

- تركت بلدي فى الصعيد، وأقمت فى مدينة الطور بجنوب سيناء. هناك الأرض التى عشقتها محاربا. طالما كنت أذهب إلى المكان الذي كلم الله فيه سيدنا موسى عليه السلام. أقف وأناجي ربي، وأطلب منه أن يُخلِّص بلدي من الظلم والفساد، وها هو سبحانه قد استجاب، وها أنا هنا لأؤدي ما عليَّ من واجب حيال ما انتظرته طويلًا.

وذات يوم فوجيء حسن بالحاج عمران يقول له:

- لا بد لهذا الميدان من قيادة.

فهز حسن رأسه وقال:

- تقصد مَن يدبرون الأمر يوميا هنا؟

- لا أقصد هذا.

- فهمت. أنت تريد قيادة للثورة.

- وبدون هذه الخطوة سندخل في نفق رهيب.

- أفضل ما في ثورتنا أنها شعبية، ملك الناس جميعًا، ولا يمكن لأحد أن يتاجر بها، أو يقايض عليها، أو يذهب لإبرام صفقات تؤدي إلى إخفاقها.

- هذا صحيح، وهو مفيد الآن، لكن فيما بعد سيخلق مشكلة عويصة.

شرد قليلًا، وعاد يقول:

- أنا كنت في الجيش، وأخشى أن يتحول الأمر إلى انقلاب.

- انقلاب!!!

- نعم.

وتذكر حسن ما سمعه قبل أيام من الضابط أحمد عبد الستار في السويس، وأمام ماسبيرو، ثم زفر في أسى، وقال:

- تبقى مصيبة.

- ولن نواجهها إلا بقيادة للثورة.

- لكن الميدان يرفض هذا.

- يتفق الكبار العقلاء، ويعلنون ذلك، ولو وجد الناس أمامهم أشخاصا يثقون فيهم، سيباركون هذه الخطوة، ولندرك دومًا أنه لم يحدث أبدًا إجماع على أحد.

فصمت حسن لحظة، وتاه شاردا في كل ما يعرفه، ثم تمتم:

- ربنا يسهل.

وكان يعلم جيدًا أن المتواجدين في الميدان لن يتفقوا أبدًا على قيادة واحدة. لا

يعرف لماذا؟ هل هي الأثرة؟ أم قلة الخبرة؟ أم أن هناك مدسوسين بينهم يدفعونهم دومًا إلى الابتعاد عن الوصول إلى هذا الهدف؟ جرب مرات ومرات ولم يحصد سوى المرارة.

***

والتفت حسن إلى صاحب العمامة، وقال له:

- وأنت يا عم؟

- ما سمعته يكفيك، وكلامي أنا لن يفيد.

- لكنني أريد أن أسمع منك.

- لازم يعني؟

- طبعًا.

- أنا محمد أبو العطا، فلاح من بطليم. منذ اندلاع الثورة، لم أذهب إلى المنزل سوى مرتين أو ثلاث، ثم أجري راجعا إلى أولادي هنا.

- وأولادك هناك؟

مسح الميدان بعينيه، ورفع يمينه مشيرا إلى الرؤوس التي تحاذيه، ثم قال:

- هناك أولاد خلفتهم، وهنا أولاد خلَّفوني.

- خلفوك؟

- طبعًا. أنا أسير وراءهم، هم مَن بدأوا وفتحوا الطريق فجاء أمثالي ليرفعوا رؤوسهم ويشموا هواءً نظيفا بعد أن قضينا عمرا طويلًا في العفن.

انزلق بصر حسن إلى اللافتة التي يمسك بها أبو العطا، ثم أشار إليها:

- مَن يكتب لك هذا؟

- أنا.

- هذه عباراتك؟

- أنا حاصل على معهد فني لاسلكي، لكني رفضت الوظيفة الحكومية.

- غريبة.

- الوظائف فسدت فابتعدت عنها، وزرعت أرضي وأكلت منها، وربيت أولادي، والحمد لله.

- طالما أن حالتك مستورة لماذا تثور؟

- أشعر بالإهانة حين أجد مَن يريد أن يرثنا وكأننا قطعة أرض أو عقار في حارة.

- فقط؟

- الناس حولي، وأنا معهم، نشعر بانعدام الكرامة في كل مكان نذهب إليه. في الجمعية الزراعية، وقسم الشرطة، ومكاتب الموظفين، وأمام المخابز، وفي

المستشفيات التي ليست سوى جدران خاوية.

وحكى حسن ما سمعه لرفاقه، فحكوا لغيرهم، وعرف كثيرون حكاية محمد أبو العطا وحكمته. اقترب بعضهم منه، وملأوا عيونهم من اللافتات التي يمسكها من طرفيها، وقرأوا ما بها، وفتحوا نقاشا حول لوحته المعبرة:

«كرسي الرئاسة ضربة قاضية للثورات، قسَّم البلاد، وأشعل الحروب، وسوف يبني أعداء الوطن قصورا من جماجم الشباب»

وقت أن رفع أبو العطا هذه اللافتة كان حسن عبد الرافع قد غاب عن الميدان. وعن الدنيا بأسرها، وبقيت سيرته. بعده طوى أبو العطا حكايته بين جوانحه، ولم يحكها لأحد، حتى لأولئك الذين زاملوه في الحجز ساعات عصيبة بعد أن خطفته الشرطة من على طرف الميدان. وكلما سأله واحد لم يسمع عنه:

- مَن أنت يا عم؟

يجيب على الفور:

- مواطن مصري.

ثم يمضي في طريقه حاملا لوحاته.

47

جلس المستشار عادل عبد الحكم يقلب أوراق قضية مقتل حسن عبد الرافع، بعقل شارد وخواطر مضطربة. الأوراق أمامه ناقصة. الشرطة لم تؤدِّ ما عليها، فالتحقيقات مع الشهود عابرة، والاتهامات عامة، وتذهب في اتجاهات متضاربة. قتله الإخوان أم العسكر؟ قتله الفلول أم زملاؤه من شباب الثورة؟ قتله أصحاب المال أم بعض عمال اليومية الذين أقعدتهم الثورة في البيوت بلا عائد؟ قتله البلطجية؟ أم المشردون وأطفال الشوارع؟ أم قتله الجهل والعجلة؟.. قيَّدت النيابة الحادث ضد مجهول، ثم فتحت القضية بكاملها بعد أن وصلت معلومات جديدة عن احتمال أن يكون للشيخ رأفت مغازي يد في عملية القتل.

أهالي باب الشعرية الذين شهدوا الحادث أغرقوا في وصفه. بعضهم تبين من كلامه أنه يعرف القتيل. بعضهم لا يعرفه ولم يسمع باسمه من قبل. شبان من ميدان التحرير تحدثوا عن خلافات شديدة بين حسن ومغازي، وقال أحدهم:

- حسن عرف أكثر من اللازم، ولذا كان لا بد لأعدائه من أن يسعوا إلى تغييبه تمامًا.

لكنَّ شبابا آخرين قالوا:

- وقعت في يده معلومات مهمة محملة على «فلاشة» تفضح كل شيء، ليس فقط ما جرى في ميدان التحرير وما حوله من قتل، بل وثائق عن صفقات تجارية وعمولات سلاح وخطط تخريب.

أغلق عبد الحكم الملف، ثم أشعل سيجارة، وسحب منها نفسا عميقا، وأطلق الدخان ليصنع دوائر متصاعدة، تأخذها النسائم التي تدفقت رخية من النافذة الغربية إلى بعيد.

كان مرهقا وفي نفسه أثقال من الأسى، فصديقه الحميم وزميل دفعته في الكلية المستشار سيد مفتاح هاتفه ليشكو إليه ما يواجهه في قضايا الكسب غير المشروع. قهقه في أذنه وقال له:

-كل الأوراق ناقصة.

- كيف يعني؟

- لا يمكن أن تمسك في يدك أي دليل دامغ على شيء.

- لا أعرف كيف حوَّل النائب العام هذه القضايا على هيئتها تلك إلى النيابات؟

- هذا سؤال إجابته معروفة لديك.

- طبعًا، الناس في الشوارع تعرف الحقيقة، وتفهم أن هناك مَن عكف أسابيع على طمس الأدلة.

- المتواطئون يجلسون في مكاتبهم المكيفة، ونحن نواجه رأي عام يزداد

ارتيابه فينا يوما بعد يوم.

راح يذكر نفسه بالمقولة التي رسخت في رأسه من ذكرها المتكرر على لسان أستاذه في كلية الحقوق، جامعة القاهرة:

«القاضي يتسع صدره حين تضيق صدور الآخرين. وتضيق ذمته حين تتسع ذمم الآخرين».

زفر، ثم دهس ما تبقى من السيجارة في المطفأة الموضوعة أمامه على المكتب، وقام يقطع الأمتار القليلة التي تشكل مساحة مكتبه يمينا ويسارا، وهذا حاله دومًا حين تسكنه الحيرة. يلف في مكانه وهو غارق في تفكير عميق.

بدأ يخاطب أستاذه الذي رحل إلى عالم الحق قبل سنين طويلة، هكذا كان يفعل دومًا كلما هجمت عليه الهموم من كل صوب. تخيله واقفا أمامه، فرفع إليه عينين منكسرتين، وقال له:

- الصدور ضاقت، والذمم اتسعت.

وتخيله يقول له:

- صبرا.

فقال له بعينين دامعتين:

- كانوا قبل سنين قليلة يقفون أمامنا ويهتفون « يا قضاة يا قضاة.. أنتم لنا بعد الله» والآن يطالبون بتطهيرنا لأن فينا بعض دنس.

- أليس هذا بحق؟

- نعم، دخل فينا مَن ليس منا، واستغل بعضنا موقعه وفتح الطريق لذويه ليجلسوا إلى جواره، لكن هذا لم يكن بأيدي أمثالي، وأنت تعرف، ونحن لسنا قلة أبدًا.

- الأبواب التي دخلت منها الريح النتنة كثيرة، وعليكم غلقها.

- لن تغلق مرة واحدة.

- المهم أن تغلقوها أنتم.

- هذا ما أقوله، لكن هناك مَن يريد أن يمد يده ليغلقها عنوة.

- هؤلاء يريدون غلق تلك الأبواب ليفتحوا أبوابهم هم، بل لا يريدون غلقها إنما سيفتحون أبوابا جديدة ليقبضوا على العدل ويوجهونه كيفما شاءوا، لهم هم فقط.

- كيف يا أستاذنا؟

- أنسيت ما قلته لك حين زرتني آخر مرة قبل أن أفارق دنياكم؟

- تقصد ما قلته عن الإخوان وحسني مبارك؟

- ليس غيره.

- عبارتك لا تزال محفورة في رأسي: «الإخوان لا يريدون إصلاحا حقيقيا ولا تغييرا جذريا لنظام مبارك، إنما يريدون أن يرثوه كما هو، ثم يديرون فساده واستبداده لصالحهم».

- هذه وليس غيرها، إياك أن تنساها.

- كيف أنسى ما هو ماثل أمامي، أعايشه وأكابده كل لحظة؟

- صدقت نبوءتي.

- كل نبوءاتك تصدق يا أستاذنا. كنت دومًا سابقا لعصرك.

***

عاد إلى فتح ملف قضية حسن عبد الرافع، وراح يقرأ على مهل. الأوراق ناقصة، لا تجلي الغموض الذي يحيط بالجريمة. واستماع النيابة إلى الشهود لم يُضف شيئًا جوهريا، وتحقيقاتها مع الشيخ رأفت مغازي مشحونة بالإجابات المراوغة.

أغلب إجاباته كانت: «لا أعلم.. لا أعرف.. لا يمكن.. مستحيل.. لم يحدث مطلقا.. لم أكن متواجدا.. لم يرد بخاطري يوما ما.. كان أقرب الناس إلى نفسي.. كنا شركاء درب.. كان من أشجع الشباب وأوعاهم»

أفرجت النيابة عنه يومها بضمان وظيفته.

قلب في أقوال ثلاثة شبان، شملهم البلاغ الذي قدمه أكمل إلى الشرطة وجدد نظر القضية بعد تقييدها شهورا ضد مجهول. حوى البلاغ معلومات متناثرة وضعها بعد أن تناقش طويلًا مع صفاء عليوة، وغمرهما أمل في أن الوصول إلى قاتل حسن ليس مستحيلا. كانت النيابة قد ساورها شك حولهم، بعد أن ضبطت الشرطة سلاحا بحوزة أحدهم مطابقا لهذا الذي أُطلق الرصاص منه على رأس حسن. حبسته يومها خمسة عشر يوما على ذمة التحقيق، ثم حولت القضية إلى المحاكمة.

وهاهو القاضي الذي يحاكم تسكن الحيرة رأسه. فكل الأقوال لا تفضي إلى شيء ذي بال. كلها أقوال مرسلة لا ترقى إلى مرتبة الدليل. طلاسم تلك أم متاهات؟ أم ملفات ناقصة كأغلب الملفات التي نظرها القضاء منذ خلع الطاغية؟ وأين الفلاشة التي يتحدثون عنها؟

أنهى قراءة الملف دون أن يصل إلى ما يدين المتهمين في جريمة القتل، وليس أمامه قضية مكتملة سوى تلك المتعلقة بحيازة سلاح من غير ترخيص. استقر في يقينه أن ما كان بين حسن وبينهم مجرد مشاحنات عابرة جرت في الميدان خلال يوم الجمعة الذي وقعت فيه مشادات بين الإخوان والسلفيين وبين شباب الثورة وغيرهم من شباب الأحزاب السياسية، ومن يومها تغيرت

معالم الميدان، وأخذ كل شيء يتحول تدريجيا نحو اتجاه لم يقصده أبدًا كل أولئك الذين شاركوا في لحظة انطلاق الشرارة الأولى.

لم يكن عادل عبد الحكم بعيدًا عن كل ما يجري. كان يتابع الصحف يوميا، ويجلس في المساء أمام شاشة التلفزيون. وكم ضحك من أعماقه حين وصف الليبراليون واليساريون يوم زحف الجلابيب واللحى والرايات السود إلى الميدان بـ«جمعة قندهار»، وكم سمع بأذنيه هذا الوصف من حسن عبد الرافع نفسه في مداخلاته على كل القنوات تقريبًا.

هو يعلم أن مشهد قندهار الذي فاجأ المصريين جميعًا لا يضيف شيئًا إلى الواقع. يفهم أن مثل هؤلاء نقابلهم فرادى في كل مكان، لكن حين تلاحموا في البقعة التي لم تكن لهم في بداية الطريق تعرَّت الحقيقة أكثر أمام كل العيون، وبدا المنظر خارج الزمن، وسارت الأمور كلها في طريق غير الذي قصده من أطلقوا الغضب.

طالما رأى بعض هؤلاء في ساحات المحاكم، متهمين وقضاة. لا غرابة في الصنف الأول، فكم طاردهم الطاغية بعد أن حملوا السلاح لإزاحته وفشلوا؟ لكن الصنف الثاني كان غريبا جدا بالنسبة له.

كان بعض زملائه يهمسون في أذنه ليحدثوه عن قضاة ينتمون إلى جماعة الإخوان، لكنهم يخفون انتماءهم. وحين تجمَّع الآلاف قبل سنين في مقر «نادي القضاة» بقلب القاهرة؛ ليطالبوا باستقلال القضاء عرف الكثيرين منهم. تحدثوا فعرفهم. خطابهم لا تخطئه أذن. أذنه هو تدربت على سماع ما يدل عليهم أثناء نظره قضاياهم عبر رحلته الطويلة مع العدالة. وكان يعرف أن التنظيم حريص على أن يبقي هؤلاء خارج دائرة الشبهات، لا يلزمهم باجتماعات ولا التزامات، وعليهم فقط أن يكمنوا في أماكنهم إلى حين.

يومها اقترب من أحدهم، وكان انتماؤه الإخواني معروف لديه، ولا يرقى إليه شك، وقال له:

- يبدو أن إخوانك كثيرون هنا.

فابتسم وقال له:

- لنا ثلث كل زملائك.

- الثلث.

- أو يزيد قليلًا.

وعندما تعجب من قوله، ضحك وقال:

- لا تتعجب، نحن تنظيم ليس هينا، لنا أدواتنا، ونختار رجالنا، وقد وصلنا مع الزمن إلى كل الأماكن، بما فيها تلك التي لا تخطر على بالك.

لكن عبد الحكم كان يعرف أن زميله الإخواني هذا يبالغ كعادتهم. إنه استعراض

القوة الذي قد يغري ضعاف النفوس بالانضمام إليهم، أو يفت في عضد من يرفضونهم ويعتقدون أن المقاومة خاسرة.

ودارت الأيام فرأى بعينيه بعض دوائرهم، تقابل دوائر من كان يحركهم الرئيس قبل سقوطه، وبينهما يبقى هو وأمثاله حائرين.

كان عائدا من المحكمة حين انحشرت سيارته في زحام راكد أمام «مجلس الدولة» وقت أن كان ينظر قضية البرلمان غير الدستوري، وخرمت أذنه الهتافات:

«والله زمان يامجلسنا تسلم إيدك ياريسنا»

«ضربة كانت من معلم خلت العسكر يسلم»

«يا إعلام بطل تهييس مرسي خلاص بقى الرئيس»

«من أسوان لإسكندرية المجلس هو الشرعية»

«أوعى تقول إعلان دستوري النهارده قرار جمهوري»

« يا قضاة ياقضاة لاتخشون إلا الله»

ولمح بعينيه شبابا يرتدون زيا أحمر مكتوبًا عليه: «الشعب يريد تطهير القضاء»، وتذكر ما سمعه من زميل له قبل أيام من أن الجماعة جهزت قائمة بأكثر من ألف محام إخواني تريد تعيينهم في القضاء بعد الإطاحة بكل من لا يرضخ لها، وزفر متحسرا على ما سيجري للعدالة.

كانوا يقفون أمام شاب طويل لحيته كثة يمسك بكلتا يديه رأس خروف مذبوح بعد أن ألصق عليها اسم أحد كبار القضاة. راح يطوح رأس الخروف في الهواء، بينما كان الشيخ رأفت مغازي يقف هناك في الطرف الأيمن ناظرا إليه وهو يبتسم في هدوء.

قهقه بقوة المرارة التي اندفعت في حلقه، وتعجب سائقه الذي لم يره من قبل إلا وقورا يكتفي بالابتسام، ولا تفارقه النبرة الهادئة. وقال بصوت مسموع:

- حين يأتي الحكم لصالحهم يصرخون «يحيا العدل» وإن أتى لصالح خصومهم يطالبون بتطهيرنا، نسوا سريعًا أننا مكناهم بأحكامنا المتتالية، ولولا عدل بعضنا لعادوا إلى الأقباء والمهاجع والزنازين.

اكتفى السائق بابتسامة، ثم تقدم ليحتل الأمتار الثلاثة التي انفرجت أمامه، ثم نظر إلى الحشد الكبير وقال:

- حرام عليهم.

ابتسم القاضي وعاد إلى وقاره، وقال: حرامنا حلالهم.

وتاه قليلًا في متابعة الشارع المزدحم ثم عاد يقول:

ـ باتت السلطة التنفيذية كاملة والأجهزة الأمنية معهم، ورئيسهم شكَّل لجنة لتقصي الحقائق، فليقدموا لنا الأدلة، حتى تنتهي حيرتنا وعجزنا.

وراح يتأمل وجوه كثيرين يمرون بالمظاهرة التي تحاصر مبنى «مجلس الدولة» ويمصمصون شفاههم في عجب، ثم نفخ من جديد وقال:

- عاجزون عن صناعة قوانين جيدة لأنهم وسدوا الأمر إلى غير أهله، ويريدون منا أن نمرر لهم هذا العبث.

ولم يدرك السائق ما يقصده، فلاذ بصمت، وانفتح الطريق فمضى.

48

كان عم شحاتة أبو عوف عائدا من عند الخياط حين بدأ أول شاب يرفع عقيرته صارخا بإسقاط النظام. كان المساء قد رمى ستائره على ميدان محمد فريد، وحل ظلام على وجه تمثاله، وواجهة مدخل محطة مترو محمد نجيب، والمحلات المرصوصة عن يمينها، وانثال النور من الأعمدة المتتابعة على الأطراف، فانكشف جسده للعابرين في مدخل الشارع الذي ينتهي إلى الحارة التي يقطنها، فكان كل منهم كلما رآه يلقي عليه السلام ويمضي.

واحد منهم فقط أوقفه وقال له:

- الدنيا مقلوبة يا شحاتة وأنت كما أنت. ماشي على مهلك.

- ربك يعدلها.

- المتظاهرون ملأوا التحرير، وعربات الأمن المركزي تحيط بهم، وربك يسترها.

- خلينا في حالنا.

ذهب إلى الخياط مع انحسار الشمس، بعد أن جلس على «مقهى حورس»، واحتسى كوبا من الشاي الأسود، ودخن حجري معسل سلوم، ثم رفع الشنطة البلاستيكية السوداء التي طوى القماش داخلها، ودفع الحساب، ومضى في طريقه، بظهر منكسر وعينين كليلتين.

فتح الخياط الشنطة، ثم قهقه، وقال:

- كل انتخابات وأنت طيب يا شحاتة.

- وأنت طيب يا أسطى مندور.

وأمسك القماش بطرف أصابعه، ومصمص شفتيه، ثم راح يقص سريعًا الخيوط الجانبية الشاذة، وقال:

- قماش هذه الانتخابات أفضل من الانتخابات السابقة.

فضحك شحاتة وقال:

- طبعًا؛ لأن الحزب الوطني قرر أن يأخذ كل البرلمان، ونزل كل مرشحيه الثقال.

ظل عم شحاتة يتابع أخبار الانتخابات في التلفزيون، وكان يرفرف من الفرح كلما سمع تصريحات المسؤولين في الحزب الحاكم عن أنهم سينافسون بقوة، وسيطردون الإخوان خارج البرلمان.

وقالت له زوجته وهي تمد ثديها إلى طفله الصغير الذي يرقد على حجرها:

- فرحان يا شحاتة؟

فنظر إليها مستغربا، وقال:

- طبعًا فرحان يا أم العيال. اطلعي بصي على حبل الغسيل وأنتِ تعرفي لِمَ أنا فرحان.

- أنا فاهمة.

قام وصعد إلى سطح البيت، وراح ينبش بين الكراكيب الملقاة إلى جانب السور إلى أن حط يده على السلم الخشبي. رفعه في هدوء حتى اعتدل واقفا، ونفخ فيه، لكنه وجد أن التراب قد التصق به. مد إصبعه، ووضعه على إحدى درجات السلم فاتسخ.

التفت حوله فلم يجد أي خرقة. أسند السلم على السور، ثم مشى سبع خطوات حتى وصل إلى أقرب نقطة من نافذة شقته، ونادى ابنه الأوسط:

- يا فتحي.

فأخرج الولد رأسه من النافذة، ورفع وجهه إلى أعلى، وقال:

- أمرك يا حاج.

- هات خرقة وبلها.

وجاء إليه بما طلب، فأخذه وراح يمسح السلم حتى لمع في نور الشمس التي كانت تقف على رأسه بالضبط. لفَّه يمينا ويسارا حتى اطمأن إلى أنه نظيف تمامًا، ثم ركنه على السور.

بعد ثلاث ليالٍ بالضبط، صعد مرة أخرى إلى السطح ووراءه فتحي، ونزلا سويًّا إلى الشارع والفجر على الأبواب. الأب يحمل السلم على كتفه وابنه يمسك المقص في يده. سارا سويًّا حتى وصلا إلى لافتة عريضة ونظيفة، تتوسطها دعاية لأحد المرشحين: «خير من يمثلكم». وضع السلم تحتها، فقال له فتحي:

- لكن هذه يافطة الحاج سليم.

- وما له؟

- ابن الدايرة.

- فعلا ابن الدايرة. كانت أمه دلالة وأبوه حرامي.

- وهو؟

- تاجر عملة.

- لكن صبيانه لا يرحمون.

- لن يرانا أحد.

ثم رفع رأسه فواجهت تمثال محمد فريد، وقال:

- أمثال هذا الرجل ندر وجودهم، وإن وجدوا فلا نعرفهم؛ لأن القش يطفو على سطح المياه، ولا يبقى على المزاود إلا شر البقر.

ثبَّت السلم جيدًا في الأرض، ثم حطَّ قدمه اليمنى على أول درجة. فلما وصل إلى منتصفه، طلب من فتحي أن يعطيه المقص. واصل الصعود، حتى أصبح رأسه في منتصف اللافتة. مد المقص إلى طرف الحبل الذي يصلها بعمودي

كهرباء. قصه وتركها تهوي. نقل السلم إلى العمود الآخر ثم قص الطرف الثاني، وقال لفتحي:

- دسها في الكيس.

ودار على لافتات أخرى في الشوارع الجانبية فنزعها من مكانها، حتى انطلق أذان الفجر، فحمل السلم على كتفه وسار نحو البيت، وخلفه فتحي يحمل الكيس وقد امتلأ بالقماش. وضع السلم في مدخل البناية القديمة المتداعية التي يقطن في شقة ضيقة منها، وطلب من فتحي أن يصعد بما معه إلى أمه التي تظل ساهرة، والقلق يأكل عينها.

***

خرج شحاتة مرة أخرى قاصدا جامع الطباخ. صلى الفجر وعاد ليجد زوجته قد وضعت القماش الراقد خلف حروف ملونة في بستلة مملوءة بالماء فوق البوتاجاز. تذوب بعض الحروف في البخار الصاعد، وتصنع فقاعات حمراء وزرقاء وخضراء وصفراء. تزيح البستلة جانبا، وتنتظر حتى تبرد، ثم تأتي بطبق بلاستيكي ضخم، وتسكب فيه ماءً حتى ثلثه، وتأتي بجركن الكلور وتضع بعضه في الماء، وتخرج اللافتات وترميها فيه، وتقلبها بعصا خشبية قصيرة.

بعد ساعات يعود القماش أبيض مثلما كان قبل أن يدفع الخطاط أصابعه لتكتب عليه عبارات من قبيل «خير من يمثلكم».. «رجل الصدق والأمانة».. «الرجل الوطني المخلص».. «ابن الدائرة» « وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله» وترسم صورا لحيوانات وآلات ورموز «هلال» و«جمل» و«ساعة» و«مسدس» و«مظلة» وغيرها. كل هذه الحروف والأشكال كسرتها السخونة فوق الموقد وجاء الكلور ليذيب ما تبقى منها، ويفنيه تمامًا.

تأخذ القماش وتعصره جيدًا، ثم تنشره فوق أثاث البيت. تخشى إن علقته على حبل الغسيل فوق سطح البيت أن يراه الجيران، وينتشر الخبر، فيُلحق أنصار المرشحين الأذى بزوجها وأولادها التسعة.

لا أحد يعرف ما يفعله عم شحاتة سوى الأسطى مندور، صديقه القديم، الذي يقطن في بيت مجاور، ويمتلك محلا ضيقا في شارع جواد حسني.

ولا ينسى شحاتة الفضل الكبير لمندور عليه، فحين جاء من الصعيد بملابس مهترئة قبل أربعين عامًا، عمل في دكان بقالة في مواجهة محل مندور، وكان راضيا بعمله مقبلا عليه بكل كيانه، لكن صاحب الدكان طرده وخصم نصف أجره. كان رجلًا حاد المزاج، سيئ الخلق، يفوح الخمر من فمه طوال اليوم، وكان الخياط يكرهه، فوقف يومها يدافع عن شحاتة، وأقسم أنه سيوظفه ساعيا في هيئة الاستعلامات الكائنة بشارع طلعت حرب. كان يعرف موظفا كبيرا هناك، يُفَصّل عنده بدلتين كل سنة، واحدة شتوية والأخرى صيفية. هاتفه يومها، فسأله الرجل:

- هل يجيد القراءة والكتابة؟

فقال له وهو يبتسم:

- يفك الخط.

فرد عليه بترحاب:

- أرسله، وربنا يفعل ما فيه الخير.

وعمل ساعيا في الهيئة بمكافأة لثلاث سنوات إلى أن تم تثبيته، فهرع وأجر شقة في حي عابدين، وبدأ في البحث عن عروسة. وجد أرملة صغيرة في السن مات عنها زوجها في حادث طريق بعد زواجهما بشهر واحد. وخاف كثيرون من طلب يدها متشائمين منها، وهو ما لم يُلقِ له شحاتة بالا، وقال لمن حذره منها:

- قدر ربنا واقع ولا مفر منه، بها أو بغيرها.

هي امرأة ولود وهو فحل بالسليقة، وحصيلة التحامهما الدائم تسعة أولاد غير مَن توفوا في المهد. ومع تقدم السنين تضاءلت قيمة راتبه وكثر العيال، وتعبت الأم من رتق ملابسهم ورفّها. وذات يوم كان يجلس على المقهى، وكان موسم انتخابات، نظر إلى اللافتات المعلقة أمامه وهي ترفرف ناصعة، وقال في نفسه:

- وجدتها.

ومن يومها، وفي كل المواسم، يجمع ما يمكنه من هذه اللافتات ويذهب بها إلى مندور ليفصل قماش اللافتات غيارات داخلية لأولاد شحاتة، وبيجامات، ثم يعطي القماش إلى الأسطى سمير صاحب مصبغة «الأصيل» فيخرج بعد أيام غير ما دخل.

***

امتلأ ميدان التحرير بالمحتجين، ولزم عم شحاتة داره. أراد ذات ليلة أن ينزل المقهى يدخن حجري معسل، لكن زوجته ضربت على صدرها وقالت له:

- أوعى تنزل في الهوجة.

لكنه كان يغافلها حين تروح في النوم، ويهبط إلى أي مقهى يجده مفتوحا في هذه الأيام العصيبة. يدخل صامتًا ويجلس إلى جانب الجدار، يطلب الشيشة والشاي الأسود، ثم يحط بصره في شاشة التلفزيون المعلقة ليتابع ما يجري. وحين انخلع الطاغية نزل وأولاده يرقصون في الشارع، وهو يقول لزوجته:

- أفقرنا وأتعسنا وجعلنا نعيش تحت الأرض من الحاجة والذل والخوف. الله يجحمه.

ولما قرر المجلس العسكري حل مجلسي الشعب والشورى، احتفل مع أبنائه وزوجته، وقال لهم بوجه متهلل:

- رزق وآتي.

وقال للجالسين على مقهى حورس:

- الانتخابات القادمة هتكون حامية.

ونَقَّل بصره في الأماكن التي تستقر فيها اللافتات، ثم شفط رشفة شاي، وسحب نفسا من الشيشة، وابتسم في صمت، وراح يتابع الشجار على الشاشات الزرقاء بين أصحاب اللحى ومنافسيهم. وتهلل حين سمع حسن عبد الرافع يقول لرجل ذي لحية كثة:

- مئات الملايين جاءتكم من الخليج لتمويل مرشحيكم.

لكن جاء كل شيء على عكس ما توقع، تراجع استخدام يافطات القماش وحلت محلها أخرى من البلاستيك السميك. خطوطها هندسها الكمبيوتر، وصورها ناصعة، وحجم بعضها ضخم، ومنها مقاسات صغيرة تعلق على واجهات المحلات، وعلى الحوائط. إلى جانبها زاد استخدام اللوحات الورقية. وهكذا استمر الحال في انتخابات الرئاسة.

هبط قبيل الفجر وقص اليافطات القماشية القليلة وعاد. ترك السلم والقماش الملون لابنه، وذهب إلى مسجد الطباخ، بعد الصلاة لم يرجع إلى البيت، بل ظل يدور في شوارع عابدين وباب اللوق والعتبة حتى انتصف النهار. كان يجري بعينيه على كل اليفط المعلقة، فوجد أن كلها قد تغيرت. ساقته قدماه إلى المقهى وجلس ينتظر الشيشة والشاي. ترامى إلى أذنه نقاش حاد بين اثنين من الزبائن، كان أحدهما يقول للآخر:

- لا بد أن نشعر بالتغيير.

فضحك عم شحاته من كل أعماقه، وسعل وشهق ثلاث مرات، ثم التفت إليهما وقال:

- بالنسبة لي، أنا أكثر واحد في هذا البلد حاسس بالتغيير.

49

ينقل خطواته بوقع ثابت وقوي ينقر الأرض نقرا، لا يتناسب أبدًا مع أحوال شيخ في النصف الثاني من العقد الثامن في عمره. أترابه يتوكؤون على عصيهم، أو يسيرون منكسري الظهور، وعيونهم أمام أقدامهم، وهم غارقون في شرود طويل، يستعيدون أيام الطفولة، أو يلتقطون ما يخص ساعتهم التي يعيشونها، أو يمس احتياجاتهم البسيطة المتبقية لهم.

يأتي إلى الميدان من ناحية شارع التحرير أو شارع محمد محمود وخلفه مجموعة من شباب الثورة، وإلى جانبه بعض كبار رجال المعارضة. يدق الأسفلت بحذائه، ويدفع ذراعيه على امتدادهما ليضرب بهما الهواء، وهو صامت. يدخل حتى يبلغ الكعكة الحجرية، ثم يلتفت إلى من حوله وينفتح في نقاش عميق حول كل شيء.

لم تكن علاقة الدكتور عبد البصير مرتضى بما يجري، عابرة أو بنت أيام الاحتجاج الكبير، فغضبه يسبق هذا بسنوات. كان يتابع ما يجري بحزن دفين. كل شيء ينهار من حوله. البشر والحجر. ابنته المهندسة المتمردة تقول له دومًا:

- جيلكم ترك البلد لعصابة لا ترحم.

يحكي لها عما فعله حين أصبح مديرا لأحد المستشفيات الحكومية الكبرى من ضبط العمل وخدمة المرضى وغلق كل منافذ الفساد، ويقول:

- لو كل شخص تولى مسؤولية أي هيئة أو مصلحة وضبطها لانصلح الحال.

ثم يصمت قليلًا، ويقول:

- أدَّيت واجبي في تجرد ونزاهة.

لكنها تقوم من مكانها، تتحرك خطوات إلى الأمام وترجع إلى الخلف، وتسأله:

- هل تعتقد أن هذا يكفي؟

- لا يكلِّف الله نفسا إلا وسعها.

- لكن أغلب الأنفس لا تدرك حجم الوسع المتاح أمامها. كل عاجز يبرر تقاعسه بأنه فعل ما في وسعه، وانتهى الأمر. لا أحد يريد أن يفهم أن داخله طاقة جبارة إن اكتشفها فإن هذه السعة ستزيد وتبدو لا حدود لها.

يبتسم ويقول لها في كل مرة:

- لا تظلمي جيلنا، ولا تتعجلي، وتذكري جيدًا أنكِ في يوم من الأيام قد تجدين من يتهمك بالتفريط، مع أنكِ تحاولين الآن، وأنا أعرف ذلك.

ذات يوم كان يضع طرفي السماعة في أذنيه، وينقل إطارها الأمامي على قلب مريض مستلقٍ على طاولة الكشف الراقدة إلى جدار حجرة ضيقة بعيادته. كان شابا في الثلاثين من عمره، وهو آخر مرضى تلك الليلة. طلب منه أن يستريح

كأنه في سرير نومه، ثم أصغى إلى صوت ضربات قلبه جيدًا. وضع السماعة، ونظر في «الأشعة بالموجات فوق الصوتية» التي كانت بحوزته، وكذلك في نتيجة «رسم القلب»، ثم قال بصوت مسموع:

- غريبة.

ابتسم المريض وقال:

- ليست غريبة أبدًا. البلد نفسه قلبه واجعه.

اهتز لهذا القول. وبعد أن كتب له الدواء وانصرف جلس مع نفسه طويلًا. ارتاح على مقعده العريض الذي يقف متأهبا أمام مكتب من خشب الآرو، وغرس كوعيه بين الأوراق الموضوعة، ثم بسط راحتيه ووضع رأسه بينهما، واستغرق في تفكير عميق. راح يطابق حال البلد مع كل أعراض أمراض القلب التي درسها وعرفها عبر تاريخه المهني الطويل، فأدرك معنى ما قاله الشاب المريض.

دخل عليه سكرتيره فوجده يقول لنفسه:

- قلب البلد موجوع.

ثم صمت برهة، وواصل:

- ولا نافع قسطرة ولا جراحة.

رفع وجهه ونظر إليه طويلًا، ثم طلب منه أن يغلق العيادة ويتبعه إلى الجراج. ركب سيارته وانطلق شاردا، ولا يدري يومها كيف وصل إلى منزله في ضاحية مصر الجديدة سالما؟

***

كانت ابنته في سريرها تقرأ رواية «ثرثرة فوق النيل»، قرأتها قبل سنين، وهاتف ناداها ودفعها إلى أن تعيد قراءتها. شعرت بوجوده فخرجت إليه، فلما رآها قال لها:

- قلب البلد موجوع.

ضحكت وقالت له:

- وجع مزمن، انسداد تام في الشرايين.

شرد لحظة ثم قال:

- ضيعنا وقتا في علاج قلوب الأفراد، ونسينا قلب المجتمع كله.

في اليوم التالي، لبى دعوة لحضور مؤتمر لحركة «كفاية» في نقابة الصحفيين، وأصبح واحدا من قادتها.

طالما قابله حسن عبد الرافع في المظاهرات، ورآه وهو يتقدم الصفوف في ثبات، ولا يهاب هراوى جنود الأمن المركزي. أمثالهم لا يعرفون قيمته. ذات مرة كان الجندي خليفة الإسناوي يضرب سامر خفاجي بقوة على ظهره، وفجأة

ظهر له الدكتور عبد البصير، الذي كان في قلب المظاهرة، ولم يتنبه إلى هجوم الجنود من الخلف. ولما ترامى صراخ إلى أذنه التفت فوجد هذا المشهد الأليم. تقدم وحملق في الجندي لكنه لم يرتدع. صرخ في وجهه:

- اتركه.

لكن الضرب زاد بعد أن فقد خليفة صبره في هذه اللحظة، ونسي كل وصايا مولانا القوصي، وأصبح ثورا هائجا. كان سامر يحاول أن يدافع عن نفسه بلا جدوى، وكان بقية الجنود يستفردون بشباب آخرين إلى جانب جدر أبنية وسط البلد ويوسعونهم ركلا وصفعا. تقدم عبد البصير، وقبض بكلتا يديه على خليفة، ثم دفعه بقوة فوقع على ظهره. طارت الخوذة من على رأسه، وسقطت الهراوة إلى جانبه. وحين رأى الشباب المشهد تشجعوا واشتبكوا مع الجنود وأجبروهم على الرجوع.

حين يقابله حسن عبد الرافع في أي مكان، يقول له:

- سأسألكم عن الحال يا أستاذنا، فالصحة موفورة والحمد لله.

يضحك الدكتور عبد البصير ويؤكد بكل ثقة:

ـ نحن جيل السمن البلدي.

لكن كثيرين ممن زحفوا إلى الميدان مع الشرارة الأولى لم يسمعوا به من قبل، ولا يعرفون أن عيادته الكائنة على بعد أمتار قليلة من ميدان التحرير تحولت إلى «غرفة عمليات»، وليست لديهم معلومات عن الجولات التي قام بها في القرى والنجوع والمدن الصغيرة، حيث يقف أمام المحتشدين في خلاء بعض الأندية وفي القاعات المغطاة، ويهاجم أهل الحكم بقسوة، ويطالب الناس بأن يغضبوا. كان يضع رأسه على كفه، ويسير بخطاه الثابتة ذاتها، لا يغيرها أبدًا.

جاء ليلتها إلى الميدان عند العاشرة ليلا، وشق طريقه في هدوء وإلى جانبه بعض رجال المعارضة. كانت الأنوار الباهتة لا تكشف وجوه المحتشدين إلا قليلًا، حين سطع ضوء على وجه الدكتور عبد البصير ومن حوله أثناء دخولهم إلى الميدان من شارع طلعت حرب.

هي أضواء كاميرات التلفزيون، وكانوا قادمين من مقر حزب الغد، معهم بعض ماضيهم القريب، وفي أيديهم ورقة مطوية تحوي كلاما مرتبا، هندسوه بعد نقاش عارم، وظنوا أن فيه كل ما يريده الذين يصرخون في الشوارع منذ أن كانت الشمس تتوسط السماء.

التفت الميدان إلى بقعة الضوء، وصرخ شاب:

- مَن هؤلاء؟

وسرى السؤال في أذهان زملائه من شباب ألتراس الأهلي، فسألوا جميعًا:

- من أين أتى هؤلاء؟

لكن الدكتور عبد البصير ومن معه تقدموا حتى وصلوا إلى الكعكعة الحجرية، وقام حسن عبد الرافع بتقديم الرجل إلى شباب الميدان، وهو يجهد حنجرته المتداعية حتى يصل صوته عبر مكبر صوت صغير وضعيف جدا. ثم جاء الدور على من قدمه فقال للجميع:

- اجتمعنا وتوصلنا إلى البيان التالي.

وأخذ يقرأ، فلما وصل إلى المطالب، قرأ الأول منها، وكان يطالب الطاغية بألا يرشح نفسه مرة جديدة بعد انقضاء فترته الخامسة وألا يورث الكرسي لابنه. وما إن انتهى من هذا المطلب، حتى صرخ أحد الشباب:

- لا لا لا....

ثم قال زميل آخر له:

- هؤلاء الناس جاءوا ليسرقوا ثورتنا.

فقال له حسن:

- هؤلاء قاوموا وتاريخهم وراؤهم، وهم قادتنا.

- لكننا لا نعرفهم.

- جهلك بهم لا يضرهم.

فتوقف عبد البصير عن القراءة وقال للولد بصوت متحشرج:

- اتركني يا بني أكمل البيان.

لكن الشاب أصر وقال:

- نحن هنا منذ الظهر وأنتم جئتم الآن لتسرقوا ثورتنا.

وهنا قهقه حسن وقال له:

- هؤلاء يحتجون مثلك منذ الظهر، لكنه ظهر يوم لا تعرفه؛ لأنك لم تكن قد ولدت بعد.

لكن الشباب تكاثروا، وطلب بعضهم من رفاقهم أن يرفعوهم على الأعناق، حتى أصبحت هامتهم أعلى من هامات كل الواقفين على سور الكعكة الحجرية، ثم صرخوا جميعًا:

- الشعب يريد إسقاط الرئيس.

وقال آخر:

- لازم يمشي الآن.

فقال لهم الدكتور عبد البصير:

- سيسقط، لكن علينا أن نمارس سياسة واقعية.

فصرخ شاب من الطرف الأيمن:

- لا واقعية ولا مهلبية، لازم يمشي.

وتعالت الاحتجاجات على الواقفين فوق نجيل الصينية التي تتوسط الميدان، فطوى عبد البصير الورقة في جيبه بهدوء، وأعطى مكبر الصوت لحسن، ثم تقهقر خطوتين، وانزوى في الظلام الذي صنعته جدران القماش لخيام ضعيفة أعدها المتظاهرون على عجل كي يثبتوا للجميع أنهم قد قرروا الاعتصام في ميدان التحرير. وعلى جانب إحدى الخيام، جلس وحوله من أتوا معه. أصاخ السمع إلى الهتافات الهادرة: «الشعب يريد إسقاط النظام»، ثم ابتسم وقال لمن حوله:

- يبدو أننا قد أتينا متأخرين جدا.

50

حين وصلت المسيرة إلى المكان الذي انطلقت منه في الميدان، حط سامر خفاجي الولد الصغير على الأرض بعد أن حمله على صدره عشرات الأمتار وهو يهتف بحماس. لم يسأل سامر نفسه: من هذا الولد؟ وأين أهله؟ فالمشهد المهيب كان قد سلبه عقله.

ربما اعتقد سامر أن الأب يسير معهم هاتفا وعيناه ترعيان الابن الصغير. ربما جاء في ذهنه أن من ترعاه هي أمه، لكنها لا يمكنها أن تنحشر في منتصف الحشد، ولذا آثرت أن تتابع ابنها من على طرفها، وأنها ستلتقطه فور أن يضعه على الأرض.

لم يعْنِه أن يتأكد مما دار في رأسه خاطفا كومضة عابرة. وربما كان مشغولا بتوابع النقاش الحاد الذي دار بينه وبين حسن عبد الرافع الليلة الفائتة عن الدرب الذي يفضل أن يمضي فيه ركب الثورة. وربما أمور غير تلك لا يعرفها أبدًا الصغير الذي ما إن وجد قدميه على الأرض حتى انطلق نحو طرف الميدان مزهوا بالقبعة التي تُطلق قرونها تشاكس نسائم هبت من فوق النيل لترطب قليلًا عن الأجساد التي أسخنها الحماس.

لم يوقفه أحد ليسأله: أين أهلك؟ فقد اعتاد الثوار منذ أن أصبح الميدان آمنا أن يأتي الصغار ليلتقطوا الصور فوق الدبابات. بعضهم يجري مرحا وعيون ذويه تتابعه من بعيد.

حين وصل الولد إلى طرف الميدان كانت الحشود قد تضاءلت وبدا المتظاهرون متفرقين هنا وهناك. ذهب بعينيه طويلًا إلى نصبة سعد الزايط. ولاحظه الرجل وهو يوزع الأكواب البلاستيكية الخفيفة العاجزة عن منع الحرارة من لسع الأيادي التي تمسكها، فمد إليه بصره وقال له وهو يضحك:

- تشرب شاي يا جميل.

لكنه تركه ومشى قليلًا إلى الأمام. لم يذهب بصره إلى الوجوه المولية شطر مركز الدائرة الذي تلتصق فيه الرؤوس، ولا إلى المجموعة الملتفة حول الزايط تحتسي الشاي بل إلى هذا الكائن الصغير اللطيف الذي يستكين تحت أحد أعمدة الإنارة التي تقف أمام مسجد عمر مكرم. كانت قطة بيضاء نحيلة. عيناها الخضراوان اللتان تتوسطان أذنين سوداوين ذهبتا إلى عيني الولد فذهب مسرعا إليها. حين اقترب منها أخذت تجري يسارا حتى وصلت إلى المركبة المحترقة التي غنمها الثوار من قوات الأمن المركزي وحولوها إلى سلة ضخمة للمهملات، وكتبوا على جانبها «هذه نهاية الظلم».

كانت القطة قد اكتشفت هذا المكان قبل ساعات قليلة. جاءت من كورنيش النيل تجري أمام مظاهرة حاشدة قصدت الميدان بعد أن ظلت شهورا تجري في شوارع حي «جاردن سيتي» تنتظر أي شيء يلقيه زبائن محروس، بائع الفول

الشهير، إلى أن ضايقت ذات يوم زبونا كان يدفع بقشيشا كبيرا للعاملين، يصل إلى ثمن الوجبة ذاتها، فصرخ في وجه العمال:

- لو هذه القطة استمرت هنا لن آتي مرة أخرى.

فطاردها أحدهم حتى وصلت إلى شارع جمال الدين أبو المحاسن، ثم انعطفت يمينا فجرى وراءها إلى أن وصلت إلى الكورنيش. تركها وعاد. كانت معذبة في هذا الحي النظيف، تلف وتدور حتى تدوخ من التعب من أجل أن تجد أي شيء يسد رمقها.

ولما أتت المسيرة القادمة من المنيل كانت القطة تعبر الشارع نحو الرصيف الذي يعلو شاطيء النيل، فجرت أمامهم، ثم وقفت تحت شجرة، فالتقفها أحد المتظاهرين ووضعها على صدره، ومشى بها يهتف حتى وصل إلى طرف الميدان فوضعها عنده.

حملت لها النسائم روائح طعام قادمة من جانب جدار «مجمع التحرير»، فسارت إليها حتى وجدت هذا الصندوق الأخضر الداكن الضخم. اقتربت منه في حذر، فقد كان أحد الشباب يلقي فيه عشرات الأكياس من فضلات الطعام الذي طحنته ضروس الغاضبين.

انتظرت إلى أن انصرف ثم تقدمت في بطء حتى وصلت إلى مقدمة المركبة المقلوبة، ودخلت مبتهجة. غرست أسنانها في كيس تنبعث منه رائحة لحم مطهو، مزقته ونبشت محتوياته فوجدت بقايا كفتة ملتصقة بنصف رغيف فينو كبير. راحت تلوكه في استمتاع وامتنان.

منذ هذه اللحظة صار الميدان مأوى لها. تتنقل في هدوء بين السيقان المندفعة نحو مركز الحشد، ثم تعود إلى الصندوق الهائل. تقفز داخله خميصة فتعود ببطن ممتلئ. أحيانًا تقف أمام من يفرشون ورق الصحف على المساحات الخضراء التي تقع بين قلب الميدان ومجمع التحرير ويضعون عليه طعامًا مختلفا، يتقوتون به على البرد والانتظار في اعتصامهم الطويل الذي أعلنوه حتى يرحل الطاغية. بعضهم كان يلقي إليها قطعا صغيرة من البيض، أو قطعة جبنة «نيستون» وهي تلتهم بلا توقف؛ لتملأ بطنها الذي اتسع على أيدي زبائن محروس.

***

اقترب الولد منها عند الصندوق الكبير، وأمسك ذيلها، فقفزت واستدارت ثم كشرت عن أنيابها، واتسعت حدقتا عينيها، وأصدرت زئيرا خفيضا، فتراجع الولد خطوتين. لكنه لم يلبث أن تقدم نحوها مرة أخرى، وقال في نفسه:

ـ عيب عليَّ أن أخاف من قطة وأنا كنت قبل قليل راكب دبابة.

مد يده وأمسك ذيلها في رفق، ثم غمس أصابعه في شعرها بهدوء، وراح يمسد جسدها حتى وصل إلى رأسها، فضمت أذنيها، ومالت إلى الأمام،

واستكانت، فحملها بين ذراعيه، وجلس بها على الجانب الآخر من المركبة المقلوبة.

تدفقت الروائح الكريهة إلى أنفه فقام من مكانه وتحرك عائدا إلى الميدان في بطء، غير عابئ بأي من هؤلاء الذين أخذوا يرمقونه ويبتسمون له. اقتربت منه طفلة تمسك يد أمها، وحاولت أن تمس بأطراف أصابعها ذيل القطة، لكنه راغ عنها وتفاداها، ثم صرخ في وجهها:

- قطتي.

في هذه الآونة كان المنادي قد كلَّت حنجرته بلا جدوى. ظل يكرر: «ولد صغير سنه حوالي ست سنوات، لابس بنطلون أزرق وجاكيت أحمر به خطوط صفراء. على رأسه برنيطة بقرون ملونة على شكل علم مصر. على خده الأيمن مرسوم العلم، والأيسر مكتوب عليه 25 يناير. من يجده يسلمه إلى أمانات الميدان».

لم يفده أحد بأنه قد وجد من يحمل هذه الأوصاف في أي مكان داخل الميدان الفسيح، فنظر إلى الأب والأم، وقال في فتور:

- لا داعي للقلق، كل يوم يحدث هذا، وبإذن الله نجد من ضاع.

نظر إليه الأب في غيظ وقال:

- لو تعبت، هات الميكرفون وأنا أنادي على ابني.

- اهدأ يا أستاذ. سنعاود النداء مرة ثانية.

- متى؟

- بعد قليل.

راحت الأم تنقل قدميها وهي تعض على أضراسها من الغيظ، وتكتم النشيج الذي يغلي في صدرها، والدموع المختزنة خلف المقلتين، ثم شدت الأب من يده، واندفعا إلى قلب الميدان، وهي تقول له:

- نُدوِّر عليه، ونرجع لهم، يمكن ربنا يبل ريقنا.

أومأ برأسه وقال لها:

- ربنا معنا.

ومضى يرسل عينيه معها إلى كل بقعة في الميدان. وانطلق أذان العصر في مسجد عمر مكرم فراح يردد مع المؤذن ويدعو قائلا: «اللهم رد الضالة... اللهم رد الضالة». وشاركته الأم الدعاء، وهي تسير إلى جانبه مفطورة.

ورأت هي تحت تمثال عمر مكرم طفلا يقف وقد أعطى ظهره للناس، فقالت للأب:

- تعالَ يمكن نلاقيه هناك.

ودارا حول التمثال فلم يجدا أحدا. نزلا مرة ثانية إلى نهر الشارع المقوس الذي يصل الميدان بالكورنيش مارًّا بالمسجد ومجمع التحرير. فجأة مرق جسد صغير من أمام عيني الأم. جسد يشبه ما يبحثان عنه بالضبط. كان هو. يأخذ القطة في حضنه، ويمشي مزهوا بنفسه كفتى عائد من رحلة صيد، وجرابه ملآن بالفرائس.

جريا نحوه. الأب رفعه هو والقطة وراح يقبله في رأسه وخديه. الأم انخرطت في بكاء حار، ثم طوقت ما بقي من جيده بعيدًا عن سطوة الأب، وتوحدوا جميعًا. الأب والأم والولد والقطة في جسد واحد، راح يغادر الميدان على مهل نحو بيت ينتظرهم جميعًا في لهفة.

51

أنصت خالد السبع طويلًا إلى دلال وهي تحدثه عن المظاهرات التي جرفتها من الفندق الفخيم إلى الشوارع المفعمة بالدم والدخان والقلق. كانت تتحدث بفرح وامتنان عن أنها قد رأت المشهد المهيب في البقعة المقدسة. قالت له والدمع يطفر من عينيها:

- شعرت أن كل واحد فيهم أخي، وأنه يثأر لوجعي وغربتي وهواني على كل من اشتهاني.

- إلى هذه الدرجة؟

- لا يعرف الثورة إلا من يراها في الشوارع، وليس على شاشات التلفزيون. أنا نزلت جمعتين متتاليتين. وجدت نفسي بين الناس. مطمئنة شريفة لديها شيء تخاف عليه، ويمكن أن تعمل من أجله. كنت أصرخ مع الهاتفين، وشعرت لأول مرة منذ مدة طويلة بأنني أحترم ذاتي، وأن لي هدفًا في هذه الحياة القاسية.

- عندك حق يا دلال. لقد نزلت إلى الميدان أيام معركة الجمل، ورأيت ما لم يخطر لي على بال.

- معارك الجمال لا تزال مستمرة. شباب ذكي يقاوم بالحناجر والكمبيوتر، ونظام غبي يستخدم البلطجية المسلحين بالسكاكين والسواطير والسنج والجنازير في كل مكان، ولا يلوح في الأفق ما يدل على أننا سنخرج قريبا من هذه الحالة الصعبة.

- هل هؤلاء هم الطرف الثالث، الذي يقولون عنه؟

- لا يوجد غير طرفين، الثوار وأعداؤهم.

- يعني حكاية اللهو الخفي مصطنعة؟

- طبعًا.

- أختلف معك، هناك بالفعل من يدبر في الخفاء ولا نعرفه حتى الآن، ولا نملك إلا تخمينات وسط هذا الضباب الكثيف، هناك من يتهم عناصر أمن الدولة وفلول النظام السابق، وهناك من يقول إنه التنظيم الخاص للإخوان، ويوجد من يؤكد أنها أطراف خارجية.

- لو انحاز المجلس العسكري للثوار الحقيقيين ونفذ مطالبهم ما وجد هؤلاء فرصة ليفعلوا ما شاءوا، إن كانوا أصلا متواجدين كما تقول.

صمت برهة، وراح يحك ذقنه بأظافره، وتنهد بعمق، ثم قال:

- من أين لكِ بكل هذا يا دلال؟

- نسيت يا سبعي أنني خريجة جامعة مثلك.

- هناك جامعيون كثر في هذا البلد ويعيشون في جهل فاضح، وتتلاعب بهم وسائل الإعلام ليل نهار، وليس لديهم أي قدرة على التمييز بين الحق والباطل.

ابتسمت، ثم سألته:

- أين جدة الشاب الضائع التي قلت لي إنها تعيش معك منذ كادت سيارتك أن تدهسها.

- توعكت قبل يومين وذهبت بها إلى مستشفى الحكمة قبالة قصر العيني الفرنساوي، وحجزوها هناك.

- لأجل هذا أخذت راحتك وطلبتني.

- طبعًا. لا يمكن أن يتم هذا بيننا وهي في البيت.

ثم ابتسم وقال:

- ست حكيمة وطيبة، آنست وحدتي، وأعادت لي أمومتي التي فقدتها من سنين طويلة.

- ألم يكن الزواج أحسن؟

- لا. إلا الزواج، كفاية النكد الذي أراه كل صبح راكدا على زملائي في البنك من زوجاتهم وعيالهم.

سحبت حقيبتها، ثم فتحتها وأخرجت المرآة الصغيرة المستديرة، لتطمئن على ثبات مكياجها، وأخرجت كذلك فرشاة وراحت تمشط شعرها الناعم، وقالت:

- سمعت بنتًا اسمها صفاء عليوة تقول في التلفزيون إنه لا يوجد طرف ثالث، وكان معها في الحلقة دكتور اسمه عبد البصير مرتضى، اقتنعت بكلامهما.

وخز اسم صفاء رأس خالد، وشعر بارتجاف خفيف في بدنه، لكنه تماسك، وقهقه صارخا:

- طريق جديد.

- أي طريق؟

- طريق والسلام.

- لا أفهمك.

- أهلا بالمغامرات.

- عمَّ تتحدث؟

- ستعرفين كل شيء فيما بعد.

وسادت لحظة صمت تاه كل منهما في خواطره، وقطعها خالد سائلا إياها:

- ما أخبار المعلم شحتوت، تاجر الرخام، وملك شق التعبان؟

لم تكن تتوقع منه السؤال، لكنها أجابته بكل ثقة:

- لم أعد أراه.

- لماذا؟

- لأنه استكان في جحره حتى تهدأ العاصفة.

- استغنى عنك؟

- أريد أن أستغني عنكم جميعًا. حين تنجح ثورتنا، سأبحث عن عمل في مناخ نظيف، وأشطب أرقام هواتفكم إلى الأبد.

غمغم خالد بكلام لم تفهم دلال منه شيئًا، لكنه التفت إليها بكل جسده، وقال لها:

- فعلا، يبدو حقًّا أنه لا يوجد سوى طرفين، وأن من يضربون الثوار حين يجن الليل تحركهم أصابع السلطة، أي سلطة، كل من يجلس على الكرسي الكبير، ويريد أن يعيد ترتيب كل شيء على هواه، ووفق إرادته.

قد يكون كلام صفاء حقيقي، لكن من أين يبدأ حتى يعرف ما إذا كان قولا صائبا أم أنه ثرثرة فارغة؟

***

راح يسأل نفسه في إلحاح بعد انصراف دلال، دون أن يعرف أي إجابة. بدت له مغامرة جديدة، لكنها مخيفة. استجمع شجاعته، وقال لنفسه عبارة نيتشه التي يكررها دومًا: «عش في خطر. شيد أحلامك فوق جبل فيزوف». قام إلى الدولاب، فتحه، وغمس يده في منتصفه بحثا عن «الكاميرا الديجيال» التي اشتراها قبل سنين.

ثم عاد يسأل نفسه من جديد: من أين أبدأ؟

وفجأة قام إلى الهاتف، الذي أغلقه ووضعه على «الكومدينو» قبل المعركة اللذيذة التي خاضها مع دلال منذ قليل. فتحه، واستعرض قائمة الأسماء، وعند اسم «أكمل» ضغط الزر، وراح يتابع أغنية شادية الشهيرة «أصله معدَّاش على مصر».

- أهلا يا خالد.

- كيف حالك يا أكمل؟

- بخير، والحمد لله.

تنحنح خالد وسأله فجأة:

- هل تعرف اسم أحد من البلطجية؟

ضحك أكمل وقال:

- عاوز تشتغل معه.

- لا والله، هذه مسألة ضرورية، وستعرف كل شيء فيما بعد.

صمت أكمل بضع ثوان، ثم قال له:

- أسمع عن شخص اسمه سباعي الدغل، يقال إنه مقاول بلطجية.

- وأين أجد الدغل هذا؟

- في حي المنيب.

ركب خالد سيارته، متوجها إلى المنيب. كان قد رتب في رأسه كل ما سيفعله، واستعد لهذا اليوم جيدًا. ترك ذقنه حتى اخضر، وبحث على شبكة الإنترنت عن أي «فيديوهات» للبلطجية، وجمع معلومات أيضًا عن سباعي الدغل.ارتدى بنطلون «جينز كالح» وبعثر شعره ثم سكب عليه نصف أنبوبة من «الجيل» وارتدى «تي شيرت» أبيض عليه رسم أسود لجمجمة وعظم، ووضع حول معصمه أستيك أسود، وشمر الكم قليلًا حتى تظهر آثار جرح قديم في حادث مروري، وترك سجائره «المارلبورو» واشترى علبة «كليوباترا».

ترك السيارة تحت كوبري المنيب. بالقرب من محطة حافلات الصعيد، وسار على قدميه، عبر مزلقان القطار، ومضى في طريقه، ثم انعطف يمينا في شارع «جمال عبد الناصر». جلس على مقهى في منتصف الشارع، صاحبه يعلق على أبوابه الخارجية ذبائح. ويقول للزبائن كاشفا عن أسنانه المعدنية اللامعة:

- قهوة وجزارة، واسعى يا عبد وأنا أعينك.

طلب كوبا من الشاي الأسود، وحجري معسل. مسح بعينيه المكان بحثا عن وجه الدغل الذي حفظ صورته جيدًا في مشاهد متناثرة على «اليوتيوب» فلم يجد له أثرًا. قام إلى النصبة، وسأل الرجل الواقف أمام الموقد:

- تعرف بيت سباعي الدغل؟

فزفر في غيظ، ثم قال:

- خير؟

- قاصده في حاجة.

- حاجة؟

ثم غمغم بصوت مسموع:

- ربنا يستر.

وأشار بيده إلى مقعد موضوع في زاوية المقهى عند التقاء جدارين، وقال:

- هذا مكانه.

- لكنه غير موجود.

- نصف ساعة ويأتي.

عاد وجلس يرشف من كوب الشاي ويسحب من الشيشة. طلب كوبا آخر، وغير له النادل ثلاثة أحجار معسل، ثم فجأة ظهر الدغل. ملأ جسده باب المقهى، ثم تقدم في ثقة وجلس مكانه. وأسرع إليه النادل بكوب الشاي،

وشيشة ضخمة، لا مثيل لها في يد أي زبون من بين الجالسين. ثبت عليها حجرا مملوءًا بالمعسل، ثم أحضر المجمرة وبدأ يرص جذوات النار الصافية، والدغل يسحب وينفخ أمامه نافورة دخان.

قام خالد من مكانه وذهب إليه. وقف أمامه وقال له في تودد:

- عمنا سباعي الدغل.

فرفع رأسه إليه، ثم مسح جسده في نظرة شاملة، وقال له:

- نعم.

- محسوبك ضبعان السباعي.

- السباعي.

- نعم.

- تشرفنا.

فتنحنح خالد وقال:

- تتشابه الأسماء، لكن المهم الأفعال.

- لم أفهم.

- بصراحة أنا اسمي السباعي على اسمك، لكن عاوز أكون واحد من رجالتك.

- رجالتي.

- آكل عيش.

- فهمت.

أطرق صامتًا برهة، وسحب نفسا عميقا من الشيشة، ثم نفخه في وجه خالد، وقال له:

- بطاقتك.

- ضاعت مني في معركة كبيرة من مدة.

- معركة؟

- ألم تسمع عن المواجهة مع الخونة عند مجلس الوزراء؟

- سمعت، لكن هذه العملية لم أشترك فيها.

- أنا اشتركت، وهزمناهم.

- عَرَقُّوك؟

- ألف جنيه في يومين.

- قليل.

- أحسن من غيرها.

ابتسم الدغل، ثم أشار بالجلوس إلى خالد، قائلا:

- تعالَ جاري يا ضبعان.

ثم سادت لحظة صمت، قطعها خالد:

- كنت خايف إنك تفتكرني مزقوق عليك من الحكومة.

قهقه الدغل، وسعل، ثم قال:

ـ لا طبعًا؛ لأنني ببساطة أشتغل مع الحكومة ذاتها.

ـ وأنا عاوز أشتغل معاك.

ـ هات رقم تليفونك، ولما أعوزك سأتصل بك.

***

بعد مدة، كاد فيها خالد أن ينسى اتفاقه مع الدغل، فوجئ بهاتفه يرن، وعلى الشاشة مكتوب اسم «سباعي الدغل»، سرت رعدة في جسده، لكنه طردها هازئا بها ورد عليه:

- عمدتنا.

- تعالَ عاوزك، وهات معك عدة الشغل.

طلب إجازة عارضة من البنك، وذهب إليه منقسما بين الفرح والوجل. هذه المرة لم يأخذ سيارته ويركنها بعيدًا كما فعل في المرة السابقة، إنما ركب أتوبيس العباسية - الهرم. نزل منه في ميدان الجيزة، ليركب «ميكروباص» من أسفل الكوبري إلى المنيب. وجده جالسا في المقهى، وحوله دوامات من الدخان الأسود. صافحه وجلس أمامه متطلعا، فلم يمنحه فرصة للسؤال، وقال له مباشرة:

- هل سمعت عن الخونة العملاء المعتصمين في ميدان العباسية؟

- طبعًا.

- عاوزين نربيهم، أصلا أهلهم أهملوا في تربيتهم.

- كيف؟

- زحفوا على الميدان، ويريدون حصار وزارة الدفاع.

- الجيش كفيل بهم.

- لا يجب للجيش أن يدخل في مواجهة ضد الشعب، وهناك من يفضل أن نتعامل نحن معهم.

- أنتم؟!

- نحن الذين كنا في كل مكان. في التحرير أيام المخلوع. وفي ميدان العباسية حين زحف الشباب على وزارة الدفاع. كنا أمام ماسبيرو، وعند مسرح البالون، وفي شارع محمد محمود. في أي مكان وقعت فيه مواجهة، كنا نحن حائط الصد. أصابعنا مرسومة على أقفائهم، بعضهم مات بين أيدينا، وبعضهم لا يمكنه

أن ينسى ما فعلناه به، خاصة ولد اسمه حسن عبد الرافع، أنا شخصيا لا يمكن أن أنساه، فقد ضربته بنفسي ورميته إلى جانب الحائط وأنا موقن أنه فارق الدنيا، ثم فوجئت بعد أيام به يطل علينا من التلفزيون.

- ومن يدفع لكم؟

- جهة لا نعلمها، ولا نريد. الواسطة بيني وبينها شخص اسمه عاطف الشطنوفي. جاءني قبل شهور هنا، حدد مهمتي وأعطاني أجري، وذهب. وكلما احتاجونا يأتي هو.

- من عاطف هذا؟

- ألم أقل لك إنني لا أعرف ولا أتعب نفسي بالإجابة على هذه الأسئلة؟

- على رأيك، ما لنا نحن، المهم الفلوس.

وفي الزمان الذي اتفق معه عليه، ذهب حاملا معه في حقيبة جلدية علقها على ظهره كل ما طلب الدغل منه أن يصطحبه معه. مطواة قرن غزال، وسنجة، ومسدس لا يستخدم إلا عند الضرورة. ووسط هذه الأشياء وضع خالد السبع الكاميرا الديجتال؛ ليسجل بها كل شيء.

وصل مع حلول المساء إلى المكان الذي أبلغه له الدغل، فوجد مئات البلطجية ينتظرون التعليمات التي سيسمعونها من رجل لا يعرف أي منهم من هو؟ وأين يذهب بعد أن يملي أوامره في صرامة حادة، وثبات عجيب.

ورحل العسكر عن السلطة، وأنصت السبع جيدًا إلى أحد الجنرالات وهو يقول في ثقة:

- لم نطلق رصاصة واحدة على الثوار.

كانت ملامحه جادة، وفي وجهه ألم وأسى. ومع الأيام راح كثيرون يصدقون هذه الرواية، وتداول الناس معلومات عن عناصر تأتي من خارج الحدود. وقال رجل في التحرير يحمل لافتة عريضة مكتوب عليها «يسقط حكم المرشد»:

- لم يخلص المجلس العسكري للثورة لكنه كان مخلصا للبلد، وكل ما جرى من قلة خبرتهم.

وذات عصر زلزلت الأرض من تحت قدمَيّ خالد السبع، كان خارجا للتو من البنك، حين جاءه صوت الدغل زاعقا:

- أين أنت؟

- موجود وتحت الأمر.

- تعالَ بسرعة وهات عدة الشغل.

- خير؟

- الحكومة الجديدة تحتاجنا.

وذهب خالد في الموعد المنتظر، وقد أخفى الكاميرا، وهناك تحت جنح الليل راح يلتقط صورا خلسة؛ ليضمها إلى الملف الذي فتحه على حاسوبه الشخصي وكتب تحته:

«ملحق فلاشة حسن عبد الرافع الضائعة»، ثم أتبع العبارة بعلامة استفهام (؟) رغم أنها لا تحمل سؤالا، لكنه كان يشعر، رغم الصور التي تراكمت معه، أن اللغز لا يزال قائما، وأن فم سباعي الدغل فقط لا يمكن أن يكون برهانا ناصعا على شيء.

52

حين رأى الميدان مملوءا بالمتظاهرين انتابته مشاعر متضاربة. يفرح لأنه الآن يمكن أن يقول لأسياده الذين وضعوه ليمثل دور المعارض: ألم أقل لكم إن ما تفعلونه فاق الحدود؟ أم يحزن لأن ما يجري يمكن أن يكبر ويكبر ويجرف كل شيء؟ يعرف أنه سيكون ممن سينجرفون إلى متاهات لا نهاية لها، لو اكتمل المشهد، ووقع المحظور.

أغلق التلفزيون، وقام من مقعده، يدور في صالة شقته الفخيمة، وقد أطرق إلى أسفل دون أن تشغله الرسوم البديعة المنقوشة على السجادة الشيرازي، ولا خشب الباركيه الآرو المعشق. كان منشغلا بشيء واحد فقط: كيف يجري هذا دون أن يدري هو عنه شيئًا؟ يدرك تمامًا أن رفاقه في أحزاب المعارضة عاجزون مثله. ينتظرون الأعطية التي تتفضل بها السلطة عليهم كل سنة، فينفقون أقلها على الحزب ويدسون أغلبها في جيوبهم، ويتلهفون على حركة التعيينات في مجلس الشورى، من أجل الحصانة التي يفتحون بها أبوابا كثيرة موصدة. هو تعدى هذا بكثير، فمؤسسات الحكومة تشتري كل سنة، بناء على أوامر عليا متجددة، حصة كبيرة من أجهزة الطباعة ومستلزماتها من الشركة التي يملكها.

التقط هاتفه المحمول وطلب ضابط أمن الدولة المسؤول عن متابعة الأحزاب، وسأله عما يجري، فقال له:

- نحن أيضًا متفاجئون.

- كيف؟

- هذا ما حصل.

حكَّ ذقنه براحة يده، مثلما يفعل كلما اشتعل فيه التوتر، وبدا عاجزا عن فعل أي شيء. فكر في أن ينزل إلى الميدان، لكنه خشي من أن يسيء أسياده فهمه، وقد تتطور الأمور إلى ما لا يعرفه ولا يحسبه، فيجد نفسه كبش فداء. أليس هذا ما جرى لبعض زملائه؟ عاقبتهم السلطة وهي تعلم أنهم خدمها. هذه هي السياسة التي لا ترحم، ولا تكف عن ولادة الألاعيب المريبة. حتى الإخوان، أعداؤه التاريخيون، لم يجاهروا بالخروج مع المتظاهرين، وتحدي الحاكم، رغم كرههم له. يسلم هو لهم بالبراعة في المراوغة والتحايل والحذر والتربص والكمون والتقاط الفرص.

عاد إلى الجلوس، واستعاد الكثير من حكايات التاريخ التي يحفظها عن ظهر قلب، وغرق في تفاصيلها. كان ذاهبا بكل كيانه إلى البعيد، فلم يشعر بالخادمة التي كانت تقف أمامه منذ مدة، متعجبة من شروده وتضاؤله في الروب دي شامبر الأخضر الذي يفضله دومًا. انتبه إليها فصرخ فيها:

- عاوز قهوة.

ووصل صراخه إلى مسامع زوجته التي كانت تقلب في دولاب ملابسها لتطمئن إلى أن الخادمة رتبتها في مكانها الصحيح بعد أن أحضرها صبي الكواء. مدت رأسها من باب غرفة النوم التي تؤدي إلى الصالة، وسألته:

- ما بكَ يا عزت؟

لكنه لم يرد، أعاد فتح التلفزيون، فوجد الليل قد فرش رداءه على الميدان، دون أن ينتبه هو إلى الظلام هنا خارج نافذته. وقال بصوت مسموع، كأنه يريد أن يطمئن نفسه:

- دقائق ويكنسوهم.

مد يده إلى الهاتف من جديد، قاصدا هذه المرة أن يتحدث مع ممدوح البرماوي، الرجل النافذ في السلطة. كانت يده ترتجف، وأصابعه تتردد في أن تضغط على الأزرار. وصل إلى الاسم في القائمة، ثم ضغط وهو يغمض عينيه. لم يرد، فأغلق الهاتف، وهو يتساءل: هل هو في اجتماع؟ لا بد أن يكون هكذا. لا بد أنهم يدرسون الأمر، وسيتخذون القرار المناسب. هم بارعون في الحفاظ على الأمن. لا يفقهون شيئًا إلا في هذه الناحية. لا يجيدون غيرها. ولا يعرفون منها إلا الجانب الخشن الكريه، الذي أدى إلى ميلاد هذا المشهد المهيب الذي يراه الآن في الميدان.

تذكر قول نائبه:

- المصالح تتصالح.

كان يقول له هذا حين يدخلان بلا حساب في ساعات من النميمة عن زعيم المعارضة الكبير الذي يرسل إلى بعض رجال السلطة المسافرين إلى أوربا قائمة بالأدوية التي تنشط الجسد، وتزيد القدرة الجنسية، ويطلب منهم أن يحضروها له، دون أن يدفع مليما واحدا.

يضحك عزت ويقول لنائبه:

- الرجل معذور، تزوج بمهرة جامحة، تصغره بأربعين سنة، ولا بد له أن يطيل رقبة رجال المعارضة معها.

هذا ليس وقت الهزل. الميدان امتلأ بالمحتجين. تحقق الشرط الذي كتبه ذات مرة على استحياء، لا ليحرض على التمرد إنما لينبه أسياده إلى الباب الذي ستدخل منه العاصفة. إنها الخلاصة التي استقرت في رأسه من قراءة التاريخ. كان معنيا أكثر بالبحث في اللحظات التي تسبق زوال الملك، وانفراط العقد، وانقضاء كل الطول والحول والهيلمان.

وقال ذات مرة في أحد برامج «التوك شو»:

- النظام نجح في التفريق بين معارضيه، لكن لو جاءت لحظة ورأى بعضهم

رؤوس الآخرين في مكان واحد، وهتفوا هتافا واحدا، وكانوا كثيرين، ستكون القاضية بلا شك.

كان يقول هذا الكلام ويدلل عليه من التاريخ، دون أن يعتقد بأن هذه اللحظة ستأتي وهو على قيد الحياة. كلام ساقه ليكون هو متواجدا في النور يقاوم ظلام عالم متوحش، يتسابق فيه كثيرون على التحقق والظهور بأي شكل. سمح له أسياده أن يصرخ أحيانًا، ويقول ضدهم ما يشاء، حتى تكتمل اللعبة، ويكون جاهزا في اللحظات الفارقة أن يضع كل هذا في يد الأسياد ليتصرفوا فيه كيفما شاءوا، وينتظر هو الفتات الذي يلقون به إليه.

التقط الهاتف للمرة الثالثة، وطلب نائبه، فرد عليه قبل الرنة الثانية:

- شفت يا عزت بيه.

- شفت يا سيدي.

- شيء لم يخطر لنا على بال.

- تكلم عن نفسك.

- أعرف أنك قلت هذا، لكنني لم أميز وقتها ما إن كنت جادا أم توصل رسالة إلى الجناح الآخر في السلطة.

- الجناح الذي يعتقد أننا عالة عليه.

- هؤلاء سفهاء، يعتقدون أن السياسة صفقة تجارية، عليهم أن يقتنصوها كلها، ويحرموا الآخرين من أي شيء.

- هذه جناية رجال الأعمال على السياسة في بلادنا.

- ما يجري في ميدان التحرير الآن هو صناعة فشلهم ونزقهم.

- هو كذلك، ولا شيء غيره.

- ونحن يا عزت بيه؟

- نحن ماذا؟

- هل سنتفرج من بعيد؟

- نعم، سنتفرج حتى تتضح الأمور أكثر. في كل الأحوال أتصور أنها موجة عابرة، ستنحسر بعد ساعات، وستبدأ آلة البطش الجهنمية في العمل، وعندها ستدخل الفئران إلى جحورها، ويندم كل من سولت له نفسه أن يقف في وجه ما أراده أولو الأمر.

صمت برهة، ثم قال لنائبه:

- اتصل بكل أعضاء الهيئة التنفيذية العليا، وادعهم إلى اجتماع طارئ غدا.

***

انتهى الاجتماع بالنتيجة نفسها، التي كان عزت يميل إليها، والتي سكنت

رأسه في الساعات الماضية. الترقب والانتظار ليعرفوا إلى من تميل الكفة.

بعد جمعة الغضب، اتصل عزت بنائبه، الذي أجابه قبل أن تنتهي الرنة الأولى:

- شفت يا عزت بيه.

- الصورة اتضحت، النظام يترنح، والبلد يشهد ميلاد طريق جديد، ولا بد أن يكون لأقدامنا موضع على هذه الطريق، مهما كانت وعرة.

- هذا ضروي، لكن كيف؟

سادت لحظة صمت، قطعها عزت قائلا:

- عاوز رقم واحد من قادة الشباب في الميدان.

- حاضر.

بعد ساعة اتصل به، وأملى عليه رقم هاتف حسن عبد الرافع، وقال له:

- هذا من المفاتيح الأساسية للميدان.

- أعرفه جيدًا. رأيته في التلفزيون كثيرا.

راح يتفرس في الأرقام التي كتبها بقلم رصاص، ثم نقلها إلى هاتفه، وحفظها. وفي صباح اليوم التالي طلب حسن، وقال له في صوت حرص على أن يجمع بين التودد والعظمة:

- أنا عزت سعد.

سكت حسن برهة من الدهشة، ثم قال له:

- أهلا وسهلا.

- ما فعلتموه معجزة تهللت لها، وآمنت أنها ستنهي الكابوس الذي نعيش فيه من سنين.

- نحن لم نفعل شيئًا، هذه ثورة الشعب كله.

- هذا مفهوم. أنت تتواضع، معرفتي بالتاريخ تجعلني موقنا أن الطليعة التي فتحت الأبواب والنوافذ ليدخل منها الشعب إلى المشهد المهيب بعد غيابه سنين، صاحبة فضل، من دون شك.

- كل منا يؤدي ما عليه.

- ولهذا أنا أكلمك الآن. نحن عارضنا النظام، لكن أيدينا كانت مكبلة بأشياء كثيرة، وجاءت الفرصة كي نثبت لكم أننا معكم، بكل ما لدينا.

- الميدان يتسع للجميع.

ابتسم عزت وقال بصدر منشرح:

- نحن جنود في الميدان، وبعد ساعات قليلة سأجيء لأعلن بينكم تضامني معكم، وأطالب بالاستجابة لكل ما تريدون.

- مطلبنا الوحيد هو إسقاط النظام.

- هذا لا اختلاف عليه، لكن اللحظة تحتاج إلى فعل سياسي خلاق، يستثمر ما أهدته لمصر السواعد الفتية، والحناجر الهادرة.

- نتمنى ذلك.

قبل الظهر كان عزت يدخل الميدان بصحبة كبار رجال حزبه من ناحية شارع طلعت حرب، بعد أن أطلق تصريحات عن انحيازه للثوار، تناقلتها الفضائيات والمواقع الإخبارية الإلكترونية.

كانت الكاميرات تنتظره عند السور الحديدي المطلي باللون الأخضر الذي يفصل الرصيف عن الميدان. وكان ينتظره أيضًا سامر خفاجي ورفاقه. ما إن رأوه حتى هجموا عليه:

- الخاين يطلع بره.

توقف عزت ومن حوله، ورمى بصره بين الواقفين في طريقه لعله يلمح حسن عبد الرافع، لكنه لم يكن بينهم. تقدم خطوتين، فزاد الهتاف، وصنع سامر ومن معه جدارا من عظم ولحم، وتمترسوا في أماكنهم. وهرع إليهم كثير من المتظاهرين، وشاركوهم الهتاف، فلم يجد عزت مفرا من الابتعاد إلى الوراء، ثم أدار ظهره للميدان، وسار مبتعدا، كسيف البال، حزينا.

53

قضى فؤاد بهيج سنوات طويلة، يحبس ما يرسمه داخل جدران بيته. يذهب به أحيانا إلى معارض لا يزورها كثيرون، ولا يكتب أحد عنها سطرا واحدا. ومع الأيام ظن أنها رسوم تخصه وحده، مثل قصة الحب الوحيدة الفاشلة في حياته الذي كتمها عن كل من حوله، وعاش معها وبها، يستعيدها في أحلام اليقظة، ويخط بعض ما تلهمه به على الورق أو على جدران حجرته، التي حوَّلها بمرور الزمن إلى لوحة كبيرة، تحتضن صورا وألوانا ومعاني وأشياء.

على فترات متباعدة يزوره بعض الأصدقاء، يصر هو أن يأخذهم إلى غرفة نومه، ويقول لهم:

ـ هنا معيشتي ومنامي وربما مقبرتي.

لم يكن يحسب وقتها أن غرفته ستتسع وتنجلي؛ لتصبح القاهرة بأكملها، وأن تنتقل رسوماته من الظلام والوحدة والغربة إلى نور مبهر يحط عليها في الشوارع المفتوحة، فتسر الناظرين، وتلهب الحماس.

خرج يوم جمعة الغضب ليلعن الطاغية، الذي كابد في عهده شعورا دفينا بالضياع، وصار عالة على الحياة. لم يمسك طوبة في يده ليرد على الرصاص والدخان وخراطيم المياه الدافقة، ولم يصرخ بحنجرته معلنا أي مطلب.

كان يمشي صامتًا وسط الحشد الصاخب، لكن رأسه مشغول بما سيأتي. كلما تقدمت المظاهرة صوب الميدان الفسيح كان يفحص الجدران على جانبي شارع رمسيس، ويمسح أبواب العمارات، وجوانب الباصات، ويرنو إلى أسطحها العالية، ثم يرتد بصره إلى أسفلت الشوارع، ويقول لنفسه:

- لوحات فارغة تحتاج إلى من يضع عليها علامات لا تُمحى.

في اليوم التالي جاء إلى الميدان ومعه أدواته، بخاخ وقلم البوية، ولوحات «الاستنسل» الخاصة التي تجعل الرسم طيعا في يده، وتحدد مساحته أمامه بسهولة، وعلب معبأة بالبوية المطلوبة، ذات منفذ اسفنجي مقوى.

ها قد جاءته اللحظة التي يسخر فيها من الطاغية، تمامًا مثل أجداده القدماء الذين كانوا يكدحون في بناء معبد الملكة الإلهة حتشبسوت بكل مثابرة وورع وتجرد، وفي الليل ينتقمون منها، حين يرسمون على الجدران التي صنعتها أيديهم في وهج الشمس صورا للملكة مع عشيقها مهندس المعبد.

جاءت اللحظة التي يفعل فيها ما فعله والده قبل أكثر من أربعين عامًا. كان يقول له مفتخرا:

ـ أنا صاحب جرافيتي «نهاية الأعور».

ويتوه في الزمن ويقول:

ـ عند مدخل كوبري قصر النيل رسمت صورة للجنرال الإسرائيلي موشيه

دايان، والصاروخ يقسم جبينه.

يضحك، ويتوه قليلًا، ثم يعود وعيناه مفتوحتان:

ـ كان هذا مع بداية الحرب، حين كانت إذاعة صوت العرب تقول إن جيشنا على أبواب تل أبيب. وحين هزمنا بعد أيام، لم يعد الرسم له معنى. لكن أحدا لم يجرؤ على أن يمحوه. ظل حلما يراه كل من يعبر الكوبري متجها إلى ميدان التحرير. فلما جاء نصر أكتوبر، عاد إليه معناه.

حين شب على الطوق، طلب منه فؤاد أن يرى الرسم. أخذه يومها من يده، ووقف عند مدخل الكوبري يبحث عن وجه جنرال يشطره صاروخ، لكنه لم يجد شيئًا. عاد به وهو يقول له في حسرة:

ـ طمسوه.

وفي المساء قال لأصحابه على المقهى ساخرا:

ـ يبدو أن أحد الملاحق السرية لمعاهدة السلام مع إسرائيل نصت على محو ما رسمته بيدي تلك.

فيقول له أحدهم ساخرا:

ـ طبعًا، لم يكن الإسرائيليون ينامون الليل من فرط الخوف من رسوماتك.

فيمعن هو في السخرية من كل شيء، ثم يسألهم:

- إن كنت كاذبا فبمَ تفسرون اختفاء الصور التي تلعن الاحتلال من على كل جدران مدينة السويس؟

وهنا يتدخل صاحب المقهى:

ـ الزمن يمحو أشياء كثيرة.

***

لكن الزمن لم يمحُ آثار رسوم فؤاد على جدران غرفته. بهت بعضها قليلًا، إلا أنها ظلت واضحة لكل من ينظر إليها حتى لو كانت عينه كليلة.

هكذا كانت رسوماته أيضًا في مدخل ميدان التحرير. خرجت من الهواء المحبوس الفاسد وجاءت هنا في عين الريح، وبعد أن كان يتودد لمن يزورونه كي يدخلوا حجرة نومه، ويشاهدوا الصور الراقدة على الجدران بلا حراك، هاهو لا يبذل أي جهد في جذب أحد من الملايين التي ترد إلى الميدان كي ترى رسمه وخطوطه.

على جدران «مجمع التحرير» وعند مدخل الميدان من ناحية المتحف المصري، كل الجدران حملت رسمه. ورآها فنانون فهرعوا إلى بيوتهم وأحضروا أدواتهم، وتوالت الخطوط.

«يسقط مبارك»

«الشعب يريد إسقاط النظام»

«الثورة ليست لحظة»

«مفيش حرية ببلاش»

«كن حذرا عند محاربة الوحوش لئلا تصبح واحدا منهم»

«الشعب خط أحمر»

كما توالت الرسوم والخطوط معًا:

«صورة لمبنى الإذاعة والتلفزيون وتحته كلمة OCCUPY»

«ملامح الكاتب مصطفى محمود وإلى جانبه قوله الشهير: الأحرار يبكون شهداءهم، والعبيد يبكون جلاديهم»

«ملامح الشاعر فؤاد حداد وإلى جانبه بيت من شعره: إيماني بالنصر.. قوة مصر بالإنسان»

«صورة لوجوه الشهداء وبينها عبارة الشاعر أمل دنقل الشهيرة: لا تصالح»

«صورة لامرأة محجبة وفوقها عبارة: خافي مني يا حكومة»

««صورة لامرأة أخرى سافرة وعلى عينها اليمنى قطعة قطن ضخمة»

«صورتان للضابط المتهم بتصفية عيون شبان كثر وفوقها عبارة: ابحث مع الشعب، وفوقها الكلمة الإنجليزية الشهيرة والدالة Wanted»

«صورة لشاشة تلفزيون: مكتوب عليها بخط ملأها عبارة: انزل الشارع»

«صورة لمبارك مرسوم على ورقة كوتشينة يلعب دور الشايب»

«صورة لملامح شاب على فمه علامة خطأ باللون الأحمر، وعلى جانبه مكتوب بالإنجليزية: Your fear is their power»

«صورة لسمكة كبيرة تهرب مذعورة من أسماك صغيرة تطاردها»

خطوط وصور وعبارات عديدة ملأت الشوارع والميادين، ورآها الملايين، وعرفوا ما فيها، ووعوه، وهذا ما حلم به بهيج خير الله، وورثه عنه فؤاد، وعاش سنين ينتظره، ولم يمت إلا وقد حققه.

***

ولما ارتفعت سبعة حواجز أسمنتية قبيحة في شوارع وسط البلد، لتحمي مباني وزارة الداخلية ومجلسي الشعب والوزراء، أطلق حملة على «فيس بوك» أعطاها عنوان «مفيش جدران» دعا فيها كل رسامي الجرافيتي إلى التجمع عقب صلاة الجمعة عند مسجد عمر مكرم، وجاءوا مشمرين عن سواعدهم، قابضين على فرشاتهم.

قسمهم إلى سبع مجموعات، مجموعة لكل جدار، وانطلقوا إلى شوارع قصر العيني، والشيخ ريحان، ويوسف الجندي، والفلكي، ومنصور، وفهمي، ونوبار،

وبدءوا العمل بالفرشات والبويات وأدوات هندسية بسيطة، فراح القبح ينحسر شيئًا فشيئًا.

رسموا مشاهد حقيقية على كل الجدران والأشجار والمباني والأرصفة والمقاعد الخشبية حتى يتخيل العابرون أن الشوارع مفتوحة أمامهم.حولوا الجدران العازلة إلى امتدادات للشوارع. رسموا على جدار «قوس قزح» ومقعد خشبي للمارة موجود في آخر الشارع المغلق.

ورسموا صورا معبرة ترتبط بمكان الجدار. ففي شارع «قصر العيني» رسموا أغلفة ضخمة لكتاب «وصف مصر» الذي قال العسكر إنه احترق حين شبت النيران في «المجمع العلمي» الذي يقع على بعد أمتار من فوهة ميدان التحرير خلال اشتباكات بين جنود الجيش والثوار.

وعلى أحد الجدران في محيط وزارة الداخلية رسموا صورة «حنظلة»، الشخصية الكاريكاتورية الشهيرة للرسام الفلسطيني الشهيد ناجي العلي، ممسكًا بسيف؛ ليرمزوا إلى أن الثورة مستمرة. وعلى سور الجامعة الأمريكية رسموا جرافيتي ضخما لصور الشهداء، وفي الطرف كانت صورة لنصف رأس الطاغية ونصف رأس تلميذه، اختلطت فيها ملامحهما؛ ليصبح الجديد المزعوم مجرد امتداد للقديم.

وانتشرت عبارات:

«الشعب لم يُسقط النظام»

«العسكر حرامية»

«يسقط حكم العسكر»

«عسكر كاذبون»

«إخوان منافقون»

«بيع بيع بيع.. الثورة يا بديع»

«الثورة مستمرة»

ولما قتل حسن عبد الرافع رسموا عشرات الصور لوجهه وهو يبتسم، وكتبوا تحته: دماؤك لن تضيع هدرا.

ورسم شباب «الألتراس» لوحاتهم. رموزهم وعباراتهم التي تخصهم هم دون غيرهم. صور مبهجة وكلام زاعق، بالعربية والإنجليزية. جدران بكاملها تحولت إلى لوحة ضخمة تسر الناظرين.

لكن لم تمضِ سوى أسابيع قليلة، وجاء رسل القبح ليطمسوا كل شيء. كان أحدهم عاملا بَسيطا، يدفع فرشاة ضخمة لتفرش لونا أصفر فوق الرسم، ويقول لكل من يسأله:

ـ المحافظ بعثنا لنمسح الصور؛ لكي ننظف البلد قبل أن يأتي الرئيس الجديد.

وحين صرخ فيه أحد الشباب قائلا:

ـ كيف يزيلون صورا تجسد ثورة الشعب التي غيرت وجه الحياة في مصر.

ابتسم له العامل في هدوء وقال:

- هذا كلام تقوله للمحافظ. أنا عبد مأمور.

بعد انتهاء العمال من مهمتهم القبيحة، نادى فؤاد رفاقه فجاءوا مرة أخرى بفرشاتهم، وأخذوا يعيدون كل شيء إلى ما كان عليه.

54

بين الجدران الكالحة، والكراسي المتداعية، والكتب المرصوصة التي يرقد عليها غبار الشارع وعوادم السيارات، ناموا متراصين كأنهم ألواح خشب موضوعة بإحكام في أماكنها. كانوا قادمين من الميدان، لم يزُر النوم جفونهم منذ يومين. ترنحوا عند الكعكعة الحجرية، لكن الصخب والحماس طرد التراخي الذي حل بأجسادهم من الدوران والهتاف ووعثاء السفر الطويل في قطار الدرجة الثانية.

وقال أحدهم، وهو يتثاءب:

- سمعت أن هناك «دار نشر» قريبة من هنا، صاحبها خصصها لمبيت الثوار المغتربين.

فابتسم الثاني وسأله:

- من قال لك هذا؟

- حسن عبد الرافع.

فهز رأسه وقال:

- أعرفها، بيتي ومطرحي.

وساروا إليها، والأمل يحدوهم أن يجدوا فيها مكانا لهم. كان من قال إنها بيته أديبا أرسل مجموعته القصصية الأولى إلى القاهرة قبل أن يأتي إليها، وفي هذه الشقة، التي جاء ذكرها على لسان صاحبه، جلس ذات يوم يتحدث عن تفاصيل النشر وحقوقه. لا ينسى هو هذه اللحظات التي قابل فيها مَن علَّموه عن بعد فن الحكي، وكان يظن وهو يقرأ كتبهم أنه لن يراهم أبدًا. يومها وقع في غرام هذا المكان البسيط، ولم ينسَ طعم فنجان القهوة الذي احتساه على مهل، وهو يتفرس في وجوه نجوم الأدب اللامعين.

وحين عاد إلى قريته المعزولة الغافية ظل يحكي لكل جلاسه التفاصيل الدقيقة لهذا اليوم المشهود في أيامه المترعة بالغربة والشقاء. وسأله الناس:

- أين الكتاب؟

فابتسم وقال لهم:

- سيصدر بعد شهرين.

لكن الشهور مرت، وصارت سنوات، والكتاب لا يزال مركونا عند الناشر، المغرم بلعبة الإرجاء من دون حد، وتحت ذرائع لا تنتهي.

لا يعرف المكان جيدًا في ليل يغير المعالم التي قد يحفرها النهار في الرأس، لاسيما إن كان هذا النهار قد بعد عن اللحظة التي يسير فيها الآن نحو تلك الشقة الخالدة في خواطره. لكن من يسأل لا يتوه.

وسألوا أكمل فوصف لهم الطريق إلى هناك، وبعد دقائق وصلوا إلى ما أرادوا. كانوا يسيرون وراءه وكأنه دليلهم في صحراء مقفرة، وكان سعيدا بأن يبدو أمامهم العارف بالقاهرة، مدينة الأضواء والأماني، وكانوا سعداء لأنهم أخيرا سيجدون مكانا تستريح فيه أجسادهم المنهكة ولو ساعة واحدة، قبل أن يعودوا إلى ميدان التحرير ليطالبوا بسقوط النظام.

وقف أمام اللافتة الموضوعة على مدخل البناية، ومد يده ليتحسسها، ويقرأ ما عليها، ويتأكد أنها تشير إلى ما قصدوه. أسفلها كان البخاخون قد كتبوا تحت رسم بملامح الطاغية: «ارحل»، انسكبت على خطوطه السوداء دفقات النور الآتية من لمبة الشارع المجهدة، فبدا واضحا حتى للعابرين، الذين لا يعرفون أي شيء عما يجري في الطابق الثاني من هذه البناية.

ياه، كم أوحشه هذا المكان؟ كان المدخل معتما، وبدا شيئًا مكوما على اليمين يهدي للسواد بقعة بيضاء خفيفة. اصطدم أحد رفاقه بها، لكنه طمأنه قائلا:

- لا تخف، هذه رزم ورق الطباعة.

- طبعت كتابك هنا؟

- صدر قبل الثورة بأيام.

- وكيف عرفت؟

- صاحب الدار اتصل بي وأبلغني.

- وش الثورة حلو عليك.

- حلو علينا كلنا.

***

كانت السلالم متسخة بعد أن نُقلت إليها أدران الشوارع العالقة بمئات الأقدام، التي جاءت وذهبت إلى هذا المكان بحثا عن مبيت. توحد لون السلم مع لون الليل، وانزلق أحدهم، وارتطم بالجدار، وأسندوه، ثم واصلوا صعودهم في هدوء، حتى وصلوا إلى باب الشقة. ضغط زر الجرس، فجاءه صوت من الداخل:

- ادخل على طول.

وجدوا الباب مفتوحا، وعليه صورة للشهداء، تطل وجوههم التي تسكنها دهشة من يتملكه شعور بدنو الأجل، من خلف شراعة حديدية. أطلت رؤوسهم من الباب بعد أن واربوه قليلًا، فانسكب الشخير والشهيق إلى الخارج. كانت الأجساد متراصة في الصالة، تحت أرفف الكتب، والطاولة المستطيلة المستكينة التي تعلوها كتب أخرى، معروضة لمن يأتي، وبجوار المكتب البسيط الذي تجلس عليه السكرتيرة في النهار.

كل شيء على حاله، مثلما تركه المرة السابقة التي جاء فيها إلى هذا

المكان سعيا وراء بضع حكايات خطها على الورق وأراد أن يقرأها أناس غيره.

وجد أمامه صاحب المكان، بجسده النحيل ونظارته السميكة وشعره الناعم الخفيف المتهدل على جبينه، وهو يعانق الفراغ المعبأ بدخان السجائر.

- مساء الخير.

- مساء النور.

لم يتحقق من شخصية القادم، فطالما مر عليه كثيرون من أمثاله، يحملون أوراقهم ويحلمون بأسمائهم تحت أو فوق صورعلى أغلفة كتب، تجذب القراء. لكنه لم يكن في حاجة إلى أن يقدم أحد إليه نفسه، فالمكان مفتوح للجميع، والقادمون إليه، لابد أنهم من الثوار المتعبين المغتربين الباحثين عن أي مأوى في برد القاهرة القارس.

تحسسوا موضع أقدامهم بين كتل اللحم الملقاة بطول المكان وعرضه، حتى وصلوا إلى الغرفة الداخلية، التي تحوي كنبتين صغيرتين ومقعدين عريضين، ومكتب صاحب الدار. كانت الأجساد جالسة متراصة، والنافذة الخارجية مواربة، والدخان يملأ المكان، ويحط على اللوحات الجاثية على الجدران.

وقفوا على باب الحجرة غرباء، وانشغل هو عنهم في لف سجائره، ولم يُلقِ لهم بالا. تنحنح الأديب الشاب، ثم شق طريقه إليه. وقف أمامه، وقال:

- ألا تتذكرني؟

نظر إليه، ثم مد يده والتقط نظارته، وأعاد النظر، ثم قام منتفضا، وأخذه في حضنه، وضغط عليه، وهو يقول «أهلا وسهلا.. يا مرحبا.. أهلا وسهلا.. يا مرحبا». فقال له:

- جئنا قاصدين مبيتا.

فأعاد احتضانه، وهو يقول:

- أهلا، بيتك ومطرحك.

ثم أخذه من يده في سرعة خاطفة حتى الغرفة الجانية، حيث مخزن الكتب، وأشار إلى الداخل، وقال لهم:

- خذوا راحتكم.

ولما عاد إلى الجالسين، سألهم:

- مَن هذا؟

فضحكوا حتى كادوا أن يقعوا على أقفائهم، وقالوا له:

- العلم علمك.

***

حين ينبلج النهار، وتأتي الشمس من فوق رأس تمثال طلعت حرب لتحط على

أفاريز الشبابيك، تتململ مئات الجفون، ويبدأ التثاؤب، ويجلسون ليستعيدوا أحلام الليل الذي ذهب. بعضهم كان يقول:

- اقترب الفجر.

وبعضهم يقول:

- نخشى أن يموت سريعًا تحت أقدام الليل المتربص بنا.

الذين لا يحبذون الإسراف في أحلام وكلام النهار، ينكبون على أفرخ الورق الأبيض، يكتبون الشعارات، ويرسمون الصور المعبرة. بعضهم يجري إلى جهازي الكومبيوتر المتواجدين في المكان، ويجلسان ليطلقا على شبكات التواصل الاجتماعي «فيس بوك» و«تويتر» ويبذلان كل جهد مستطاع في مواجهة دعايات رخيصة تطلقها السلطة في وجه الثوار.

أكثرهم نشاطا وأصغرهم سنا، هو ماهر الأسمر، الذي يطلقون عليه «فيسبُكاوي» فقد كان من أوائل الذين نزلوا بأقدامهم في هذا البحر الوسيع من الكلام الذي يتدفق بلا هوادة في العالم الافتراضي المتسع على الدوام للجميع دون قيد ولا شرط.

كان جهاز الكومبيوتر في الغرفة المخصصة لتخرين الكتب. دخلها الأسمر فوجد الأديب الشاب ورفاقه مستلقين على ظهورهم، أفواههم مفتوحة، وشخيرهم يكاد أن يهز بعض الصفحات الشاردة من الكتب المرصوصة بغير عناية. دخل على أطراف أصابعه، وما إن جلس إلى المكتب الصغير الموضوع في الركن، وفتح الجهاز، حتى أخذ النائمون يفتحون عيونهم في تكاسل، ثم انتبهوا إليه فقاموا.

جلسوا حوله يراقبون ما يفعل، وتهادى أمامهم عالم لم يدخلوه من قبل. رأوا صورا من الميدان، ومشاهد لحشود تجوبه. وفجأة غمس أحدهم إصبعه في الشاشة، وقال:

- هذه صورتي.

فدفنوا وجوههم في الشاشة، وقالوا:

- صحيح.

وسأل كل منهم:

- أين أنا؟

لكن الصورة انزاحت سريعًا، وحلت مكانها صور أخرى، نقلت بعض ما يجري هناك على بعد أمتار من هذه الشقة المزدحمة بالحالمين.

وفاحت رائحة الطعام في الخارج، وجاءهم صوت رفيع مسكون بالبهجة:

- الأكل يا شباب.

ثم صمت برهة، وقال:

- إفطار هذا اليوم تبرع به نصير الثوار، الدكتور مصطفي حيدر.

كانت كومة كبيرة من الخبز، وبجانبها كومة أصغر من أقراص الطعمية الساخنة، وحزم من البصل الأخضر، وعلب بلاستيكية مملوءة بالفول، وأخرى بها باذنجان مقلي ومخلل، وقراطيس ضخمة مملوءة بالبطاطس المقلية، وخمس مكعبات من الجبن الأبيض، وعلبة بلاستيك كبيرة مملوءة بالحلاوة الطحينية.

كان عدد الحاضرين أكبر من أن يسمح لهم المكان بأن يتحلقوا حول الطعام، فقام اثنان منهم بالجلوس، وراحوا يقطعون الأرغفة بسكين صغير، ويرمون في قلبها الغموس، ويمدونها إلى الأيدي المقبلة على الطعام بشهية مفتوحة.

بعد امتلاء نصف البطون، تأتي أكواب الشاي الساخن، ثم تبدأ رحلة الذهاب مرة أخرى إلى ميدان التحرير، ينسحبون من الشقة فرادى وجماعات؛ لينخرطوا في الحشود الساعية إلى الحرية. وعندما ينتصف الليل، وتنهك أجسادهم من الدوران، وتتعب حناجرهم من الهتاف، ينسلون في اطمئنان إلى الشقة ذات الباب المفتوح للجميع.

55

جاء من بلد الغضب، المحشورة بين الملح والرمل، وعلى كفيها يرقد المجهول دومًا. كان في أواخر العقد الثامن من عمره، لكن حماسه أعاد إليه فتوة الشباب الغارب. دق بقدميه مدخل الميدان وخلفه سار من شاركوه في الأيام التي خلت، أو سمعوا عنه، وهو ينشد في الشوارع المسكونة بالنار والدم:

«عضم ولادنا نلمه نلمه
نسنه نسنه
ونعمل منه مدافع
وندافع
ونجيب النصر
هدية لمصر»

رفع هامته القصيرة ليرى الميدان دفعة واحدة، فقال له أحد الشباب السائرين خلفه:

- هيا إلى الكعكة الحجرية.

وصلوا إليها، ونصبوا خيمتهم، وكتبوا عليها «ثوار السويس»، وبعد دقائق غرقوا في أغاني السمسية، التي اشتهروا بها في الدنيا بأسرها:

«اصحي يا مصر
اصحي يا مصر
ودوسي خوفك
خطي فوق قهر السنين
أحضني في صدرك ولادك
جه ميعادك
مزَّعي الآه والأنين
اطلعي من الريف كتايب
على الحدود
اقلقي نوم المدينة بالبارود
وأؤمرينا كلنا لأمرك نطيع
أنت مصر حلمنا فوق الجميع
فوق الجميع»

هناك سقط أول شهيد في الثورة أمام عيونهم. كان ولدا يافعا أضناه الانتظار، وأوجعته الغربة في بلده. جوع وقهر، لم يبقَ له شيء، فقرر أن ينال حريته على

طريقته. سال دمه على أكفهم، وقالوا جميعًا في نفس واحد:

- سيغرق الطغاة في دمه.

وتوالى الشهداء، وطارت أنباؤهم إلى كافة ربوع البلاد، فزاد الحماس، وقال الناس في كل مكان:

ـ ثأرنا ولن نتركه أبدًا.

وعلق يومها حسن عبد الرافع في مداخلة تلفزيونية، حين سألوه عن تداعيات سقوط أول شهيد في الثورة قائلا عبارته المكرورة:

- الثورات كأسماك القرش حين ترى الدماء تزداد توحُّشا.

في الميدان جاءهم حسن وصفاء وأكمل وسامر. أما رأفت مغازي، فابتسم حين طلب منه حسن أن يأتي لتحية الرجل، وقال:

ـ هؤلاء مجموعة من اليساريين أصبحوا خارج الزمن، ولديَّ ما هو أهم منهم.

جاء شباب التحرير؛ ليقولوا للقادمين من السويس في امتنان:

- أنتم رافعة هذه الثورة.

كان بعضهم، ممن جاءوا إلى الميدان في الأيام الأولى، يعرفون جيدًا كيف يتعامل مع الدبابات والمصفحات منذ أن واجهوا آليات الجيش الإسرائيلي في حرب السادس من أكتوبر. حين رأوا آليات جيشنا تطوق ميدان التحرير، قالوا للذين وقفوا أمامها مندهشين وعاجزين:

- يمكننا نحن أن نتعامل معها.

كانت قوات الحرس الجمهوري قد سبقت بقية التشكيلات إلى الميدان. على أبوابه احترقت لها ثلاث مركبات، فتراجعت، واحتلت مواقعها الكتائب العادية، وابتسم الجنود في وجه الغاضبين، فالتفوا حولهم.

***

حين يسافر الليل وتتعب الأجساد وتكل الحناجر وينسل من الميدان كثيرون عائدين إلى بيوتهم، يجلس هو على الجانب الأيمن للخيمة، يحكي عن أيام زمان، ويقول لمن تحلقوا حوله وأرهفوا آذانهم:

- المقاومة لا نهاية لها، طالما بقي الظلم والعدوان.

ويسأله بعض الحاضرين:

- هل نساوي بين غزو أجنبي نريد صده ورده، وحاكم من بيننا نسعى إلى تغييره؟

فيصمت برهة ويقول:

- ظلم ذوي القربى أشد.

ثم يضحك فتنكشف أسنانه المثرمة في نور المصباح الذي ينسكب على

الخيمة، ويقول:

- قد لا تصدقوني إن قلت لكم إن معركتنا القديمة كانت أسهل.

- أسهل؟

- طبعًا. أيامها كنا متحدين حيال عدونا، أما اليوم فنحن منقسمون. كثير من الناس انطلت عليهم الضلالات والأكاذيب التي يطلقها الإعلاميون الموالون للسلطة.

ويشعل سيجارة. يسحب منها نفسا عميقا، ويطلق دخانه في اتجاه عمود الخيمة ويقول:

- ونحن قادمون في القطار، سمعنا ما يضني ويحزن. هناك من يتصور أن كل من في هذا الميدان عملاء لأمريكا وإسرائيل، وأنهم يتقاضون أجورهم كل يوم، وتأتي إليهم وجبات ساخنة في الإفطار والغداء والعشاء، يأكلون كي تقوى أجسادهم على تخريب البلد. حتى الذين يعرفونني جيدًا وجدتهم يهاجمونني حين علموا أنني قادم إلى هنا.

وسأله شاب قدم للتو حين سمع بتواجده في الميدان:

- كلهم يا عمنا؟

- لا.. لا، بعض الناس.

- إذًا لا تحزن، فمن يهتز رأسه وتساوره شكوك حيال شاعر المقاومة الكبير، لا يستحق أن نتوقف عنده لحظة.

قهقه، ثم مد يده وأمسك بطرف الخيمة، وقال:

- قلة هي من تتذكر ما فعلنا. طال الزمن، وساقت الريح غبارا كثيفا على كل ما حفرناه قديما، فبهت وصار ذكرى.

- لكنه أصبح أسطورة.

- أتقصد أنه كان أكاذيب.

- لا، بل أعني أن الناس أحبوا ما فعلتم فزادوا عليه مما وهبهم الله من خيال، فصار قصصا وملامحم أشبه بالأساطير.

- ما فعله شعب السويس كان عظيما بالفعل.

- طبعًا، طول عمرهم يصنعون المعجزات.

كان حسن عبد الرافع ينصت إلى كل ما يدور حوله صامتًا، لكن العبارة الأخيرة هزت أعماقه، فقال لشاعر المقاومة:

- كلما استبد بنا اليأس، أو جرى ما يهز عزائمنا، نسأل عما تفعلونه أنتم، ونمضي خلفكم.

فأطرق الشاعر، وأحنى رأسه قليلًا، ثم ضحك وقال:

- سمعت أنك قلت هذا يوم زيارتك للسويس.

- الاعتراف بالحق فضيلة.

- لكننا في النهاية جئنا إلى هنا.

- هنا ميدان واحد من ميادين منتفضة في كل مكان.

- لكن كل الأنظار منجذبة إلى هنا. العالم كله انتقل إلى ذلك الميدان، ومنه وفيه يقيس ويقرر، وعلى ما يتم هنا سيكون الحسم.

أطرق حسن برهة، ممعنا فيما سمعه، وقال:

- نهيرات صغيرة، تنبع في كل مكان على أرض بلدنا؛ لتتجمع هنا في النهر الكبير، ولو جفت الينابيع سيجف المصب.

ثم صمت قليلًا وواصل كلامه، وهو ينظر في عيني الشاعر العجوز:

- أنت مثلا أصلك من قنا، وقاومت في السويس، وها أنت في ميدان التحرير. حولك كثيرون جاءوا من الصعيد والدلتا. كلكم تؤمنون أن تفريغ الميدان يعني انتهاء الثورة؛ لذا جئتم؛ وتركتم أهلكم وبيوتكم لتناموا هنا في الطل.

يضع الشاعر يده على كتف حسن، ويقول:

- هذا ما ندركه، وهذه هي الحقيقة.

ويمد صبي صغير بوزه دون أن يعرف شيئًا عن الشاعر ويقول:

- لكن حالتك الصحية لا تسمح بالمبيت هنا يا حاج.

فيضحك ويقول له:

- أنا أشد منك يا ولد.

وتلمع دموعه في الضوء، ويقول:

- عندي خمسة عشر حفيدا، أصغرهم أكبر منك يا بني، لكنني جئت، لأني عزَّ عليَّ أن أرحل وأتركهم في هذا الوحل.

ويطلب منه الثوار أن يصعد إلى المنصة، ويحكي لهم عن شيء من بطولات زمان، لكنه يرفض أن يقوم من مكانه، ويقول:

- سأحكي لكم من مكاني هذا.

يفرد رجليه عن آخرهما، ويضجع قليلًا على عمود الخيمة، وتذهب عيناه بعيدًا؛ لتحطَّا على رأس تمثال عمر مكرم، ويقول:

«على مرمى حجر من ميدان الأربعين الذي يمتلئ بالثوار الآن، كانت لنا معركة مشهودة. كان الجنود الإسرائيليون قد توغلوا حتى وصلوا إلى قسم الأربعين واحتلوه، ثم تمترسوا على السطح ليصطادوا كل من يأتي إليهم . ورأينا أن نجبرهم على الخروج منه. أيامها كنا نعتبره رمزا للسيادة، قبل أن تدور الأيام ويصير رمزا للقهر والظلم والاستعباد. تسللنا في جنح الظلام، وضرب إبراهيم

سليمان دبابة فاحترقت، بينما بدأ التوباز في تسلق مواسير المجاري لكنهم تنبهوا إليه وأطلقوا عليه الرصاص فاستشهد في الحال. عدنا إلى الوراء قليلًا يائسين من إمكانية اقتحام المبنى، لكن صوت انفجارات رهيب هز المكان، والتفتنا حولنا فرأينا ألسنة اللهب والدخان تتصاعد وتمرق وتذوب في قلب العتمة. وعرفنا أن أشرف عبد الدايم ورفاقه قد كمنوا لطابور دبابات بعد أن أغلقوا الشوارع بالسيارات وأصابوا ستًّا منها عند مزلقان البراجيلي، ثم صبوا عليها الكيروسين فاشتعلت. بعدها جاءوا إلينا عند القسم وحاولنا اقتحامه مرة ثانية، فاستشهد عبد الدايم وفايز حافظ ومعهما إبراهيم يوسف. ابتعدنا عن المكان، وصعدنا فوق أسطح الأبنية المحيطة بالقسم، وأطلقنا عليهم الرصاص من كل مكان، فلم يجدوا بدا من الفرار».

يتنهد بحرقة ويقول:

- هذا القسم تحول بعد أكثر من أربعين عامًا إلى بيت للتعذيب والعذاب، سلخانة للبشر، ومكان لإدارة كل صنوف الإفك والتجبر. بقعة كريهة تناقلت سمعتها السيئة كل الأفواه، حتى وجدنا الناس تندفع من جديد لتقتحمه، لم يكن هذه المرة مسكونا بالمحتلين إنما بضباط من بني جلدتنا، هم على الورق حماة لنا وفي خدمتنا، لكنهم في الواقع جلادونا.

وأومأ حسن بكتفيه، وقال:

- إنه احتلال أيضًا، ولن نترك هذا الميدان حتى نتخلص منه.

وجاء جمال أبو العزم يلهث حين عرف أن الشاعر العجوز متواجد في ميدان التحرير، فلما رآه وقف وأخذه في حضنه، وقال له في فرح:

- والله زمان يا بطل.

فأمسك جمال بكتفيه، ونظر في عينيه، وقال:

- عاوز أسمع السمسمية.

فقام الشاعر وقام من جاءوا معه وصنعوا دائرة، وراحوا يصفقون ويغنون بصوت أسمع كل من في الميدان:

«غني يا سمسمية
لرصاص البندقية
ولكل إيد قوية
حاضنة زنود المدافع
غني للمدافع
واللي وراها بيدافع
ووصي عبد الشافع
يضرب في الطلقة مية

يضرب في الطلقة مية»

واستمر الغناء حتى مشارف الفجر، ولما تعبت الأجساد استلقت متراصة على بطانيات قديمة، وراح الجميع في سبات عميق.

راح يقلب كومة الأوراق المكدسة أمامه، من دون أن ينجلي له شيء. ما إن يفتح ملفا وينظر فيه قليلًا حتى يغلقه، ثم ينفخ، ويقول في نفسه: «هذا أكبر من طاقتنا». قضى أغلب سنين عمره بين الصخر والبارود، تحت سماء مفتوحة، تحط على أحلامه البسيطة، التي لم تتعدَّ أبدًا أن يتقدم خطوة خطوة، رتبة رتبة حتى يصبح لواءً، ثم يدير ظهره لكل هذا، ويبدأ حياة جديدة ملفوفا في زي جديد، وأمل جديد.

كل شيء وقع على كفه وأكف زملائه، المثقلة أكتافهم بالسيوف والنسور والنجوم، وعلى صدورهم الأنواط والنياشين، التي حازوها في رحلة كفاح ليست بالقصيرة. وقع دون أن يخطر لهم على بال. لم يكن أحد منهم يصدق قبل شهر من هذه الأحداث المزلزلة أنه سيعبر في دقائق بحر الظلمات ويصل إلى فجاج النور، سيعرف الناس اسمه وصورته، ويعلقون عليه بعض آمالهم، وسيصبح شبحا في حلم حسن عبد الرافع، الذي استغرق ليلة كاملة، وقام في الصباح منشرح الصدر، مطمئنا إلى أن شيئًا كبيرا سيقع، وأنه آتٍ لا محالة.

كل اللقاءات التي عقدها هو وزملاؤه من الجنرالات مع المثقفين ورجال الأحزاب وشباب الثورة سجلوها له، وفرغوها في آلاف الأورق. طلب من مدير مكتبه أن يختار لجنة من الضباط النابهين لتكتب تلخيصا وافيا، فلما أعدوه لم يفهم منه الكثير، فأراد أن يرجع بنفسه إلى الأصول، لعله يجد فيها حلا، لكنه أخفق.

آراء متضاربة، وكل صاحب رأي يتكلم بثقة كأن ما يقوله هو عين الصواب والحق. هز رأسه ثم تثاءب، وترك المكتب، وعاد إلى بيته منهكا.

كانت زوجته تنتظره بفارغ الصبر. هاتفته وأمهلها لانشغاله، وها هو يجلس أمامها بعد أن ارتدى البيجامة، واتكأ على الكرسي اللين الوسيع. نظر إليها بعين من يعرفها جيدًا، وقال:

- خير يا سميرة.

- عاوزاك تتدخل حتى يمددوا لي في الشغل. لم يبقَ على خروجي إلى المعاش سوى شهر، والوقت أزف.

- لكن..

- من غير لكن، أنت الآن أحد أركان الحكم.

قهقه من أعماق قلبه بمرارة، ثم تنهد حتى ارتجَّ صدره وقال:

- حكم، يا عيني على الحكم، إنها ورطة.

- كفى تشاؤما.

- هذه هي الحقيقة، تصورنا الأمر سهلا فإذا بنا نغرق في العجز والحيرة.

- من سبقكم كان يحكمها وهو نائم في شرم الشيخ.

- كانت تسير بقوة الدفع الذاتي، والأجهزة الأمنية تمسك الدفة، ومعها بضع رجال يحركون الأمور على السطح، ويسدون خانة في أعين الناس.

- طالما أن الأمر هكذا، فلمَ تعجزون؟

- الظروف تغيرت. الناس فارت، والمطالب لا تنتهي، والسياسيون لا يتفقون على شيء. وكل هذا يهون أمام طمع أصحاب اللحى، الذين يتحايلون علينا حتى تقع الدولة في حجرهم.

- وهل ستتركوهم؟

- لا، لكن هم القوة الوحيدة المنظمة في الشارع، والتعامل معهم لا مفر منه إلى حين.

نادت الخادمة فهرعت إليها، طلبت منها أن تعد لهما فنجانين من القهوة، لكنه تثاءب، وقال:

- فنجان واحد، أنا سأنام.

وقام إلى سريره، وهي تتبعه. شدت البطانية على جسده، وقالت له:

- غدا تنهي لي موضوع التجديد.

هز كتفيه قائلا:

- اعتبريه حصل.

ثم أغلق جفنيه، وارتفع شخيره، فأطفأت النور، وخرجت من الغرفة لتحتسي قهوتها.

***

ما إن وصل إلى مكتبه حتى استدعاه قائده، فذهب على الفور، وفي يده الخلاصة التي انتهت إليها اللجنة. دخل عليه ليجده واجما، والحيرة تطل من عينيه. أدى له التحية، وجلس إلى جواره. وسادت لحظة صمت، قطعها هو قائلا للقائد:

- خير يا أفندم.

- ليس خيرا على الإطلاق.

- يا ستار يا رب.

- تلقيت اتصالا منذ نصف ساعة من السفيرة الأمريكية، وطلبت مني صراحة أن أتعاون مع جماعة الإخوان.

- لكنْ لهؤلاء جزء كبير غاطس لا نعرف عنه شيئًا.

- قلت لها هذا، وشرحت خطورة التعاون الدائم معهم، لكن لم أفلح في تغيير وجهة نظرها.

ثم تنهد في حسرة، وقال:

- هناك أشياء لم أعد أفهمها.

- الموضوع واضح، الإخوان فتحوا قناة اتصال مع الأمريكان.

- هذا ليس جديدا. طلبت رئيس المخابرات قبل أن أطلبك، وأفهمني أن العلاقة بينهما ليست بنت اليوم. هناك مصالح جديدة تظهر، وتحالفات مختلفة عما كانت عليه قبل الثورة تطفو على السطح.

- نرسل وفدا إلى السفارة يشرح الموضوع باستفاضة.

- لا.. لا، لم تعد تنطلي عليهم فزَّاعة الإخوان.

- والحل؟

- نصبح الضلع الثالث في هذا التحالف، حتى نرتب أوراقنا.

- المشكلة لو اتفق الضلعان الآخران على ضلعنا.

- الضلع الذي يميل إليه الشعب هو من سيكسب الرهان.

- الشعب غاضب، وهناك من يصرخ في الشوارع مطالبا بسقوطنا.

- هؤلاء قلة، الأغلبية الصامتة معنا. في وقت الحسم سينحاز الشعب إلى جيشه.

- لكننا تعهدنا بترك السلطة، وعدم فرض أي شرعية بديلة غير التي اختارها الناس.

- نحن لن نفرض شيئًا، بل بوسعنا أن نجعل الناس هم من يطلبون هذا.

- لكن هذا يحتاج إلى تدبير.

- طبعًا. سيأتي الآن رئيسا المخابرات العامة والمخابرات الحربية والأمن الوطني وسنناقش الأمر.

وساد صمت، وتاه كل منهما في هواجسه، وارتسم أمام عينيه طريقان، المشنقة والعرش، وبينهما خيط واحد باهت، لا يكاد يُرى بالعين المجردة. ولذا فالخطأ غير وارد. لا بد من حسابات دقيقة، بعيدًا عن ثرثرة السياسيين التعساء، وشباب الثورة الجامحين. حسابات لا تسقط الجيش والشرطة والمخابرات في يد تنظيم ينظر إلى مصر على أنها مجرد بقعة جغرافية في مشروعه الوهمي الممتد من غانا إلى فرغانة.

وقهقه القائد فجأة عائدا من شروده، فانتبه تابعه، ثم سأله:

- خير يا أفندم.

- لا أصدق ما يجري. عاشوا في الجحور سنوات وسنوات، والآن يطلبون الدولة كلها، بعد أن خطفوا ثورة الشباب.

- طمعوا، ولا حدود لأطماعهم.

- أملينا لهم فاستضعفونا.

- نحن قادرون على سحقهم.

- طبعًا، لكن العالم لن يرحمنا، وما جرى في ليبيا وسوريا خير دليل.

- الأمر يحير. هذا مأزق، أصعب مما واجهناه في الحرب.

- في الحرب أنت تعرف عدوك جيدًا، وتدرسه بعناية، وتواجهه وظهرك مسنودا بالناس. أما الآن فنحن أمام فوضى لا تعرف فيها من أين تأتيك الرصاصة؟ ولا إلى أين تصوب رصاصك؟

- رصاصنا في صدر كل من يريد هدم البلد، وإشاعة الفوضى.

- هناك من يشكك في أننا حراس هذه الدولة.

- هؤلاء لا قيمة لهم. ألم تقل سيادتك إن الشعب معنا.

- لكن الشعب عاد إلى الخمول والصمت، ألم تسمع عن موضوع «حزب الكنبة»؟

- طبعًا، لكن الجالسين على الكنب بدأوا ينزلون إلى الشوارع رافضين الفوضى.

- عددهم قليل حتى الآن. يجب أن يتزايدوا بمرور الوقت.

- يمكننا أن نحشد ضد الواقفين في التحرير.

- هذا سهل، يمكن أن ينزل إلى الشوارع جنود وصف ضباط مرتدين الزي المدني، وبوسعنا أن ندفع عمال في شركاتنا معهم، لكن هذا ليس حلا. إنما يجب أن ينزل الناس طواعية وبالملايين.

- هذا ما فعله ضباط يوليو.

- وهذا ما يجب أن نفكر فيه نحن ضباط يناير. لولا تدخلنا ما نزل قائدنا من على عرشه، وهذا ما لا يريد الشباب أن يقروا به، ويتنكر له أصحاب اللحى بعد أن اعترفوا به ومدحوه وقت أن كانوا يتحايلون علينا حتى نسلمهم مفاتيح البلد طواعية.

- ماكرون، يستدرجوننا، حتى إذا وقعنا في حجورهم، سينكلون بنا.

- نحن من سنستدرجهم، وننكل بهم.

- كيف؟

- ألم أقل لك إنني دعوت قادة الأجهزة الأمنية؟

- والإعلاميون.

- دورهم مهم، لكن حين نبلور خطة الاحتواء والمواجهة، سينفذون هم الشق الخاص بهم، والبقية ستكون على عاتق رجال الأمن وكبار موظفي الدولة ورجال الأعمال وعناصر الحزب الوطني المنحل.

ثم هز القائد رأسه، وزفر في ألم، وقال:

- سنسمع منهم كيف كانت تدار الأمور قبل أن نأتي نحن.

- الظروف تغيرت.

- ونحن سنعمل على أن نغير ما تغير حتى يعود إلى حاله الأصلي.

- تقصد سيادتك تبريد الثورة؟

- طبعًا، نحن مهمتنا هي الحفاظ على الوطن في هذه اللحظة العصيبة، وحماية الدولة من التفكك والانهيار والسقوط، ولو كان الثمن هو إخماد الثورة فهذا ثمن قليل جدا.

- الخطة التي أعدها الخبراء السياسيون لنا عميقة ومجدية.

- المهم التنفيذ.

- سيادتك وافقت على أي سيناريو؟

- طلبت الاستفادة من نماذج بعض ثورات أمريكا اللاتينية.

- الأحوال متشابهة، لكن الاختلاف هو أن هذين البلدين لم تكن فيهما قوة منظمة مثل الإخوان والسلفيين.

- دعك من السلفيين، هؤلاء يمكن احتواؤهم بسهولة، لاسيما أنهم خائفون من سيطرة الإخوان على الدولة، فيحرمونهم من الدعوة. ولا تنسَ أن بعض شيوخهم تعاونوا مع الأجهزة الأمنية قبل الثورة، أو هي التي صنعتهم أصلا.

- وحركة 6 أبريل؟

- عودها أخضر وبلا مال. وأحلامها أكبر بكثير من إمكانياتها، ولا تنسَ أننا نجحنا في تشويهها، وساعدنا في هذا السلفيون والإخوان.

- أطلقوا عليهم 6 إبليس.

- تلك هي اللغة التي يجيدونها، لكنها تنطلي على البسطاء.

- وشباب الألتراس؟

- هذه قوة هائجة، وليس لديها مشروع سياسي، ويمكن كسرها بسهولة، كما أن مشكلتهم الرئيسية مع ضباط الداخلية.

- لكنهم يهتفون ضدنا الآن.

- هذا أمر لا يقلقني، يمكننا أن نخرسهم. أما الذين يقفون في حلوقنا فهم الإخوان.

- لا بد أن نصطادهم قبل أن يصطادونا.

- نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا.

- ظني أن الأمريكان يميلون إلى أن نتعاون معهم، تلك هي المشكلة.

- فعلا، المسألة ليست سهلة. نحن نتعامل مع تنظيم ماكر، جاءته أموال طائلة، والقوة الأعظم في العالم الآن تريد أن توظفه لصالحها، وهو يمكن أن

يفعل أي شيء في سبيل الاستيلاء على الحكم.

وساد صمت من جديد، وقام القائد إلى مكتبه، في انتظار وصول بقية من استدعاهم. فلما جلس في كرسيه العالي، ابتسم، وسأل الجنرال فجأة:

- ما هو موضوع الست حرمك؟

فامتقع وجه الجنرال، وبهت، وتلعثم قائلا:

- الموضوع وصل لسيادتك؟

- طبعًا.

- كنت سأعود إليكم قبل أن أتدخل فيه.

- لا بأس، لكن حاول أن يكون هذا في صمت وسرية، حتى لا تلتقطه الصحف، وينفخون فيه.

- تمام يا أفندم.

***

وجاء الضباط يسبقهم التوجس والقلق، جلسوا متجاورين حسب الأقدمية، وتطلعوا إلى كبيرهم، فمسح وجوههم جميعًا، ثم ابتسم وقال:

- سنسلم السلطة كما وعدنا الشعب.

ران صمت عميق، قطعه قائد الشرطة العسكرية قائلا:

- إنهم يهتفون بسقوطنا، والشتائم التي تنهال على رؤوسنا لا حدَّ لها.

هز رأسه، وزم شفتيه ممتعضا، لكنه واصل:

- لا يمكننا أن نكون سببا في تدمير ثقة الشعب في الجيش.

- ومصالحنا يا أفندم؟

- سنحميها، مهما كان القادم الجديد إلى العرش.

- ولو جاء الإخوان؟

ـ هؤلاء قد يعطوننا ما نريد في سبيل أن نترك لهم الباب إلى الحكم مفتوحا، تكلم معنا كبارهم في هذا، وميزتهم أنك إن كلمت مرشدهم فكأنك تحدثت إليهم جميعًا، أما أتباع التيار المدني فكلٌّ في طريق.

ـ ظني أن الناس تريد أن تجربهم.

ـ لكنهم خطر.

ـ مهما قال خصومهم هذا عنهم، فالناس لن تصدق إلا إذا جربتهم.

ثم قهقه وواصل:

ـ ويجربهم الأمريكان أيضًا.

ـ وإن خطفوا البلد.

ـ نحن هنا، عيوننا عليهم، وإن انسحبنا من ساحة الصراع السياسي فلن نقصر في حماية الوطن.

ـ لكن هذا قد يكلفنا الكثير.

ـ مهما دفعنا فهذا واجبنا، ولن نتخلى عن القيام به أبدًا.

57

مضى في طريقه مثقلا بالإحباط والغيظ. تمنى أن يغيب عن الدنيا قبل أن يرى هذا اليوم الكئيب، وشعر أن الأرض تميد من تحت قدميه، وأن كل شيء يغور أمام عينيه. وسأل نفسه في صمت: هل انتهى زمننا حقًّا؟ وتذكر الرجل الكبير، الذي لم يكن يبخل عليهم بكل ما يطلبونه، وجعل فرحة البلد بأسرها معلقة بقدميه وأقدام زملائه.

رفع رأسه ونظر إلى الشباب الذاهبين إلى ميدان التحرير مندهشا، وهم يمضون رافعين الأعلام يدقون الهواء، دون أن يلتفت إليه أحد منهم. لم يهرعوا نحوه مهللين؛ ليصافحوه في بهجة، ويلتقطوا الصور معه، فرادى وجماعات، ثم يحدثوه عن أبرز الأهداف التي أحرزها في مشواره الطويل.

كانوا من قبل يعبرون هذا الكوبري العريق، رافعين صورته هو وبقية اللاعبين، ويصرخون «مصر... مصر» في انفعال عارم، حتى يصلوا إلى الميدان، ثم يرقصوا حتى مشارف الفجر وسط الألعاب النارية، ودق الطبول، وصدح الأغاني.

وقتها كان يشعر أنه أحد صناع الفرحة في هذا البلد الحزين. وكان يطرب كلما سمع المواطنين البسطاء يقولون في مداخلات تنهمر كالمطر على القنوات الفضائية: «كرة القدم هي الشيء الوحيد الذي يدخل الفرحة على قلوب المصريين».

اليوم هناك شيء آخر يدفع الناس إلى الحماس والفرح. تبدل الغناء بالهتافات، وتبدلت الألعاب النارية بشرر الغضب الذي يخرج من عيونهم وهم يضعون صدورهم في وجه البنادق وقاذفات القنابل الخانقة، وها هم يدقون الهواء بقبضاتهم الصارمة، بدلًا من دق الطبول.

بدوا أمامه هذه الأيام في حالة طبيعية، وشعر أن كل ما كانوا عليه عقب فوز المنتخب الوطني في المباريات، وحصوله على الكأس تلو الأخرى، مجرد تنفيس عن إحباطات تكتم على أنفاسهم، وتبحث عن أي لحظة كي تخرج فيها، حتى لو كانت فرحا كاذبا، أو وهما ساريا. وربما هذه هي الحالة الاستثنائية العابرة، وطبيعتهم هي الالتفاف حول الصغائر، والاحتفاء بها. لا يدري. ولم يشغل ذهنه من قبل بالتفكير في هذا الأمر المعقد.

كان من عادته أن ينزل من سيارته عند أول كوبري قصر النيل، ويطلب من السائق أن يعود، ثم يقطع المسافة المتبقية إلى «النادي الأهلي» سيرا على الأقدام. كانت هذه واحدة من متعه الأساسية في الحياة. مسافة لا تزيد على ثلاثمئة متر، كان يقف فيها عشرات المرات؛ ليأخذ الأيدي الممدودة إليه في فرح، أو يضع ذراعه على أكتاف الراغبين في التقاط صور، سيضعونها على صفحاتهم بـ«فيس بوك» أو يُكبِّرونها ويبروزونها ويعلقونها على حوائط منازلهم. وكانت البنات يقدمن له «أوتوجرافات» متواجدة في حقائبهن؛ ليوقع عليها،

فيحتفظن بها. بعض الأولاد كانوا يحكون له في سرعة خاطفة عن المشاعر الغامرة التي انتابتهم وقت أن أحرز هدفه، وراح يجري مطوحا ذراعيه نحو الجماهير التي تصرخ في جنون.

كل هذا ذهب فجأة، وكأنه لم يحدث أبدًا. تبخر مثل الرذاذ الذي طالما داعب وجهه وتخلل خصلات شعره الطويل الناعم بعد أن دفعته الزلاجات التي كانت تمرق فوق المياه هنا تحت هذا الكوبري، الذي قطعه ذات ليلة محمولا على الأكتاف، حين أنزله الجمهور من باص اللاعبين وأصر على أن يحمله حتى باب النادي.

ها هو الجمهور يرفع صور أبطاله الجدد. شباب لم يكن يعرفهم أحد. سيرتهم لم تعنِ إنسانا واحدا خارج أهلهم الأقربين، صاروا اليوم ملء السمع والبصر. ويهتف لهمِ الناس في امتنان وطاعة:

«بالروح والدم نفديك يا شهيد»

«يا شهيد نام وارتاح وإحنا نواصل الكفاح»

يعلو الهتاف ويرج الأرض، لكن من يناديهم هؤلاء المحتشدون لن يستمتعوا بالتقاط الصور معهم، ولا بكتابة عبارات المجاملة على أوراق صغيرة منسقة، ولن يحملهم أحد على كتفيه، فقد ذهبوا، دفعوا الثمن ولن يقبضوا شيئًا.

وصل إلى النادي فوجده شبه فارغ، الطاولات خاوية إلا قليلًا. يجلس بعض العواجيز تحت الشجرة التي وضعوا عليها لوحات صغيرة محفورا عليها أسماء الذين رحلوا من أصدقائهم. رمى عليهم السلام، فلم يسمعوه جيدًا. كانوا منهمكين في حديث عما يجري. حتى البنات الجميلات اللاتي يمر بهن في طريقه إلى غرفة الملابس، يسرن إلى جواره سريعًا، وهن يثرثرن حول الغضب الذي يملأ الميدان. بعضهن يتواعدن على اللقاء هناك.

كان زملاؤه في الفريق قد سبقوه، وراحوا يتناقلون الكرات الكثيرة المبعثرة في المستطيل الأخضر من دون اعتناء. حتى المدرب تأخر وصوله، وقال لمساعده عبر الهاتف:

- سهرت إلى الصباح مشدودا إلى ما يجري بالميدان.

رئيس النادي قال بفتور، حين التقوه عقب التمرين:

- أعتقد أنهم سيلغون مسابقة الدوري، أو يؤجلونها حتى تنزاح الغمة.

***

حين عاد إلى البيت، وجد والدته وأخوته مربوطين أمام التلفزيون. دخل الحمام، خلع ملابسه تمامًا، وجلس على المرحاض مغمض العينين وأطال القعود، ثم قام وفتح المصفاة اللامعة التي يختلط فيها الماء الساخن بالبارد، وترك نفسه متأرجحا بين الصيف والشتاء.

خرج إلى سريره، وحين جاءه أخوه الصغير وسأله:

- أنت تعبان يا كابتن؟

ابتسم وقال:

- يبدو أنني سأستريح كثيرا في الأيام المقبلة.

رمى رأسه على الوسادة، وراح يستعيد اللحظات الجميلة في حياته، فرأى كراتٍ تعانق الشباك، وجمهورًا يهتف باسمه في مدرجات مكتظة يغلب عليها اللون الأحمر، وبناتٍ كالأقمار يهرولن إليه ليسلمن عليه. وطالع صوره التي توضع بطول الصفحات في الجرائد، وأخباره التي يبثها التلفزيون صباحا مساءً، وصوره الأخرى المعلقة في مقاهٍ ومطاعم جلس فيها أحيانًا ليأكل ويشرب.

وجاءت على خاطره صورة الرئيس وهو يصافحه، ويبش في وجهه، ويقول له في امتنان:

- شرَّفت مصر يا بطل.

ثم يعلق الميدالية في عنقه، ويعطيه الكأس ليرفعه في عيون الملايين، فتنطلق الحشود إلى الشوارع هاتفة له.

وسأل نفسه والدموع تطفر من عينيه:

- أين هو الآن؟

التقط هاتفه الملقى على «الكوميدينو» وقرر أن يهاتف نجله ليسأله عنه، لكنه أعرض عن هذا، وقال لنفسه:

- كان الله في عونهم.

وفجأة رن الهاتف، وجاءه صوت وزير الإعلام سائلا:

- هل يمكن أن تشارك في مظاهرة بميدان مصطفى محمود تأييدا للرئيس؟

فانتفض من مكانه، وقال بصوت مبتهج:

- طبعًا.

جرى إلى دولابه، وارتدى ملابسه، وارتاد سيارته وانطلق إلى المكان. وجد بعض زملائه هناك. لاعبون ومدربون ومعلقون. لكن العدد القليل أصابه بخوف. اعتقد وهو منطلق إلى الميدان الذي أخبروه عنه، أنه سيجد مئات الألوف قد سبقوه إلى حمل صور الرئيس، وتحدي أولئك الذين يطالبون برحيله، وأنهم ما إن يروه حتى يحملوه على الأعناق، ويسيروا به في شارع جامعة الدول العربية، يهتفون:

«يسقط الخونة»

«اللي يحب مصر.. ميخربش مصر»

«يا مبارك يا طيار... معاك لآخر المشوار»

وقد يتناسون الرئيس ومأساته، وينشغلون به هو، لا يرون غيره، ولا يهتمون بسواه. وسيحملونه على أكتافهم، ويهتفون له هو وحده:

«الأسفلت مولع ليه.. عشان الكابتن ماشي عليه»

حين وصل إلى الميدان الصغير أيقن أن القضية قد حسمت. شتان ما بين ما يجري هنا، وما يجري هناك في الميدان الوسيع. لكنه لم يفقد الأمل في أن شيئًا ما سيأتي في اللحظة المناسبة، يعيد الأمور إلى ما كانت عليه.

حمله البعض خطوات قليلة، وبرقت أضواء الكاميرات في عينيه، ثم أنزلوه، وراحوا يتفرقون في الشوارع.

***

عاد إلى بيته مع غياب الشمس، فوجد أمه وأخوته في مكانهم، عيونهم مدفونة في الشاشة. أخوه جرى إليه قائلا:

- شفتك في المظاهرة.

ابتسم له، وغمس أصابعه تعبث بشعره، وسأله:

- عجبتك.

- نعم، لكن...

- لكن ماذا؟

- مظاهرتكم صغيرة جدا.

صغيرة.

- تختلف كثيرا عن التي هناك في ميدان التحرير.

وتبعه وهو يدخل غرفته:

- هناك هتافات ترج الأرض، وتهز القلب.

ثم فوجئ به يقول له:

- عاوز أروح هناك.

فصرخ في وجهه:

- اسكت.

ودخل غرفته، وصفق الباب وراءه. مد يده إلى «الريموت» وفتح التلفزيون، بحثا عن أخبار الميدان الصغير، لكن صور الميدان الكبير ظلت تطارده، ورأى وجوها لا يعرفها، حسن عبد الرافع وسامر خفاجي وجمال أبو العزم ومازن عبد الرحيم. وكان كلامهم صعب عليه أن يستوعبه، فظل يتثاءب مقاوما الغيظ، ثم أغلق التلفزيون، وراح في سنة من النوم.

نام في هذه الأيام أكثر مما كان يفعل من قبل. كان يهرب، ويمعن في الهروب. لزم البيت أكثر الوقت، فالتدريبات تضاءلت، ومسابقة الدوري ألغيت، والرئيس

الذي ذهب هو وتظاهر للمرة الأولى في حياته كي يطالب ببقائه رحل، ورآه في القفص مطروحا على سرير متنقل، ويقول للقاضي في انكسار حين ينادي اسمه رباعيا:

- أفندم... أنا موجود.

يومها ضرب كفًّا بكف، وصرخ دافنا رأسه في الوسادة. وجرى إلى الصور الضخمة التي يقف فيها إلى جانبه، وعلقها على كل جدران البيت، وراح يطيل النظر إليها، ويمصمص شفتيه، ويقول في أسى:

- راحت أيامنا معك.

في المساء هاتف صديقته، الممثلة الصاعدة صارخة الجمال التي أصبحت في زمن قياسي حديث الناس؛ ليطلب منها أن يخرجا سويًّا إلى مكان هادىء، لكنها كانت محبطة مثله. واشتكت له وهي تبكي من حظها العاثر. قالت وهما يتهامسان في أسى تحت ضوء الشموع:

- أنا قليلة البخت.

- لِمَ تقولين هذا؟

- ما كدت أفرد أجنحتي أكثر لأطير في عالم الشهرة، حتى انقلبت الدنيا بلا استئذان.

- لستِ وحدكِ.

- أيام شؤم.

وصمتت قليلًا ثم نفخت في غيظ:

- هل رأيت زميلاتي اللاتي نزلن إلى الميدان؟

- رأيتهن في التلفزيون.

- أصبحن الآن ثائرات.

- بعضهن يعارضن منذ زمن.

- وبعضهن ركبن الموجة.

- غدا يغرقن.

- أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.

وفي الأيام التالية، اختفت أخباره، فالملاعب صارت ميادين، والبرامج الرياضية استضافت السياسيين. المعلقون والمحاورون الذين عاشوا طيلة حياتهم لا يهتمون بشيء في الحياة سوى ما يجري في المستطيل الأخضر وحوله، يتكلمون في السياسة، ويبذلون جهدا خارقا في سبيل مجاراة أصحابها. وشباب الألتراس المفتونين بفريقه، تركوا ما انشغلوا به وراء ظهورهم، وجروا إلى ميدان التحرير، وأصبحوا من الثوار.

قليل من زملائه ذهبوا إلى الميدان أيضًا، وتحدثوا كثوريين أقحاح، وصرخوا مع المسيرات التي جابت الشوارع تهتف للأبطال الجدد:

«يا نجيب حقهم.. يا نموت زيهم»

رآهم على شاشات التلفزيون، فضرب رأسه في الحائط، وزفر في غيظ، ثم دخل في نوبة ضحك طويلة، وقال:

- غدا تشربهم الشوارع التي يمشون فيها ليل نهار، وينساهم الناس، وأعود أنا لأُحمل فوق الأعناق من جديد، ويجري ورائي المعجبون على كوبري قصر النيل، يلتقطون الصور معي، ويهتفون لي حتى تسقط حناجرهم.

تحت تعريشة من البوص والقش، يحتضنها الرمل ويهزها الريح، جلس عيسى الرويشد مع مجموعة من رجال قبيلته، يثرثرون بحرارة ومرارة، وعيونهم تطالع من بعيد الحدود مع قطاع غزة، وآذانهم تركوها للمذياع الذي يحدثهم عن شعب خرج في الشوارع ليُسقط النظام.

كان قبل أن يأتيهم هذا الخبر بأسابيع قليلة، يقول متحسرا لصحفي كابد حتى وصل إليهم في مهربهم النائي:

- يتهموننا بأننا جواسيس. لم ولن يوجد بيننا جاسوس، كان بوسعنا أن نجاري الإسرائيليين حين طلبوا منا الاستقلال عن مصر أيام الاحتلال، لكن شيخنا سالم الهرش حمل رفضنا إلى العالم بأسره فى مؤتمر الحسنة وقال لهم: إذا أردتم أن تتفاوضوا حول مستقبل سيناء فلتذهبوا إلى جمال عبدالناصر.

ثم ينفخ سيجارة عالقة بين إصبعين خشنين ينتهيان بأظافر طويلة مدببة، ويقول:

- الغيظ يأكل أكبادنا، وصبرنا نفد. الأرض لا نملكها، والشرطة تستعبدنا، وبيوتنا مستباحة.

وينظر إلى الرشاش الآلي الراقد جنب فخذه في هدوء كاظما غيظه:

لا يحمينا هنا سوى الله والسلاح.

ثم يرفع هامته نحو شجيرات الزيتون، وآبار قليلة معطلة، وتبة رملية تعانق الخواء، وعشش يكسوها الشعر، وينفخ فى أسى:

- لن نسمح لهم مرة أخرى بالقبض على أيٍّ منا، كنا في الماضي نذهب مع الشرطة طواعية وفي هدوء وكأننا قطيع من الماعز، لكنهم أصروا على جرح كرامتنا، وأخذوا العاطل بالباطل، وعاقبوا الجميع على قلة منا تخالف القانون، ولم يرحم بطشهم نساءنا وأطفالنا. إنهم يعاملوننا وكأننا تنظيم إرهابي أو جماعة محظورة.

وأشار إلى رجال تحلقوا حوله وقال لهم:

- تكلموا ليسمع الأستاذ وينقل عنا لعل أحدا من الظلمة يسمع ويتعظ.

وأفاضوا في سرد وقائع التكدير اليومي الذي يتعرضون له، واستعدادهم الغاضب لدفع من يلاحقهم، وأمسكوا بفوهات البنادق التي يضعونها تحت رؤوسهم أثناء النوم، استعدادا لمداهمات الشرطة.

وفتح أحدهم فمه فبانت أسنانه السوداء المثرمة:

- أروح إلى طبيب الأسنان في الشيخ زويد أو العريش برفقة رجلين يحرسانني من بعيد حتى لا أسقط في أفخاخهم.

وعاد الكلام إلى الرويشد فزفر متألما:

- كلما هرب أهل قبيلتي من مطاردة الأمن لهم بطريقة عشوائية فتح الإسرائيليون أمامهم الحدود ليلجأوا إليهم، لكننا لن نفعل، نعم نغضب ونهدد بذلك حتى نلفت الانتباه لمشاكلنا، لكننا مصريون، نحب بلدنا.

ورفع عيناه لتذهبا إلى الأفق البعيد، ثم ثبت مقلتيه، واكتسى وجهه بصرامة حادة، وقال:

- ذبحنا رجلًا منا ارتضى أن يبيع أرضه لهم أيام الاحتلال.

وحين سألهم الصحفي عن مطالبهم، تبادلوا النظرات، وأومأوا للرويشد أن يتكلم نيابة عنهم جميعًا:

- عاوزين تراخيص للآبار التى نحفرها بجهودنا الذاتية، وعاوزينهم يفرجوا عن آلاف المعتقلين من أهلنا المحبوسين ظلما وعدوانا، وعاوزين الشرطة تعاملنا كبني آدميين، وعاوزين خدمات.

وتدخل أحدهم:

- حولوا سيناء إلى مجرد ألبوم أغان تبثه الإذاعات وتعرضه الشاشات كلما حلت ذكرى تحريرها. سيناء ليست هذا، وهم يعرفون الأمر جيدًا لكن ينكرون ويغالطون.

وقال رجل طاعن في السن يجلس في ركن التعريشة:

- إحنا هجينا هنيا في الخلا جنب البرص، ما في معنا إلا العير وحولنا الحصيني والمعزي وجورة القهوة، وما ودنا شي من حد حاك خشمه ولا مبوقع، وما في كونة.[1]

فضحك الرويشد عن أسنان مثرمة وقال:

- البيه لن يفهم كلامك يا إيباه[2].

ثم التفت إلى الصحفي:

- نريد أن نوجه مناشدة إلى رئيس الجمهورية.

فقال له الصحفي: تفضل.

فنطق على الفور:

- يا سيادة الرئيس ننتظر تدخلك لإنقاذ بدو سيناء.

ولم تمر سوى أسابيع وكان هذا الرئيس يحتاج إلى من ينقذه.

***

أنصتوا إلى المذياع جيدًا، وأداروا المؤشر على إذاعة لندن، فجاءهم الهدير:

« الشعب يريد إسقاط النظام»

مع توالي أنباء حرق أقسام الشرطة وهروب الضباط، نظر الرويشد إلى كل من

في التعريشة وقال ضاحكا:

ـ شن علييه.[3]

ركبوا سيارة دفع رباعي، بوسعها أن تعافر في هذا الرمل، وانطلقوا. بعد ساعة ونصف كانوا في العريش يحاصرون مديرية أمن شمال سيناء. وجدوها محصنة جيدًا، وأطلقت عليهم نيران كثيفة من داخلها، فتقهقروا، وأسرعوا إلى قسم ثاني العريش، فاقتحموه، وأخذوا من السلاحليك ما فيه من بنادق ورشاشات.

بعد الاستيلاء على السلاح شعروا أنهم ثأروا لأنفسهم. وتجمعوا تحت جدار بناية تواجه القسم. وقال الرويشد لهم:

- قوطروا تروا طنياتكم زيي.[4]

وانصرفوا جميعًا، كل في طريق، بعد أن تواعدوا على اللقاء قبيل الفجر؛ ليعودوا إلى مهربهم، في انتظار تكشف الأحوال.

في البيوت شاهدوا ميدان التحرير يملأ شاشات الفضائيات، وجذبتهم هالات الضوء التي تحط على رؤوس الغاضبين، وتمتزج بها ذبذبات قوية تصنعها الحناجر الصارخة.

شعر الرويشد في هذه اللحظة بأنه مصري حتى النخاع. لم ينكر هذا يوما، بل كان حريصا على الدوام أن يبين لرفاقه الفارق الكبير بين الحكومة الغاشمة والناس الطيبين الذين يسكنون الوادي، في الصعيد والدلتا، لكن شعوره بمصريته لم يكن في صفاء ونقاء ووضوح مثلما هو عليه في هذه اللحظة.

حكى لرفاقه حين تقابلوا عن شعوره هذا، وحكوا له. وساروا تحت جنح الظلام على طريق رفح، وقبلها بقليل انعطفوا يمينا، ثم يسارا، ثم يمينا، وداروا في خطوط متعرجة بين الكثبان الرملية، بينما أخذت الشمس ترسل نورها على الرمل فيزدهي.

وصلوا متعبين فناموا، واستيقظوا على مشارف العصر. مد الرويشد يده إلى المذياع وهو يتثاءب. فتحه فكانت أول كلمة سمعها هي «المساجين». كانت كلمة زاعقة من صوت رجل بسيط على ما يبدو. بعدها قال المذيع بلغة عربية فصحى فخيمة: «كان هذا أحد شهود العيان عند سجن الفيوم».

أنصت جيدًا، لكن المذيع انتقل إلى خبر آخر.

في النشرة التالية، جاءت التفاصيل: السجناء يهربون من السجون بعد أن فُتحت أبوابها، ووقعت اشتباكات دموية بينهم وبين الحراس.

من فتح هذه السجون؟ ليس مهما بالنسبة للرويشد أن يجيب أحد على هذا السؤال، فالأهم أن هناك ثلاثة من أبناء قبيلته موزعين على سجون وادي النطرون والفيوم والواحات، وجاءت فرصة إطلاق سراحهم.

أيقظ بقية النائمين، وتشاوروا فيما يجب عليهم فعله. واستقر بهم الرأي على

أن يذهب بعضهم، وينتظرهم على الجانب الشرقي من الكوبري الذي يرتفع مقوسا فوق قناة السويس بين الإسماعيلية وبورسعيد.

من قبل كان هذا الكوبري بالنسبة لهم ممرا قاسيا، لا يسلكونه إلا بعد تفتيش دقيق وممل. يقفون صفوفا، بعد أن ينزلوا من السيارات، ويطلب منهم الجنود أن يرفعوا أيديهم إلى أعلى، وبعدها يمرر الجند راحات أيديهم على أجسادهم، ثم يفتشون السيارات بعناية، ويطيلون النظر في أوراقهم الثبوتية، ثم يسألونهم عن أسباب العبور إلى الضفة الغربية من القناة.

أغلبهم كان يذهب لزيارة ذويه المحتجزين انتظارا لمحاكمات في الإسماعيلية وبورسعيد، أو المسجونين في سجون بالصحراء الغربية في جنايات مختلفة. قتل وتهريب وتجارة سلاح ومخدرات.

اليوم حين وصلوا إلى الكوبري وجدوه مفتوحا أمامهم، لا جنود ولا تفتيش.

عبروه في سرعة خاطفة، وانعطفوا يسارا نحو الإسماعيلية، ومنها إلى القاهرة. كان بعضهم قد أبقى طوال الطريق أصابعه على الهواتف المحمولة، طلبوا الأرقام التي يحتفظون بها للسجناء الثلاثة، لكن لم يرد أحد منهم.

حين اقتربوا من مدينة القاهرة، اتصل بهم الرويشد، وأبلغهم أنه تلقى اتصالا من سالم، وأنه يسير على الأسفلت قادما من الفيوم، وأعطاهم الرقم الذي اتصل منه، وهو لسجين من المحلة اسمه رشدي الزفتاوي، فتابعوه حتى وصلوا إليه. توجهوا بعدها إلى سجن وادي النطرون، لكنهم لم يفلحوا في الوصول إلى الثاني بسهولة. الثالث كلمهم من سجن الواحات وأخبرهم أن حالة السجن هادئة، وأنه بخير.

قبل أن تغيب الشمس كانوا قد عادوا إلى العريش، ومنها إلى التعريشة. ظلوا بها أياما حتى سقط الطاغية، لحظتها رقصوا فوق الرمل، وأطلقوا رصاصا في الهواء، ثم أطفأوا حفرة النار التي ظلت موقدة لشهور، وجمعوا أمتعتهم البسيطة وعادوا إلى بيوتهم.

حين عاد الثوار مرة أخرى إلى التحرير، بعد أن شعروا أن كل شيء يسحب من تحت أقدامهم، طلب الرويشد من ابنه الطالب في كلية التربية أن يذهب إلى الميدان، وقال له:

- سلم لي على أصحاب الفضل، وخصوصا شاب اسمه حسن عبد الرافع.

(1) هذه عبارة بلهجة بدو سيناء، ومعناها: نحن هربنا في الصحراء جنب الكثبان الرميلة، وليس معنا إلا الحمير وحولنا الثعالب والماعز وحفرة نضع فيها كنكة القهوة، ولا نريد شيئًا من أحد يتعالى علينا أو نصاب، ولا نشعر بأن هناك مشكلة.

(2) يا أبي.

(3) اهجم عليه.

(4) اذهبوا لتروا أطفالكم مثلي.

69

حين يسمع العبارة على لسان أحد الشباب الغاضبين، يتخيل نفسه جالسا إلى مكنة خياطة. قدماه على البدال، وعيناه ذاهبتان إلى حيث تشاكس الإبرة الثوب، ويده اليمنى على الطارة تحركها ذهابا وإيابا. يقفل جفنيه، ثم ينفجر في قهقهة صاخبة ترن في حوائط حجرة مكتبه الناعمة، ثم تتدفق عبر الباب الموارب قليلًا إلى الخارج، فتصل إلى أذني زوجته، فتأتي سريعًا، وتقول له:

- ضحَّكنِي معك يا سعادة المستشار.

ينظر إلى المراجع المرصوصة بعناية على أرفف خشبية طويلة متينة، ويقول لها:

- أبدًا سمعت أحدهم يقول الجملة إياها.

- ترزي قوانين؟

- نعم.

- وما يضحكك دومًا من عبارة سمعتها قبل الثورة بسنين؟

- الخيال يا حبيبتي، الخيال.

وهو صغير كان في قريتهم خيَّاط عجوز، يعيش وحده بعد أن ماتت زوجته، ويُفصِّل جلابيب للجميع، رجال ونساء وأطفال. وكان يخاف من الأرانب، إن رأى أحدها في الشارع يقف وينتابه ذعر شديد، ويضحك الناس عليه ويقولون له:

- الأرنب أجبن كائن في الدنيا، وأنت تخاف منه.

فيلوذ بالصمت ويمضي.

العيال يعرفون عنه هذا، فيذهبون إليه حاملين أرانب صغيرة، ويهددونه إن لم ينتهِ من خياطة جلابيبهم سريعًا، قبل يوم العيد، سيطلقون الأرانب في حجرته، فيصرخ ويقول لهم:

ـ حاضر.. حاضر.

وينكب على المكنة ساعات لا يبرحها حتى ينتهي من الجلابيب.

كان سيادة المستشار واحدا من هؤلاء العيال. يجلس على باب الحجرة والأرنب في حجره، ويرقب الخياط وهو يبدِّل بقدميه ويلف الطارة بيده ويغمس عينيه في الإبرة وهي تحيك القماش خطفا.

وكلما سمع كلمة ترزي، يستدعي الخياط العجوز، والأرانب، وذكريات أيام لا تنسى، فيغرق في الضحك.

يوم تعيينه في مجلس الدولة مات الخياط العجوز، واعتاد هو على شراء ملابسه جاهزة من المحلات.

بعد سنوات ظهر على صفحات الجرائد مصطلح «ترزية القوانين» كان يسمعه،

ويندهش، ويقول لنفسه:

- كيف يمكن لقانوني محترم أن يجعل من التشريعات بنطلونات وجلابيب وفساتين؟

ويمعن النظر فيما يفعله هو، فيجد نفسه رجلًا يُكيِّف ما يُعرض عليه من وقائع وفق النصوص القانونية التي وضعها المشرِّعون؛ ليقضي بالأحكام المحددة، لا يحيد عنها. وحين لا يجد نصا قطعيا، يستعمل روح القانون بكل تجرد ونزاهة.

هكذا استمر في عمله، منكبا عليه، لا يحيد عنه إلى شطط أو زلل. كان يطالع كتب القانون الصادرة حديثا، يقبل عليها في فرح كأنه عثر على كنز ثمين، ويسرع إلى البيت، يغلق على نفسه حجرة مكتبه، ويقرأ بنهم شديد. ونصحه أصدقاؤه أن يكمل دراساته العليا، ففعل حتى نال الدكتوراه، وارتقى في عمله حتى وصل إلى موقع مرموق بمجلس الدولة، شغله لسنوات قبل أن يحال إلى المعاش، ويطوي خلفه زمنه المجيد.

لم يطقِ الجلوس في البيت. وحرمه عمله في القضاء من صحبة المقاهي. وكره أن يبقى فترة طويلة في النادي يجتر الذكريات، ويتحسر على سنين الشباب.

وبينما هو غارق في حيرته المزمنة، رنَّ هاتفه المحمول. كانت المكالمة من رقم خاص، استقبلها متوجسا، لكنه سرعان ما استرد أنفاسه، وارتسم على وجهه سرور بالغ، وهو يتابع منصتا كل ما يقال له، ولا يرد إلا بعبارة واحدة:

- حاضر يا أفندم.

حين انتهت المكالمة كانت البهجة قد سكنته، ونادى زوجته متهللا فجاءته مندهشة، وقفت أمامه، فقام إليها، وأخذ وجهها بين راحتيه، وقال لها:

- جاءت الفرصة.

تهلل وجهها وتساءلت:

- خير إن شاء الله؟

هز نصف جسده العلوي طربا، وقال:

- طلبتني رئاسة الجمهورية.

- الرئاسة؟!!!

صمتت برهة ثم قالت:

- وزير العدل رجل عجوز مريض، ولا شك أنهم يفكرون في تغييره.

- ممكن.

- ربما يريد الرئيس أن يضمك إلى طاقم مستشاريه القانونيين.

- ربما.

- أو أنه...

ولم يدعها تكمل؛ إذ وضع يده على فمها، وقال:

- ساعة وسأعرف كل شيء.

رفعت يده، وهمست في ودٍّ بالغ:

- إذا لقيت فرصة لتطمئنني فلا تبخل.

***

في طريقه إلى قصر الرئاسة جاءته مكالمة طلبت منه أن يتوجه إلى المقر الرئيسي للحزب الحاكم على كورنيش النيل، فامتقع لونه، وبهت حماسه، وشعر بدوار خفيف، لكنه لم يلبث أن طرد من رأسه أي خواطر غير محمودة، وقال في نفسه:

- ربما يكون الرئيس هناك.

لما وصل وجد نجل الرئيس في انتظاره. دخل عليه وهو بين رجاله، فلم يمهله لحظة واحدة، وقال له:

- نريدك في أمر عاجل ومهم.

أومأ برأسه دون أن ينطق، وجلس بعد أن أشار إليه أن يجلس، وتطلع بحواسه كلها نحو ذلك الشاب المتعجرف الجالس على رأس طاولة فخيمة، يوزع الأوامر بإصبعه، والنظرات الغاضبة من طرف عينيه، وجميعهم يتمنون رضاه.

التفت يمينه ويساره فلم يلمح رجل قانون غيره، فاطمأن، وفهم من سير النقاش أن السلطة مقبلة على تعديل مهم في الدستور.

بعد أن أنصت نجل الرئيس جيدًا إلى مداخلات الجالسين، التفت إلى المستشار، وقال له:

- نريد أن تترجم حصيلة كل هذه المناقشات إلى نص قانوني محكم.

تمتم، وشعر في هذه اللحظة أنه يتخلى عن شيء عزيز، عاش محافظا عليه، وكان يتباهى به أمام كثير من زملائه، لاسيما أولئك الذين مسَّهم الفساد، ودحرجهم إلى دهاليزه المظلمة. صمت، وغار في مقعده، وأومأ برأسه موافقا، واغتصب نفسه في ابتسامة رضاء.

أعطوه كل ما كتبوه، وعاد إلى البيت مكسورا. رن الجرس فخرجت له الخادمة. مد يده إليها بالأوراق، كما كان يفعل حين يعود من مجلس الدولة كل يوم. طلب منها فنجانا من القهوة، وسألها عن زوجته، فقالت له:

- جالسة في غرفتها.

دخل عليها فوجدها تمسك سماعة التليفون بكلتا يديها، وتقول لمن تحدثها:

- طبعًا، أخيرا عرفوا قيمته.

لما رأته، تلعثمت، واستأذنت ممن تكلمها، ووضعت السماعة، ثم قامت من مخدعها وهي تقول:

- حصل المراد؟

نظر إليها غاضبًا وقال:

- ألم أقل لكِ إن أسراري لا يجب أن تعطى بالمجان لصاحباتك؟

- فرحانة يا سعادة المستشار، ولا أقدر أن أحمل الفرحة وحدى.

- ألم يكن من الأفضل أن تنتظري حتى تعرفي؟

- واضحة، والله، واضحة.

وساد صمت قطعته هي قائلة:

- خير؟

فأبلغها بما طُلب منه، وخيبة الأمل تكسو صوته. لكنها قالت:

- هذا اختبار بسيط، إن نجحت فيه فالوزارة تنتظرك.

- أوهام.

- بل هذه هي الحقيقة. ولذا عليك أن تنجز ما طلب منك على خير وجه. يجب أن ينبهروا بما تفعله، ويتأكدوا أنه لا غنى عنك. الفرصة تأتي مرة واحدة، فلا تضيعها من يدك.

بعد يومين قدم لهم ما أهدته إليه قريحته، وجلس ينتظر رأيهم، فانبهروا وأبلغوه برضائهم، وقال له أمين عام الحزب:

- الرئيس مبسوط منك.

طار يومها إلى بيته من الفرح، ولولا الوقار الذي ألزم نفسه به على مدار سنين، لوقف في منتصف الشارع ورقص وغنى وقبَّل كل العابرين في جباههم، وهو ما فعله حين أغلق على نفسه باب الحمَّام بعد أن تجرد من ملابسه.

وقال لزوجته وهو يجفف شعره بالفوطة البيضاء:

ـ يبدو أن نبوءتك ستصدق.

فابتسمت، وتقدمت إليه، وقبَّلته من شفتيه، وقالت:

- كان خيالا وأمنيات، فصار اليوم واقعا، يسد عين الشمس.

وبعد ثلاث سنوات طلبوا منه تعديل التعديل، ومواد أخرى إضافية، وانكبَّ في صبر على مهمته، وقال في نفسه:

- من يخطب الحسناء لا يغلها المهر.

وسرت الغيرة في عيون زوجته، فسألته:

- من هي الحسناء؟

قهقه وقال:

- كرسي الوزارة طبعًا.

نهنهت هازئة، وقالت:

- هؤلاء جبارون، فعلت لهم كل شيء، ولا يفكرون فيك أبدًا.

فربت كتفها وقال مصبِّرا نفسه:

- كلٌّ بأوانه.

لكن الأوان كان يحمل شيئًا لم يخطر على باله.

صلَّى الجمعة في مسجد قريب من منزله بحي الزمالك، ثم عاد، فوجد الطعام في انتظاره، ملأ بطنه، ودخل إلى سريره، وارتفع غطيطه ليهز طرف الوسادة المشرشب.

مع حلول المساء، تناهى هدير آدميين إلى سمع زوجته وهي في المطبخ تستمتع بإعداد صينية الكنافة بالمكسرات والقشدة التي تعشقها. جرت إلى النافذة، ورأت كوبري 26 يوليو يغص بالمتظاهرين.

هرعت إليه في غرفة النوم وأيقظته قائلة:

- قم يا سعادة المستشار البلد مقلوب.

مسح الكوبري بعينيه فلم يجد للناس آخر. جرى إلى التلفزيون وفتحه، فرأى ميدان التحرير مكتظا، وأنصت إلى الهتافات، ثم ضرب كفا بكف، وقال لزوجته:

- مشهد مخيف.

بقي في بيته لا يبرحه، حتى استدعوه ليجلس مع اللجنة التي تنظر في تعديلات دستورية أخرى وعد بها الرئيس ليهدئ الغاضبين. ارتدى بدلته على عجل، وذهب، وعاد في آخر الليل إلى مكتبه؛ ليسهر على ما طُلب منه، وقبل أن ينهيه انتهى كل شيء.

طالع الواقفين في المشهد الجديد بارتياب، وحط بصره على أكتافهم المرصعة بحصاد السنين، سيوف ونسور ونجوم، وقال لزوجته:

- تُقدِّرون وتضحك الأقدار.

ثم قال لنفسه بعد أن اختلى بها في غرفة مكتبه:

- إنها النهاية.

لكنها لم تكن كذلك. أيام قليلة ورن هاتفه، تفرس جيدًا في الرقم الغريب، ورد بصوت هامس:

- ألووووو...............

فجاءه من الناحية الأخرى ما جعله يتقافز في مكانه كقرد جائع:

- ندعوك لاجتماع غدا في التاسعة صباحا مع القائد.

تقافز من الفرح، وانكب على المطلوب منه بحماس بالغ، وتراصت الأوراق تحت راحة يده مملوءة بكل ما يعيد الأمور إلى الوراء، أو يبقيها في مكانها.

لكن سيده الجديد لم يلبث أن رحل فجأة، فجاءته الكآبة قاسية هذه المرة، وقال لزوجته:

- لم يعد هناك أي أمل جديد.

نظرت في مقلتيه المختبئتين تحت طبقة كثيفة من الدموع، وقالت:

- جراب الحاوي لا يخلو.

رفع هامته إليها وقال بصوت خفيض:

- لا أعتقد أن لديَّ شيء ينفع القادمين الجدد إلى العرش.

- كل سلطان يحتاج إلى ما لديك.

- لهم رجالهم.

فضحكت وقالت:

- أنت رجل كل العصور.

وخزته العبارة، وشعرت هي أنها كانت قاسية عليه، فجلست إلى جانبه، ومدت يدها تربت كتفه، وحاولت أن تخفف من وطأة كلامها:

- أقصد أن خبرة نادرة مثلك من الصعب على أي حكم أن يتجاهلها.

سرت دفقة من الطمأنينة في نفسه لكلامها، ومدَّ ذراعه وطوق عنقها، ثم قبَّل جبينها وقال:

- أتمنى أن تصدق نبوءتك.

وبعد أسبوع صدقت نبوءتها، حيث رن هاتفه، وكان طالبه الرجل النافذ في مكتب الإرشاد. وفي اليوم التالي صعد إلى جبل المقطم بقلب منشرح.

على طرف ميدان التحرير أوقفوه. نظر أحد أفراد لجان الحماية إلى يده الملتوية وملامح وجهه المدفونة في مثلث مكتنز لحما، وقال له:

ـ بطاقتك.

لكن هز رأسه بعنف، دون أن يتكلم. وهمَّ ليدخل، إلا أن الواقفين وضعوا أجسادهم أمامه، فانحشر بينهم، وزام ثم انخرط في نوبة صراخ.

أعادوا النظر في ملامحه، وربتوا كتفه وقالوا له:

ـ الدخول بالبطاقة، هذا حماية لك ولكل من في الميدان.

صمت قليلًا، ثم نفخ، ومد أطراف أصابعه إلى جيبه وأخرج كل ما فيه. وكان قليلًا. سبعة جنيهات، وورقة مكتوب فيها عنوان لمكان لا يعني أحدًا غيره، ونصف غلاف علبة دواء.

أحد أفراد اللجنة الذي أوقفه، كان طالبا في السنة النهائية بكلية الطب. التقط الورقة ورمق اسم الدواء، ثم نظر في ملامح الواقف أمامه، وقال لزملائه:

- دعوه يدخل.

وبعد أن ابتعد خطوات قال لهم:

- مسكين، مريض، على ما يبدو، عنده حبسة كلامية وإعاقة ذهنية بسيطة.

مصمصوا شفاههم وابتسموا ثم انشغلوا بتفتيش الداخلين.

أما هو فألقى جسده بين الزاحفين، واضعا يده الملتوية على ذقنه النابت. كان يمشي خطوات قليلة، ثم يقف ليتفرس في ملامح القادمين. يرسل إليهم نظرات مندهشة من عينيه الوسيعتين، ويضرب الأرض بقدميه صادحا، بأصوات لا تبين حروفها لأحد، لكنها تتناغم مع تلك التي يرسلها الذين يجوبون الميدان متدثرين بالهتافات الساخنة.

كان سعيدا إلى حد لا يمكن وصفه. وبدا لمن ينظر إليه مليا أنه شخص يعيش لحظة استثنائية في حياته المترعة بالشقاء.

اقترب منه شاب في الثلاثين من عمره، مد يده ليصافحه، وحين وجد أن يده مقلوبة، الظهر مكان البطن، ربت كتفه وقال له:

- إنت فرحان بالثورة؟

فامتلأ وجهه بابتسامة عريضة، وحرك قدميه على بقعة الأرض المتاحة لهما في الزحام، فاهتز جسده، وقال:

- الث..ثث..وو.. رة حي حي.. ووو.. ة.

- طبعًا الثورة حلوة. كلنا نشعر بهذا.

تركه ومضى. أما هو فقد عاد إلى الوراء، حين برقت في ذاكرته علب الكشري

المرصوصة بعناية على مقربة من لجنة التفتيش عند مدخل الميدان. كان قد عبرها فرحا حين تركوه يمر إلى الميدان، وجرفه الناس فلم يلقِ لجوعه بالا. لكن الجوع قرصه فعاد يبحث عن الكشري. وقف أمام البائع صامتًا، فنَظر إليه وسأله:

- عاوز كشري؟

فأومأ برأسه، وزام مستجيبا لسؤاله.

مد إليه العلبة، وقال:

- هات الفلوس.

رفع يده المرتعشة حتى دخل إصبعاه في جيبه، والتقط الجنيهات، وأخرجها. أخذ البائع خمسة جنيهات، وترك له اثنين.

جلس تحت سور الصاج الذي يفصل بين ساحة الزاحفين ومنطقة تزمجر فيها مكنات الحفر على يمين الميدان، وأخذ يأكل في امتنان. فلما انتهى عاد ليلقي جسده بين المحشورين حول الكعكة الحجرية. ووجد نفسه في مواجهة تمثال عمر مكرم، يمشي على يمين نصبة سعد الزايط. وقف ومدَّ بوزه نحو البخار المتصاعد من البراد الكبير. وبدا مستمتعا بسخونته في هذا الجو البارد.

نظر سعد إليه، وسأله:

- عاوز شاي؟

- ششش ااااي.

- معك فلوس؟

أعاد إصبعيه إلى جيبه، وأخرج الجنيهين. اقترب سعد منه، ونظر في جيبه، فلم يجد نقودا غير تلك التي أخرجها له، فابتسم، وربت كتفه، وأعاد إليه النقود، وقال له:

- هذه المرة علينا.

أومأ برأسه من جديد، وزام، فقال له:

- هدية.. والنبي قبل الهدية.

ابتسم، وجلس إلى جانبه يحتسي الشاي في تلذذ، وينقل بصره بين التمثال والجامع ومجمع التحرير ووجه سعد الذي كان يسابق الزمن حتى يصب الشاي لكل هذه الأيادي الممدودة. نظر إليه نظرة خاطفة لم تخلُ من ودٍّ وحدب، وقال له:

- خليك هنا يا بركة.

لكنه لم يبقَ مكانه. شفط الشاي في رشفات سريعة ممتلئة، ثم قام يتجول في الميدان. كانت عيناه تذهبان نحو الأعلام التي تهفهف فوق الرؤوس، وتلك المعلقة على أعمدة الكهرباء، ثم يفرد ذراعيه على قدر ما يسمح به عجزه المزمن، ويرفرف، ويقلد أصوات الهتافات، وحين يتعب يجلس فوق أي بقعة

فارغة على سور الكعكعة الحجرية، وإن لم يجد، يفترش الأرض، ويلم رجليه إلى صدره، حتى لا يدوس عليه المحتشدون.

قطع الليل شوطا بالغا في رحلته إلى النهار، وتسرب المتظاهرون تباعا إلى بيوتهم لينالوا قسطا من الراحة، ثم يعودون. لم تبقَ إلا قلة كي تحفظ الميدان محررا ليستقبل مئات الألوف التي ستزحف إليه في النهار.

هو لم يبرح الميدان. وجد نفسه هنا، وذاق لأول مرة في حياته طعم السعادة الغامرة. إنها شيء أهم بكثير من وجبة لذيذة تعطيها له أمه، أو بولة الآيس كريم التي يحضرها والده له وهو عائد من الشغل، أو اللهو على شاطئ البحر في أيام الاصطياف. شيء مختلف، لم يعشهُ أبدًا. لهذا آثر أن يبقى هنا. وحين جاء والده في صباح اليوم التالي ليعيده إلى المنزل الذي بات خارجه لأول مرة في حياته، رفض، وتشبث بالبقاء. مكث الرجل ساعتين، حتى اطمأن إلى أن الميدان آمن على ابنه، ثم انصرف صامتًا عند الضحى العالي.

بعد أن ذهب الأب جلس هو متعبا من الدوران، وقد أعطى ظهره إلى خيمة منصوبة، يرقد داخلها شباب منهكون. شعر أن أحدا يغمزه في كتفه، فالتفت إليه، فوجد أكمل يقول له:

- ممكن تنصب معنا الخيمة؟

انتفض على الفور، ملبيا طلبه، وأمسك الأوتاد تحت إبطه، واحتضن الأعمدة، فقالوا له:

- ضعها على الأرض، وأمسك طرف القماش.

ففعل ما طلبوه منه، وهو يقهقه، وضحكته تجلجل، وتختلط بالهتافات التي تطلقها المجموعات التي تجوب الميدان.

***

في اليوم الرابع بان في لقطة تلفزيونية وهو يتمايل وسط الميدان صادحا بأصوات صاخبة غير مفهومة. ورآه بعض متحدِّي الإعاقة، فجاءوا في اليوم الخامس على عجلاتهم. عقول ذكية وأجساد عفية، لكن السيقان لا تحملهم. مبتورة أو شلل أطفال أو عجز عقب حادثة سيارة.

ورآهم المتظاهرون فازدادوا حماسا، وقال حسن عبد الرافع لأكمل:

- طالما أن هؤلاء نزلوا الميدان فاعلم أن الثورة ستمضي في طريقها حتى تجرف الطاغية.

فابتسم وسأله:

- هل تستبشر بهم؟

فهز رأسه نافيا، وقال:

- ليست البشرى فحسب، بل اليقين من أن تواجد هؤلاء بيننا يعطينا دليلا

على أن الشعب لن يركن إلى الاستسلام، وأن الكيل قد طفح بالجميع.

- كيف؟

- لا تنسَ أن المعاقين يعانون من أوجاع مضاعفة، حالتهم المزمنة، وإهمال السلطة وتجاهلها.

- لا أحد يتذكرهم في هذه الدنيا القاسية.

- لهذا أقول دومًا إنهم يعيشون في العالم الرابع ، نسيهم أولئك الذين قسَّموا العالم إلى ثلاثة، مع أنهم لا ينتمون إلى أيٍّ من هذه التقسيمات، ليس عن رغبة منهم، إنما للجحود الذي يقابلون به، مع أن أرزاقنا قد تكون تحت أقدامهم، مع الأطفال الرُّضع والبهائم الرُّتع.

أحدهم طلب أن يقابل الشيخ رأفت مغازي، فلما وصل إليه، رفع بصره، وقال:

- عندى فكرة يا مولانا.

فنظر إليه واجما، وقال:

- خير؟

نظر إلى كرسيه المتحرك، وقال:

- يمكن أن ألف الجمهورية كلها على هذا الكرسي، رافعا راية الثورة ومطالبها.

أرسل إليه عينين محايدتين، ثم اغتصب ابتسامة فاترة، وقال:

- فكرة حلوة، ربنا يعينك.

أصابته الإجابة بخيبة أمل، لكنه عبرها سريعًا:

- هذا موضوع يحتاج إلى تغطية إعلامية، أما المال فأنا سأدبر حالي.

في هذه اللحظة رنَّ هاتف مغازي، فتنحى جانبا ليرد على من طلبه، ودفع قدميه لتسيرا بهدوء بعيدًا عن الجالس على كرسيه المتحرك، ثم ذاب في الزحام.

***

عادوا إلى بيوتهم بعد الإعلان عن سقوط الطاغية، ثم جاءوا إلى الميدان مهللين في أيام جمع الاحتجاج التي توالت. تقاربوا، وجمعوا ما لهم من مطالب، ورفعوا بها لافتات على أطراف الميدان وقلبه، وانتظروا أن ينظر إليهم أحد بعين عطوف، لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

الجميع اتخذوا من تواجدهم في الساحات الغاضبة علامة على أن الشعب يصر على استكمال ما بدأه، لكنهم نسوهم. وعاد من رشحوا أنفسهم للرئاسة واستخدموهم مرة ثانية كي يدللوا على أنهم يشعرون بأوجاع الناس، أو طمعًا في أصوات الملايين من المقعدين والصامتين والعميان والعرج والمبتورة أيديهم، وقال غير واحد منهم:

- إن وفقني الله، سأقرر قيام مجلس أعلى لذوي الاحتياجات الخاصة.

يومها سخر منهم خالد السبع، وقال لأصحابه في قعدة «الكنافة»:

- نصَّابون، يريدون جمع الأصوات بأي طريقة.

ثم قهقه حتى كاد أن يقع على قفاه:

- طريقهم طويل وصعب جدا، بل ومستحيل إلى الإنسان الأسمى..

ولم يكن السبع كاذبا، فهؤلاء لم يفلحوا، واندفع إلى آخر السباق من غلظت قلوبهم، فنسوهم كالعادة؛ لتظل أيام الميدان حالة عابرة في حياتهم المفعمة بالأحزان.

61

دخل إلى غرفة مكتبه منزعجا. فتح الخزانة التي تأخذ بين ذراعيها الخشبيين المتينين عشرات الملفات المكدسة بأوراق، بعضها مكتوب فوقه «سرى للغاية». غمس يده بينها، وراح يقلبها في سرعة شديدة، وعينه تتابع عناوينها الأساسية، حتى وصل إلى ما يريد.

مئات الأوراق النائمة بين ضفتين من الورق المقوَّى، يمسكها قضيب معدني مقوَّس، يخترقها، ويسمح بتصفحها في يسر وسهولة. دفن رأسه في الملف وراح يقرأ:

«كل شيء على ما يرام. الأمور هادئة، رجلنا يمسك بزمامها جيدًا، ورغم الاحتجاجات الاجتماعية التي تقوم بين حين وآخر إلا أن القبضة الأمنية شديدة، والمعارضة متشرذمة، وبعضها يعمل مع رجلنا كديكور. البديل غائب، وكل الفرص المتاحة للتغيير هي تلك التي يسمح بها النظام من تلقاء نفسه. ولو أراد الرجل أن يورث حكمه لابنه، فلا توجد عقبة أمامه سوى الجيش، وبوسعه أن يتخطاها، أما الشعب فالأرجح أنه سيحتج على طريقته الخاصة جدا، بإطلاق النكات والصراخ في المساء على شاشات الفضائيات».

أعاد قراءة ما كتبه منذ أسابيع قليلة، ووضع خطوطا زاهية تحت بعض الجمل التي كان يظن أن ما بها من معنى هو أمر قاطع لا يقبل الشك، ثم جرى إلى شبكة «سي إن إن»، وجلس أمامها، يتعجب مما يرى.

هو الدبلوماسي الأمريكي الماهر، الذي اتسمت تقاريره دومًا بالدقة البالغة، يجد نفسه، ولأول مرة في حياته، أمام لغز كبير، لا يفهمه جيدًا.

هو يتفهم ما جرى في لحظة الانطلاق. آلاف الشباب ينزلون الشوارع غاضبين، يهتفون ضد الشرطة التي تقهرهم. لكن أن يتطور الأمر إلى المطالبة بإسقاط رجلهم الكبير، الذي صعَّر لهم خده، ويصبح الآلاف ملايين تكسح قوات الأمن أمامها في الشوارع والساحات، فهذا ما لم يدُر بخاطره أبدًا. لا حدسه ولا ما تحت يده من معلومات يؤديان إلى هذا الطريق أبدًا.

حتى أعضاء جهاز «السي آي إيه» المتواجدين في السفارة على أنهم دبلوماسيون لا يعلمون الكثير عما يجري. وعز على نفسه أن يكون هو وزملاؤه الذين يعرفون دَبَّة النملة في هذا البلد، خارج الزمن كل هذه الساعات.

السفيرة كلمته، وأبلغته أن الاتصالات انهالت عليها من واشنطن تستفسر عما يجري، ولم يجدوا لديها إجابات كاملة.

في اليوم التالي دعا بعض المتعاونين معه إلى مقر السفارة. جاءوا مهرولين إلى تلك القلعة عالية الأسوار كئيبة المنظر التي تقف ثابتة في حي جاردن سيتي. سألهم عما يجري، فردُّوا عليه بأسئلة جديدة.

كل من اتصل بهم من رجال الحكم ليست لديهم معلومات كافية، إنما حديث مرتبك عن مؤامرة وغضب فائض وأوضاع اجتماع سيئة، وكلهم أجمعوا على صحة تقاريره القديمة، وقالوا بطرق مختلفة:

- النظام قوي وما يحدث لن يهزه أبدًا.

لكن الأرض مادت من تحت قدميه المحطوطتين على أرضية مكتبه، وهو يرى شعلة النار والنور تتمدد إلى شوارع وساحات جديدة، ورجلهم الكبير يترنح، ووجهه يشحب مع مرور الأيام، ونبرته العميقة الفخيمة تخبو وتتقطع وسط أنفاسه المبهورة، ولولا الصبغة التي يضمخ بها شعره، والمساحيق التي يردم بها الفجوات الغائرة في وجهه وعنقه، لبدا عجوزا متهالكا، وسقط في عيون كل من يتابعونه وهو يحاول أن يعيد مجده الذي يهرب منه.

بدا كل شيء أمامه غامضا. حتى الفضائيات الناطقة باللغة العربية لم تجلُ له الحقيقة. ضجيج يتصاعد، ولا يخفت، وكلام يركب بعضه بعضا. ضحك وبان فكّاه، حين سمع أحد الكتاب المقربين من صاحب الكرسي الكبير يقول إن ما يجري هو تطبيق لسياسة «الفوضى الخلاقة» التي أعلنت عنها وزيرة الخارجية الأمريكية. نظر في وجوه الجالسين معه وقال لهم:

- لم تقل لي.

قهقه وضرب على فخذه، وقام من مكانه، ومضى صامتًا. انتظر حتى راح النهار، ومع أول الليل نزل بنفسه إلى ميدان التحرير. ارتدى بنطلون جينز وبلوفر صوف، ورمى كوفية على عنقه، وساعده شعره الأسود وعيناه البنيتان ولسانه الذي ينطق العامية المصرية بلا لحن في أن يذوب وسط المحتشدين.

دخل من عند مسجد عمر مكرم، وجال في أركان الميدان، من أدناه إلى أقصاه. أنصت جيدًا إلى الناس. إيماءاتهم وحركاتهم، ألفاظهم وتعبيراتهم، الناعم منها والخشن، السليم والسقيم. نظر مليا فيما يرتدون وما يأكلونه ويدخنونه، اقترب من الحلقات النقاشية التي يعقدونها باستمرار، واستمع إلى الجدل الذي بدا بلا نهاية.

وعاد من هناك يفرك كفيه من البرد، وجلس إلى مكتبه من جديد، وكتب تقريرا آخر، قال فيه:

«ما استقر في يقيني مما سمعت وشاهدت وعرفت أن حليفنا يسقط، أمره انتهى، وقوفنا جانبه ليس في صالحنا. الشعب ضده، ولن يعود الناس إلى بيوتهم إلا بعد أن يخرج من القصر. علينا أن نتحرك الآن بأسرع ما يمكن للحفاظ على النظام وإن ضحينا برأسه. أنصح بالانفتاح أكثر على الجيش، فعلاقتنا به متينة. الناس في الشوارع يهتفون له. وأنصح كذلك بتعزيز العلاقة سريعًا مع جماعة الإخوان، فهي القوة الوحيدة المنظمة في الشارع الآن، وخطوطنا معها مفتوحة، ونحتاجها في منع الأمور من الانفلات، فالناس غير متفقين على

شيء إلا إسقاط الرئيس، ويجب أن نسارع في مساعدة العسكر في الإبقاء على كل شيء يخص مصالحنا كما هو».

وبعد ساعات كانت هذه النصائح تملأ الأثير. تصريحات، ومؤتمرات صحفية، وبيانات، تأخذ كل شيء إلى النهاية، وفق الخطة المرسومة. الناس إلى البيوت، والطاغية إلى خارج القصر، وأصحاب اللبس الكاكي إلى الكراسي، وذوي اللحى يقفون في ساحة الانتظار، ليقتربوا نحو الطريق الذي يعبِّد بعضه أولئك الجالسون في قلعة جاردن سيتي المهيبة.

طيلة الشهور التي أعقبت اللحظة الفاصلة بين السكون والغضب، جلس هو إلى مكتبه مستمتعا بما فعل. يدخن سيجاره الكوبي، وينفخ في نافذة تداعبها نسائم قادمة من النيل.

***

وتوالت الأمواج اللطيفة تلثم شاطئ النيل في مرح، وتوالت معها أمواج الغضب في الشارع زاعقة حزينة. وتناهت إلى سمعه مسيرات تقطع كورنيش النيل نحو ميدان التحرير هاتفة:

«دا مفهومكم للعدالة.. ترموا الشهدا في الزبالة»

«القضية مش شاويش

ولا عسكري مطحون في الجيش

القضية مجلس عسكر

حط الشعب في وش الجيش»

«مش هيفيدك كاب وبيادة.. إنت جهنم وإحنا شهادة»

وكان عليه أن يسبق كل شيء، وألا يقع في الخطأ مرة أخرى، وأن يبذل كل جهد مستطاع في سبيل تنفيذ الخطة التي جاءته تفاصيلها من وراء البحار، ولا يزيد عنوانها على ثلاث كلمات: «الاستقرار قبل الحرية».

جعل سكرتيرته تتصل بحسن عبد الرافع، وتدعوه إلى لقاء معه في السفارة، هو ومن يرشحه من الشباب، لكن الرد جاء حاسما ومخيبا لآماله:

- نجاح ثورتنا ضد مصالحكم، ولقاؤكم عبث.

هاتف قائد العسكر ومرشد الإخوان وأحد المتنفذين من رجال النظام الذي ترنح. جلس معهم، وقال لهم وهو يشير إلى مكتب السفيرة الجديدة التي جاءت من باكستان:

- هل أتت لتجلس على مكتب وثير في قلعة «جاردن سيتي» وتتابع الأفلام المصرية القديمة؟ بالقطع لا، فهذه السيدة المحنكة يقظة مفتوحة العينين، تفكر وتدبر، ومعها خبراء ومختصون، وحولها مساعدون ومعاونون، وفي يدها خطط ورهن إشارتها رجال وأموال وإعلام، وكل هذا سيساعدكم في إخراج

بلدكم من أزمته.

لعنوه في سرهم، لكنهم أنصتوا إليه. لابسو الأفرولات الكاكي يحتاجون الأعطية السنوية التي أصبح الاعتماد عليها كبيرا. لابسو الجلابيب البيضاء ينتظرون أن تسقط الثمرة في حجرهم. الذين غربت شمسهم يمدون أيديهم بعيون باكية إلى من ينقذ رقابهم من المشانق. جميعهم هنا داخل القلعة العتيدة يشعرون أن طريقهم واحد، وإن أظهروا أمام الحالمين في الشوارع المفتوحة غير ذلك.

يأتون ويخرجون في جنح الظلام، لا يمرون بأولئك النائمين في الشارع المغلق المواجه للقلعة، معتصمين من أجل الإفراج عن الشيخ الضرير المسجون وراء البحار بعد اتهامه بالإرهاب، ولا يلتفتون إلى من وقفوا يهتفون ضد كل من يدس أنفه في شؤون بلادهم، ويقول بعضهم لبعض: «اللي متغطي بالأمريكان عريان».

إن جاءوا في النهار يمرون منكسي الرؤوس بين الأبنية العتيقة في المسافة القصيرة التي تربط القلعة بمبانيهم المتراصة منذ زمن، والتي يقررون فيها مصير الناس، أو هكذا يتوهمون. يقطعون شارع قصر العيني ويدخلون إليها صامتين. إلى مجلس الوزراء ومجلسي الشعب والشورى، وعقولهم تجتر ما سمعته قبل دقائق هناك.

كل منهم يقول لنفسه: «الخواجات يريدون أن نبقى متكاتفين لأن مصالحهم تقتضي هذا، ومنافعنا القريبة لا تشي بأن لدينا خيارات أخرى غير ما قصدوا، لكن كل هذا إلى حين. وبعدها يستطيع من سمن أيام الصمت والتحايل أن ينقض على حليفه ويأكله، لحما وعظما، ويجعل اسمه وصيته ومنافعه في خبر كان. يسقط في مزابل النسيان، وكأنه لم يدب على هذه الأرض يوما، ولم يكن صوته يجلجل في كل الأصقاع».

هكذا فكروا ودبروا وكان ما كان....

62

حين خرج رشدي الزفتاوي في ميدان الشون قبل أن تلتهب شوارع القاهرة بثلاث سنين، لم يكن يحلم بأكثر من أن يصل صوته إلى من سرقوه. أراد أن يقول لهم إنه تاق إلى زمجرة مكنات الحلج والنسج، وأنه حين يصعد إلى سطح البناية المتداعية التي يقطنها لا يرى دخان المصانع يتصاعد سريعًا في الهواء، ويصنع دوائر متلاحقة، ثم يذوب هناك فوق المروج الخضراء التي تمتد إلى مرمى البصر.

راح يجأر كحيوان ذبيح، يريد أن يخرج الغل الراقد في نفسه من زمن، ظل خلاله يروض الوقت على مقاهي مدينة المحلة، ويحكي للصبية عن عامل ماهر، كان الأسطوات يقولون له: «إيدك تتلف في حرير». يسحب من خرطوم الشيشة وينظر في سقف المقهى الذي تتدلى منه لمبات النيون، ولا يكف عن الكلام. يسعل وتدمع عيناه، ويقوم آخر الليل مجهدا.

كل هذا كان في رأسه وهو يجلس مع زملائه الكادحين ليرتبوا لغضبة تسمع صوتهم لمن باع مكناتهم وشردهم في الشوارع ونسيهم وكأنهم حملوا إلى القبور، ودفنوا، ونخرت عظامهم.

قال كمال الفيومي وهو يدوس على أضراسه:

- يجب أن يعرفوا أننا لا نزال على قيد الحياة، وأننا موجوعون.

فقال طارق السنوسي:

- ليكن يوما مشهودا، نفتح فيه كل أبواب الغضب المكتوم.

وقال متولي سيف:

- صوتنا يجب أن يهز كرسيه الكبير.

وقام سعيد الصبروت وصرخ:

- يا أولاد الكلب.

وكان هو الخامس. لم يتكلم طيلة الجلسة، وحين سألوه عن رأيه وهم ينفضون ملابسهم مما علق بها من تراب المقهى المنزوي المهجور استعدادًا للانصراف، قال لهم:

- لا وقت للكلام، غدا سيكون الفعل.

ونزلوا عند الضحى متدثرين بشمس الربيع الدفيئة، وقفوا على أول شارع البحر وراحوا يهتفون:

« قول يا باشا قول يا بيه..الرغيف بربع جنيه»

«معتصمين معتصمين حتى خروج المعتقلين»

«غلُّو السكر غلو الزيت..لما بعنا عفش البيت»

كانوا قلة، فأغلب زملائهم بشركة النصر للغزل والنسيج، رضوا بالمنحة التي أعطاهم إياها رئيس الوزراء، صاحب السيقان الطويلة، ووقعوا تحت تأثير المندسين من عناصر الأمن بينهم، وكانوا بين رغبة وخوف من تهديدات رجال الحزب الحاكم بالمدينة. أما من تظاهروا فقد حاصرتهم قوات الأمن، واعتقلت أغلبهم.

في اليوم التالي تجمع أهلهم عند قسم البندر، مطالبين بالإفراج عنهم، لكن قوات الأمن فرقتهم بعنف، وطاردتهم بناقلات الجند، فشقت صفهم، وصاروا مجموعتين. الأولى تقدمت نحو منطقة «بنزيون» والثانية جرت إلى ميدان الشون. الأولى وهنت وتلاشت، والثانية كبرت، حين تمكن هتافها من هز قلوب الآلاف فانضموا إليها طائعين مع حلول المساء.

وهرعت الهراواى والخوذ وقنابل الدخان إلى الميدان الصغير، وحاولت أن تُسكت الحناجر الهاتفة، بلا جدوى.

على طرف المظاهرة اشتبك ضابط شرطة مع رشدي الزفتاوي. صرخ فيه غاضبًا:

- لِم كلابك وامشي.

رد عليه بثبات:

- هذه مظاهرة سلمية لا تخالف القانون.

فزاد غضبه. نفخ ونفر ثم صرخ من جديد:

- امشي يا ابن العاهرة من هنا.

فار الدم في عروق الزفتاوي، فقال له غاضبًا:

- العاهر هو أنت وحكومتك البايظة.

وجرى الضابط نحوه، وأمسك ياقة قميصه، وهمَّ أن يصفعه على وجهه، لكن الزفتاوي صد كفه، ثم وكزه في بطنه. وما إن سمع الجنود تأوه قائدهم ورأوه وهو ينكب على وجهه، حتى هجموا بكل ما في أيديهم، وهاج كل شيء.

***

ألقى الجنود قنابل عبأت الجو بالدخان فاختنقت الصدور، وذرفت العيون دمعًا غزيرا، ثم فرقع الرصاص المطاطي، فلاذ الناس بالحجارة، وقذفوا ضاربيهم، وراحوا يجرون نحو الشوارع والحارات الجانبية الضيقة، بعد أن أُطفئت أنوار الميدان، وشارع البحر، وعند قسم الشرطة.

وتمكنت رصاصة طائشة من قتل صبي كان يقف في شرفة شقتهم ليتابع ما يجري، فصرخ المتظاهرون:

«إبكي يا أم في كل مكان ... قتلوا الطفل وهو جعان»

وتوالى سقوط الشهداء، فهاج الناس، وألقوا قنابل مولوتوف صنعوها في زمن

يسير على عربات الأمن المركزي، ومدرعات القوات الخاصة، فاحترق بعضها. وأحرق أهالي منطقة المحجوب قسم الشرطة، وخرج سكان منطقتي سوق اللبن والرجبي العشوائيتين، فأحرقوا مدارس ومحلات تجارية وبنوكًا، وأسقط الغاضبون صورة رئيس الجمهورية وداسوها بالأقدام.

عند منتصف الليل كان المئات قد وقعوا في قبضة رجال الأمن، وعلى رأسهم الزفتاوي، فلحق بالسنوسي والفيومي اللذين اعتقلا الليلة الفائتة. وجَّهت النيابة لهم مع مئة وخمسين آخرين، تهما عديدة منها: إغلاق أحد عشر محلا تجاريا، وتحطيم واجهات البنك الأهلي وبنك مصر، وإصابة ستة عشر مجندا وثلاثة ضباط شرطة، وتحطيم وحدة إسعاف، ووحدة مرور.

وبعد أن فكت قوات الأمن حصارها عن المدينة زحف النشطاء نحوها، مهللين بما جرى. وقال أحدهم لحسن عبد الرافع وهم يقفون في ميدان الشون:

- هذه «بروفة» للثورة القادمة.

فمسح الميدان بعينيه ثم التفت إليه:

- الميادين هي الحل.

فقالت صفاء عليوة:

- أهل المحلة أرشدونا إلى الطريق.

دلفوا إلى شارع كمال متولي؛ ليزوروا والد الصبي الذي توفي، وقرأوا على مقهى قريب من البيت ديوان «مدبوح يا طير» الذي أهداه مؤلفه إلى الشهيد الصغير. وطالعوا صورة من تقرير الطب الشرعي الذي جاء فيه: «الإصابة تمت بمقذوف ناري من النوع الرصاصي غير المغلف يتعذر فنيا تحديد طرازه والسلاح المطلق منه نظرا لتطور كل من المقذوفين بشدة لدرجة التفلطح والانضغاط». وطالعوا كذلك شهادة من نيابة شرق طنطا الكلية تقيد الحادث ضد مجهول، وتكلف الشرطة بموالاة البحث والتحري لمعرفة الفاعل، وإعلان الأمر للمدعي بالحق المدني.

والد الشهيد قال لحسن:

- أعرف قاتل ابني.

- أبلِغ عنه.

- أبلغت ولم يلتفت إليَّ أحد.

ثم يضرب كفا بكف ويقول:

- واحد من جنود الأمن المركزي رأى النقيب وهو يطلق الرصاص عليه من مسافة خمسين مترا.

- وهل سيشهد ضد قائده؟

- الجندي أبدى استعداده، لكن في القسم لم يحركوا البلاغ.

- روح النيابة.

- قيدت الحادث ضد مجهول، وتريد دليلا قويا حتى تفتح القضية.

- وشهادة الجندي.

- لم يذهب معي.

كانت هذه بداية صغيرة لما سيأتي بعد ثلاث سنين كبيرا وطاغيا، حين يجد المستشار عادل عبد الحكم كل الأدلة ناقصة والمعلومات غامضة ومتضاربة، وتطارده وجوه الشهداء في الليل والنهار. يضع يديه على رأسه وينفخ ويقول:

- العملية فاسدة منذ الأيام الدامية بالمحلة، واستشهاد حسن عبد الرافع ليس آخرها، لكنه أفسدها حتى الآن.

***

وفي سجن الفيوم كان هناك متسع أمام رشدي الزفتاوي ليحكي لرفاق العنبر عن مهارته في صناعة النسيج. ينفخ دخان سيجارته نحو الفتحة التي يتدفق منها هواء شحيح إلى هذا المكان المظلم الرطب، ويقول:

- في المحلة عمال لا مثيل لهم، لكن الفاسدين شردونا ودمرونا.

ويخلع الطرطور الذي يكبسه فوق رأسه في شتاء الثلج. يمسكه بيد ثم يرفعها هي واليد الأخرى، ويرفع معهما رأسه إلى قلب السماء البعيد، ويبكي قائلا:

- اللهم أرني فيهم يوما أسود كيوم عاد وثمود.

يضحك سالم الرويشد عليه ويقول له:

- هل تعتقد أنك الشيخ الشعراوي، وأن الله سيستجيب لك؟

فينظر إليه، وينهره:

- اسكت يا بدوي يا غشيم، ربك رب قلوب.

ويحكي لهم سالم ما يلاقونه هناك بين الرمل والحصباء والصخر من عنت قوات الأمن. ثم يجلس بينهم لينشدهم من قصائد عنيز أبو سالم التي يحفظها عن ظهر قلب، ويجد فيها السلوى. ينشد وكأنه يحدو فيثير شجونهم:

«ياونة ونيتها عقب نيمة
والعين تنوش من النوم تنويش
ياعشيش لك عندي وصاة مقيمة
وصاة اللي جرب المر يا عشـيش
يا عشيش لا تاكل عقـاب الوليمة
ولا تمثل للرجال الدراويش
وخلك صبور وخل نفسك عزيمة
وأرضى بكومك لو عطوك الكراكيش

ترى أبوك صبح في بلاد الظليمة
واصفر لونه زي ذهاب الخراطيش
عقب المعزة والثياب الدسيمة
ورص الزبيديات جنب المهابيش
صرنا هفايا مالنا ذات قيمة
وبس ليش يا الدنيا عملت كذا ليش
وعسى معشية المقاوي سليمة
اللى مضى على رقمها قايد الجيش»

يسكت فجأة، ويمسح دموعه، بطرف الفانلة، ويقول:

- أنا مبسوط.

- لماذا؟

- قبل أن أجيء إلى هنا كنت أتصور أن أهل سيناء فقط هم من يشربون كأس المر، فاكتشفت أننا جميعًا في الهم سواء.

ويربت الزفتاوي كتفه:

- فرجه قريب.

وحين بلغهم فيضان الشوارع، وانفتحت أسوار السجون، هربا سويًّا، وتركا خطواتهما تحملهما من الرمل إلى الأسفلت حتى وصلت إليهما السيارة التي أرسلها عيسى الرويشد لإنقاذ أخيه. قالوا للزفتاوي قبل أن يتوجهوا إلى سجن وادي النطرون بحثا عن السجين السيناوي الآخر:

- نوصلك إلى بيتك في المحلة؟

فابتسم، وأومأ برأسه رافضا:

- أنزلوني على أول شارع الهرم، سأركب أي مواصلة إلى ميدان التحرير.

63

بدأوا يهتفون هناك في شوارع بعيدة عنه «عيش» دون أن يسمعهم. كان الجوع يقرص بطن حجاج أبو متولي، فراح يملأه بالحكايات. أسند رأسه إلى الحائط، وتاه في مسارات الزمن القديم؛ ليتذكر فم أبيه وهو يقص على مسامعه بعض ما كان يفعله كي يقتل الجوع، ويمنع نفسه من سؤال الناس. كان يصب الشاي من براد صدئ في كوب زجاجي مشدوخ من أعلاه، حين قال له:

ـ كنت أجيء بحجر كبير من على رأس الغيط، وأحمله معي إلى البيت، أربطه على بطني، بعد أن أطرد أمك إلى بيت أبيها، بأي حجة، حتى تجد ما تأكله بعيدًا عني.

وتدمع عيناه، ويعيد دفس البراد في النار:

ـ لم يكن أحد يسأل عن حالي، ولم يكن عند أي منهم ما يفيض عن حاجته حتى يعطيه لي.

ها هو جائع، وزوجته التي ترقد إلى جانبه جائعة وتعطي نهدا ضامرا لابنه الذي ولد قبل سنتين، ليس لها بيت آخر في هذه المدينة الكبيرة، يمكن أن يتذرع بأي شيء ويطردها إليه. اصطحبها معه من منفلوط بعد أن استأجر غرفة فوق سطوح أحد الأبنية المتهالكة في حي «ساقية مكي» بالجيزة، وأنجبا هنا ابنهما، وامتلأ بطنها بضيف جديد سيحل عليهما بعد شهور قليلة.

ضاق الرزق، بعامل تراحيل كان يعيش يوما بيوم، ليس لديه مدخرات في بنك، بل لم يدخل بنكا في حياته، ولا يوجد شيء تحت البلاطة. كثيرون ذهبوا إلى أمام مجلسي الشعب والوزراء للاحتجاج. كانوا موظفين يريدون زيادة في رواتبهم، وشبابا يعملون بعقود مؤقتة يسعون إلى التثبيت، وعمالًا بشركات تم خصخصتها، وشردوهم في الشوارع، أو لا يزالون على رأس العمل ويكافحون من أجل تحسين أجورهم. أما أمثاله من عمال اليومية، فلم يشعر بهم أحد.

مع انطلاق الغضب كان هو يجلس على قارعة الطريق في مكان تجمع الأنفار على مضض، وإلى جانبه القروانة والمقطف الجلد، لكن أحدا لم يأتِ ليشحنه هو ومن يقدر على الجري نحو العربات ربع النقل التي تقف على مسافة من تجمعهم. يحتاج من يركبها إلى عدد محدود منهم، ومن تساعده سيقانه يربح، وينتظر البقية عربة جديدة، أو يظلون في مكانهم حتى تقسم الشمس السماء فينفضون التراب العالق بجلابيبهم، وينصرفون إلى مآويهم الضيقة، بنفوس مكسورة.

غرباء جاءوا من الصعيد، بعضهم ينام في عمارات تحت الإنشاء بين الإسمنت والزلط والطوب والرمل، وبعضهم استأجر غرفة، وكان هو من بين هؤلاء. لكن الرزق شحَّ، والبيت أصبح خاويا، بلا خبز ولا شاي ولا دخان، ولا حيلة.

عاد إلى المقهى المنزوي في شارع ضيق، لا يعرف اسمه، إنما يقول لكل من يسأله عن عنوانه:

- خلف وابور الطحين.

اختار هذا المكان أملا في أن يلتحق بالعمل الدائم في المطحن يوما ما. لكن الأيام تمضي ولا مجيب لآماله.

في اليوم الأول لمجئ زوجته، جذبها من يدها على طرف السطح، وغمس يده في الفراغ، وقال لها:

- شايفة هذا المبنى.

- ما له؟

- مطحن، نفسي في يوم اشتغل فيه.

- إن شاء الله ربنا سيرحمك من شغل الزلط والطوب.

***

من تلفزيون نصف عمر، تسكب فيه الأقمار الصناعية بعض هداياها عن طريق وصلة يدفع مقابلها عشرين جنيها شهريًّا، اقتحمت أذنه كلمة «عيش» التي يصرخ بها المتظاهرون. اقترب من زوجته وقال لها:

- فيه ناس حاسة بنا.

نظرت إليه صامته، فواصل:

- الخير لم يمت في هذه الدنيا.

بعد أيام عرف من الشاشة ذاتها أن جهاز الأمن انكسر، وأن هجمات تُشن الآن على محلات كبرى في القاهرة. سرقوا «كارفور». حملوا بضائعه في شاحنات. وهناك من خطف أجهزة كهربائية. الضعفاء خرجوا بأكياس أرز وعلب سمن وزجاجات زيت. هجموا على «أركاديا مول»، واستولوا على ما فيه من بضائع وأحرقوه.

كان بعض شباب الثورة يصرخون ، وكان يسمعهم:

- هذه سرقات مدبرة. النظام أطلق أرباب السوابق لارتكاب هذه الأعمال الإجرامية حتى يشوِّه وجه الثورة الطاهر الناصع.

بالنسبة له، لا يهمه من أطلق هؤلاء السُّراق؟ فالمهم أن هناك سرقات الآن. تذكر جيدًا ما كان يسمعه من شيخ الجامع في قريته: «عجبت لامرئ لا يجد قوت يومه ولا يخرج على الناس شاهرا سيفه».

يحفظ هذه الجملة كما هي، من كثرة حبه فيها، لكنه لا يعرف أصلها ولا فصلها، وما يعنيه أنها قيلت من على منبر المسجد. يومها طلب من الشيخ أن يكررها له، ويفسرها. وكان كلما التقاه في الصلاة أو في الشارع، يطلب منه أن يقولها له. وهكذا، حتى رسخت في رأسه.

هل يجري إلى كارفور؟ لا يعرف أين هو من الأساس؟ ولا أركاديا هذا؟ فتموينه يشتريه من محل بقالة صغير على ناصية الشارع. لكنه يعرف المطحن. لو تمكن من التسلل إلى داخله، فبوسعه أن يحمل جوالين من الدقيق أو القمح على ظهره. هذا الظهر الذي طالما كان صلبا متعافيا تحت شكائر الأسمنت، ومقاطف الزلط، وأكياس الرمل، وصفوف الطوب الأحمر التي تصعد إلى الأدوار العليا.

لو يعرف من اخترع الأوناش لقتله. بعد أن أتوا بها كالزرافات المتوحشة أمام الأبنية لم يعد لأمثاله مكان لرزق وفير. لو بوسعه الآن أن يسرق وِنشًا لذهبت مشاكله إلى غير رجعة. لكنه لا يعرف أين تباع هذه الأوناش الرهيبة، التي لا قلب لها ولا ضمير؟

لا توجد فرصة سوى المطحن. وعليه ألا يضيع وقتا في التفكير. هو يعرف دهاليزه، فطالما مر بها وهو ذاهب ليسأل عن الطلب الذي قدمه من أجل الحصول على شغل. يحفظ المكان عن ظهر قلب، مثلما يحفظ الحكمة السابغة التي قالها له شيخ الجامع، فأعجبته.

دفس يده في الدولاب وأخرج الطرطور الذي يكبسه برأسه في الشتاء فيقيه قليلًا من البرد. كان للطرطور الذي اصطحبه معه من البلد حزام يتدلَّى ويلف العنق، ويستقر أسفل الذقن. وضعه على رأسه، وارتدى لبسا خفيفا، حتى لا يثقل جسده، ووضع في جيبه حبل الكتان الذي يحمل به الطوب على ظهره. نزل من غرفته المعلقة في وجه الريح، بعد أن قال لزوجته:

- ساعة زمن وأرجع.

فضربت علي قلبها:

- الدنيا مقلوبة.

فمد يده حتى لمس خدها الضامر وابتسم:

- ربك حليم ستار.

***

سار في الشارع منشغلا بما عقد العزم على فعله. أطال النظر في محلات البقالة، فوجد أصحابها واقفين داخلها بعيون يقظة. الحلاق أيضًا يمسك الموسى، ويجلس أمام درج النقود. المرأة العجوز التي تبيع الخضار والفاكهة في دكانها الضيق يقف معها حفيدها صاحب أعرض كتفين في الحي. لم يجد أمامه سوى أن يذهب في الطريق الذي حدده من قبل، وهو المطحن.

يعرف مكان المكاتب، وهذه لا يعوزها الآن، بعد أن وقف أمامها ذليلا في أيام كثيرة، يعاني من صهد الشمس أو برد الريح. شونة الغلال هناك في الجانب الخلفي هي ومخزن الدقيق. وعليه أن يختار بينهما. الدقيق سيعفر ملابسه، ويضع في يد من يمسك به دليلا دامغا على سرقته. أما الغلة فلن تترك شيئًا، إن شعر بأن أحدا يلاحقه، سيلقي الجوال ويهرب، ووقتها ليس بوسعهم أن

يدَّعوا أنه قد تسلل إلى المطحن. وإن تمكن من العودة سالما، سيأخذ الجوال إلى علاف بالجيزة، يعرفه جيدًا، ليبيعه ويشتري طعامًا.

كان الليل قد رمى رداءه الداكن على السور الواطي الذي يطوق المطحن، وبعض الأشجار المتناثرة داخله، فبدا منظره مخيفا. لكن الجائع لا يجب أن يخاف من أحد. زوجته لم تكن قد تناولت طعامًا منذ الصباح، لكنها كعادتها راضية. هو مستعد أن يدفع حياته ثمنا لحفنة دقيق تأكلها امرأة يهواها. دومًا يطيل النظر في عينيها ويقول لها: «الكتف ده زاد، والكتف دا ميه يا غالية».

من الخلف وضع قدميه على جذع الشجرة العجوز الواقفة كعلامة استفهام وتحتها كومة من القمامة، ثم شب فوق السور، ونطَّ فأصبح في الداخل، وراح يمشي على أطراف أصابعه. كان الحراس ملتفين هناك حول شاشة تنبع من ميدان التحرير، انعكست الألوان على وجوههم، فأعمت أعينهم قليلًا، وصمَّت آذانهم قليلًا أيضًا.

كل شيء كان مفتوحا أمامه، يدعوه ألى أن يتقدم. حتى باب الشونة كان مواربا. تسلل إليه، وعس بيده على الأجولة، حتى استملح واحدا منها، رفعه فوق ظهره، ومضى بخطوات حذرة حتى وصل إلى السور. وضع الجوال على الأرض وربطه جيدًا من أجنابه الأربعة، ثم رمى الحبل إلى الخارج. قفز ولفه على جذع الشجرة، وراح يسحب الجوال حتى قربه، ثم نط إلى الداخل مرة أخرى، وأزاحه حتى حطه على حافة السور. وهو يستعد لسحب الجوال من الخارج، تناهى إلى سمعه قول أحد الحراس:

- الشرطة في خبر كان، ويطلبون من الناس عمل لجان شعبية لحماية بيوتهم.

هبط، ووقف خارج السور، سند الجوال على جذر الشجرة، ودحرجه على مهل حتى استقر على ظهره. مضى في طريقه بحذر وخفة. بعد ثلاثين مترا سمع أصواتا متداخلة، رفع هامته فوجد شخصا يخرج بعيدًا عن لجة الضياء التي تنسكب من عمود الإنارة، يدفن بوزه في عمق الليل، ثم أخذ يجري نحوه، وخلفه راح يجري آخرون. أنزل الجوال من فوق ظهره، وهمَّ بالفرار، لكنهم لحقوا به وأمسكوه.

صرخ في فزع:

- من أنتم؟

- لجنة شعبية.

- أنعِم وأكرم.

ومد أحدهم يده ونزع الطرطور من فوق رأسه ووجهه، ثم قال:

- حجاج أبو متولي.

- أتعرفه؟

- فواعلي ساكن في حارتنا من شهرين.
صوب أحدهم نور الكشاف إلى الجوال، وقال له في غيظ:
- أنت حرامي.
- لا. لا. أنا شاريه.
- شاري قمح..
- عاوز أبيع بليلة.
- لكن هذا الجوال من قمح المطحن.
- لا.
- لا تكذب، خاتم المطحن مطبوع بالخط العريض على الجوال يا أعمى.
طفرت الدموع من عينيه، وقال لهم:
- من أيام لم يدخل بطني زاد، وامرأتي جوعانة.
- تقوم تسرق.
وتذكر العبارة التي قالها له شيخ القرية:
- «عجبت لامرئ لا يجد قوت يومه ولا يخرج على الناس شاهرا سيفه».
فما إن سمعها كبيرهم، حتى هز رأسه، وقال:
- خذوا الجوال رجعوه المطحن، واتركوه لحاله.
ثم مد يده في جيب قميصه، وأخرج خمسين جنيها، دفعها نحوه:
- خذ هات أكل لك ولزوجتك، وعدني ألا تفعل هذا مرة أخرى.
سحت الدموع على خديه، ثم ارتفع نشيجه:
- هذه أول مرة في حياتي.
فقال كبيرهم:
- خلاص يا بني، ربك حليم ستار.
رفع وجهه إليه:
- آخذ الفلوس، لكن على سبيل السلف.
- خلاص، سلف.
- اكتب لي عنوان حضرتك، ولما ربك يرزق أرجع لك فلوسك، وجميلك على رأسي.

مضى منكسرا إلى محل «الكشري» فاشترى علبتين كبيرتين، وخمس سجائر فرط، ونصف كيلو سكر وباكو شاي صغير.

في اليوم الثالث كانت النقود قد نفدت، وعاد الجوع يقرص بطنه، لا يلهيه عنه إلا التلفزيون الذي يسكنه الميدان الغاضب. وهو يمعن النظر في كل شيء

أمامه، وينصت جيدًا إلى ما يقال، سمع أحد رجال النظام يصرخ على القناة الحكومية:

- كل عميل في الميدان بيقبض في اليوم مئة دولار ووجبة كنتاكي.

نظر إلى زوجته، بعيون تطفح بالدهشة والفرح، وقال لها:

- قومي.
- إلي أين؟
- ميدان التحرير طبعًا.

64

كانت الحيرة تنهش روح الدكتور عصام عبد القادر، ويشعر أن جمرات صغيرة تتدحرج في أحشائه. يخرج من المدرسة ويهيم على وجهه في شوارع حي عين شمس الشرقية. يمشي حتى تكل قدماه، فيعود إلى غرفته، الثالثة في شقة ضيقة يتشارك فيها مع ثلاثة من الموظفين في معرض للملابس الجاهزة في منطقة النعام. يتناول غداءه مما أحضره معه على عجل، أو ذلك الذي طبخه الذي عليه الدور من قاطني الشقة.

المدرسة كائنة في شارع أحمد عصمت، يخرج منها منكسرا كل يوم. ورغم أن سكنه على بعد ثلاثمئة متر منها فقط، إلا أنه يسير حتى محطة مترو عين شمس، يعبرها إلى الجزء الغربي من الحي، ويدور بين البيوت الخفيضة. أحيانًا يسير في الاتجاه المعاكس، فيصل إلى شارع جسر السويس، يقطعه صوب الجنوب حتى يجد نفسه في قلب ميدان روكسي بين البيوت الغزيرة التي أناخ الزمن على بعض سكانها، وانفتحت أمام بعضهم أبواب جديدة للعيش الرغيد. يتأمل الناس في الحالين، يصبِّر نفسه بالحي الأول، ويمنيها بالثاني، وهكذا دون أن تبدو نهاية لما يفعله.

رفض إعطاء دروس خصوصية، وقال للتلاميذ:

- ليس لديَّ وقت.

وشاع في المدرسة أنه يقضي وقته في اختراع أشياء كثيرة. سأله زملاؤه، فسكت. ألحوا في الأسئلة، فجاءهم ذات يوم بأوراق كبيرة فردها أمامهم. حملقوا في رسوم هندسية معقدة. بعضهم لاذ بالصمت حتى لا يظهر جهله. آخرون تساءلوا عن أدق التفاصيل، فراح يشرح لهم. وحين انتهى قال له أحدهم:

- مخترع كبير مثلك يدفن نفسه في مدرسة إعدادية.

نظر إليه مغتاظا:

- أكل عيش.

ماذا عساه أن يفعل حتى يجد مَن يَقدِّره في هذا البلد؟ قاتل حتى حصل على الدكتوراه في الفيزياء من كلية العلوم، جامعة القاهرة، لكنه لا يزال عاطلا عن العمل. قدَّم أوراقه في المركز القومي للبحوث، ولم يُجبه أحد إلى الآن. انتظر بلهفة أي إعلان عن تخصص «الفيزياء النووية» في الجامعات الحكومية بلا جدوى. جال على الجامعات الخاصة لكنها كانت تفضل كوادر نظيرتها الحكومية، بدعوى أنهم يمتلكون خبرة في التدريس. كتب أبحاثا ونشرها في مجلات مهمة خارج مصر، لكنها لم تلفت انتباه أحد من بني وطنه. فعل ما في وسعه حتى أعيته الحيل، فلاذ بالصبر والصلاة والمشي والتأمل ولم يفقد الأمل.

لم يجد عملا سوى مدرس علوم في هذه المدرسة، التي يموت بين جدرانها

كل يوم، ولا يواسيه سوى إيمانه بأن المعلم رسول، وبعض التلاميذ الذين يحبونه، وسارعوا في تنظيم حفلة له بعد حصوله على الدكتوراه، وينادونه بهذا اللقب العلمي الذي يستخسره فيه بعض زملائه.

أحدهم قال له ذات يوم:

- كيف الأحوال يا حاج عصام؟

- حاج!!!

- وهل تكره أن تحج بيت الله؟

- وهل الحجة تمنح صاحبها لقبا أم أن هذا أمر بين العبد وربه؟

- لا تفلسف كل شيء.

- أنزل الناس منازلهم، هكذا يطلب الدين.

- أنت مغرور.

- وأنت حاقد.

- حاقد على ماذا؟.. أنت مجرد مدرس مثلي، بل أنا أقدم منك هنا.

- مستقبلي أمامي، أما أنت فتلك نهايتك.

- واهم، ستظل هكذا حتى يبيض شعرك، وتسقط أسنانك، وتمشي على عُكَّازين.

- اخرس.

- احترم نفسك، حتى لا أجعلك تندم.

- مثلك لا يحرك لي شعرة من رأسي.

وهنا تقدم نحوه وغمزه في ذقنه بقوة وقسوة وغلٍّ، فما كان من الدكتور عصام سوى أن لكمه في أنفه، فسال الدم على صدره غزيرا. بعدها تم فصله من المدرسة، وخرج إلى الشارع كعادته يمشي الهوينى، ويتأمل كل شيء حوله شاردا فيه، وساخرا منه.

كان يقول لنفسه كثيرا، وهو ينظر إلى الناس المنكبين على وجوههم، وهم يسرعون إلى منابع رزقهم الشحيح:

- هل سيغضب هؤلاء ذات يوم؟

هو السؤال الذي كان يدور في أذهان كثيرين مثله، لكن أحدا منهم لا يعرف الآخر، لم يره أبدًا، ولا يثق في أنه قد يكون يوما إلى جواره وهو يصرخ في الشوارع المفتوحة على الأسى، مطالبا بأن يقف الهرم على قاعدته لا على رأسه.

***

لم يدرِ عصام شيئًا عن الدعوات التي تتناسل على الشبكة العنكبوتية من

أجل الخروج ضد الظلم. لديه كومبيوتر صغير سجل عليه اختراعاته، وكتب أبحاثه، لكن اهتمامه ينصب أساسا على «البرمجة» لا على شبكات التواصل الاجتماعي. ولذا لم يكن له حساب على «فيس بوك» ولا «تويتر»، إنما مجرد بريد إلكتروني، يراسل من خلاله جامعات ومراكز أبحاث أجنبية. ويذهب مرة واحدة كل أسبوع إلى «كافيه نت» لمتابعة حصاد ما زرع، لكن الريح ظلت دومًا تكنس بذوره.

مضى على فصله من المدرسة أسبوع واحد، استغرقه في البحث عن عمل بمدرسة أخرى، لكنه يعود نهاية كل يوم صفر اليدين. في اليوم الثامن صلى الجمعة، وخرج بفم غارق في التسابيح. وقف كعادته على الجانب الآخر من الشارع في وجه المسجد يتأمل وجوه المصلين، ليسأل نفسه السؤال الذي يحيره دومًا:

- هل حقًّا يعرف هؤلاء جوهر الدين؟ أم حولوه إلى قشور وطقوس عابرة؟

فجأة ظهر شاب نحيف في أوائل العشرينيات من عمره، وراح يهتف وحده:

«حسني مبارك باااااااااااطل»

«الشعب يريد إسقاط النظام»

التفت الناس إليه، اقترب منه ثلاثة شبان وشاركوه الهتاف. جاء رجل مسن من الطرف الآخر وانضم إليهم. خرجت فتاة مسرعة من بين المصليات في الجانب الشرقي للمسجد، ووقفت إلى جانبهم. تأملتهم برهة، ثم انطلق صوتها الرخيم عاليا. رجل في منتصف العمر كان يمسك طفله الصغير، فحمله على كتفيه ووقف معهم، وراح الطفل يردد الهتاف. تأمل الدكتور عصام المشهد جيدًا، ثم جرى إليهم، وجلس أمام الشاب النحيف، ورفعه على كتفيه، وسار به قليلًا، فتبعهما بعض الخارجين من المسجد. وكلما تقدموا في الشارع كان الناس يهطلون عليهم من الحارات، حتى وصلوا إلى شارع جسر السويس آلافا مؤلفة، وزحفوا نحو ميدان التحرير.

المسافة من هناك إلى الميدان طويلة. خمسة عشر كيلو مترا في الأقل، لكنهم لم يوقفوا الزحف. أكثرهم سعادة هو عصام، الذي اعتاد المشي والتسكع. اليوم يمشي لكن في الاتجاه السليم. هكذا شعر وهو يملأ عينيه من الحشود الزاحفة، والجموع الهاتفة، والطرق التي تنفتح أمامهم بالكفاح. تأتي بين حين وآخر مجموعة من جنود الأمن المركزي، يعترضونهم بالهراوى والدروع، لكنهم ينكسرون فيلجأون إلى القنابل المسيلة للدموع. يتوقف الزحف قليلًا، ثم يلتئم ويتواصل فيهرب الجنود، ويتسع الطريق إلى الميدان، حتى وصلوه مع أول الليل.

في الميدان وجد الدكتور عصام نفسه. لم يشارك في مظاهرة من قبل، وعلاقته بالسياسة باهتة، وما بينه وبين رجالها أوهن من بيت العنكبوت. تجوَّل

بين الناس، وهو يرمي أذنه ليسمع شكاواهم. مقهورون ومحسورون ومحاصرون ومداسون بالنعال. حكايات عن كائنات دقيقة ترعى في أجسادهم، وبيوت خاوية، وشباب يروض الوقت على المقاهي، وموظفون مغبونون من تجاهل دورهم في الترقية. لكن الحديث الأكبر، الذي غلب صوته كل الأصوات، هو ذلك الذي يريد للفرعون أن يترك أمتعته وينصرف، وللعدل أن يسود، وللمجد أن يأتي.

كاد أن يحضن رجلا في أواخر عمره وقف عند الكعكة الحجرية يقول للشباب:

- لا مستقبل لبلد يُهان فيه العلم والعلماء.

وفي هذه الساحة الوسيعة عرف عصام أن المظلومين كثر. قابل زملاء مثله، يعلقون شهاداتهم العليا جدا على الجدران، ويهيمون على وجوههم في الشوارع، أو يصارعون النرد على المقهى حتى تمر أيامهم بأي طريقة.

افترش الأرض، وجلس في مواجهة تمثال عمر مكرم، ينتفض ويهتف ويدور مع الدائرين، ثم يتعب فيجلس إلى جانب نصبة شاي سعد الزايط. في يوم سمع أكمل يقول:

- لازم نعمل دورة مياه.

ثم أشار بيده إلى اليمين قليلًا:

- دورة مياه المسجد لم تعد قادرة على استيعاب كل هذا، وتبول الرجال في عربات الأمن المركزي المقلوبة هناك لم يعد حلا، والروائح بشعة، وبوابو العمارات القريبة من الميدان تعبوا من الثائرات الذاهبات إلى حمَّامات البيوت.

نادى الدكتور عصام عليه، فجاء إليه، قال له دون مقدمات:

- دورة مياه هنا في الميدان، تحتاج إلى عملية حفر وفك وتركيب ولحام.

فهز أكمل رأسه:

- مفهوم.

- أنا عصام، دكتوراه في الفيزياء النووية.

- أهلا وسهلا.

- عاوز أشارك في هذا المشروع.

ابتسم له:

- تعالَ معي.

وقف الدكتور عصام عبد القادر في قلب الميدان، لف عنقه يمينا ويسارا، وقال:

- عاوزين سبَّاك شاطر، وقراونجي شديد.

فجرى حجاج أبو متولي نحوه متهللا:

- القراونجي موجود يا بيه.

65

دخلوا إلى الميدان مع حلول المساء، منتظمين كأنهم بنيان مرصوص. على بابه وقفوا قليلًا وقرعوا طبلة يسمونها «التامبور»، ثم أنشدوا في صوت عال هز المكان:

«دايما معاه.. روحنا فداه

وفي أي مكان بنروح وراه

من تالتة شمال بنهز جبال

وبأعلى صوت نشجع الأبطال

فريق كبير.. فريق عظيم

أديلوا عمري وبرضوا قليل

أوووه..أوووه... أوووه»

أحدهم، وكان نحيلا وطويلًا، وذا عينين غائرتين. وقف وصرخ:

- يا كابو.[5]

فالتفت إليه شاب سمين، مهيب الطلعة، وقال:

- نعم.

- عاوزين نفرد الباشي والهوكز.[6]

أومأ برأسه موافقا، فرأى كل من في الميدان أعلاما ولافتات صغيرة وكبيرة، تشير كلها إلى أن «ألتراس» النادي الأهلي قد وصل ميدان التحرير، للانضمام إلى المتظاهرين.

فجأة صرخ أحدهم:

- البيروشو.

واكتست سماء المكان برداء من نار، تصنعه شماريخ بأيدي كثيرين منهم، وسط دق صاخب للطبل، وتمايل بالأجساد وصدح، جعل «الإنترو» الذي أعدوه لافتا، وبدوا راضين أكثر مما كان عليه حالهم وهم هناك بين المدرجات، ينتظرون دائرة مكتملة ومجسدة فارغة تتقاذفها أقدام من يلهثون وراءها.

كان ثأرهم مع رجال الشرطة، الذين طالما حاصروهم وقهروهم في المدرجات، وأخضعوهم لتفتيش مهين قبل دخولهم إلى الاستاد. مناوشات كثيرة وقعت بين الطرفين، واستقبلت أماكن الحبس والحجز في أقسام الشرطة كثيرين منهم. وحين وجدوا دعوة تتناسل في العالم الافتراضي للاحتجاج يوم عيد الشرطة، قالوا جميعًا: هذا يوم الثأر العظيم.

لم تكن هي المرة الأولى التي خرجوا فيها إلى الشوارع. رآهم الناس يتمايلون

في الساحات والشقوق الوسيعة بين الأبنية عقب المباريات الفاصلة. ما إن ينفخ الحكم في صفارة النهاية حتى يتجمعوا ويخرجوا براياتهم وطبولهم وأناشيدهم ورقصاتهم. كل العالم لديهم هو المستطيل الأخضر، وكل البشر الناجحين والمهمين فقط هم فريق الكرة. هذه هي أسوار الدنيا، وحدود الولاء.

يقف قائدهم في المدرجات قبيل المباراة ويذكرهم بمبادئهم: لا تجلسوا أثناء المباراة أبدًا. لا تغيبوا عن أي مباراة مهما كانت الصعوبات. لا تتركوا مكاننا هنا بعيدًا عن الجماهير العادية، ولتملأوا كرفوا سود وكرفوا نورد.[(7)] لا تتوقفوا عن التشجيع والغناء طوال المباراة أيًّا كانت النتيجة.

قبل سنة تمامًا من انطلاق الغضب، كانوا هنا في ميدان التحرير، يحتفلون بفوز المنتخب الوطني على نظيره الجزائري في كأس الأمم الأفريقية. ملأوا المكان نارا مضيئة، وصخبا هز الشرفات ودك الأسفلت. داروا حول الكعكة الحجرية في دوائر لا تكاد تنتهي، وهم يصرخون: مصر.. مصر. كل منهم كان يشعر وقتها أن الدنيا تنام في يده مستكينة. وحين تراخت السيقان وكلَّت الحناجر، انصرفوا في الاتجاهات الأربعة صامتين، واستيقظوا في اليوم التالي يلملمون بقايا شحيحة لفرحة الليل الذي ولي بلا رجعة.

يومها كان حسن عبد الرافع عائدا من وقفة احتجاجية على سلم نقابة الصحفيين. كان واحدا من تسعين شخصا، ثبتوا أقدامهم على الدرجات الرخامية السوداء، ورفعوا رؤوسهم إلى السماء، وهتفوا ضد الطاغية، وأمامهم أضعافهم من قوات الأمن المركزي، يصنعون سواتر من لحم حاصرتهم، ومنعت انضمام العشرات إليهم.

مشى على قدميه في شارع «شمبليون»، وهو يشعر بالانكسار. قال لرفاقه:

- حفظنا وجوه بعض، نصرخ ولا أحد يسمعنا.

فقال جمال أبو العزم:

- هناك من فضلوا الفرجة على المباراة، وكان علينا نحن أن ننظم الاحتجاج في وقت آخر.

نفخ حسن متضجرا:

- إلى متى يظل الناس سادرين في هذه الملهاة؟

ولم تكن المرة الأولى التي يطرح فيها هذا السؤال. لكنها المرة الأولى التي لم يتلق فيها إجابة من أحد. ساروا تائهين. وتذكر حسن لاعب الكرة الذي رآه ذات مرة على كوبري قصر النيل يكاد أن يحمله العابرون على أعناقهم وتتلهف البنات عليه، فقال:

- أخذوا الناس إلى كل ما يعمي عيونهم عن حقوقهم المهضومة، وأحلامهم المؤجلة.

ولما وصلوا إلى مدخل ميدان التحرير عند التقاء شارعي «شمبليون» و«قصر النيل»، سمعوا هديرا يتدفق آتيا من عمق الجنوب. رموا أعناقهم فرأوا أعمدة نار تمزع الفضاء، وبانت تحتها أعلام ترفرف، ورؤوس تعلو وتنخفض بين هالات النور التي تفيض من الأعمدة الكهربائية أو الشماريخ.

جروا نحو الجوقة الكبيرة، ووقفوا على حافتها يبتسمون. وقال حسن عبد الرافع:

- لو جاء ربع هؤلاء معنا في المظاهرة، وصمدنا ساعات سنسقط النظام.

فنظر إليه أبو العزم، ومصمص شفتيه:

- لا تستعجل، ولا تيأس، فالمخاض طويل.

مد حسن يده وأمسك كتفه، وداس عليها، وقال:

- أود لو أمتلك نصف صلابتك.

***

بعد سنة رأى حسن كل شيء أمامه كما تمناه. جاء هؤلاء المهووسون بالكرة ليلقوا بأجسادهم في طريق لم يألفوه، ولم يدر بخلدهم أبدًا أنهم سيسيرون فيه.

وبعد شهور قليلة، هتفوا في الميدان بحناجر منتظمة وكأنهم كورال ينشد أغنية وطنية طازجة، بسيطة بلا إدعاء:

«قلنا زمان للمستبد
الحرية جاية لا بد
كانت مكتوبة ليبرتي
يا حكومه بكره هتعرفي
بإيدين الشعب هتنضفي
والآية الليلة مقلوبة
قالوا الشغب في دمنا!
وإزاي بنطلب حقنا؟
يا نظام غبي.. إفهم بقى مطلبــي !
حرية.. حرية.. حرية !
من الموت خلاص مبقتش أخاف
وسط إرهابك قلبي شاف
الشمس هتطلع من جديــد
اسرق أمان خرب بيوت

ده كان زمان وقت السكوت
الحلم خلاص مش بعيد
قال النظام إيه العمل!
كده النهاية بتكتمل؟
افهم بقى.. ارحل بقى.. سقط الطاغوت !
حرية.. حرية.. حرية.. حرية»

وانداحت أناشيدهم في الشوارع، ورددها معهم كثيرون، ووقفوا مندهشين من شباب حوَّل الساحات المفتوحة إلى استادات للنضال العفي، وحولوا الاستادات حين ذهبوا إليها فيما بعد لمتابعة اللعب إلى منابر تهتف ضد القبح والقهر، لكنهم أغلقوا الأبواب على أنفسهم، ولم يمدوا أفواههم إلى أي شخص رماه من أرادوا أن يصطادوهم، ويأخذوهم لأنفسهم.

تأملهم الشيخ رأفت مغازي، وابتسم في مكر وقال:

- قوة فائرة تحتاج إلى من يروضها.

وقال له الدكتور عبد البصير مرتضى، وهو يسترجع حكايته معهم لحظة انطلاق الشرارة الأولى:

- لا تحاول.

لكنه حاول. نقل الفكرة إلى مكتب الإرشاد، واتفقوا على أن يزرعوا بينهم شبابهم، لكن من أرسلوهم دب في نفوسهم اليأس، وقالوا لعواجيزهم:

- كائنات متمردة لا يمكن ترويضها.

لكن الرجل الكبير قال له:

- لا تكفوا عن المحاولة وكل شخص وله ثمن.

وأمعن الجالسون في المكاتب المكيفة، يهزون أكتافهم المثقلة بالسيوف والنسور، وقالوا: لا بد من جذبهم بعيدًا عن الصخب، وإعادتهم إلى المستطيلات الخضراء، يتابعون الدائرة المكتملة الفارغة التي تجري في اتجاهات عشوائية، ويحملون على أكتافهم، بظهور منتصبة جزلانة، الأجساد التي خلقت كي يتابعوا جريها وقفزها، إنهم لاعبو الكرة محط هوسهم وجنونهم.

لكن ظهورهم انكسرت ذات مساء، بعيدًا عن ميدان التحرير. كانوا يصدحون في المدرجات، دون أن تسكتهم الأهداف التي تنهمر في مرمى فريقهم. وما إن أطلق الحكم صفارته، حتى انفتح باب الجحيم. نار لم تُنر الليل الدامس الذي رقد على جسد الاستاد بعد قطع الكهرباء. أنين وصراخ، وصوت رقاب تُكسر تحت الجدران المصمتة. دم يسيل على النجيل. أظافر تنغرس في الأرض بغية التقدم خطوات نحو الهرب بلا جدوى، فالأبواب موصدة، والموت يفتح فمه الوسيع ويضحك بصوت يرج المكان.

عادت الجثث، فعادت أقدام المكلومين إلى الميادين صارخين، حتى لم يعد الكابتن الكبير يجد من ينتظره على أول الكوبري المؤدي إلى ناديه، يهتف له، ويلتقط معه الصور، ويحمله على الأعناق حتى المستطيل الأخضر.

كان يتابعهم في التلفزيون، ويقول:

- رحم الله أياما أدفع عمري ويعود ولو يوم واحد منها.

وحين رآهم يبتعدون رويدا رويدا عن حسن عبد الرافع ورفاقه، تهللت أساريره، وقال لزملائه من لاعبي الفريق:

- سيعودون لنا قريبا.

فهز زميله رأسه منكرا لكلامه، لكن اللاعب المخضرم واصل:

- كنت أحسب أنهم قد ذهبوا بعيدًا في الطريق الذي أكرهه، لكن ها هم يقفون قبل المنحدر، ويعودون على مهل، وعلينا أن نحتضنهم من جديد؛ ليعود الناس والأفراح إلى ملاعبنا المهجورة.

(5) هو كابتن التشجيع الذي يقود جمهور الألتراس أثناء سير المباراة، وهم يتبعونه ويطيعونه، وهو مثلهم الأعلى.

(6) الباشي هو لافتة يكتب عليها اسم المجموعة، وهي تؤمن بأن تواجدها مرتبط ببقاء هذه اللافتة، فإن سرقت أو فقدت، تشعر المجموعة أن شرفها قد ضاع ووجودها بات مهددا. أما الهوكز فهي الأعلام والرايات كبيرة الحجم.

(7) هو المكان المنحني في مدرجات الاستاد، خلف المرميين، والذي تجلس فيه جماهير الدرجة الثالثة من اليمين واليسار.

كأن عقربا قد لدغه، أو رصاصة طائشة سكنت صدره وهو جالس في دعة وسكون. وقف مكانه. سماعة التليفون في يده. عيناه ذاهبتان إلى الفراغ والدهشة. ساقاه ترتعشان. شفتاه مقددتان، وأوراق صبار انجرحت في حلقه. ودوار راح يزحف على رأسه، فشعر أنه يغيب عن الوعي رويدا رويدا.

وضع السماعة في مكانها، ثم أخذ وجهه بين راحتيه، وأسند كوعه على المكتب، وغاص في تفكير عميق، محاولا أن يجيب على الأسئلة التي استيقظت كالأشواك: لماذا طلب مني هذا؟ هل أستجيب وأخون الأمانة؟ هل أرفض وأكسر أوامره؟ ألا يمكن أن يدوسوني وهم يهربون كالقطعان الهائجة؟ ألا يمكن أن يطلق أحد الضباط النار على رأسي حين أطلب منهم أن يمتثلوا لهذا الأمر الغريب؟

وبينما هو سابح في همومه، رن الهاتف مرة أخرى، وجاءه صوت صارخ:

- ألم يأتكَ أمر بأن تفتح باب السجن؟

- لا زلت أفكر في هذا الأمر الغريب.

- الأوامر تنفذ يا سيادة اللواء، ولا يجلس الناس ليفكروا فيها.

- أنت تطلب مني ما لم يكن في الحسبان.

- هذا بالنسبة لك، أما نحن فالأمر محسوم بالنسبة لنا، وحساباتنا دقيقة.

- لكن..

- لا تُعدْ وتزدْ، نفذ الأمر من دون نقاش.

صمت برهة، استجمع فيها أشتات نفسه، وصرخ:

- لن أنفذ.

- نعم يا أفندم!!!

- كما سمعت، طلبك مرفوض.

وهبد السماعة بقوة، ثم أخرج علبة سجائره، التقط واحدة منها، وأسندها بين طرفي السبابة والوسطى، وأشعلها.

كان كل ما يشغله في هذه اللحظة العصيبة هو كيف يمنع وصول خبر عما يجري خارج هذا السور العالي السميك. منذ ساعة واحدة جمع كل الضباط وصف الضباط وشدد عليهم أن يتصرفوا كأن شيئًا لم يجرِ. وقال لهم في صرامة:

- لو سمع السجناء بالمظاهرات وانكسار الشرطة، سيهجمون علينا ويأكلوننا، ويهربون في كل الاتجاهات.

وانصرفوا واجمين تتخبطهم الحيرة والوجل. ومنذ هذه اللحظة وباب مكتبه مغلق، وشاشة التلفزيون تنقل كل ما يجري، لكنه خفض الصوت حتى أصبح

همسا، لا يكاد أن يصل إلى أذنيه، وأغلق النافذة، وقرأ كل التقارير المؤجلة الموضوعة على مكتبه منذ مدة عن سير الأمور داخل السجن.

فجأة انفتح الباب بلا استئذان، رفع وجهه مندهشا فوجد عقيدًا من أمن دولة، كان يزور السجن من حين إلى آخر، يسأله منفعلا:

- كيف تكسر أوامر قائدك؟

- لأنها خاطئة.

- هل أنت تعرف أكثر منه؟

- كيف تكلمني بهذه اللهجة؟!

- لا تهرب من الإجابة.

- هل مسَّك جنون؟

- المجنون هو مَن يعصي الأوامر.

- أوامر لا يقبلها ضميري.

- لكنها في مصلحة البلد.

- منذ متى كان فتح السجون ليهرب المجرمون منها أمرا في مصلحة البلد؟

- منذ الآن، وعليك أن تعلم هذا.

- هذا خبل.

- أنا من أمن الدولة. ونحن نعرف أكثر، وليس عليك إلا طاعة الأوامر.

- أنا هنا قائد السجن، ولن أسمح بفتحه أمام مجرمين وأرباب سوابق. سيثيرون الفزع في كل مكان بعد انكسار الشرطة أمام غضب الناس.

ضحك العقيد، وتعالت ضحكاته لتصير قهقهة، ارتجَّ لها المكان، ثم ضرب المكتب بيده، فطارت الأوراق يمينا ويسارا:

- يا أفندم، تحدث على قدر معرفتك، هذه سياسات عليا لا تفهم أنت فيها.

- أتسمي الفوضى سياسة؟

- الفوضى ستحدث إن لم تفتح باب السجن.

- لغز هذا أم تخاريف؟

- بل مسألة طبيعية لا يصل إليها عقل أمثالك.

ثم عاد إلى الضحك:

- يا سيدي، المطلوب أن يخرج هؤلاء، قد يسرقون قليلًا، أو يسفكون دم قلة، لكنهم سيحقنون دماء كل الشعب، ويمنعون نهبا وسلبا وخرابا ينتظرنا، إن استمر المخربون في الميادين والشوارع، وأقنعوا الناس بفعلتهم فانضموا إليهم. الجميع سيعرف أن انكسار الشرطة ليس في مصلحتهم، واستمرار المظاهرات سيدمر البلد، ومن هنا يعودون من الشارع إلى بيوتهم، ويلعنهم ذووهم، وبذا

تثبت أركان الحكم، ونحافظ على الدولة من الضياع.

- تفكير لا يخرج إلا من شياطين.

- لا جراحة شافية بلا ألم، والبلد قد يسقط في هاوية ليس لها قرار.

- أسقطه مَن ظلم واستبد وفسد، ولسنا نحن.

- نحن رجاله.

- تحدث عن نفسك فقط.

نفخ العقيد وجزَّ على أسنانه وقال له في قرف:

- افتح السجن، ثم اجلس هنا كما يحلو لك مع الملائكة.

- وإن رفضت.

- لن ترفض.

- هل ستجبرني؟

- طبعًا.

فانتفض اللواء واقفا، وصرخ فيه:

- اخرج بره.

لكنه لم يخرج. ابتسم في غيظ، ثم اكتست ملامحه بغلّ واشمئزاز. ومد يده إلى جيب سترته، وأخرج المسدس، وصوَّبه سريعًا إلى رأس اللواء، وصرخ من جديد.

- ستأمر بفتح السجن وإلا ستموت.

- لن أفعل، مهما كان.

ولم يطق العقيد صبرا أكثر من هذا، فداس على الزناد، واستقرت الرصاصة في قلب اللواء، فخرجت منه آهة عميقة. ومد يده ليمنع الدم، لكن يده ماتت مكانها، وهوي على مكتبه، وغرقت الأوراق في الدم، وسالت على بلاط الحجرة.

نظر العقيد إليه نظرة شاملة، ثم مصمص شفتيه، وأدخل المسدس في جيبه، وخرج، وأغلق باب الحجرة خلفه. وهاتف أحدا وقال له بصوت واضح:

- تمام يا أفندم، اللواء تعيش أنت.

فقال له:

- هات لي العميد على التليفون.

وبعد دقائق كان باب السجن مفتوحا على مصراعيه. الضباط يقفون جنبا إلى جنب، وفي أيديهم مسدساتهم. بعض الصولات والجاويشية وقفوا خلفهم، وبعضهم ذهب وفتح أبواب العنابر والزنازين، وجمعوا السجناء في الفناء، وقالوا لهم:

- من يريد أن يخرج فالباب يفوّت جمل.

نظروا إليه مندهشين. بعضهم تشبث بمكانه غير مصدق ما يسمع. بعضهم تقدم خطوات إلى الأمام ثم وقف متشككا في الأمر. وحده رشدي الزفتاوي قهقه، ثم قال:

- منذ متى كانت الحداية ترمي الكتاكيت؟

اقترب أحد الصولات منه وقال:

- بصراحة البلد قامت فيه ثورة، وصدرت أوامر بالإفراج الجماعي عنكم.

وتقدم ثلاثة ضباط صغار، وصرخوا باتساع حناجرهم:

- من لا يهرب سيُقتل.

فقال أحد السجناء:

- نهرب ولا يزال على بعضنا مدد سجن متبقية.

فقال له مقدم بعد أن ابتسم:

- الثورة قامت والأحكام سقطت.

- معقول؟

- نعم.

ثم أطلقوا رصاصا في الهواء، وأشاروا إلى أبواب السجن المفتوحة، فتسابق السجناء الجنائيون إليها، بينما بقي السجناء السياسيون محبوسين في كل السجون لا يعرفون متى يأتي من ينقذهم؟

ولم يمر سوى نصف ساعة حتى جاءهم الفرج. سيارات دفع رباعي وقفت أمام كل سجن، ونزل منها ملثمون، بعضهم رفع اللثام فجأة فبانت لحاهم منسدلة على الذقون في تحفز، وتنادوا بلهجة غير مصرية. رفعوا رشاشات كانت تستقر في تجاويف الأكتاف وبين الأيدي، مشرعة إلى الأمام، والأصابع على الزناد. ثم فجأة انهمر الرصاص غزيرا في الجهات الأربع.

تقدم بعضهم بحذر وأخرجوا من جيوبهم خرائط كانت مطوية بعناية، فردوها بسرعة، ثم مضوا نحو عنابر يعرفونها جيدًا. وقفوا وأشاروا إلى زملائهم فتقدموا ومعهم الأزاميل والقواديم والمفكات والمرزبات، وراحوا يضربون الباب بقوة حتى انفتح، وخرج من فيه يتمتمون بتسابيح، وصرخ أحدهم حين رأى النور:

- الله أكبر ولله الحمد.

فردد الجميع وراءه، وتسابقوا نحو السيارات المنتظرة، ركبوا بسرعة دون أن يلقوا نظرة على السجن الخاوي وراءهم، ثم انطلقت تزمجر ملفوفة في عجيج هائل.

وفي هذه اللحظة كان السجناء الجنائيون يجرون في كل الاتجاهات، لكن أغلبهم انتظم في التوجه نحو طريق الأوتوستراد. بعضهم كان مذياعه في يده أو جيبه، حين جمعوهم. فراحوا يسمعون أنباءَ عن قيام السجناء بالتمرد، وقتل

الحراس، والهروب في الصحراء، وأنهم يقومون بعمليات سلب ونهب في طريقهم، ويقتلون كل من يعترضهم.

وفتح المذيع الميكرفون أمام المواطنين كما قال، وبدأت الاستغاثات تنهمر كأمطار الشتاء. أغلبها كان من نساء يتحدثن عن سجناء هاربين يقتحمون البيوت، وينهبونها، ويقتلون كل من يتصدى لهم، وبعضهم اغتصب فتيات عذراوات.

كانوا هم تائهين في الصحراء، لا بيوت ولا عذراوات، إنما رمل وحصى وأحجار وعطش، وشكوك في أن أحدا يمكن أن يقف بسيارته ليصطحب معه رجالًا يرتدون البدل الزرقاء. شعورهم مبعثرة ومتهدلة. على وجوههم رهق. وفي عيونهم يسكن الأسى أو تطل الجرائم والانكسارات المتوالية، وسيقانهم يضرب بعضها بعضا بلا هوادة. يسيرون متعبين وحولهم دوائر من غبار، والشمس تنحسر عن رؤوسهم رويدا رويدا، حتى تنزف على الرمل، ثم تسقط وتغيب، فيهجم الليل، ويضيع الطريق من أقدامهم.

ومضوا في هذا التيه ساعات حتى جاء لكل منهم الفرج على طريقته، فتوزعت بهم السبل، كل إلى بيته أو إلى مكمن يختبئ فيه بضعة أيام حتى تنجلي الصورة.

اثنان من السجناء السياسيين ذهبا في طريقين مختلفين عن كل الهاربين، الأول جرى يسابق الريح والزمن إلى ميدان التحرير، وهو رشدي الزفتاوي عامل النسيج، بينما ذهب الثاني إلى مكان فخيم ذي أسوار عالية لم يحلم يوما أن يدخله، ومنه بدأ بعد شهور قليلة رحلة مطاردة الزفتاوي وأمثاله، وتشويه الذين غبَّروا أقدامهم أولا بتراب ميدان التحرير؛ حتى يكونوا نسيا منسيا.

67

شعر أن الأرض تنسحب من تحت قدميه ثم تذوي في الفراغ الهائل. تمايل جسده بشدة، يمينا ويسارا، إلى الأمام والخلف، فارتمى على المقعد المنفوخ العريض، ثم ارتفع نشيجه، وسحت الدموع ساخنة على خديه، وراح يضرب كفا بكف، ويزعق فلا يسمعه أحد في تلك الشقة الفارغة: عليه العوض ومنه العوض.

ظل على حالته تلك ساعات، لا يدري به أحد. أيمكن أن ينتهي كل شيء هكذا في لمح البصر؟ المال والشهرة المنتظرة والنفوذ الذي سيفتح له كل الأبواب التي استغلقت عليه من قبل؟ كان يعتقد أن لحظة قطف الثمار قد حانت لكنها تسربت من بين يديه وضاعت في الريح المسافر إلى حيث لا يعرف.

يا الله. الديون المتراكمة، ومقعد البرلمان الذي انكسرت أرجله الأربعة، والأرض التي بيعت بأبخس الأثمان، والعائلة الممتدة ذات الصيت التي قد تبهت سيرتها وتضعف وقد تستقر في زوايا النسيان، والأيام الحلوة التي قضاها بين الكاميرات والمزارع، والأرض البور التي حصل عليها، ويحلم بأن يحولها إلى جنات، تعوضه عما ضاع تحت أقدام الزمن الخشنة.

فتح النافذة فلسعه برد الشتاء، ورفع يديه إلى السماء، وخاطب ربه باكيا: أنا مخطئ. أنا الخطيئة ذاتها، لكنني لا زلت أطمع في رحمتك، فلا تتركني طريدا، ولا تدعني فردا، وارزقني من حيث لا أحتسب، حتى يصير الحليم حيرانا.

رن الهاتف، وكانت المذيعة البضَّة، أشهر مذيعات القناة الفضائية التي يملكها. كان صوتها متناوما ناعما بقدر ما استطاعت هي أن ترققه، لكنه رد عليها بجلافة لم تستغربها، إلا أنها كانت أشد قسوة من كل المرات السابقة. زفرت، ونفخت بعد أن أنهى المكالمة معها سريعًا، وقالت في نفسها: هكذا الرجال يتهافتون كالذباب حين لا نكون بأيديهم، ثم يرفسون كالحمير إن سمعوا أو رأوا منا ما حلموا به، واعتقدوا يوما أنه صعب المنال.

كانت تريد أن تسأله عن مستقبل القناة بعد تخلي الرئيس عن الحكم. وهي التي تمادت في سبِّ الثورة والثوار، وسبقها هو إلى نعتهم بالعملاء والخونة والمتآمرين، وبرع في الدفاع المستميت عن أسياده الذين عبَّدوا له الطريق إلى البرلمان، وسمحوا له أن يطل على الناس من الشاشة الزرقاء بعد طول غياب.

لا يتذكر في الملمات سوى أمه. كبر وتزوج وأنجب من البنين والبنات. سافر وعاد. وراح يشق طريقه في هدوء نحو الشهرة التي حلم بها، لكنه كان يحتاجها دومًا وكأنه لا يزال ذلك الطفل العنيد الذي يلقم ثدييها في فرح. كلما أظلمت الدنيا في وجهه، يبحث عن صوتها ليجد النور.

رفع سماعة الهاتف التي هبدها قبل قليل في وجه المذيعة الحسناء، فجاءه صوتها الحنون:

- إزيك يا بسطاوي.

- تعبان يا أمي.

- سلامتك يا حبيبي.

- كل شيء ضاع من يدي.

- لا تستعجل، ربك سيفرجها.

- كيف؟

- هل كفرت؟ ربك قادر على كل شيء، وأنا راضية عنك، ودعوت لك كثيرا، وربنا لن يخذلني.

سكت، وهدأ قليلًا، وخبتت أنفاسه المبهورة، ولملم بباطن أصابعه بعض دموعه، وهز رأسه مطيعا حين قالت له:

- تعالَ اقعد لك يومين معي.

هاتف المذيعة الحسناء، وأمرها بما يجب أن تفعله في الأيام المقبلة، قائلا:

- امدحوا الثورة، وهاجموا بشدة النظام البائد.

- لكن هذا متناقض تمامًا مع ما كنا نفعله قبل ساعات.

- اسمعي الكلام، ونفذي، ولا تجادلي، أنا أعرف ما أريد.

- تحت أمرك.

نزل على عجل من شقته. ركب سيارته وانطلق إلى أمه. حين دخل عليها وجدها مبتسمة كعادتها. جلس أمامها وأخذ يديها بين يديه، وقبلهما وبللهما بدموعه. إنها القبلة الوحيدة التي يطبعها على يد أحد بامتنان، وليست تلك الباردة التي يجد نفسه مضطرا أحيانًا أن يطبعها على أيدي بعض أسياده، وهو يضحك، ويضحك. وبعد أن يختلي بنفسه في الحمَّام، يبصق ويبصق، ثم يبكي.

ظل عند أمه أسبوعا كاملا، عصر ذهنه بحثا عن منفذ لكنه لم يجد. أعيته الحيل، ولأول مرة في حياته يشعر أنه جسد كسيح بلا أرجل ولا أجنحة. محطوط على الأرض، عاجز، فاشل، تفوح منه كل الروائح الكريهة التي كان يخبئها تحت الرذاذ الوافر الذي ترشه زجاجات العطر التي اشتراها من باريس.

في عصر اليوم السابع رن الهاتف، رفعه من على المنضدة، فوجد اسم «ممدوح البرماوي» مكتوبا أمامه. تهلل، وكاد أن يرقص. إذًا هم موجودون، يدبرون أمرا. كل ما جرى قد يكون سحابة صيف، أو زوبعة من زوابع الخماسين، سرعان ما تتلاشى في دفقات الريح الطرية النظيفة. لا بد أنه يريد منه شيئًا. سيكلفه بأشياء، كما اعتاد قبل الغضب الكبير. أليس هو رجله؟ ألم يستثنه قبل ذلك من قواعد كثيرة كبَّل بها غيره وقيده من خلاف؟

- أهلا بزعيمنا، ومثلنا الأعلى.

- إزيك يا بسطاوي.

- الحمد لله، أنا بخير طالما سعادتك بخير.

- وجدتك قد اختفيت من على الشاشة فقلقت عليك.

- أعصابي تعبت، فقلت أستريح أسبوعا في البلد.

- لا.. لا. هذا ليس وقت الراحة، بل وقت المواجهة.

- طبعًا، لن نستسلم.

- الرجل الكبير هاتفني من منتجعه، ولا يزال ابنه يحلم بما تمناه.

- لكن هذا صعب جدا.

- صعب، خاصة أن أوهام هذا الولد هي التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه، لكن أوهامه هذه المرة قد تساعدنا نحن في إبعاد الضرر عنا.

- ربنا يحمي سعادتك.

- الحماية تحتاج إلى الأخذ بالأسباب.

- قل لي ما هو مطلوب مني، وأنا تحت أمرك.

- ترجع، وتتحدث عن حق الشعب في مطالبه، لكن هاجم بعض المجموعات الشبابية والإخوان، وساند على قدر استطاعتك من يتولون الحكم الآن.

- طريق وعر.

- لا تقلق، نحن حسبناها جيدًا.

صمت برهة ثم قال:

- القناة غارقة في الديون، واحتمال غلقها وارد.

- سنسدد لك ديونك، وسنمدك بأخبار وتقارير نريدها أن تصل إلى مسامع الناس.

***

دخل مكتبه منتعشا، طلب من الساعي أن يحضر له المذيعة البضة، فجاءته متهللة. وقفت أمامه، ونظرت إلى عينيه، وقالت له:

- يبدو أن هناك أخبارا جيدة.

- كيف عرفت؟

- عيناك تفضحانك.

طلب منها أن تجمع له كل المذيعين والمعدين على وجه العجل، فجاءوا مسرعين. بعضهم توقع أن يرى ستارة النهاية تنزل وفي ركابها كلمات للمواساة، ليس بوسعها أبدًا أن تشفي الجروح الغائرة التي يتركها العوز وانقطاع الرزق.

جلسوا صامتين، فراح هو يتنحنح، ومد يديه إلى رابطة العنق فثبتها في مكانها. نظر يمينا ويسارا، ومسح وجوههم جميعًا في جزء من الثانية، ثم قال:

- استعدوا لمهمة إعلامية مقدسة، سنساعد بها في إنقاذ الوطن من الخونة، كما أنقذه الشعب من الفاسدين والمستبدين.

صرخت إحدى المذيعات الجديدات التي تحلم بشهرة تلف الآفاق:

- صحيح يا أستاذنا.

ابتسم، وقلب عينيه، وقهقه، ثم صمت فجأة، وقال:

- كله سيكون على ما يرام.

بعد أيام وجده المشاهدون يطلع عليهم وحده من الشاشة، يقلب لهم شفتيه ويحدق فيهم بعينين تنتقلان من الفرح إلى الحزن، ومن الغضب إلى الرضا، ومن الجد إلى الهزل في سرعة خاطفة. هو المذيع والضيف، هو الشكل والمضمون، هو صاحب كل شيء هنا، يفعل ما يريد. وبدأ يكلمهم بلهجة الزعيم الذي استأمنه الإنس والجن والملائكة على البلد. فرد أمامهم أوراقًا طبعها من على شبكة الإنترنت، وقال لهم: إنها مستندات دامغة لا تقبل البطلان، فأجابه الناس في الهوامش التي ينهشها الفقر، حول المدن المتلألئة في المساءات الصافية أو في الريف المنسي: نعم مستندات، ونحن نصدقها.

سخر منه الثوار والعارفون، وشاهدوه أحيانًا ليضحكوا، ويسلوا أنفسهم في أيام الضنى واليأس، ورسموا له صورا غريبة وأطلقوا عليه النكات. بعض ربات البيوت تعلقن به، وانتظرنه قبل النوم ليقهقهن. ممثلو الكوميديا توقفوا أمامه، وقال أشهرهم: لم يستطع أحد من قبل أن يضحكني مثلما يفعل هو. وقالت صفاء عليوة: إنه يشكل خطرا داهما على الثورة، وإن ظللنا نسخر منه ولا نفعل شيئًا في مواجهته، سنكتشف بعد مدة أن الأرض التي نقف عليها قد جرفت تمامًا، فننزلق إلى الهاوية.

وقبل رحيله بيومين فقط كان حسن عبد الرافع يقول لأكمل وهو يتميَّز من الغيظ:

- أقنع أغلب البسطاء بأن ما قمنا به كان مؤامرة كبرى.

ثم نظر حوله وقال:

- هناك من يغذيه بمعلومات مقصودة، بعضها معي على الفلاشة.

أما المذيع الزعيم فكانت تتساقط على مسامعه كل هذه الأخبار فينتشي، وينتفخ، ويخرج في الليلة التالية، كأنه في غنى عن إطرائهم جميعًا. يجلس على الكرسي، وكأنه يتربع على مصطبة في قرية نائية بليلة انقطعت فيها الكهرباء وغاب القمر. يحكي ويسامر، ويضرب الأمثال، وينتقل من حارة إلى شارع إلى ساحة، ويعود إلى الحارة من جديد. ثم ينتقل إلى مدق ومسرب،

فطريق ودرب، ويعود من حيث أتى.

وأصبح شخصية مثيرة للجدل على مواقع التواصل الاجتماعي. تتقاذفه الأصابع التي تنقر على لوحات الحروف. ترسمه في صورة لا نهاية لها، وتكتب تحتها كلمات غارقة في السخرية والاستخفاف، ليمضي متأرجحا بين تنكيت وتبكيت.

يطل عليهم هو في المساء، ويقول:

- يسخرون مني، ويشاهدونني بانتظام، ثم ينكرون.

يرتكب كل الأخطاء التي توصَّل إليها المتخصصون في دراسات التلفزيون، لكن الملايين تغفر له كل هذا. أما هو فغير منشغل بما يُقال أو يكتب عنه، ويرد عليهم أحيانًا:

- أنا فوق كل هذه المدارس الأكاديمية التعيسة.

ثم يشير إلى مجلد متوسط الحجم، يضعه أحيانًا على يمينه، مكتوبة على غلافه حروف مذهبة، ويقول:

- أنا مدرسة جديدة في الإعلام، ورسالتي للدكتوراه تشهد على هذا بلا فخر.

وقال في ثقة للمقربين منه:

- أنا سأستعيد كل ما راح مني.

لكنه أخفق في العودة إلى البرلمان، فأصبح بينه وبين الرابحين ثأر، وأقسم أن يجعلهم يدفعون ثمنا باهظا، ففتح عليهم صنابير الكراهية.

والتقطته شخصيات أمنية رفيعة المستوى فأمدته بمعلومات ووفرت له الحماية، فانتفخ أكثر، وانتقل من الشاشة إلى الشارع، يحرِّض الناس، ويقف في المظاهرات التي تدافع عن العسكر، وترفض الوافدين الجدد إلى السلطة، وحوله يهتف أتباعه:

«يسقط يسقط حكم المرشد»

«عيني يا بلدي عيني عليكي.. الإخوان بتقطع فيكي»

«عبد الناصر قالها زمان.. الإخوان ما لهمش أمان»

ويعود من الشارع إلى الشاشة في المساء يحكي للجالسين على المصاطب والكنب فتوحاته بالنهار، ويهش عن رأسه كل القضايا المرفوعة لإغلاق قناته، ويتحدى ويحرض الناس كي يخرجوا مرة أخرى زاحفين نحو نهاية جديدة. ويصمت قليلًا ثم يهاجم «قناة الجزيرة» التي تحولت من نصير للثورة والناس إلى بوق للنظام الجديد بلا أدنى خجل، راسمةً عبر الأثير معالم طريق الرجل البدين الجالس هناك بين ذراعي الماء المملح ينتظر ما يأمره به أسياده الواقفون فوق ربوة ترى العالم بأسره، وعاد المذيع الزعيم يحرض ويروح يرسم صورة لشوارع ستمتلئ في لحظة ما بالملايين من جديد. متى تأتي؟ لا يدري. وفي أي اتجاه يسير إلى النهاية؟ لا يهمه. فكل ما يعنيه أن الأصوات التي جاهرت حتى صنعت

الغضب وربته على حناجرها وأكفها حتى كبر، خبتت فجأة، وملأ المذعورون الدنيا ضجيجا، وأصبحوا هم الأبطال. هذه هي أقدار الغضب الفائر بلا صاحب. الغنم السائبة بلا راعٍ. هذا هو قدر حسن عبد الرافع، أن يصمت إلى الأبد ويملأ صوت عدوه الدنيا صخبا ورغاء وزبدا.

68

هل هذه وظيفة يتقاضى عنها أجرًا؟ ما أعجب الدنيا! دارت الأيام وصار لهوايته القذرة ثمن. سيمارسها هذه المرة تحت السماء المفتوحة إلى مدى لا يعرفه، وفي البقعة المقدسة التي خطفت أبصار أهل الأرض، وليس تحت سقف أتوبيس صدئ ينفخ دخانه المسموم في وجوه المارة، وليس في أسواق العتبة المخنوقة الخطرة، التي لا يضمن فيها أن ينال وطره ويمضي بسلام، قابضا على اللذة والاشتهاء الحارق.

يسمع عمن يفرجون كربهم بالمال، لكنه لا يملك شيئًا. شقة ضيقة متهالكة بالإيجار في حي الأبجية، وأم مريضة، وثلاثة من العيال تركهم له أبوه ومات بعد أن تليفت كبده.

هو زين الأبجي، هكذا اشتهر في المدرسة والشارع، الابن الأكبر، الذي وقع في هوى بنت الجيران، لكن غيره، الذي بوسعه أن يفتح بيتا، خطفها منه، وترك له شهادة الدبلوم المدفونة في درج الدولاب المكسور، وخيبات تبدو بلا نهاية، وجسدا قويا فائرا، لا يعرف كيف يلبي رغباته المتجددة، مثلما لا يعرف كيف يحافظ على مصدر دخل ثابت يتقوت منه؛ ليجد نفسه مضطرا إلى أن يبدل عمله كل شهرين تقريبًا، متنقلا بين مطاعم ومقاهٍ وورش نجارة وسمكرة وبيع مناديل في إشارات المرور.

يوم انطلاق الغضب كان جسده محشورا بين السيارات، يبتسم لراكبيها، ويعرض عليهم علب المناديل. وفجأة ظهرت مسيرة تهتف، اقتربت منه، وجرفته نحو ميدان التحرير. استسلم للمغامرة، وسار مع الزاحفين. لكن حين بدأت قوات الشرطة تضرب القنابل الخانقة، جرى وابتعد، وعاد إلى شقته، يسعل، ويحكي لأصدقائه عما رآه.

وجاءته الفرصة ليصل إلى الميدان الذي لم يبلغه في المرة الأولى، وسيكون لوصوله ثمن. عمل جديد يمتلك كل المهارات اللازمة لتأديته على وجه أفضل مما يطلب منه. سيعمل هذه المرة ما يريد، وسيتفوق على نفسه في إظهار مهاراته، وهو يضمن أن ظهره مستور.

لم يصدق نفسه وهو يسمع هذا الشاب المتأنق، الذي أثار اسمه الضحك، حين قدم لهم نفسه:

-اسمي شديد الوقيع، جئت لأعرفكم ما هو مطلوب منكم بالضبط. هو عمل سهل ولذيذ، طالما فعلتموه أنتم طيلة حياتكم بلا مقابل، وآن الأوان أن تجدوا مَن يكافئكم على ما تفعلون. لا أريد منكم سوى الاندساس في وسط السيدات في ميدان التحرير، وافعلوا ما شئتم بأجسادهن. والليل ستَّار. أريد لهن أن يخرجن من الميدان ولا يعُدن إليه مرة أخرى.

وحين سأله زين باستغراب:

- وما الهدف من هذا؟

شخط بقسوة:

- هذا أمر لا علاقة لك به.

لكنَّ واحدا من الواقفين تدخل في الحديث:

- معرفتنا بالهدف ستجعلنا نؤدي ما هو مطلوب منا بدقة.

نفخ شديد الوقيع، وقال:

- أغلب من في الميدان من النساء، ونريد لهن أن يهربن منه، ونخيف اللاتي يجلسن في البيوت ويفكرن في النزول إليه. الشباب يمكن أن نرسل إليهم البلطجية أو البوليس السري فيتعامل معهم، أما البنات فإن اعتدينا عليهن كما نعتدي على الأولاد، سيغضب الناس في البيوت، وقد تمتلئ الشوارع بالغاضبين.

ضحك زين:

- والله العظيم دماغك ذري.

- ليس دماغي بمفردي يا ظريف.

وسأل واحد من آخر الصف:

- الميدان ممتلئ عن آخره بالشباب، وهؤلاء سيحمون البنات ويفتكون بنا.

فضحك شديد حتى بانت أسنانه السوداء:

- أنتم ستندسون وسط الزحام، وستمدون أيديكم إلى أجساد البنات في الظلام، ويفضل أن تلمسوا الأنصاف السفلية، ويكون هذا في سرعة خاطفة، وبطريقة جارحة ومؤثرة.

ثم أشار إليهم:

- هل يوجد من لم يتقاضَ أجره؟

فلم يرد أحد، فأشار إليهم:

- قوموا إلى الميدان، وأنتظر النتيجة.

***

كانت الفرحة تسبق زين إلى الميدان. لأول مرة في حياته سيجد يده ممدوة إلى الأجساد الطرية بلا خوف. سيفعل ما يريد. شعر أن جسمه يغلي بالشبق. جيوش من النحل تزحف في شرايينه، وتنتهي إلى ما بين فخذيه فيتصلب. يتلهى عنه قليلًا ليهدأ، لكنه كلب مسعور لا يكف عن النباح. نظر إلى من حوله، صوب عينيه إلى ابتداء أنصافهم السفلية؛ ليعرف ما إذا كانوا مثله يروضون الاشتهاء أم لا؟ بعضهم كانوا مثله يقاومون اللهفة والانتظار، وبعضهم كانوا مرتخي الأعصاب وكأنهم ذاهبون إلى صالون حلاقة. سأل من كان بجانبه في

الحافلة التي أقلتهم إلى ميدان التحرير:

- هل أنت متزوج؟

- نعم.

ابتسم، وهز رأسه متعجبا، فسأله الرجل:

- لِمَ تتعجب؟

- أحسب أنك لا تتلهف على ما يريده عازب مثلي.

- أكل عيش، وفرصة لأتعرف على أجساد أخرى، بعد أن مللت جسد أم العيال.

- فعلا، لا يوجد على هذه الأرض من يعجبه حاله، ولا يملأ عين بني آدم إلا التراب.

دخلوا ميدان التحرير من عند المتحف المصري، بعد أن ألقت بهم الحافلة بالقرب منه. صوبوا عيونهم بنهم إلى صدور البنات، لكن الليل لم يكن قد أتى بعد حتى ينقضوا عليهن، كما أن المكان لم يكن مزدحما، وشباب كثر يسيرون مع البنات، وراؤهن وجوارهن وأمامهن، وعيونهم تسكنها الجرأة التي غرفوها من الميدان، وسكبوها في أوردتهم وأبصارهم.

تقدموا صامتين، وما إن اقتربوا من الحشود، حتى تفرقوا في كل اتجاه، كما قيل لهم. كَمَن كلٌّ منهم في مكانه ينتظر الغروب، ويتوق إلى اللحظة التي يتقافز فيها كل من في الميدان كأن عقارب تلسعهم، أو أكوامًا من الجمر الصافي قد ألقيت عليهم من جوف السماء.

جلس زين على الكعكة الحجرية، رمى بصره يمينا، فوجد نصبة سعد الزايط، قام إليها، وطلب كوبا من الشاي، وجلس يحتسيه في بطء شديد، لعل الوقت المتبقي حتى قدوم الليل يمر سريعًا. ومد عينيه صوب مبنى وزارة الخارجية يتابع انحسار الشمس، التي تحط هنا على شعور البنات. سافرات ومحجبات ومنتقبات، كلهن ستكونن بعد قليل في مرمى نيرانه. هكذا قال لهم شديد الوقيع:

- كله، الميني جيب، والنقاب، على حد سواء.

كثيرون راحوا يتيهون في كل وسائل الإعلام بروعة الأخلاق في الميدان، التآخي والتعاون والتكاتف والإيثار والاحترام والأدب الجم، كأنه صار «المدينة الفاضلة»، بقعة منفصلة حررها الثوار من قبضة العمى والبطش والقبح.

كان البطَّاشون يستمعون إلى كل هذا ويبتسمون في خبث، وأقسموا أن ينزعوا عن هذا الميدان رداءه؛ ليقف عاريا في وجه الريح. وقال أحدهم وهو يلقي أوامره لشديد الوقيع:

- عاوزه يتحول إلى مكان للفسق والفجور.

جاء الليل، وليل الشتاء أسود كالكحل، ثقيل كالجبل، طويل كالأيام الصعبة.

وفجأة صرخت فتاة في وسط الحشد: يا سافل يا حيوان. وصرخت أخرى في الطرف الأيمن، وثالثة في الطرف الأيسر، وتوالت الشتائم، ووقع هرج ومرج، والجناة غائبون. بنات أمسكن بأول شاب يلحق بهن، وأوسعه الحاضرون ضربا وركلا وسبًّا، فسالت دماء، وأهين أبرياء، والفتيات والسيدات جرين خارج الحشود، وتجمعن على الأطراف، وشعرن لأول مرة بالغربة في هذا المكان، الذي تلاصقت فيه الأجساد ثمانية عشر يوما وليلة دون أن تشكو واحدة من تحرش أو معاكسة أو خدش حياء. هناك بنات احتمين بالشباب، فجلسن في وسط الكعكة الحجرية، وتحلق حولهن شباب الثورة، فلم يتمكن المتحرشون من أن ينفذوا إليهن.

وجرت الكاميرات وراء الصراخ والاستغاثة، وتشتتت في كل أرجاء المكان. بنات رحن يشكين مما جرى. أخريات آثرن الصمت والانسحاب. وفي المساء تلاقت الكلمات والصور على الشاشات، ففتح الناس في البيوت عيونهم وأفواههم دهشة. تحدثت كريمة إسماعيل ودارية وصفاء عليوة وحنان المنشاوي. لم تسلم واحدة فيهن من أيدي العابثين. حتى دلال مشرقي نفرت من هؤلاء، وصرخت بقوة، وخلعت حذاءها وانهالت على رأس أحدهم ضربا، فارتعد وتقهقر سريعًا، وزاغ في الزحام.

وكان الشق الثاني من الخطة مُعدًّا بدقة، وهو ما لا يعرفه زين الأبجي. فنانون أقسموا أن الخيام المنصوبة في الميدان تشهد ليلا حفلات جنس جماعي، وأن الغنج يصل إلى أسماع ساكني الأبنية المطلة عليه. وشيوخ تصل لحية الواحد منهم إلى سرته، تحدثوا عن حرمة اختلاط الفتيات والفتية في مكان واحد وسط الليل المظلم.

وقال أحدهم، وهو داعية ينزل الميدان ويرمي جثته لتحمله الجماهير فوق الأعناق، إن بعض الشباب يلتقون في شقة بحي العجوزة، يمارسون فيها الفحشاء. ثم أخذ يغرف من خياله الخبيث ويسكب في آذان مستمعيه كلاما مسموما، أراد به أنه يفسح الطريق أمام الخبثاء المتاجرين بالدين ليمروا فوق جثث الشباب ويصلوا إلى الكرسي الكبير.

ولما وصلوا استمرت الأيادي التي تعبث بأجساد البنات في الميدان والشوارع المؤدية إليه، وخرج النساء في مظاهرات حاشدة رافضات ما يجري لهن، وقالت نائبة في البرلمان ذات خمار طويل ووجه عبوس:

- التحرش مسؤولية المرأة.

وقال رجل ذا لحية شهباء كثة يجلس بجوارها:

- ما الذي يدفع الكاسيات العاريات إلى الذهاب إلى هناك أصلا.

لم يستمع زين إلى كل هذا، فقد غمس يده في صدور ونهود ومؤخرات، وداس حرمات، وأوجع عذراوات لم يعتدن يدا خشنة تمتد إليهن. وكان كلما صرخت

الواحدة منهن من قرصته أسكرته النشوة، وتدفق الدم حارا في عروقه فنبض ما بين فخذيه، ونشب الألم حادا في جنبيه، حتى شعر أنهما سيتمزقان وتخرج كليتاه. جرى نحو بقعة الظلام المهجورة عند سور وزارة الخارجية، جلس وحيدا، ينظر بعينين زائغتين إلى الذين يسيرون على مسافة منه، ذهابا وإيابا. مد يده بتعجل، وراح يمارس العادة السرية بلهفة وقسوة وحرقة لم يعهدها من قبل. مرة ومرتان واستراح، ثم قام يمشي على مهل نحو الميدان.

كانت البنات المحاصرات في قلب الكعكة الحجرية يتحدثن بقرف عن معدومي الضمير الذين يريدون أن يدنسوا تلك البقعة المقدسة. وقالت واحدة:

- لو أن أيًّا من هؤلاء فكر في أمه أو أخته أو حبيبته ما تحرش بواحدة منا.

ردت عليها أخرى:

- إنهم مجرد أدوات حقيرة في أيدٍ خسيسة تريد أن تسيء إلى الثوار، وأن تلطخ أشرف من في هذا البلد.

عاد في آخر الليل إلى شقته، بحث عن النقود التي أعطوها له فلم يجدها. كان يريد أن يمزقها. سأل أمه، فقالت له:

ـ لقيتها في جيبك، اشتريت جزمة لأخيك الصغير الذي يمشي حافيا، وجبت أرزا ومكرونة وسمنا، ونصف كيلو لحم.

قهقه، ونظر إليها، والدموع تطفر من عينيه:

- لحم راح في لحم.

لم تفهم شيئًا، ولم يعنها أن تفهم. أما هو ففهم أشياء. وحين طلبوه مرة ثانية ليؤدي المهمة ذاتها بأجر أكبر، تهرَّب بحجة أن أمه مريضة، وقال لنفسه:

- يكفيني حراما واحدا.

واستمر يقفز داخل الأتوبيسات المزدحمة، ويذهب إلى سوق العتبة كل أسبوع مرة، ويعود متأرجحا بين الراحة والشقاء.

69

هي أغرب رحلة في حياة الأسطى عبد السميع الديب. المقصد ميدان التحرير، والركاب صنف آخر من البشر لم يألفه أو يعاشره من قبل. يسمع عنهم، ويراهم على شاشات التلفزيون يستعرضون لحاهم في وجه المشاهدين. يقابل بعضهم في الشارع، وفي المسجد يوم صلاة الجمعة. لكنهم أول مرة يملأون الأتوبيس الذي يسوقه، ويكون عليه أن يتعامل معهم.

في السابق اعتاد أن يركب معه سُيَّاح أجانب. طلاب جامعات ذاهبون في رحلة خلوية أو نزهة شاطئية. موظفون وفلاحون يقصدون الأراضي الحجازية لأداء العمرة أو الحج. أما هذه المرة فالأمر مختلف تمامًا.

يجلس على عجلة القيادة، قدمه بين دافع البنزين وكابح الفرامل وعينه على الطريق. أما أذنه فمعهم، تلتقط كل ما يقولونه. وكعادة كل رحلة يبدأها بتشغيل الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، الذي يعشق صوته. وضع الشريط، وانطلق الترتيل جليا طليا، يلين له قساة القلوب. ما إن بدأ في الآية الأولى حتى وجد على رأسه شابا فارع الطول، لحيته تصل إلى منتصف بطنه، يضع يدا على كتفه، ويمد بالأخرى شريط كاسيت مكتوبا عليه «الشيخ الحذيفي»، وقال:

- شغل هذا الشريط أفضل.

نظر إليه عبد السميع:

- كله كلام ربنا، وصوت عبد الباسط لا يعلو عليه.

- لكننا نحن من استأجرنا الأتوبيس، ومن حقنا أن نستمع إلى من نريد.

ضغط الفرامل، فتوقف الأتوبيس فجأة، فهزهم هزا، ودهس لحاهم في المقاعد، وبعضهم انضرب قفاه في المساند، وارتطم جسدا كل اثنين يتجاوران. ثم رفع رأسه وقال له:

- أنتم استأجرتم الرحلة، لكن لم تشتروني أنا.

وتدخل رجل في منتصف العمر، لحيته خفيفة، وفي عيونه مكر ودهاء، ينادونه بالدكتور ياسر:

- خلاص يا أسطى، لأجل خاطري، شغل الحذيفي، وكله كلام ربنا كما تقول.

أخذ عبد السميع الشريط، ووضعه في منيمه، وضغط زر التشغيل، فانطلق الحذيفي. وبعد ساعة تقريبًا من الترتيل، انتهى الشريط، فراح السائق يقلب يده في الشرائط المرصوصة داخل «التابلوه» العريض العميق؛ ليضع شريطا لأم كلثوم، كما تعود في رحلاته. وتقديرا للظروف التي يمر بها في هذه الساعات اختار أغنية «حديث الروح»، وقال في نفسه: قصيدة دينية راقية، لا أتصور أنهم سيعترضون عليها.

وما إن بدأت الموسيقى تسلسل، حتى هاجوا صارخين فيه:

- حرام.. حرام.. حرام.

فابتسم، وقال بصوت مرتفع وصل إليهم جميعًا:

- حلال.. حلال.. حلال.

لكنهم أجبروه على نزع الشريط. وطلبوا منه أن يضع آخر يحوي حديثا للشيخ أبو إسحق الحويني. أخذه منهم، وفتح «التابلوه» ووضعه، ثم أقسم أن يكملوا الرحلة دون أن يسمعوا شيئًا.

فقال الدكتور ياسر:

ـ بروا قسم أخاكم، ولتكن فرصة لنا أن نتحدث عما سنفعله في الميدان.

وجاء صوت شاب في الخلف يردد هتافات مع جاره:

«يا مشير يا مشير... من النهارده انت الأمير»

«يا أوباما يا أوباما... كل اللي انت شايفة أسامة»

التفت إليهم الدكتور خالد:

- ليس من المستساغ أن تهتفوا دفاعا عن أسامة بن لادن.

فقام أحد الشابين وسأله:

- أليس شهيدا؟

فابتسم، وقال له:

- الهتاف له سيضرنا، وسيستغله العلمانيون المتربصون بنا أسوأ استغلال.

ثم التفت الدكتور إلى رجل خفيف اللحية يجلس بجواره، وقال بصوت خفيض:

- مضطرون أن نصبر على هذه القطعان إلى حين، ثم نذبحهم على أبواب المدن.

فرد عليه:

- هم يساعدوننا في تشويه شباب الثورة. ومن الخطر أن نقوم نحن بهذا الدور مباشرة؛ لأننا سنقدم أنفسنا للناس على أننا الثورة الحقيقية يوم نقبض على زمام الأمور.

ورن هاتف الدكتور ياسر، وتحدث مع شخص على الطرف الآخر، لا يعرفه السائق، ولم يسمع اسمه من قبل، لكنه استشعر من سير الكلام أنه شخصية مهمة، وأن كلامه أوامر، وما يطلبه يجب أن يطاع.

لكن كل شيء بان حين التفت ياسر إلى الرجل الذي يجلس جانبه، وقال:

- الشيخ رأفت مغازي، يطلب مني أن أقنع من معنا هنا ألا يأتوا فعلا يحسب علينا، لاسيما أن أغلبهم لم يخرج في تظاهرة من قبل، وينظرون إلى غيرهم على أنهم أعداء لله.

زفر الرجل، وصمت قليلًا، ثم رآه السائق يلتفت إلى ياسر ويقول:

- هذه مهمة صعبة، مع أناس لا يقدرون المصلحة جيدًا، ولا تعنيهم صورتهم، وكل ما يهمهم هو أن يكون ما يسمونه الدليل الشرعي موافقا لما يفعلونه.

وقام ياسر، وعاد خطوات إلى الخلف، حتى وقف في منتصف الأتوبيس. ابتسم في وجوههم حتى بلغت شفتاه أذنيه، وهز رأسه، وملأ عينيه بامتنان مصطنع، وقال لهم:

ـ قيادات الميدان اتصلوا بي وأبلغوني ببعض الوصايا التي يجب أن نلتزم بها، حتى تصل رسالتنا اليوم إلى أعدائنا من العلمانيين، وتطمئن الجالسين في بيوتهم، ينتظرون منا أن نساعدهم في إخراج البلد من ورطته.

قام رجل أشيب اللحية، وفي جبهته زبيبة وسيعة سوداء، ورد عليه:

- أي قيادات يا دكتور؟

- قلت من في الميدان.

- نحن لا نخشى في الحق لومة لائم.

- لكن الحرب خدعة يا شيخ، ونحن في معركة مع قوى تريد أن تطفئ نور الله بأفواهها وسواعدها.

- نحن لا ننافق الناس، ولا نرائيهم.

- هذا ليس نفاقا، إنما مكر في مواجهة عدونا، ولدينا أدلة فقهية تبرر لنا هذا.

- الوصول إلى الدليل يحتاج إلى فقه وعلم بالأصول.

وشعر الدكتور ياسر بأن الجدل معه غير مُجدٍ، وقد يؤدي به إلى نفق معتم. فابتسم، وقال:

- لن نختلف يا شيخنا، المهم أن نكون في الميدان يدا واحدة. هتاف واحد، ولافتات موحدة؛ فغايتنا جميعًا إقامة شرع الله. منذ أن نحط رحالنا هناك، حتى ننصرف مع أول الليل.

وضحك شاب ملتحٍ يجلس أمام الرجل الذي جادل الدكتور، وسأل:

- هل هذا معناه أنه لا يوجد قرار بالاعتصام في الميدان؟

- التعليمات لم تقل باعتصام أبدًا.

- يعني لن نسلم من شماتة وتهكم من يصفوننا بأننا «ثورة ثورة حتى العصر».

- دعكم منهم، شهور قليلة ونحاصرهم حتى يعودوا إلى الجحور، فإن أطلوا برؤوسهم سنقطعها، أو نرميهم في الزنازين؛ ليقتل الظلام والعطن أحلامهم.

ضحك الشاب وقال:

- كلامك مقبول يا شيخنا، لكنه لن يمنعني من أن أقتصَّ ممن هاجمونا، لاسيما الولد الذي يسمى حسن عبد الرافع. كم أكرهه؟ وطالما حلمت وأنا يقظان بأنني أغرس أظافري في عنقه، حتى تخرج عروقه في يدي.

- هذا بالذات عقابه أليم، لكن ليس هذا وقته، نريد أن نطمئن الناس، ولا تنسَ أن هناك من يعجبهم كلامه، والاعتداء عليه سيغضبهم.

- فسقة مثله، وهم قلة.

- لا تنسَ أننا ذاهبون إلى الانتخابات، والأمر يحتاج إلى ترضية الناس، حتى ولو بابتسامة في وجوههم، أو بمسعول الكلام.

كان السائق يعرف حسن، استمع له، وشعر بصدقه، فدخل كلامه قلبه. ضغط الفرامل فاهتزوا من جديد، حتى كاد ياسر أن يقع. نظر إليهم بغيظ في المرآة التي تتوسط واجهة الأتوبيس. زفر ونفخ، وتعوذ بالله منهم. ومد يده إلى زجاجة مياه إلى جانبه فسكب ما تبقى منها في فمه. ثم التفت إليهم وقال:

- استراحة يا مشايخ، لمن أراد منكم أن يأكل أو يشرب، أو يدخل الحمَّام.

رد عليه ياسر:

- معنا طعامنا وشرابنا، لكننا نحتاج إلى الحمام؛ لنتوضأ استعدادا لصلاة الجمعة في الميدان.

فضحك وقال:

- سمعت خطيب الجمعة يقول إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

- طبعًا يا أسطى عبد السميع.

ابتسم ونظر إلى السماء، ثم رفع كفيه:

- ربنا يعطيكم على قدر نواياكم.

كان على أمثاله أن يكملوا الطريق بعد أن قبع سادتهم خلف الأسوار تطاردهم اللعنات. آثروا أن يطووا صفحة هؤلاء بحلوها ومرها؛ ليحافظوا على البيت المتداعي واقفا في وجه العاصفة. أدركوا أنه محتاج إلى ترميم وتنكيس وطلاء جديد، لكنهم كانوا معنيين أولا بألا ينهار، وتذوي معه منافعهم، بعد أن تنعموا في رحاب حجراته سنين، ظنوا أنها لن ترحل أبدًا.

يوم الغضب الأكبر ظن المهندس يونس أبو الفضل أن الرمال المتحركة ستثبت مكانها وتتحول إلى جلمود، ولن تبتلع سيده، الذي فتح له الطريق إلى الثروة والجاه. آلاف الأفدنة في الصحراء، تحولت إلى جنان وارفة الظلال وموفورة الثمر. أخرى قريبة من العمران صارت مدنا زاخرة يقصدها المترفون، النازعون إلى حياة القصور. طريق مأمون في تجارة الآثار والعملة. وسلسلة فنادق ومنتجعات في الساحل الشمالي وعلى خليج قناة السويس. لهذا كان كلما رآه يخطب، وقف على قدميه وصفَّق له، وحين يقابله يصر على أن يقبِّل يده بامتنان، ويقول له: «ربنا يخليك لنا يا ريس».

ها هو يراه هزيلا، يتساقط تباعا، عيناه يسكنهما الأرق والفزع. تجاعيد وجهه غارت أكثر وابتلعت المساحيق. حتى صبغة الشعر لم تُخفِ الشيب العارم الذي زحف إلى نفسه ورأسه. يومها قال يونس لنفسه:

- انتهى كل شيء.

وتراءت له صورة أبيه وهو ينهار أمام عينيه حين سمع قرار التأميم الذي أصدره عبد الناصر بعد ثورة يوليو، والذي سحب منه آلاف الأفدنة التي كانت تمتلكها العائلة منذ أن أنعم محمد علي باشا على جدهم الأكبر بها بين الجفالك والأوسيات التي منحها للمقربين منه، والمؤلفة جيوبهم وقلوبهم.

كان هو أيامها طفلا طاله الوعي، حين ترنح والده أمامه، فذهبت به أمه إلى السرير؛ ليقضي بقية حياته نائما عليه يهدهد أطرافه المشلولة. وحين كبر أقسم أن يعيد ما أُخذ من العائلة بأي طريقة. انتظر حتى رحل من أخذ، وجاء من قال للناس: مَن لم يغتنِ في عهدي فلن يغتني أبدًا. أنصت هو إلى النصيحة، وعمل بها. فبعد أيام باع بيتا قديما ورثه عن أبيه في الحلمية، وفتح «سوبر ماركت» كبير، وبدأت الرحلة مع المال.

وكما يقولون إن أصعب مليون هو المليون الأول، تيسر له الحال بعد أن امتلكه، وانفتح الطريق على مصراعيه، وصعد ليجد نفسه جالسا مع الكبار، يحدثهم وينصتون إليه. يستمع إليهم بإمعان وينفذ ما يأمرون به. يهاتفونه ويرد عليهم متهللا. يطلبون منه ويستجيب. لم يبخل بشيء ولم يترك شيئًا يستطيع أن يقتنصه. أعطوه فأعطاهم. وكان يتصور دومًا أنه يرد الفضل إلى أهله. لم يدُر بخلده أبدًا أنه يأخذ حق غيره، وكان يقول: لكل مجتهد نصيب. ويرد على الذين

يتحدثون عن العدل: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. ولم تكن القوة عنده تتجاوز رصَّ أكوام المال في البنوك.

***

هاتفه أسياده بعيد الغضب، فطمأنوه أن كل شيء سيمضي على حاله. وأن بوسعهم أن يلملموا كل ما يجري في أكفهم، ويعجنونه كيفما شاءوا. وقال لنفسه: لا بأس، ربما ما حدث ينبه ولي نعمتنا إلى مرض أصاب الجسد، فيسعى وراء الشفاء الناجع. لم يكن يدري أن الجسد تحلل، وتعفن، والدود يرعى فيه.

هاتفه ممدوح البرماوي في البداية وقال له:

- نريدك أن تشاركنا في تمويل حملتنا ضد المخربين.

فقال له:

- كل أموالي ملك يمينك.

وأرسل له عاطف الشطنوفي، فأعطاه حقيبة مكدسة بالنقود. لكن هذا لم يُرجع ما ذهب، ولم يشف ما أصيب. انهار البيت المتصدع فجأة. سقط فوق رأس البرماوي وزملائه في العصابة الكبيرة المتوحشة، واستقروا جميعًا في سلة مهملات التاريخ.

وكان على يونس أبو الفضل أن يبحث عن أسياد جدد. بل في الحقيقة لم يكن بحاجة إلى أن يبذل أي مجهود في البحث عنهم. فها هم أمامه يجلسون على الكرسي الكبير معًا، يتوسطهم قائدهم وهم يلتصقون به، ويمدون أيديهم لمن يريد أن ينضم إليهم، ويمسك أرجل الكرسي لتنغرس أكثر في الأرض.

ساعات وكان عند القائد يحدثه عن رغبته منذ زمن في أن يبرم تعاقدات، يُنفِّع بها ويستنفع. وكان له ما أراد. ضخَّ أموالا طائلة، ولم يحصل على عقود، وحين اندهش وسأل القائد، قال له:

- عقودنا داخلية لدواعي الأمن القومي، ولا تقلق على فلوسك، فهي معنا في الحفظ والصون.

ضحك، ووارى عجزه داخله:

- طبعًا يا أفندم، القليل معكم كثير.

وفكر في أن يفتح سبيلا مع شباب الثورة ليحتويهم قليلًا، ويتجنب غضبهم، فهاتف حسن عبد الرافع:

- أتمنى أن تشرفني في مكتبي لتشرب معي القهوة.

لكن حسن نهره بعنف، وهو يسترجع كل ما على «الفلاشة» التي معه من معلومات عن مصادر ثروة الرجل.

وعاد إليه عاطف الشطنوفي، ليس مبعوثا هذه المرة من البرماوي، إنما من

طرف تابع للأسياد الجدد، وقال له:

- رجالنا في الشوارع يحتاجون إلى الكثير لمواجهة الصبية المتهورين.

لم يبخل بشيء، وهو يرى الأمور تقف عند حالها. ثروته لم تمس، ولا يلوح في الأفق أي دليل على أن ما حدث مع والده سيتكرر معه. تأثرت القرى السياحية والفنادق التي يملكها لتراجع السياح الوافدين إلى الشمس والغوص، لكنه عوض ذلك من ارتفاع أسعار السلع الغذائية، بل زادت أرباحه السنوية بعد شتاء الغضب، بصورة لم تخطر بباله، وكأن الناس قد مسَّتهم نار الثورة، فالنار تأكل وتقول: هل من مزيد. وكان كلما أبدى له أحد رجال الأعمال قلقه حيال ما يجري، طمأنه قائلا:

- قادة اليوم مختلفون، فهم مثلنا مشغولون بصناعة المكرونة، ويحاولون أن يحققوا الكفاية لرجالهم، وعليهم أن يستعينوا بنا.

***

وحين وجد أصحاب اللحى يشقون الصفوف، ويتقدمون داهسين بأقدامهم كل من سبقهم إلى الغضب، انتابه خوف. وقال لنفسه: يبدو أن هذه العاصفة لن تنتهي أبدًا، فما إن تهدأ قليلًا حتى تهب موجة أخرى عاتية، ولا بد أن ننحني أمامها وإلا كنستنا. لكن بعض زملائه طمأنوه تمامًا، وقالوا له:

- لا تخف كل شيء سيبقى على حاله.

لكن قلقه لم يذهب بسهولة:

- هؤلاء مختلفون، عهدناهم واقفين على الأبواب يلهثون، أو يجترون أحلامهم الضائعة خلف الأسوار، ولم نعهدهم جالسين فوق أعناقنا.

فضحكوا وقالوا له:

- ليسوا مختلفين، هم مثلنا، ومن بينهم تجار يسعون بنهم إلى الثروة والجاه، وكل شيء عندهم له سنده وتبريره.

ثم تلوا على مسامعه بعض رجال الأعمال الذين يملأون السوق، وقالوا له:

- هؤلاء منهم، وإن تدثروا بأردية أخرى؛ ليخفوا أنفسهم عن الأنظار.

ولم يكذبوا خبرا؛ إذ لم تمضِ أيام على جلوس من جهزوه على عجل وأجلسوه على الكرسي الكبير حتى رنَ هاتف المهندس يونس، وقيل له:

- هناك دعوة لكم لاجتماع عاجل لجمعية رجال الأعمال.

تهللت أساريره، فرئيس الجمعية الجديد ليس غريبا عليه، وبينهما شغل قديم حين يقيم معارض السلع المعمرة، التي كانت لا تكف عن وضع النقود في جيبه، والأصوات في صندوق جماعته، بعد أن حطت بنادقها ورأت في الانتخابات وسيلة للصعود نحو آفاق الحلم القديم المتجدد، الذي غرس شيخهم بذرته، ورحل وتركها ضعيفة يأكل الجراد أوراقها الصغيرة.

ذهب إلى الاجتماع تسبقه الفرحة. رمى رأسه إلى المقعد الوثير في سيارته الفارهة، وراح يرمق الشوارع من خلف الزجاج المعتم، فوجدها على حالها. الناس عادوا ينهبون الأرض، إلا من قلة لا تزال تواصل الرفيف والتململ أملا في أن تفلت من قبضة الذين وقع في أيديهم كل شيء.

ترحَّم على والده، وتمنى لو كان الأجل امتد به ليرى كيف اهتزت الشوارع، لكن بنيان ابنه لم يتمايل، بل ارتفع في السماء، وتوسَّع على الأرض، وصار صرحا كبيرا.

في الاجتماع قال أحدهم لرئيس الجمعية:

- سمعتك مرة تتكلم عن العدل الاجتماعي، فارتج قلبي رعبا.

فابتسم، ورمى بصره حتى شملهم جميعًا:

- بعض الناس يرضيهم الكلام.

تذكر المهندس يونس الإجابات التي كان يتلقاها حين يُسأل عما يعنيه سيده الأول بالانحياز إلى محدودي الدخل:

- هذا كلام للاستهلاك المحلي.

وبدا له أن هذا النوع من الاستهلاك هو الأغزر في بلاده، وأنه لا نهاية له. وتذكر أولئك الذين ملأوا الساحات ودقوا الهواء مطالبين بالعدل، وابتسم، وران صامتًا، متطلعا في وجوه الجالسين عن يمينه وعن شماله، وشفاههم تتلمظ في شرهٍ، وعيونهم تسكنها أطماع بلا حدود.

حين عاد إلى مكتبه وجد عاطف الشطنوفي في انتظاره. سلَّم عليه بفتور، ثم دخل مكتبه وأغلقه، وتركه واقفا في وجه السكرتيرة. نظر إليها وهمَّ ليدخل خلفه، لكنها استوقفته، وقالت له:

- انتظر حتى يطلبك.

ابتلع ريقه وجلس صامتًا. ومرت ساعة وهو على حاله هذا. وقف أمامها من جديد يشكو، فاتصلت بالمهندس يونس، فأذن له بالدخول.

ولما مثل أمامه وجد عينيه تزاورا عنه، وفي وجهه برود، وأنفه مفرطح قليلًا في اشمئزاز ظاهر.

وقبل أن يتفوه عاطف بأي حرف، نظر إليه يونس وقال:

- خير؟

- لصوص الثورة جلسوا على الكراسي المرصوصة فوق أعناقنا، وبلدنا الذي لا يؤمنون به، أصبح في خطر.

انتفض يونس غاضبًا:

- وما علاقتي أنا بكل هذا؟

- سعادتك...

- لا سعادتي، ولا تعاستي، لا تنتظر مني شيئًا، ولا تزرني هنا مرة أخرى.

- لا أصدق ما أسمع.

- بل صدق، وتفضل من غير مطرود، أنا لا أعرف من أنت، ولم أقابلك في أي يوم... فهمت أم لم تفهم؟

لم يرد الشطنوفي، بل انصرف صامتًا، في نفسه حيرة، وعلى وجهه عجب، وبرأسه ظنون، لكن كل هذا ذاب في الخوف الذي سرى في أوصاله.

71

صوته مجروح شجي، وعيونه يرقد فيها وجع، والسؤال الذي يثقل رأسه منذ سنين لا يزال جاثما لم يبرحه ولو ساعة واحدة من نهار أو ليل. لمن أغني؟ لم يخطر بباله أبدًا أن الإجابة ستكون هنا في هذه الساحة الوسيعة التي تغص بالبشر، واسمها «ميدان التحرير».

كان يشعر أن اللحظة التي سيجد فيها من يسمعه لم تأتِ بعد. طالما استدعاها من خياله الخصيب وهو مستلقٍ على ظهره فوق سريره الذي يطل على نافذة مفتوحة على أسطح بيوت تنام تحت أكوام من الكراكيب. كان أحيانًا ينظر إليها مليا فيجد في النتوءات المتتابعة فيها رؤوسا مرصوصة، تنظر إليه، وقد أرهفت آذانها لتستمع إلى أغانيه التي يصدح بها وحيدا، حتى تتعب حنجرته، وتجف دموعه من كثرة انسكابها مترافقة مع الموسيقى التي يعزفها على جيتاره والحروف الممدودة والممطوطة والمتقطعة والمتماوجة والمتلاونة التي ينثرها في المسافة الممتدة من آذان الروبابكيا حتى فمه.

يتعب فيهبط إلى المقهى؛ ليجد أصحابه ينتظرونه على عتبات الليل. ما إن يهل عليهم حتى يقولوا له في صوت واحد:

- أهلا يا فنان.

فيبتسم في هدوء وأسى:

- فنان بلا حظ.

إنه اللقب الذي حمله على أكتافه منذ ألصق الجتيار بجسده. يؤلف الكلمات، ويعزفها بطريقة جديدة، جعلت صوته مختلفا. كان أصحابه يطلبون منه أن يغني لهم أغنيات لسيد درويش ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش. يؤديها لهم على الجيتار رغم صعوبة هذا. لكنه يستطيع باقتدار مذهلٍ. يقف ويضم الجيتار إليه، ثم ينحني به حتى يلتصق بجسده. يهز نفسه قليلًا ويدوزن بنغمات متقطعة هائمة لا تعني شيئًا، ثم يبدأ بإحماء صوته: «إمممممممم... إمممممممممم» وبعدها ينطلق.

صوته ليس متفردا. صوت عادي، يمكن أن تسمعه من حناجر لا تعد ولا تحصى، يتواجد أصحابها على المقاهي أو خلف الجدران المصمتة في البيوت. لكن ما يعطي غناءه مذاقا خاصا هو رقة مشاعره، وتماهيه التام مع ما ينطق به، وحدبه العميق على الآلة التي يعزف عليها، وقدرته على جذب أنظار من ينصتون إليه، والكلمات التي ينتقيها، ويضفرها جنبا إلى جنب، فتضيف موسيقى جديدة إلى موسيقاه.

ليلة الزحف الكبير كان نائما، تابع على «فيس بوك» الدعوة للتظاهر، وتعجب من هؤلاء الذين يلدون غضبا وينتفضون في العالم الناعم المبني على أرقام

ومعادلات، تحملها شاشات تغذيها أسلاك، وينقلها الأثير، بينما الشوارع خاوية من الغاضبين.

جرب هو بنفسه أن يشارك في غضبة نظمتها حركة «كفاية» ذات عصر. ذهب يسبقه الحماس والجرأة، فلم يجد هناك سوى تسعة وتسعين شخصا، أصبحوا مائة بوصوله. وقفوا وهتفوا، حتى سقطت حناجرهم، وانصرفوا في الاتجاهات الأربعة، قابضين على أمل شحيح. هو لم يرجع إلى بلده في قلب الدلتا، إنما جال على بعض أصدقائه، الجيتار في يده، والرجاء في قلبه، وسعى أن يجد لقدميه مكانا بين الزحام. قالوا له كلامهم المكرور:

- الطريق لا يزال طويلًا.

ابتسم حزينا كالعادة:

- كل القاهرة ضاقت بما أقدمه من أغاني.

- نوع جديد لم يجد جمهوره بعد.

- الناس عبيد لما يألفونه.

- تغيير مزاجهم ليس مستحيلا.

- في المظاهرات ننادي بالتغيير ولا يأتي، وفي الفن ها نحن ننشد التغيير ولا يلوح في الأفق ما يدل عليه.

- كله بأوانه.

- لا بأس، طول الأجل يُبلِّغ الأمل، وها نحن ننتظر.

يضحك أحدهم ويقول له:

- يا عم روح اشتغل بالهندسة التي تحمل شهادة فيها.

فيخرج له لسانه ويقول:

- الموسيقى قمة الهندسة يا جاهل.

نام الليل، واستيقظ عند ظهر اليوم الثاني، خلى القاهرة وراء ظهره، وعاد إلى بيته، ومن يومها لم ينزل هذه المدينة المتوحشة إلا بعد أن ملأ الناس الشوارع، واهتزت أركان الطغيان.

***

دخل الميدان حاملا الجيتار تحت إبطه، لكنه لم يكن يعرف من أين يبدأ؟ لا بأس، ليس مهما أن يقف في مكان أعلى من هؤلاء، بل لا يوجد مكان فوق الرؤوس، لا خشبة مسرح؛ لأنها لم تكن مسرحية، ولا منصة؛ لأن الكل أرادوا أن يكونوا سواسية هنا. الكتف في الكتف، والرأس في الرأس، والأنفاس تتلاقى، والهتافات تختلط، ثم تصعد إلى السماء.

اقترب من الكعكة الحجرية، دون أن يتكلم. وقف ونظر إلى المحتشدين مليا

دون أن يتكلم. اقترب منه أحد الشبان، وسأله:

- هل هذا جيتار؟

- نعم.

- سمَّعنا يا عمنا.

انثنى قليلًا، وأخرج الجيتار من جرابه. دندن، وزام بشفتيه فأخرج صوتا موافقا للألحان التي سلسلت. لم تكن في رأسه كلمات يغنيها، شعرأو زجل. تلفت حوله، وأنصت إلى ما يهتف به الهاتفون، ثم ضرب على الجيتار، وغنَّى «الشعب يريد إسقاط النظام»، وراح يهز رأسه ويتمايل قليلًا. فتح كل من حوله عيونهم باندهاش مما يسمعونه ويرونه، ثم أخذوا يشاركونه على استحياء، وانضم إليهم آخرون، وصاروا جوقة كبيرة، راحت تصدح بكل ما أوتيت من قوة، وارتفع صوتها، وبلغ آذانا كثيرة، فأتى أصحابها مهللين.

طلبوا منه أن يرتفع قليلًا؛ ليقف على حافة الكعكة الحجرية فأطاعهم، وانطلقوا في الغناء. ورآهم أكمل من بعيد فتوجَّس، وجرى نحو حسن عبد الرافع في مكتب السياحة، وقال له:

- الميدان تحول إلى كباريه.

- كباريه!!

- هناك شاب طويل يعزف على جيتار، والشباب انصرفوا عن الهتاف والتفوا حوله يغنون.

- وما المشكلة في هذا؟

- هذه ثورة أم رحلة؟

- ثورة طبعًا.

- إذًا ما الداعي إلى الرقص والغناء.

ابتسم حسن، وقام من مكانه، ووضع يده على كتف أكمل وقال:

- الناس قرروا أن يعتصموا في الميدان، وأغلقوا كل مداخله، ولا يمكن أن يبقوا هنا أياما لا يعرفون عددها ولا يفعلون شيئًا سوى الهتاف.

وحين جاء الباعة بعد هذا، وأخذوا جوانب في الميدان نصبوا فيها بضاعتهم، توتر أكمل أيضًا، لكن حسن قال له الرأي نفسه. تنوعت أشكال وأصناف المتواجدين هنا. متظاهرون بالملايين، وباعة بالمئات، بلطجية ومخبرون وجنود يحيطون بالميدان على دباباتهم. أشياء عادية لا تلتفت إليها العيون. الشيء المختلف كان هو بجيتاره وغنائه الغريب الذي لا يزيد على ترديد ما يهتف به الصاخبون هنا في ساحة الغضب، لكن وفق لحن يصدح، ويضرب قويا؛ ليحمس من أصابه فتور، ويُسرِّي عن نفس من ضاق ذرعا بصيغة واحدة للاحتجاج.

وصل صيته إلى البيوت. أصبح أحد العلامات المميزة للميدان. وجاء خصيصا من

أراد أن يستمع إليه ويراه ويغني معه. وحين نصبت المنصات فيما بعد كان يتنقل بينها بجيتاره، وتحته يقف الآلاف. وانتقل من الاكتفاء بتحويل هتافاتهم لأغانٍ إلى صنع أغانٍ تخصه، وتعبر عما يريده الناس.

وكان قد التصق أكثر بالثوار بعد أن اعتقلوه معهم، حين عادت قلة منهم تحتج على بقاء العسكر في الحكم. رموه في ناقلة جند، عصبوا عينيه، وقيدوا يديه من خلاف، وقادوه إلى مكان لا يعلمه. تركوه ساعات جالسًا القرفصاء بجانب جدار متآكل رطب، تأكله الظنون، لكنه غير نادم على ما فعله أبدًا، وإن كان مستغربا مما يجري له، وهو الذي اعتقد أن طريق الحرية قد تعبَّد إلى الأبد بإسقاط الطاغية. لكنه رأى قبل أن يرموه ويعصبوا عينيه ما ارتعد له بدنه.

كان يقف بالقرب من مدخل شارع محمد محمود، يغني، وهم يرددون خلفه حتى قبيل الفجر. فجأة هجم لابسو الباريهات الحمراء. حلُّوا بغتة كالفجيعة، وأطلقوا النار الحي، فراح شباب يتساقطون يمينا ويسارا مضرجين في دمائهم. بعضهم جرى إلى الخلف صارخا في هلع، وبعضهم هجم بغير حساب. طوقوهم، ولملموا أشتات القتلى، وألقوا بهم كأنهم نفايات في عربة، وانطلقت لتغيب في الغبش، غير عابئة بشيء. الباقون قبضوا عليهم، وكان هو منهم.

وبينما هو غارق في استعادة تفاصيل المشهد المروِّع، دخل شخص. اقترب منه، وغمزه بيده، وأمره أن يمضي خلفه؛ ليجد نفسه بعد دقائق ماثلا أمام شخص آخر، بدا أنه يجلس خلف مكتب في حجرة فخيمة. هكذا استشف من رنين الصوت.

ساد صمت للحظات قليلة، شعر فيها أن العيون تتفحصه، وتكاد أن تخترق جسده، ثم صرخ الجالس الذي لا يعرف من هو:

- حضرتك عامل فيها مطرب الثورة؟

لم يرد عليه. ولاذ بصمت جديد، لكنه زفر في ضيق، فقام إليه، وصفعه على وجهه. سال الدم من أنفه. ثم ركله بقوة في جنبه، فسقط على ظهره. وسمع تهديدات زاعقة:

- إن خرجت منها، اذهب إلى بيتك، وإياك أن تعود إلى الميدان.

لكنه بعد أيام من خروجه عاد إلى الميدان، ودار بالجيتار في أماكن عديدة مع الثوار، وهم يجوبون المدن والأحياء، وطلب منه الناس أن يغني لهم أغاني معينة، حفظوها عن ظهر قلب، ورددوها خلفه بامتنان. ولم يكن يدري أن الأيام ستدفع إلى الأمام من يحرم الغناء، ويرى أن ما يفعله هو عزيف الشيطان.

72

لم تنم دارية هذه الليلة، ظلت عيونها معلقة بالشاشة الزرقاء، تتابع الصور، وأسفلها الحروف التي ترشق على عجل. شعرت أنها ليلة ليست ككل الليالي التي مرت بها. خرجت من بيتهم الذي يرقص فوق الربوة، بعد أن تفلقت جدرانه، ورمت بصرها نحو المياه التي تترقرق بعيدًا. وهي صغيرة كان أبوها يرفع إصبعه إلى حيث الماء المحبوس خلف السور الهائل، ويقول لها:

- قضيت طفولتي هناك.

تنظر إلى حيث يشير وتقول:

- مكان جميل.

فيقول لها:

- كانت بيوتنا راسخة، تنبت بين فصوص الطين اللزجة، وليست تلك التي تسقط فوق رؤوسنا هنا على التربة التي تنتفش كريش الديوك. وكنا نعيش في «كشتمنة غرب»، التي نسميها «تنقار»، نعبُّ من النسيم، ونمرح في المروج. نجري حتى نصل إلى قرى «أمبركاب» و«قرشة» و«جرف حسين»، ونعبر أحيانًا إلى شرق النيل، حيث النصف الثاني من «كشتمنة»، التي يطلقون عليها «مشرور». وفي أيام لا أنساها من سنة 1963 خُلعنا من مكاننا، ولم يستغرق خلعنا سوى أربعة أيام فقط.

وتسأله:

- هل كان بيتا وسيعا؟

- وسيع من طابقين، به حجرات عديدة، وتنام على حوافه الخارجية أشجار الكافور والجميز، وفي وسطه خمس نخلات تمد رؤوسها من كوة واسعة.

ويتوه زامًّا شفتيه وعيونه تحلق في الأقاصي، ثم يعود ليقول لها:

- كان بيت العائلة. يسكن فيه جدك وإخوته وأولادهم، خلعونا منه، فتفرقنا في البلاد. بعضهم ذهب إلى «كوم إمبو»، وبعضهم رحل إلى القاهرة، وسكن «حي عابدين». هناك أقرباء لنا في السويس، وكثير من أولادهم هاجروا للعمل في بلاد الخليج. كل أبناء قبيلتنا تفرقوا في الأرض.

مات الأب قبل شهور، وتركها مع أمها وأخيها الصغير. نحل جسده في السنة الأخيرة حتى صار كالبوصة، ولم يسعفه الطب الرخيص، بعد أن أكل الداء المتوحش كبده بضراوة.

تبحث دارية عما قاله أبوها لها في سطور الكتب التي تدرسها فلا تجد له ذكرا. وحين تدخل كلية الآداب في جامعة جنوب الوادي، تقول بكل فخر لزميلها في الجامعة وحبيبها حامد عبد الظاهر:

- أنا من كشتمنة، البلد الذي انحدر اسمه من اسم الملك العظيم «كوش بن حام»، وزوجته «تمنة».

فيضحك ويقول لها ساخرا:

- مرحبا بالأميرة دارية سليلة الملوك الغابرين.

فترد عليه في غيظ:

- على فكرة كوش هذا حكم مصر كلها.

فيضيق بها وينفخ في وجهها:

- نحن الآن في زمن الحاكم، الذي لا ينحدر من أي سلالة، أتى من طين الأرض، فلم يتعلم منه النبل والطيبة والعطاء إنما لطخ به وجه حياتنا.

لم تغفل عيناها سوى دقائق، وقامت منتفضة. ارتدت ملابسها وقالت لأمها:

- أنا ذاهبة إلى القاهرة.

ضربت على صدرها:

- أوعي تكوني يا مجنونة رايحة المظاهرات.

لم تشأ أن تقلقها أو تثير غضبها. انتزعت ابتسامة هادئة، وقالت:

- لا، سأتقدم إلى وظيفة.

- شغل في مصر، وغربة، كفانا الذين هجروا وهاجروا وانقطعت أخبارهم.

- لا الشغل هنا، لكن التقديم في القاهرة.

- القاهرة مولعة يا بنتي، اهدئي واصبري، لما تنزاح الغمة.

- الغمة لن تنزاح من نفسها.

- ماذا تعني؟

- أعني أن البطالة التي أعيشها ، لن تنتهي إلا إذا نزلت بنفسي أبحث عن عمل.

- عمومًا ربنا يوفقك. لا تقطعي الاتصالات دومًا، طوال الطريق، وأنت هناك، وحتى وأنت عائدة. وإذا أتى عليك الليل هناك فلتذهبي إلى ابن عمك طارق وزوجته فاتي، التي تحبك.

ما إن خرجت من البيت حتى هاتفت حامد، وأخبرته أنها ذاهبة إلى ميدان التحرير.

ضحك وقال لها:

- هل ستبحثين هناك عن أمجاد جدودك القدامى؟

صمتت برهة، كما تفعل معه كلما شاكسها، ثم نطقت:

- بل سأبحث عن المستقبل.

- مستقبل من؟

- مستقبلنا جميعًا كمصريين. ولا بأس من أن تكون هذه الفرصة التي نذكر فيها كل الناس في هذا البلد أن لنا مظلمة، وأننا لن ننفك حتى ننهيها.

سألته إن كان سيذهب مثلها، فأبلغها أنه سيلحق بها غدا، وشرح لها أهمية ما يجري بالنسبة لأطروحته للدكتوراه. فهزت رأسها وقالت له:

- أنت لا تضيع وقتا أبدًا.

فزفر في ألم:

- إلا وقتي معك، يضيع باسم التقاليد البالية، والنعرات التي عفا عليها الزمن.

وأرادت أن تهدئ خاطره، فهمست بصوت كهديل الحمام:

- من أجلك رفضت كل العرسان الذين تقدموا لي، وآخرهم قبل أيام.

فقهقه:

- وما الفائدة؟

- اصبر، وربك يفعل الخير.

- صابر، وأجري على الله.

***

ركبت حتى نزلت أسوان، وهناك مرت على الخطاط الذي سبق أن كتبت عنده لوحة مناقشة الماجستير لحامد، هدية بسيطة منها، وطلبت منه أن يكتب لها لوحة عريضة من القماش مكتوبًا عليها:

« أبناء النوبة مع الثورة وضد الظلم والطغيان والفساد»

واستقلت قطار الدرجة الثانية، اللوحة بجانبها والزرع الأخضر يجري في عينيها، وصورة الميدان التي رأتها الليلة الماضية لا تفارق مخيلتها. غلبها النوم فنامت بينما المدن والقرى تتساقط عن يمينها وشمالها، وتهوي في قيعان الصعيد المنسي الخامد، الذي يفتح فمه مندهشا لما يجري، ويرقب من بعيد، بعد أن أرسل أولاده الجيدين إلى وجه بحري من زمن بحثا عن الرزق، وكانوا مع الثائرين في الميادين هناك.

توقف القطار في محطة رمسيس، فهبطت منها سريعًا إلي مترو الأنفاق، ونزلت في «التحرير»؛ لتجد نفسها بين الثوار. مسحت الميدان بعينيها، ثم صعدت إلى الكعكة الحجرية، ونزعت اللاصق من على اللوحة المطوية، وفردتها عن آخرها في وجوه الناظرين، فهتفوا:

«إيد واحدة».. «إيد واحدة»...

وتقدمت بنتان إليها، واحدة محجبة، والأخرى على يدها اليمنى يرقد صليب أزرق. مدا أطراف أصابعهما إلى اللوحة، ورفعاها معها إلى أعلى، حتى رآها كل

من في الميدان، ثم انطلق ثلاثتهم يَجُبْنَ الممرات والمسارات، من عند مسجد عمر مكرم وحتى المتحف المصري. وكلما رآهم الشباب هتفوا وصفقوا.

وقابلت في الميدان صفاء عليوة، وكانت قد رأتها في التلفزيون، وقرأت اسمها في الصحف وطالعت صورها، وعرفت كثيرا عنها وعما في رأسها. سلّمت عليها بحرارة، ونظرت في عينيها مليا، وقالت:

- سعيدة برؤياكِ.

فاحتضنتها، وهمست في أذنها:

- لا بد أن نكمل طريقنا لتنتهي كل المظالم، التي وقع عليكم جزء هائل منها.

- أتتابعين قضيتنا؟

- بل زرت النوبة بصحبة جمعية أهلية قبل سنتين. زرت قرى أبريم والجنينة والشباك وقسطل وأدندان، في مناطق «الفاديكات».

- أنا من الماثوكيين.

- أنعم وأكرم.

وأخذتها صفاء من يدها، ومشت بها نحو السور الحديدي، الذي ينبت من نهاية شارع التحرير وينتهي عند مدخل شارع محمد محمود، ثم أشارت إلى لافتة معلقة على شقة في الأبنية المطلة على الميدان، وقالت لها:

- هذه هي رابطة أبناء النوبة.

فاغرورقت عينا دارية بالدموع، وهي تحط مقلتيها على اللافتة، التي جاء أهلها هنا وزرعوها على واجهة شقة في قلب القاهرة، يلتقون بها ليتقاسموا أوجاع الغربة، ويتبادلوا الذكريات التي لا تغرب في رؤوسهم وأفئدتهم أبدًا. وتذكرت أن عمها حكى لها ذات يوم عن هذا المكان، الذي لم تتح لها فرصة المجئ إليه في الزيارات الأربع التي قامت بها إلى القاهرة من قبل.

وكانت صفاء تعرف بعض الشباب النوبيين في الميدان. رمت بصرها لتبحث عنهم، فوجدت واحدا منهم، يقف برفقة صديق له من حي عابدين، كانت قد رأتهم سويًّا خلال زيارتها الأخيرة للقاهرة. أخذت يد دارية، ومشت بها إليه، وقدمتها له. استقبلها بامتنان، وشرح لها الخطة التي أعدها مع أصدقائه لحل المشكلة النوبية. وقال لها:

- بعد أن يسقط الطاغية، سنقدمها إلى من ينتهي إليه الأمر، لعلهم يرفعون عنا ما نحمله فوق أكتافنا من عشرات السنين، حتى أضنانا.

وقفزت إلى رأسها البيوت المتداعية، والناس النائمون في العراء خوفا من تردي الحوائط الخائرة عليهم، والأرض التي لا تنغرس أقدامهم فيها أبدًا، بعد أن حرموا من تملكها، والفقر الذي يرعى في نفوسهم كالدود المتوحش، والآمال المؤجلة بالعودة إلى المروج القديمة، وليالي السمر حين يرجع الغائبون المشتتون في

بلاد الله وبين خلقه.

رن هاتفها ووجدت اسم حامد أمامها على الشاشة، فمشت خطوات وكلمته، ثم ذهبت وقابلته على طرف الميدان. تحدثا طويلًا عما يجري هنا ويخطف الأبصار، ونسيا في غمرة نشوتهما بهذا الزحام الرحيم، أن يتطرقا إلى ما بينهما، فيتخاصما ويتصالحا في دقائق، دون أن تلوح في الأفق أي بارقة أمل على أن لقاءهما سيكون قريبا تحت سقف واحد، وليس هنا في هذا الميدان الفسيح، أو في الشوارع التي طالما احتضنت أقدامهما وهما يسيران دون أن يعرفا إلى أين المسير؟

73

ابتسم الملك الفرعوني «زوسر» بفمه الوسيع فاختفت التجاعيد التي تكسو وجهه المثلثي الصارم وأشرقت عيناه الغائرتين حين وصل إلى أذنه وهو في المتحف المشرف على ميدان التحرير هتاف «سلمية.. سلمية». رفع يده الحجرية الراقدة على صدره منذ آلاف السنين، وتلك التي وضعها على وسطه، وراح يصفق بكل ما أوتي من قوة، ثم تحرك، وفتح الصندوق الزجاجي الذي وضعوه فيه؛ ليتفرج عليه القادمون من وراء البحار العميقة، وتحرك حتى وصل إلى الباب الوسيع المقوس للمتحف. مر من جانب الحراس دون أن يروه، بعد أن استعان بالسحر القديم فتحول جسده الصخري إلى دفقة من نسيم، وخرج ليتجول في الميدان.

سمع ضجيجا في هذا المكان قبل سنوات خلت، وتابعه مبتسمًا من صندوقه الشفاف، لكنها المرة الأولى التي يكون فيها الهتاف هادرا، وتقتحم أذنيه الكلمة التي كرس حياته لها «سلمية»، حين أطلقها قلبه العامر بالرغبة في التغيير، وإصلاح عقائد الناس.

كانت سنوات حكم الطاغية تتوالى، وزوسر يعدها في محبسه الشفاف، ويسأل نفسه: هل يزيد عن أيام بقائي أنا في الحكم؟ ويقول لرفاقه في المتحف العريق:

ـ أنا الجسد المقدس، حكمت تسعة وعشرين عامًا، ومددت حدود بلدي جنوبا، وراكمت ثروة طائلة من تركواز سيناء ونُحاسها، وبنيت أول هرم عرفه البشر، وأصلحت للناس دينهم، وسجلت كل هذا في بردية تورين.

يعلو صوته فينفذ إلى القاعات الفسيحة والجدران العالية والردهات الممتدة، فتسمعه مومياوات زمن توت غنخ آمون، وتماثيل من عايشوا بناة الأهرام الثلاثة الكبرى، وآثار الدولتين الوسطى والحديثة وأيام الإسكندر الأكبر، والتحف الراقدة في أقسام البردي، وقطع العملة، والجعارين العجيبة.

يثرثرون جميعًا حين يأتي الليل، وتعلو الهمسات إلى صياح دون أن يسمعها أحد من الذين يأتون ويذهبون بلا انقطاع. يصل إليهم دبيب من يمرون في الخارج، أقدام البشر وحوافر البغال والجياد، وخفاف الجمال، ثم أقدام بشر جدد وإطارات السيارات وأبواقها. ويتعجبون من كل ما يجري حول المتحف الكبير، ويحزنون على أحفادهم الذين انحدروا إلى أسفل سافلين.

كان زوسر نثرخت وحده يعرف أنهم سيأتون يوما، وأن دبيبهم المتفرق في كل الشوارع والممرات المحيطة بالمتحف، سيتجمع ويقوى ويصير هديرا مهيبا، وأنهم سيقفون صفوفا هنا أمام الباب المقوس دفاعا عن أجدادهم الذين يقفون في الداخل بين الزجاج النظيف، أو ينامون على ظهورهم ويبتسمون.

يمضي زوسر بين الحشود دون أن يراه أحد، حتى يصل إلى الكعكة الحجرية.

وينصت إلى الحوارات التي تصنعها أفواه تمردت على الصمت الطويل. ويتذكر مهندسه المعماري البارع أمحوتب، ويقول في نفسه:

- من بينهم بارعون مثله، يتوقون إلى بناء أهرام جديدة ليست من حجر.

ويسمع أحدهم يصرخ:

- انتهى عهد الفراعنة.

يضحك من كل قلبه، ويود أن يقول له، لكنه لن يسمع:

- حمَّلتمونا فوق طاقتنا، ووصلت إليكم أخبارنا مبتورة، وخلعتم علينا جميعًا أخطاءً وخطايا قلة منا. كنا عظماء مهابين، لكن المتجبرين بيننا كانوا قلة؛ لأننا آمنا بالناس وتآلفنا معهم، وفهمنا أن المعابد التي تسندنا خاوية من غيرهم، حتى لو امتلأت بالكهنة.

راح يتفرس في وجوههم جميعًا؛ ليتبين من يشبهه فيهم، ومن لا يشبهه أبدًا. وتناهى إلى سمعه صوت حامد عبد الظاهر يقرأ في كتاب تحت إحدى اللمبات المدلاة من عمود إنارة في وسط الميدان، وحوله يتحلَّق كثيرون؛ لينصتوا إلى تفاصيل أول ثورة في تاريخ البشرية وقعت على ضفاف النيل أيام حكم بيبي الثاني. يقرأ ويغلق الكتاب قليلًا، ويشرح ما سمعوه.

كان يقص عليهم ما ساقه الحكيم من أن سبب هذا الهياج العظيم هو تفشي الظلم واتساع الهوة بين الناس، حيث كانت قلة متخمة من فرط الشبع، وكثرة تعاني من قسوة الجوع، الذي بلغ مداه، فأكل الناس العشب، واكتفى بعضهم بشرب الماء، وعزَّ على الطير أن يجد ما يملأ به جوفه، بعد أن نفدت الغلال من الصوامع، وتُركت الماشية تهيم على وجوهها، فهجم الناس عليها وذبحوها والتهموها، حتى فنيت، ووصل الأمر إلى حد أن الناس كانوا يخطفون القاذورات من أفواه الخنازير. ومات خلق كثر، ملأت جثثهم الشوارع والنهر، حتى أصبحت التماسيح تزاور بعيدًا عنها، بعد أن أكلت حتى الشبع.

ينظر حامد إلى من ينصتون إليه ويواصل:

- حين اشتد الجوع بالناس هاجموا بضراوة قصور الحكام والأثرياء، فقتلوا من فيها، ونهبوا ما بها، وأشعلوا النيران في كثير منها ، وصار الشعار الذي يسري في البلدات الرابضة على ضفتي النيل هو:

«لنطرد أصحاب الجاه من بيننا»

وترك الثوار بيوت ذوي المال والسلطة خرابا تنعق فيها الغربان، فصار هؤلاء أذلاء من بعد عز، وجوعى من بعد شبع، وبؤساء من بعد تنعم، وهام كثيرون منهم على وجوههم بلا عمل ولا سلطة. وبلغ الانتقام مداه من أبناء الأمراء وأحفادهم ومومياواتهم. واستولى الفقراء الجوعى على ثروات هؤلاء وتحفهم الثمينة، من دون أن يعرفوا لها قدرا، أو يوجد سبيل لبيعها، بعد أن انهار العمران تمامًا، وانتشرت الأوبئة في كل مكان.

وينتهي حامد من شرحه، ويعود إلى إيبور:

«من كان يرتق نعليه فيما مضى صار صاحب ثروة.. ومن لم يكن في مقدوره أن يصنع لنفسه تابوتا أصبح يملك قصرا.. ومن لم يكن باستطاعته أن يشيد حجرة بات يملك فناء مسوَّرا.. ومن لم يكن يملك ثورا صار يملك قطعانا.. ومن لم يكن يملك حفنة قمح أصبح يملك أجرانا... وأصبحت ربات الخدور يرتدين الخرق البالية، والعقيلات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن.. والسيدات النبيلات اللاتي كن متاعا حسنا صرن يقدمن أجسادهن في الفراش.. وأولاد رجال البلاط أصبحوا في خرق بالية، وأولاد الحكام يلقون في الشوارع»

يمسح حامد الميدان بعينيه ليطمئن إلى امتلائه ثم يقول لهم:

- في غمرة هذه الفوضى سقط الحكم بعد أن انهارت الدواوين والمحاكم ونهبت سجلاتها، وذبح كبار الموظفين وصار من بقي منهم على قيد الحياة بلا كلمة مسموعة، وعاشت مصر بلا حكام لمدة تصل إلى ست سنوات، فانتشرت عصابات السرقة والقتل، وأفلست الخزانة العامة، ولم ينجُ قصر الملك نفسه من النهب؛ ليجد بيبي الثاني نفسه أمام هذه الحقيقة المرة، بعد أن عاش سنوات طويلة مثقلا بالأكاذيب، عازلا نفسه عن شعبه، ومسلما إياها إلى حاشية لا تجيد إلا فن النفاق والكذب والتضليل.

وحين ينتهي يمصمصون شفاههم، ويقولون:

- ما أقرب الليلة إلى البارحة، يا أستاذ حامد عبد الظاهر.

فيبتسم، ويضع الكتاب في حقيبته الجلدية الصغيرة. ودون أن يدري حامد، مد زوسر يده في الحقيبة وأخرج كتابا آخر، كان يجب على الباحث الشاب أن يقرأ بعض ما فيه لمن حوله؛ ليعرفوا أن ما هم فيه الآن من تواد وتعاون ممدود في عروقهم إلى زمن قديم. فقبل خمسة آلاف سنة كان هناك شباب مثلهم مع قائدهم «أوني»، يحررون بلدهم بعد أن احتله الساميون. جاءوا من الجنوب لاهثين دون أن يفقدوا ثباتهم، وكنسوا العدو أمامهم وطاردوه إلى بعيد بعيد. ظلوا شهورا سويًّا في الدروب والساحات والصحاري، من غير أن يسب أحد أخاه، أو يسرق عنزه ولا خبزه، أو يخطف نعله. وهاهم يعودون من جديد بعد كل هذا الزمن ليقتطعوا هذه الساحة من الجسد المترهل، وينفخوا فيها من أرواحهم.

دار حول الميدان ومكث في قلبه وقتا طويلًا، ثم غادره مبتسمًا. انعطف يسارا، ومشى في الممر المؤدي إلى المتحف، حتى وصل إليه. وكما خرج ، دخل من دون أن يشعر به أحد، وجد باب الصندوق الزجاج مواربا، فتحه وعاد إلى مكانه، وأغلقه خلفه.

***

بعد شهور سمع صراخا زاعقا، وهتافات لم يسمعها من قبل. فخرج متسللا

من صندوقه، ودخل الميدان على عجل؛ ليجد من فيه قد تغيروا. رايات سوداء ووجوه عابسة ولافتات عليها حروف مختلفة.

ورأى رجالا يلبسون جلابيب بيض تتساقط عند ياقاتها التي تطوق الأعناق المشرئبة لحى فاحمة السواد، ما إن يدخلوا الميدان حتى يجري إليهم ناس كثيرون، ويحملوهم على الأعناق. أحدهم تهافتوا على سيارته وكادوا أن يرفعوها عن الأرض، ثم رفعوا أكفهم إلى السماء، وراحوا يقولون كلاما بسرعة، ويطاردون قلة من الشباب الذي رآهم في المرة الأولى. أحد هؤلاء وقف يقاوم، فأوسعوه ضربا حتى سقط تحت أقدامهم، وسمع زميلا له يصرخ:

- اتركوه، إنه حسن عبد الرافع.

فردوا عليه جميعًا:

- نعرفه، ولهذا نضربه.

جال زوسر في كل جنبات المكان، فأصابه غمٌّ، وتذكر المنسيين في هذا الصراع الممقوت، وضاهاهم بالذين جاءوا في عهده، نظرا لنقص فيضان النيل. وتذكر الرسالة التي بعث بها إلى خنوم معبود الشلال:

«قلبي كان في ضيق مؤلم؛ لأن النيل لم يفض لسبع سنوات. الحبوب لم تكن وفيرة، البذور جفت، كل شيء كان يملكه الفرد ليأكله كان بكميات مثيرة للشفقة، كل شخص حرم حصاده. لا يمكن لأي شخص أن يمشي أكثر، قلوب كبار السنّ كانت حزينة وسيقانهم انحنت متى جلسوا على الأرض، وأيديهم أخفت بعيدًا. حتى خدم المعابد كانوا يذهبون، المعابد أغلقت والملاجئ غطّيت بالغبار».

ويتذكر حتى هذه اللحظة الرد الذي جاءه من خنوم:

«أنا سأجعل النيل يرتفع لك. لن يكون هناك سنوات أكثر عندما يخفق الغمر في تغطية أي منطقة من الأرض. الزهور ستورق، و تنحني جذوعها تحت وزن غبار الطلع».

وقف عند تمثال عمر مكرم، وصعد إليه، واحتضنه، وابتسم في وجهه، ونظر إلى الميدان نظرة طويلة شاملة، ثم وقف يبتسم في إشراق وحبور، ويقول لروحي أحمد وحنا، الشهيدين اللذين رحلا برصاصة واحدة غادرة:

- سيأتي ما أردتما جليا كشمس صيف ولو بعد حين.

ثم استدار عند الباب الوسيع للمتحف. أعطى ظهره للواقفين والراقدين خلف الجدار السميك الأصم، ورفع وجهه ليرى الساحة الوسيعة التي طاردته قبل قليل فخطف بصره شيء يرفرف في نوافذ البيوت المطلة على اللحى المتزاحمة، دقق النظر، فإذا بأولاد وبنات صغار، يمدون أعناقهم فوق كل الرؤوس المشحونة بالضغائن، ويمدون أيديهم برايات نصر يؤمنون بأنه لا محالة آتٍ.

74

ما إن خرجت روحا أحمد حسن هاشم فتى مصر الجديدة، وحنا تادروس صومائيل فتي مصر القديمة، بين يدي المهندس إبراهيم الشربيني حتى دارتا الميدان من أدناه إلى أقصاه، تسبحان فوق رؤوس الغاضبين. رأتا ما لا يراه كل هؤلاء المحتشدين هنا، أو أولئك الذين ينتظرون الخلاص خلف الجدران المصمتة. من يخافون على الثورة ويقولون عنها وهم يمصمصون شفاههم في أسى: لقد سرقوها، ومن يخافون على الوطن، وينظرون إلى توسيد من لا يعرفون قدره ويقولون: البلد سيضيع منا.

كانتا تبتسمان وترفرفان بلا أجنحة، وتلثمان الوجوه التي احمرت من الحماس رغم برد الشتاء. ترتفعان في الهواء فتريان الميدان كله بقعة ملونة جميلة، ثم تهبطان سويًّا؛ لتحوما حول كل من أذنت ساعة رحيله؛ لينضم إليهما في عالم حرٍّ براح.

كان شارع «محمد محمود» مكتظا بالمتظاهرين، والليل رمى سدوله على الجدران والأرض والحارات الجانبية والشجر الذي يتناثر داخل سور الجامعة الأمريكية. ومن عمق الظلام كانت تومض طلقات تعرف إلى أين تذهب. ولا تمر دقائق إلا ويأتي الشباب حاملين أحدهم مطروحا فوق الأكتاف، ويقطر دما من رأسه أو صدره، ولا تمر دقائق أخرى إلا وتصعد روحه إلى أخواتها، أو يشق له ممر إلى عربة إسعاف تأخذه إلى المستشفى، وهناك يخمد الجسد، فتنفتح أبوابِ قفص اللحم والعظم؛ ليخرج منه المارد المحبوس، الذي لا يعرف أحد عنه شيئًا.

ويرتل المقرئون في المآتم التي تنعقد تباعا:

«ويسألونك عن الروح. قل الروح من أمر ربي. وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا».

تتزامل أرواح الشهداء في عالم الغيب. تصاحب كل منها تلك التي كانت تصادقها في الدنيا، أو تلك التي تأتلف معها في الآخرة. وتآلفت روحا أحمد وحنا فظلتا تطيران معًا بلا قيود ولا سدود. تذهبان إلى المكان الذي سقط فيه الجسدان اللذان كانا يحبسانهما سنوات، ثم تحطان على رأس الشربيني، وهو واقف على طرف الميدان، يعد «علب الطعام» التي اشترتها «لجنة الإعاشة» من تبرعات جمعها الثوار.

دخلتا ذات ليلة إلى مكتب السياحة. كان النقاش بين الشيخ رأفت مغازي وحسن عبد الرافع قد احتدَّ. وقال له حسن، قبل أن ينصرف غاضبًا:

- نحن الذين سنموت هنا. أما أنتم ستذهبون لعقد الصفقات التي تبقيكم على قيد الحياة. تمصون دماء هذا الشعب، وتسخرون منه، وتستعملونه مجرد أدوات لتحقيق أغراضكم التي لا تخص أحدا سواكم، لكنكم تتوهمون أن فيها سعادة الجميع.

كان رأفت يبتسم ساخرا، ثم انفجر فجأة في حسن:

- نحن من يقدم التضحيات دومًا.

فهز حسن رأسه وقال:

- تضحيات من أجل من؟

- طبعًا من أجل هذا البلد.

- بل من أجل جماعتكم. مشروعكم الذي يعشش في رؤوسكم كالوباء، والذي فصلتموه على مقاس أطماعكم حتى كاد أن يصير دينا جديدا.

- هذا كلام مرسل، لا دليل عليه.

- أكبر دليل هو أنكم لم تقدموا سوى عدد قليل من الشهداء، ستة أو سبعة على الأكثر، وهذا لا يتناسب مع حجم مزاعمكم بأنكم الضلع الأساسي في هذه الثورة، ولا مع حجم مطالبكم التي تتراكم ولا يبدو لها حد، وهي ليست للناس، إنما لجماعتكم، بقرتكم المقدسة.

- أنت حاقد على المشروع الإسلامي.

- وهل أنتم الإسلام؟!!!

كانت الروحان ترفرفان بينهما، وهما تعلمان كل شيء. تحدبان على كتف الشاب المخلص الذي لا يقول إلا ما يؤمن به، وتعرفان أن روحه ستنضم بعد زمن ليس ببعيد إليهما. وتنظران بغيظ إلى الشيخ، الذي ستبقى روحه ساكنة في جسد يسعى دومًا إلى مزيد من القوة واللذة، وستذهب معه إلى القصر الكبير.

***

مادت الأرض تحت أقدام المتظاهرين حين فرقع رصاص من الجهة اليمنى للميدان، لكن السماء بقيت على حالها من الهدوء، مفتوحة أمام الروحين اللتين تسعيان في الأثير نحو أهداف لا يمكن حصرها أبدًا.

اقتربت روح أحمد من روح حنا وقالت لها:

- ما بان لنا أراحنا من الحسرة.

- لا تنسَ أن ما نراه ليس كل شيء.

- لكنه أبعد كثيرا مما يراه أولئك الذين يندفعون بكل كيانهم من أجل الحرية والكرامة، ولديهم شعور جارف بأنهما ثمرتان دانيتان.

- لا يدري أي منهم، أن من سيضعون في يده ما حصدوه سيسعى إلى الاستئثار به، وأن من سينازعونه لا يقلون عنه أنانية.

- الخيانة تلف حبالها الغليظة حول هذا الميدان الفسيح.

- ورائحتها العفنة تصل إلى عنان السماء.

- لكن الغاضبين الأبرياء لا يدرون عن هذا شيئًا.

- لو كان بيدنا لوقفنا فوق عمود النور هذا وفضحنا كل شيء.
- هذا مستحيل... مستحيل.
- وحتى لو كان ممكنا، هل تعتقد أنهم سيصدقون؟
- لا يصدق أغلب الناس إلا ما في رؤوسهم من أوهام.
- لكن هناك من يتخيل بعض ما سيجري.
- ما سيقع أبعد من أي خيال.
- الناس دود في صخر أصم.
- أو أغنام في مرعى يزحف عليه رمل ساف.
- لكن هناك من لا يريد أن يصير دودة ولا نعجة.
- هؤلاء هم الأجدر بأن يحيوا، لكنهم أكثر من يدفع الثمن.
- لأن أغلب الناس مربوطين من مِعداتهم.
- وهذا ما سيتم اصطيادهم منه، كما تعرف.
- وهناك طعوم أخرى للصيد ستظهر وتأخذ كل شيء إلى الوراء.
- تقصد من يزعمون أنهم يمتلكون مفاتيح الجنة ومغاليق النار.
- نعم. سيزحفون بعد قليل إلى هذا المكان، الذي لم يدر بخلدهم أبدًا أنهم سيأتون إليه في يوم من الأيام، وسيقفون هنا ويصرخون بما لم نقصده أبدًا، ويزعمون أنهم كل شيء.
- ستراق دماء جديدة هنا. هم لن يدفعوا شيئًا، لكنهم سيجنون أشياء.
- إلى حين.
- نعم إلى حين.
- دعهم يفرحوا بما تحت أقدامهم.
- طامعون.
- وكاذبون.
- لكن على قلب رجل واحد.
- قطيع.
- لو امتلك منافسوهم نصف ما لهم من توحد واتحاد لما بقي لهم هم أي مكان تحط عليه أقدامهم الساعية إلى التمكين.

***

دارت الروحان في الميدان من جديد، بينما الليل يمضي راحلا في طريقه، غير عابئ بالدماء التي تلطخ حوافه المضاءة بنور المصابيح الخافتة. توقفتا عند رأس صفاء عليوة. كانت تبحث عن حسن عبد الرافع وسط الزحام. هاتفته منذ ساعة

وأخبرها أنه في الميدان. قال لها إنه سيقابلها أمام محل بيع الحقائب المغلق الآن، والذي اشترت منه قبل الثورة بشهرين حقيبة سوداء صغيرة، وأهدتها له في عيد ميلاده. كانت صفاء تقف والحيرة تسكن ملامحها، وعيناها زائغتان تحملقان في الوجوه التي تظهر قسماتها في هالات النور.

نظرت روح أحمد إلى روح حنا وقالت لها:

- مسكينة هذه البنت.

- لا تعرف مصيرها.

- سيطول انتظارها له بعد شهور قليلة.

- سيحكي لنا عنها حين يأتي إلينا هنا في دار الحق والبصيرة.

- ثم ينتظرها معنا.

- لن تنساه حتى وهي غارقة في عرقها تحت جسد رجل آخر يهبها من البنات اثنتين ومن البنين ثلاثة. رجل ثالث، ليس خالد السبع ولا أكمل، اللذان يتسابقان إلى قلبها. ستصد خالد بعنف وقسوة وتجبره على الانصراف مهزوما، فيتلقى الهزيمة الأولى في حياته من فتاة ويعيش بقية عمره بجرحها، لكن جرحه سيهديه سواء السبيل. سيسقط تحت قدميه وهم «الإنسان الأسمى»، ويأتي إلى الميدان ثائرا بعد طول تجاهل، وسيسعى وراء صفاء في كل مكان، مكتفيا برؤية وجهها الصبوح ولو من بعيد.

وستقول لأكمل: نحن صديقان، وسيرضى ويشد على يدها:

- بل أنت أختي التي لم تلدها أمي.

وسترحل بها الأيام لتجد نفسها مضطرة إلى الموافقة على واحد من الذين يطرقون بابها، حتى تقطع ألسنة من يتهامسون في فجور:

- أعطت حسن ما يخيفها الآن من الزواج.

- ستغمض عينيها وهي جدة عجوز، دافئة في فراشها، على صورة حبيبها الذي رحل قبل سنين. الصورة التي ستراها وهي تمرح في نور فضي غامر، يطغى على وجوه كل الذين جلسوا على الكرسي الكبير ولم يحققوا العدل والحرية.

***

من سيظفر بصفاء في النهاية متواجد هنا في الميدان، هي لا تعرفه، ولا يعرفه حسن عبد الرافع الذي تراه الآن روحا أحمد وحنا وهو يمد يده ويصافح صفاء في مودة بالغة، ثم يأخذها إلى مكتب السياحة، حيث مقر تدبير شؤون متظاهري الميدان.

في هذه اللحظة مرقت الروحان وتوقفتا فجأة أمام وجه مستدير، قسماته حادة، ينتهي بعنق عريض يلتصق بكتفين سميكتين تنيخان على كتلة متينة

من اللحم والعظم. ضحكت روح حنا وقالت:

- لا تدري صفاء الغارقة في الصبابة أن حكايات تنتظرها مع هذا الفتى ممشوق القوام.

- هو أيضًا لا يعرف عنها الآن شيئًا. يوما ما سيقرأ اسمها على شاشة مضيئة لهاتف من يعرفه جيدًا، ووقتها سيلهث وراءها غير متنازل عنها أبدًا.

- في رحم الغيب كل شيء موجود، لكن الروح المحبوسة في قفص البدن لا تدري.

- هذا من رحمة ربك بهؤلاء.

- ألم نقل كثيرا في الحياة الدنيا: لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع.

- نعم.

- لو علم هؤلاء ما سيأتي بعد أيام وأسابيع وشهور وسنين ربما اختاروا الواقع.

- لكن واقعهم بائس وفاسد، هكذا كان واقعنا قبل أن نرتع فرحين في الملكوت، أم نسيت؟

- لم أنسَ أبدًا.

- هذا قدر البشر أن يسعوا دومًا إلى الأفضل مدفوعين بما يرونه بأبصارهم، ويلمسونه بأيديهم، وما يصل إليه خيالهم، ويراودهم في أحلامهم التي تتوالى كالسيل العرم.

- تعال لنعرف قدر الرجل الذي أخذنا في صدره قبل الرحيل.

- المهندس إبراهيم الشربيني؟

- نعم.

ودارتا حتى وصلتا إليه. كان التعب قد نال منه فجلس مكانه بعد أن فرش جريدة تحت عجيزته، ومد ساقيه إلى الأمام قليلًا، ثم قرفصهما حتى يعطي فرصة للمارين صوب الشمال وصوب اليمين بلا توقف.

ضحكت روح حنا وقالت لروح أحمد:

- بعد ثلاثة أسابيع من الآن سيجلس على حاله هذا لكن في بلاد بعيدة. بلاد الملح والرمل والوحدة القاتلة.

- سيخلو إلى نفسه كثيرا ليعيد شرائط الذكريات، ولن ينسى.

- وسيعود يوما حين يشعر أن بقاءه هنا ضرورة، سيجهز الطعام للقادمين الجدد إلى الميدان، ويأخذ في صدره شهداء آخرين بعد سنين.

- يحمل الوطن في عينيه أينما ذهب.

- وفي قلبه وضميره.

- شتان ما بين هذا الرجل الذي يجود بكل ما لديه دون أن ينتظر لنفسه شيئًا،

وبين هذا الذي يجلس الآن على مكتب بين الشباب، يقول لهم بلسانه ما يأباه قلبه.

- سيخرج إبراهيم من كل هذا المولد بلا حمص، أما رأفت مغازي سيقبض بيديه على كل شيء.

- إلى حين.

- طبعًا، إلى حين، لكنهم لا يعلمون.

وصعدتا سويًّا إلى أعلى وهما تسمعان الأغنية التي ستصير بعد أيام قليلة، تنطلق من حناجر كل المصريين:

«قولوا لأمي ما تزعليش

وحياتي عندك ما تعيطيش

قولولها معلهش يا أمي

أموت أموت وبلدنا تعيش»

***

ثم مرقتا في مروج خضراء لا تبدو لها نهاية، والسعادة تغمرهما، بعد أن تساقطت الهموم إلى غير رجعة، وبدا لهما أن كل ما يتصارع عليه هؤلاء هناك فوق التراب والطين وبين امتدادات الملح الأجاج شيء تافه جدا، لكن أكثر الناس لا يعلمون، بمن فيهم هذا القصير المكروش الذي قفز إلى أعلى في غفلة من الأيام والناس، فنسي تودده وتذلّله، وانتفخت أوداجه، والتوت شفتاه أكثر، وكاد أن يصرخ بكل ما أوتي من قوة:

- أنا ربكم الأعلى.

متجاوزا العتبة التي أوقفها عنده أتباعه الذين شبهوه بالأنبياء وخلعوا عليه ولاية مزعومة لا تعرف إلى نفسه ولا إلى أنفسهم سبيلا، ولا كل عبيد السلطان في الأرض.

لكن الروحين اللتين تطيران حول الرؤوس في الميدان كانتا تعرفان جيدًا الرؤية التي قصتها أم حنان المنشاوي على ابنتها وهي تراها تذبل وتتوجع وتكبر فجيعتها بمرور الأيام.

نظرت إليها وفي عينيها دموع متحجرة، وقالت:

- فرجه قريب.

فتطلعت حنان إليها، وتحركت شفتاها المقددتين، وقالتا في هدوء وارتخاء:

- خير.

فأغمضت الأم عينيها قليلًا وقالت:

- رأيت رجلهم الاحتياطي الذي وضعوه على الكرسي الكبير وهو جالس على

الأرض، فوق رأسه لفافة بيضاء، وقدماه مغروستان في التراب، وبصره ذاهب نحو قرص الشمس المجروح بسكين الغروب. كانت عيناه منبلجتين، بينما هناك في الخلفية قصر ذو أسوار عالية قد انفتحت أبوابه أمام سيل عارم من البشر الغاضبين.

ورأيت أجولة من دقيق ملقاة على الأرض تدوسها الأقدام فتنفلق ثم ينفرط أبيضها تحت النعال وهي تتقدم دون أن تبالي نحو حفل شواء كبير في البهو الواسع والردهات والدهاليز. المكان كان يغص بالمتدفقين بلا روية، وقطع اللحم الكبيرة ملضومة في أسياخ حديدية طويلة مسنونة، ترقد متراصة فوق أزاهير اللهب، وراحت حوافها تحترق، ورائحتها تنداح في الهواء الحبيس، والدخان يغطي الرؤوس.

كانوا جائعين، وعيونهم تقدح شررا، راح ينفلت من المقل ويزركش السواد بأحمر فاتح. بعض السواعد كانت تنزف دما. أما الأيدي فقد امتدت تتخطف اللحم المشوي، وترميه في أفواه وسيعة، وتتعالى غمغمة المحتشدين في الصفوف الخلفية انتظارا لدورهم في الوليمة.

ولم تدرك حنان مغزى ما سمعت، حتى شرحت لها أمها ما تعتقده، مثلما شرحت رؤى ليل سابقة وتحققت.

وسمعت تأويل الحلم روحا أحمد وحنا فضحكتا وقالتا معًا:

- صدقت.

ورأتا معها نهاية كل شيء، حيث راحت الجدران المتعرجة تنهار فوق تلال من الرمل الساف القاحل، وانداح صراخ وعويل في جنبات المكان.

75

لم تدهسها الأقدام؛ لأن كل من في الميدان كان حريصا على أن يمر من جوارها بسلام، وينفخ فيها من روحه. تداعبها السيقان المتزاحمة بلطف، ويميل البعض على أوراقها الغضة ويشمها في امتنان ورضا، فتفوح في أنفه بعطر أيام الغضب، إنه عرق الحماسة والإخلاص، ورائحة الجنة التي تنتظر الذين سقوها بدمهم عند حافة الأمسيات الملتهبة، حين يسقطون شهداء من أجل عالم أفضل.

أحدهم الذي لا يعرفه أحد، غرسها يوم جمعة الغضب على الطرف الأيمن للكعكة الحجرية بميدان التحرير، وقال لمن تابعوه وهم يبتسمون:

- إنها شجرة الثورة.

نظروا إليه وقالوا:

- مجرد فسيلة لشجرة زينة.

فابتسم وقال:

- لكنها هنا في هذه البقعة المقدسة.

هزوا رؤوسهم مصدقين على كلامه، وقالوا لكل من سأل عليها، وهي تداعب الريح:

- غرسناها بينما كان رصاص القناصة يمرق فوق رؤوسنا.

كثيرون يقولون إنهم شهدوا اللحظة التي حطت فيها أجنحتها فوق الطين، وفردت أقدامها تحته، وسحبت في هدوء من النسائم التي هبَّت من فوق المتحف المصري قادمة من النيل، الذي يَهَب الشجرة وأصحابها ماءً عذبا.

لم تُسقَ الشجرة بماء واحد، فبعض الذين جُرحوا في المعارك الأمامية التي خاضها الثوار بأيديهم ضد الهراوى وقنابل الغاز والرصاص المطاطي، جاءوا وجلسوا بجوارها وتركوا دماءهم تسيل إلى جذرها الذي يشتد على مهل، فرشف منها على قدر حاجته.

غادر الثوار الميدان عقب رحيل الطاغية، وظلوا في بيوتهم صامتين خمسين يوما، ينتظرون شيئًا أن يتم، لكن الذين وزعوا الكرسي الكبير على أعجازهم الضامرة أبقوا الأمر على حاله. وحين نزلوا مرة أخرى وجدوا الشجرة قد شبَّت نحو السماء قليلًا. مدوا أيديهم وداعبوا أوراقها الصغيرة، ورأوها وهي تصنع لفائفها على جوانب ساقها النحيلة، وتفرد جناحيها نحو القادمين.

وتوالى نزولهم، وتوالى تقدمها خطوات في الهواء ونحو عمق التراب والطين، حتى نزل الجيش ذات يوم وأخذ الميدان، وثبت فيه عساكر الداخلية. وقال الجندي خليفة الإسناوي ضاحكا:

- حررنا ميدان التحرير.

وضعوا كل هؤلاء الجنود حول الكعكة الحجرية في شهر الصيام، وتركوا الشمس تأكل أقفائهم. كانوا يقفون كالألف بين الواحد وزميله نصف متر. وجاء الثوار من بعيد يرمقونهم. وقفوا على مداخل الميدان يرثون الأيام التي كانوا فيها هنا. بعضهم حاول أن يرى الشجرة من بين الأفخاذ المتراصة، ورآها وهي تنظر في خجل نحو كل من يرومها، ويسعى إليها.

سأل أحدهم زميله:

- أين الشجرة؟

فراح يميل برأسه يمينا ويسارا، ويمد عينيه ليخترق أجساد الجنود، ثم مد إصبعه ناحية اثنين منهم، وقال:

- ها هي.

وقال آخر:

- كلما رأيتها موجودة أؤمن أن ثورتنا مستمرة، وكلما كبرت ملأني إيمان بأن ما فعلناه لن يصغر حتى ولو رموا أمامه كل هذه الأحجار الضخمة الخشنة المسنونة.

انصرف الجنود بعد أيام، وبقيت هي. يسكب الثوار عند جذرها بعض ما معهم من ماء، فتبتسم، وتعلو وتعلو حتى صارت شجيرة يافعة. لم يمهلوها وقتا طويلًا حتى تصبح شجرة كاملة فيقطفوا ثمار ما زرعوا. استعجلوا وبدأ الحصاد. والحصاد كان تحويل الأغصان الطرية إلى جدران، علقوا عليها لافتاتهم الطافحة بالغضب والإصرار، حتى ازدانت جميع فروعها وأوراقها الخضراء بصفحات عما يريدون ويحلمون.

كتبوا بخطوط مختلفةالأحجام والألوان مختصر تاريخ الثورة:

«عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية»

«يا نجيب حقهم.. يا نموت زيهم»

«يسقط حكم العسكر»

«دا مفهومكم للعدالة.. ترموا الشهدا في الزبالة»

«اتنين ملهومش أمان.. العسكر والإخوان»

«يسقط يسقط حكم المرشد»

«متعبناش متعبناش.. ثورة كاملة وإما بلاش»

«ثوار أحرار هنكمل المشوار»

وإلى جانب الشعار الأخير، وضعوا صور بعض الشهداء. وتزاحمت الكلمات والصور، حتى لفت الشجرة من كل جوانبها، ومن أخمصها إلى ناصيتها. لا يظهر

منها إلا قطعة من الساق عند الجذر، يراها القادمون من بعيد. أما من يقف بجانبها فيحتاج إلى أن يجلس ويميل برأسه حتى يراها، وربما استلزم الأمر أن ينام على ظهره، ويدفن رأسه تحت الأغصان المتهدلة إلى أسفل حتى يمسك بها. أوراقها تنظر من أعلى، محاولة أن ترفرف بين اللافتات المتزاحمة، لكنها لم تفقد أبدًا نضرتها، ومداعبتها الدائمة لنسائم النيل الطرية.

***

خارج الميدان تناسلت الشجرة أشجارا، بعد أن ذاع صيتها. ففي نهاية السنة الميلادية امتلأت محلات الزهور بشجرة الثورة؛ ليشتريها الناس في «عيد الميلاد» وتهافت الجميع عليها. كان طولها مترين ونصف وعرضها مترا ومكونة من تسعة أدوار، ومزينة بأعلام مصر، وعليها تمثال صغير لبابا نويل مُرحبا بالثورة، ولمبات تنيرها في الليل، واكسسوارات متعددة الأشكال والأحجام.

مضى حاملوها مختبئين في ظلالها، يتذكرون كلمات أصحاب محلات الزهور، الذين قالوا لهم:

ـ إنها شجرة طبيعية معمرة، يمكن وضعها في المنزل، وطولها يمكن أن يصل إلى ثلاثين مترا إذا زرعت بطريقة جيدة، ووجدت عناية ورعاية دائمة.

في الذكرى الأولى للثورة، غرس الشباب شتلات في حدائق المدن، وأطلقوا على كل منها «شجرة الثورة»، وراحوا يرنون إليها من بعيد أو قريب، وينتظرون أن تفرد أشرعتها في وجه الريح. وقالوا للعابرين حكايتها، حتى لا ينسى أيٌّ منهم تلك الأيام التي خرج فيها الملايين يدقون الهواء بأيديهم، ويهزون الشوارع بحناجرهم. وعلى مقربة منها نظموا وقفاتهم الغاضبة، وهتفوا من جديد للعدل والحرية.

جاءت الذكرى الثانية لتجد الشجرة قد شبت عن الطوق، وأطلقت فروعها طيعة أمام مزيد من اللافتات. لافتة تتحدث عن الجنرال الكبير الذي وقع في الفخ، وتطالب بمحاكمته، وتحتها يهمس البعض بأن هناك مقبرة جماعية دفنوا فيها ثوارا بعد قتلهم في ميدان التحرير وفي الشوارع الخلفية، وأهلهم ينتظرون رجوعهم، والصحف تصفهم بـ«المفقودين». لافتة أخرى تهجو المُتأخونين، وتقابلها هناك على حائط السنترال صورة لعاطف الشطنوفي بعد أن أطلق لحيته، وصورة للمخبر شعبان النمرتحذر الناس من أمثاله الذين ينقلون لسادتهم كل ما يجري في الميدان، ورابعة مكتوب عليها بخط صغير العبارة التي قالها حسن عبد الرافع ذات يوم:

«حين نفكر برهة في أن الأرض التي نحيا عليها مجرد رغيف خبز يطير في الهواء، هكذا نراها إن وقفنا فوق المريخ، وأنها لا تُرى بالعين المجردة إن أتيح لنا أن نقف فوق عطارد، وأنها مجرد كوكب في مجموعة شمسية هي واحدة من عدة مجموعات في المجرة، التي هي واحدة من عدة مجرات في الكون

الفسيح، سنتواضع ونرضى، ونحتقر الطغاة والمتجبرين وندوسهم بأقدامنا لغرورهم، ويذهب عنا الهم والحزن، ولا ننفك عن مطالبنا حتى تتحقق أو نستشهد دونها».

وجلس الشباب تحت اللافتات، وغاصوا في حديث طويل حول ما جرى.نظرت صفاء عليوة إلى وجه سامر خفاجي فوجدته راقدا تحت ركام من الغضب والحزن. اقتربت منه وقالت له:

- «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها»، ومن أوصلنا إلى ما نحن فيه هو من أمسك بالمقود، ونظر إلى ما فعله الشعب باعتباره مجرد غضبة، والمقدمات الخاطئة تؤدي إلى نتائج خاطئة، لكن هذه ليست نهاية الطريق، سنجمع أشتاتنا، ونقوم من جديد.

فملأ عينيه من وجهها الصبوح، المشرق بتفاؤل عجيب، لا يعرف هو سر المعين الذي تنهل منه كل هذا الفرح وسط أطمار الخوف والحزن والقلق، ثم سألها:

- وهل من جاءوا مثل من ذهبوا؟

ثم أجاب على نفسه:

- إنها ميليشيات ومنابر وأموال وتبجح وأكاذيب لا نهاية لها.

وضعت يدها على كتفه، وداست عليها حتى شعر أن أظافرها ستُغرس في لحمه، ثم قالت:

- لا يوجد ما هو أقوى من ناس هذا البلد، ويكفينا أن الذين سرقوا ثورتنا يقفون الآن عرايا على خشبة المسرح ويرفعون أيديهم، بلا جدوى، حتى يصدوا الأحجار والبصقات التي تنهال على رؤوسهم، هناك في عقر دارهم، وداخل القصر الذي يختبئ فيه رجلهم الذي رفعوه على أكتافنا في غفلة منا.

- هذا ما يصبرني.

وأغمضت صفاء عينيها قليلًا، ثم ابتسمت وقالت:

- كان حسن يؤمن بأن الشعب لابد أن يجربهم وكل الأمر بأيديهم حتى يصدق أنهم ليسوا أولياء الله الصالحين، وأنهم مجرد أكذوبة من أكاذيب الزمن.

وساد صمت، وتبادلوا النظرات، وقال سامر:

- في المرة المقبلة، علينا أن نتجنب الدهاليز المظلمة التي انزلقت إليها أقدامنا فضاع منا الطريق.

ورمق صفاء بنصف عين ثم قال:

- وعلينا ألا نتوانى حتى نكشف غموض مقتل صديقنا حسن.

فقال شاب كان يمد بوزه وينصت إلى ما يدور صامتًا:

- كل الأدلة ناقصة، وقوانين كثيرة فاسدة، يبدو أن سر موت حسن قد مات

معه، مثلما ماتت أيضًا الأسرار التي كانت في رأسه أو تلك التي سمعنا أنه قد خزنها على «فلاشة».

فابتسمت صفاء وقالت:

- هي كنز الأسرار الذي لم يفتح بعد.

صرخ أكمل:

- لا تذكريها، فقد قتلت حسن.

تاهت قليلًا ثم قالت:

- اطمئن فقد فقدناها مع فقده.

ولم تقل لأي أحد فيهم أنها دفنت النسخة التي حصلت عليها من حسن تحت نخلة في حقلهم الصغير بعد أن وضعتها في علبة عاج وأحكمت غلقها ولفتها في كيس من البلاستيك، وأنها تحتفظ بها إلى اللحظة المناسبة، حين تدرك أن طريق العدالة مفتوح ونظيف.

وتهلل وجه أكمل:

- أخذت الشر وراحت.

وانقطع الحديث حين هلت على الميدان من ناحية شارع طلعت حرب مسيرة تدق الهواء في عزم شديد، وهي تردد وراء شاب أسمر نحيف يستقر فوق كتفي شاب بدين:

«أنا مش كافر أنا مش ملحد.. يسقط يسقط حكم المرشد».

ثم لاحت خلف المسيرة مجموعة من الشباب ترتدي أزياء سوداء، وعلى وجوههم أقنعة سوداء أيضًا، مختلفة الأشكال والأحجام، ولا تظهر منهم سوى عيونهم التي تقدح غضبا. ولما رآهم سامر ضحك وقال:

- البلاك بلوك، الوافدون الجدد على الثورة.

ملأت صفاء عينيها منهم، ثم قالت:

- أخشى أن يتيحوا فرصة لأعدائنا، فيغطون وجوههم مثلهم ويسيئون إلينا.

ووخز كلامها رأس سامر، فأشاح بيده:

- محاولات تشويهنا لا تنتهي، لكنها ستتحطم على صخرة جيلنا العنيد، الذي تمرد على الخرس والعمى، وقام ولن يقعد حتى يرى كل أحلامه ترفرف أمام عينيه رايات منتصرة تداعب الأفق البعيد.

ومسح الميدان سريعًا بعينيه، وواصل:

- الثورة جذبت اليافعين والساكتين واللامبالين، إنهم مدد لن ينتهي.

وسمعه أحد الملثمين، فرفع الغطاء عن وجهه وقال له:

- صدقت، وإلا ما كنت أنا هنا بينكم اليوم.

كان المتكلم هو خالد السبع، الذي راح يمسح الميدان بعينيه، ثم يمسح الدم السابح على معصمه من معركة «قصر الاتحادية» الدامية.

ملأ عينيه من وجه صفاء، ثم تاه قليلًا وقال:

- ما قرأته وأعيه جيدًا يؤكد أن الحكم على جدوى ما فعلناه ليس الآن، وأن بوسعنا أن نسترد الثمرة التي خطفوها منا.

امتلأ وجه صفاء دهشة، لكنها لاذت بالصمت، ثم ذهبت كل الآذان إلى السبع وهو يقول، بعد أن أدار وجهه نحو الشرق ورفع هامته، وكأنه يريد أن يرى شيئًا بعيدًا خلف الأبنية المحيطة بميدان التحرير:

- لا بد أن نغرس شجرة أخرى في ميدان آخر.

وسألوه جميعًا:

- أي ميدان؟

فقال في ثقة متناهية:

- ميدان النافورة القريب من مقر مكتب الإرشاد. هناك سيتجدد كفاحنا، وسيسمع العالم كله صوتنا، بعد أن ظن الجالسون الجدد على العرش أننا بلعنا ألسنتنا، وأن قبضات أيادينا لم تعد قادرة على دق الهواء.

وقبل أن يعلق أي منهم على كلامه انطلق صوت رفيع من بين الأكتاف:

- أنا معكم.

كانت سيدة بدينة تلهث، تقدمت نحو صفاء وقالت لها في امتنان عميم:

- اسمي سكينة، من حزب الكنبة، تركتها وجئت إليكم لأكون معكم وأقول لكم إن الموضوع اختلف هذه المرة. أنتم تبحثون عن ثورة مسروقة وأنا أخاف على وطن سيضيع.

وسمعها جمال أبو العزم فصرخ بهتافه الأثير:

«علّي أسوار السجن وعلِّي... بكرة الثورة تقوم ما تخلِّي».

ورددت كريمة إسماعيل الهتاف خلفه بحرقة عميقة، وإلى جانبها المهندس هاني جرجس يضرب الهواء في صرامة شديدة وهامته مرفوعة تعانق كل الميدان الفسيح.

***

وفي مدينة تبعد عن ميدان التحرير بألف كيلو متر، نظر شاب إلى شجرة الثورة التي غرسوها في حديقة وسيعة، ومصمص شفتيه، وتنهد بحرقة، حتى اهتزت أوراقها من لفح الهواء الساخن، ثم قال:

- تتساقط أوراق الشجرة تباعا وكأن الخريف قد أتى مبكرا تسوق ريحه الغابرة عصا الخيانة والغدر والشقاق.

وعلى بعد آلاف الأميال كان حسام عبد المغيث يجلس إلى طاولة في ركن مقهى «لؤلؤة السلطان» ليكتب هتافات سيرسلها في المساء إلى هواتف بعض أصدقائه المعتصمين في الميدان فيصدحوا بها وترددها الدنيا وراءهم.

وكتب حامد عبد الظاهر في كراسته التي تآكل غلافها: «بيادق تهتز في مكانها من فرط الغضب، لكنها لا تخطو إلى الأمام. أفيال تستعد للانطلاق في الفراغ. طوابي مقيدة بسلاسل غليظة. أحصنة تقفز خارج الرقعة في خطوات غير محسوبة. الوزير فرح بقبض الريح ينتظر من يبتلعه. الملك سادر في سذاجته، يلهج بتسابيح، طلبا لمزيد من الجاه والثروة، لكن لا يسمعها غيره؛ لأن قلبه مظلم... ليس العيب في الرقعة، إنما في العقول التي تدبر، والأنامل التي تمتد في هدوء لتقرر مصير القطع الهائمة على وجوهها».

لكن آخر وقف في ميدان التحرير ونظر طويلًا إلى الفروع الملفوفة في الحروف، وقال:

- تسقط ورقة من شجرة الثورة فتنمو أوراق. يسقط شهيد تحتها فيصير كتيبة من المناضلين. تنكسر موجة فتتدفق موجات. يسقط حلم عابر فتنبت آمال مجنحة. يختطف المستبدون ميدانا فتولد ميادين. يقتلون حسن عبد الرافع فيولد لهم ألف حسن جديد.

الأعمال الأدبية للمؤلف

1- عرب العطيات، مجموعة قصصية.
2- حكاية شمردل، رواية.
3- الأبطال والجائزة، قصة للأطفال.
4- أحلام منسية، مجموعة قصصية.
5- جدران المدى، رواية.
6- زهر الخريف، رواية.
7- شجرة العابد، رواية
8- التي هي أحزن، مجموعة قصصية.
9- بهجة الحكايا: على خطى نجيب محفوظ، كتابات نقدية.
10- النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية، دراسة.

***

له تحت الطبع:

1- حكايات الحب الأول، أقاصيص.
2- السلفي، رواية.